

المسلمون بين التحدي والمواجهة

مدخل إلى
التفهيمية لمذاهب
رأوية إسلامية



بقلم
أ.د. عبد الكريم بكار

دار الفتح
دمشق

الْمُسْلِمُونَ بَيْنَ التَّحْدِيِّ وَالْمُوَاجَهَةِ

مَذْخُلٌ إِلَى

الْتَّفْيِيقَةِ الْمُتَكَبِّرَةِ
رُؤْيَا إِسْلَامِيَّةٌ

بقلم

أ. د. عبد الله كريم بكار

دار الفتح
دمشق



أَسْسَاهُ:
مُحَمَّد كَيْ وَوْلَه
دار الْقَلْمَنْ | دَمْشَقْ
سَنَة ١٩٦٧ م

الطبعة الرابعة
م ٢٠١١ - هـ ١٤٣٢

حقوق الطبع محفوظة

تطلب جميع كتابنا من:

دار القلم - دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٢

www.alkalam-sy.com

الدار الشامية - بيروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ١١٢/٦٥٠١

توزع جميع كتابنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدة

ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤



مَقْدِمة

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين محمد بن عبد الله، وعلى آله وأصحابه، ومن سلك سبيلهم إلى يوم الدين وبعد:

هذا هو الجزء الرابع من السلسلة التي بدأنا بإصدارها من نحو ثلاثة سنوات، بعنوان: «المسلمون بين التحدى والمواجهة» وقد كان الجزء الأول منها بعنوان: «نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي». وأما الجزء الثاني فقد كان عنوانه: «من أجل انطلاق حضارية شاملة».

وكان عنوان الجزء الثالث: «مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي».

وأسأل الله - جل وعلا - أن يعيتني على إتمامها في وقت قريب.

وقد رأيت جعل هذا الكتاب في سبعة فصول:

الأول: التنمية المتكاملة.

الثاني: التنمية الفكرية.

الثالث: التنمية المعرفية.

الرابع: تنمية الشخصية.

الخامس: التنمية الخُلُقية.

السادس: التنمية الاجتماعية.

السابع: التنمية الاقتصادية.

وقد حاولت الاعتماد على أحد الأرقام المتاحة في مجالات التنمية المختلفة، كما حاولت تقرير العبارة وتبسيط الأسلوب، لكن الأفكار المعقدة كثيراً ما تتطلب نوعاً من الرقي في الصياغة والتعبير حتى تحفظ الفكرة بطاقاتها الموحية المشعة... .

وإنما جعلت هذا الجزء خاصاً بالتنمية لاعتقادي أن التحدي الكبير الذي سيظل يواجهنا، هو: الاستجابة الصحيحة لمجمل المشكلات والمستجدات التي تجعل الحياة أصعب يوماً بعد يوم. ونعتقد أن محاولات التحسين المتكامل المتناغم يجب أن تظل شغلنا الشاغل إذا ما أردنا المحافظة على موقعنا؛ فالظروف العالمية والمحلية تجعل ما هو موجود من إمكانات وأساليب وأفكار غير كاف للمحافظة على المكتسبات الراهنة، ما لم نضاعف الجهد، ونشد ما هو أفضل بصورة دائمة. ونعتقد إلى جانب هذا أن من أكبر مشكلاتنا مقاومة التغيير - من غير ضابط - وضعف الهمة في استشراف المستقبل بالقدر المطلوب. ونأمل أن تكون قد لفتنا الأذهان إلى خطورة ذلك، كما نأمل أن تكون قد تمكنا من بيان بعض السبل والوسائل التي تساعد على التهوض بأعباء التقدم المنشود.

والله أسأل أن ينفع بهذا الكتاب، وأن يتقبله بقبول حسن، وأن يوفقني إلى ما هو خير وأبقى.

أ.د. عبد الكليم بكار

الفَصْلُ الْأُولُ
فِي
الْتَّعْلِيمَةِ الْمُتَكَامِلَةِ

- ١ - أهمية التنمية المتكاملة .
- ٢ - لا بديل عن التكامل في التنمية .

أهمية التنمية المتكاملة

تعريف التنمية:

تشير معاجم العربية إلى أن (التنمية) في اللغة تعني الزيادة في كم الأشياء أو كيفها ونوعيتها؛ فقد قالت العرب: نما الزرع، ونما المال، أي: زاد. وقالوا أيضاً: نما الخضاب في اليد والشعر: ازداد حمرة وسوداً^(١).

أما على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي؛ فإن هناك ما لا يحصى من التعريفات، فبعضهم يعرف التنمية بأنها: «التحرّك العلمي المخطط لمجموعة من العمليات الاجتماعية والاقتصادية من خلال (عقيدة) معينة لتحقيق التغيير المستهدف بغية الانتقال من حالة غير مرغوب فيها إلى حالة مرغوب فيها»^(٢).

وبعضهم يركز في تعريفه على ثمار التنمية ونتائجها، فيعرف التنمية بأنها: «الزيادة المطردة في مجالات الخيارات والفرص المتاحة للفرد في تخطيط وممارسة حياته حسب آرائه الشخصية في السعادة ومطالب الحياة»^(٣).

ونحن نرى أن مسوّغ الجهد التنموي هو تحقيق الأهداف والغايات المرحلية والنهائية التي يتطلع إليها مجتمع من المجتمعات؛ ومن ثم فإن التنمية المتكاملة التي تنشدّها سهلة التعريف بسبب الرؤية الواضحة للحالة النهائية التي ينبغي أن تكون عليها أمة الإسلام. ولذا فهي الإمكان أن نعرف

(١) المعجم الوسيط: مادة (نما).

(٢) علم اجتماع التنمية: ١٢.

(٣) إدارة التنمية: ١٦.

التنمية المتكاملة بأنها: «مجموعة الجهود المتنوعة والمنسقة التي تؤهل المجتمع المسلم للقيام بأمر الله تعالى».

فالرفاهية والصحة وفرص العمل والتعليم والتدريب والاستمتاع بأوقات الفراغ والتقدم التقني... كل ذلك يهدف إلى شيء واحد، هو تأهيل المسلم ورفع كفاءته، وتهيئة المناخ البيئي والاجتماعي الذي يساعد على أداء حقوق العبودية لرب العالمين والقيام بواجبات الاستخلاف في الأرض على الوجه الأكمل.

وهذا التصور لتعريف التنمية التي نتطلع إليها لا يساعدنا على بلورة أهداف التنمية فحسب، وإنما يزيدنا بصيرة أيضاً في إقامة التوازن والانسجام بين الجوانب المختلفة للتنمية، ويوفر علينا جهوداً كثيرة، هي في التحليل النهائي جهاد في غير عدو؛ لأنها لا تتم بأية صلة إلى أهداف المسلم الكبير، أو لأنها لا تستند إلى أرضية من البنية العميقة لعقيدة المسلم وثقافته.

كما أن هذا التصور يساعدنا على ترتيب الأولويات في العملية التنموية وإدارتها بطريقة رشيدة؛ ومن ثم فإننا آنذاك لا نساعد على توفير الكماليات، وفي الناس من يبحث عن الضروريات، ولا نتوسع في بناء الملاعب والحدائق، ولدينا نقص في المعاهد والمخبرات....

لماذا نهتم بالتنمية؟

إن الله - جل وعلا - خلق الإنسان، وفطره على جملة من النوازع والرغبات، كما أنه وضع لصحته العامة شروطاً وحدوداً، وجعل لعيشة في مجتمع معافي شروطاً أخرى، لا تقل صرامة؛ وهو بعد ذلك أمره بجملة من الأوامر، وطالبه بعدد من المطالب. وحتى يستطيع التوفيق بين شروط عيشه ورقمه وبين القيام برسالته على هذه الأرض، فإن عليه أن يبذل الكثير من الجهد على مستوى التفكير، وعلى مستوى العمل. ويزداد المطلوب من الجهد كلما ساءت الظروف، وزادت ضغوطات الواقع. ونستطيع القول: إن

نجاحات الإنسان المسلم في الموازنة الدقيقة المطلوبة في هذه الأيام ليست كبيرة؛ حيث لم يستطع أكثرنا الارتقاء إلى مستوى التحديات على الصعيد التنظيري أولاً؛ ولا على الصعيد العملي ثانياً؛ لكن لن ن Yas من رحمة الله وعونه، وسنظل نحاول أن يكون غدنا خيراً من يومنا.

ويمـا أـنـتـي أـعـدـ قـضـيـةـ التـغـيـرـ والـارـتـقاءـ إـلـىـ مـسـتـوىـ الـمـنـهـجـ الـرـبـانـيـ وـتـحـدـيـاتـ الـوـاقـعـ أـمـرـاـ مـلـحـاـ لـاـ يـحـتـمـلـ التـأـخـيرـ؛ـ فـإـنـيـ سـافـيـضـ فـيـ ذـكـرـ الـأـسـبـابـ وـالـمـسـوـغـاتـ الـتـيـ تـدـفـعـنـيـ إـلـىـ اـعـطـاءـ مـسـأـلـةـ (ـالـتـنـمـيـةـ الـمـتـكـامـلـةـ)ـ اـهـتـمـاماـ اـسـتـثـانـيـاـ،ـ وـذـكـرـ فـيـماـ يـلـيـ:

١ - إن نسبة الزيادة السكانية في العالم الإسلامي - بشكل عام - مرتفعة إذا ما قسناها بدول أخرى؛ فعلى سبيل المثال يزيد السكان في الدول العربية سنوياً بنسبة (٣٪) في الحد الأوسط، على حين أن الزيادة في بريطانيا واحد في الألف، وفي روسيا تسعة في الألف، وفي فرنسا ستة في الألف. أما في ألمانيا فإن السكان ينقصون يومياً نحو (٥٠٠) شخصاً.

وحتى نعرف حجم الزيادة السكانية وتتطورها السريع؛ فإن من المفيد أن نعلم أن إجمالي سكان الوطن العربي كان عام ١٤٠٠ هـ (١٦١) مليون نسمة، ومن المتوقع أن يكونوا عام ١٤٢٠ هـ في حدود (٣٠٠) مليون نسمة^(١). وإن بلداً مثل الجزائر يتضاعف سكانه كل (٢٥) سنة، ومن المتوقع أن يرتفع إلى نحو (٢٨٥) مليون نسمة خلال أقل من قرن^(٢).

ويجب أن نأخذ بعين الاعتبار أن الشعوب الإسلامية شعوب فتية حيث إن حوالي نصف السكان هم من الأطفال والأشبال دون سن ١٥ سنة^(٣)، وهذا يعني أن هناك أعداداً هائلة تحتاج إلى تعليم، ثم تحتاج بعد ذلك إلى فرص عمل، وإلى خدمات عامة كثيرة.

والتنمية ليست من أجل إبقاء هذه الجماهير الغفيرة على قيد الحياة؛

(١) التطورات الاقتصادية: ٦٥.

(٢) إدارة التنمية: ٨١.

(٣) قضايا التنمية في الوطن العربي: ١١٣.

لتكافع من أجل البقاء المجرد، وإنما من أجل استيعابها اجتماعياً وتهيئتها للقيام بوظيفتها في هذه الحياة.

٢ - لدينا مشكلات خطيرة تتعلق بالمياه والتصحر ومصادر الغذاء، والأرقام التي تتحدث عن تلك المشكلات تبعث على القلق؛ فمن تلك الأرقام ما يتعلق بالمياه، حيث يشكو العديد من الدول الإسلامية في أفريقيا وأسيا من شح مياه الشرب ومياه الري؛ والبدليل المطروح الآن للمياه الجوفية والمياه السطحية هو (المياه المحلاة) لكن تكلفتها عالية جداً بحيث لا يستطيع الاستفادة منها إلا دول محدودة جداً. ويفيد تقرير لبنك الدولى أن موارد المياه المتاحة لكل فرد من أفريقيا الشمالية وفي الشرق العربي سوف تقل - بمعدل ٨٠٪ - في خلال جيل واحد، وسوف تتقلص هذه الموارد من (٣٤٣٠) متراً مكعباً للفرد الواحد سنوياً إلى (٦٧٧)، وهو دون الحد الأدنى المطلوب المقدر بنحو (٢٠٠٠) متر مكعب سنوياً^(١).

أما بالنسبة للغذاء فإن العرب أنفقوا على الغذاء عام ١٩٨٥ نحواً من (٢٠٠) مليار دولار، ويتوقع أن تزيد هذه المبالغ خلال السنوات العشر القادمة على نحو من (٦٥٠) مليار دولار، أي بنسبة أكثر من ٢٠٠٪^(٢).

ومن المتوقع لمشكلة الغذاء أن تتفاقم في ظل أزمة المياه، وتكون تكتلات اقتصادية عالمية، وفي ظل اتفاقية تحرير التجارة العالمية (الجات).

ولسنا وحدنا الذين نعاني من ندرة الغذاء؛ فالمشكلة عالمية لكن الدول المتقدمة تملك المال بسبب تقديمها الصناعي، ومن يملك المال يجلب الغذاء، لكن المشكلة هي مشكلة الشعوب الإسلامية التي تعيش الأكثرية العظمى منها على الزراعة لكنها لا تستطيع أن تحصل على الاكتفاء الذاتي من الغذاء، وليس لها موارد أخرى توفرى منها ثمن غذاء أطفالها. ولا بد من عمل شيء تجاه هذا كله^(٣).

(١) انظر في هذا مقالاً في جريدة الأهرام بتاريخ ١٢/١٠/١٩٩٥ بقلم محمد سيد أحمد.

(٢) الغذاء والماء في عالم المسلمين: ٤٩.

(٣) سوف تتحدث باستفاضة في الفصل الأخير عن تنمية الزراعة.

٣ - إن نقص الغذاء المتوقع أن تزداد حدته يؤدي بالنسبة للأطفال إلى نتائج خطيرة، تشكل نوعاً من الإعاقة الجسدية والعقلية والنفسية؛ فنقص البروتين) في غذاء الأطفال يمكنه أن يلحق الضرر بنمو المخ والأعصاب، كما أن العجز في الحديد في فيتامين (أ) من الأمور الشائعة، ويوجد مشكلات خطيرة. ويمكن أن يؤدي سوء التغذية فعلاً إلى (الأنيميا) وتبدل الإحساس، و يجعل من يعاني منه عرضة للعدوى، كما أنه يقلل كفاءة الشخص من خلال الخمول والفتور والكسل^(١).

وظهر في إحدى الدراسات أن الأطفال الأفارقة في سن الثالثة متخلفون سنة عن مماثليهم عمراً من أطفال أوروبا من حيث النمو العضوي والذهني.

ويجمع الخبراء على أن سوء التغذية في المدرسة يؤدي إلى ضعف التركيز ونقص الحافر الشخصي وضعف الإنجاز والتغيب والترك المبكر للمدرسة وصعوبة إقامة علاقات مع الآخرين^(٢). وهذا كله يعني وجود جيل معوق، لا يصلح للعيش في عصرنا الحاضر فضلاً عن أن يكون فعالاً في عصر قادم، من المؤكد أنه أكثر تحدياً وتعقيداً.

٤ - إن التنمية الجيدة شرط أساسى لتقليل حجم (البطالة) الضاربة أطنابها في العالم الإسلامي، وهي مشكلة آخذة في التفاقم؛ حيث الركود العام، وصعوبة الحصول على عمل ذي أجر مناسب؛ حتى قال أحد الباحثين: إن هناك أججياً سوف تولد، وتعيش، وتموت دون أن تجد عملاً^(٣).

وتبقى المشكلة الأساسية لدينا في موضوع البطالة أن الأرقام التي تصور قوة العمل وعدد العاطلين شحيحة جداً. وفي الدول المتقدمة تسهل معرفة حجم البطالة عن طريق المساعدات الحكومية التي تدفع للعاطلين عن العمل.

(١) إدارة التنمية: ٤٧.

(٢) الغذاء والماء في عالم المسلمين: ١٨.

(٣) المأذق العربي: ٣٠.

إن مما ينبغي قوله: إن البطالة أصبحت صفة لصيقة بخصائص الهيكل الاقتصادي المعاصر، ففي أمريكا واليابان نحو من (٣٥) مليون عاطل عن العمل، وهذا الرقم يساوي ١٢٪ من قوة العمل فيما^(١). وهذا في الحقيقة يعد إسفيناً آخر في المذهبية الرأسمالية المتغطرسة!

معدل البطالة في التسعينيات في باكستان بلغ ١٩٪ وفي أندونيسيا ٥٠٪. وتستهدف خطة التنمية فيها توفير (٨٦) مليون فرصة عمل عام ١١٩٩٦

وليست مشكلة البطالة محصورة في فقد المرء لمصدر قوته وعيشه، وإنما يتولد عنها آثار نفسية واجتماعية وسلوكية خطيرة؛ فحين يجلس المرء مدة طويلة من غير عمل فإن ارتكاسات كريهة تصيب شخصيته باعتباره إنساناً، وباعتباره عاملأً. ويمكن أن يفسد احترامه لنفسه، وثقته بذاته؛ هذا إذا لم تؤد البطالة إلى انهيار حياته الأسرية، وتسمم الجو الذي يعيش فيه أطفاله^(٢). وهذا كله في كفة، وانغماسه في اللهو مع قرناء السوء وإمكان إدمانه للمخدرات في كفة أخرى. وإذا ما حدث شيء من ذلك فإن العاطل عن العمل يكون أقرب إلى المعوق والمشوه!

٥ - لا يستطيع أحد أن يدعى أن السود الأعظم من الشعوب الإسلامية يتمتع بالتحرر من ريبة التبعية الثقافية والاقتصادية والسياسية؛ وما ذلك إلا لأن العلاقة مع الآخرين لا تكون إلا خلاصة دقيقة لما نحن عليه.

وقد استطاعت الدول الرأسمالية إحكام سيطرتها العالمية، وفرض فكرها التنموي على البلدان الفقيرة، وصار لدى السود الأعظم منا اعتقاد جازم بأن حالة التخلف لدينا إن هي إلا حالة (تخلف زمني) سيتكلف التتابع الزمني لمراحل النمو بتجاوزها^(٣). وصارت مقومات النهوض في الغرب هي البسم

(١) الأزمة الاقتصادية الراهنة: ٩.

(٢) الأخلاق والحياة الاقتصادية: ٢٨.

(٣) الأزمة الاقتصادية الراهنة: ٧٠.

الذى سيجعل كل شيء لدينا حسناً. وهذا في الحقيقة بداية الشعور بالنقض والرطوخ لأدبيات الغرب ومصالحه. وكان ذلك أمراً طبيعياً ما دمنا لم نستطع إيجاد الآليات والأطر التي تجعل من المذهبية الاقتصادية الإسلامية شيئاً ملماً وواقعاً.

إن مشكلة التبعية أنها تجعل من الاقتصاد التابع مركز (نفايات) للاقتصاد المتبوع، حيث يصدر إليه مشكلاته، ويحلها على حسابه.

والتحرر الاقتصادي والاجتماعي من ربة شبكة علاقات السيطرة التي تربطنا بالدول المصنعة يتوقف في جوهره على تقدم اقتصادي واجتماعي خاص ومتميز، ينهض على أساس من عقيدتنا، ويستخدم ما تبيحه من أساليب ووسائل، ويستهدف ما تتطلع إليه من غايات وأهداف.

والتنمية المتكاملة هي الطريق الوحيد لتحقيق ذلك.

إن السيادة الوطنية تعني نوعاً من التحكم الجيد للأمة في مصيرها المادي والمعنوي، وهي لن تتحقق ما لم نكسر أغلال التبعية التي أوجدت لدى كثيرين منا نفسية (المتسول) وأخلاقه وعلاقاته وطموحاته . . .

٦ - الهوة التي تفصل بين عالمنا الإسلامي والعالم الصناعي هوة واسعة، وهي خلاصة لعوامل عديدة. وتلك الهوة تجلّى في فاعلية الشخص ومعرفته، وفي الداخل الوطني والاستقرار السياسي، والسيطرة على البيئة، والقدرة على التغيير، والمرونة الذهنية، ونوعية الخدمات المتوفرة لكل فرد وكميّتها.

إن المؤشرات إلى وجود هوة متّسعة بين الفريقين أكثر من أن تحصى، لكن الوقوف على حجمها قد يكون في بعض الأحيان باعثاً على الإحباط!

فعلى حين ترتفع أسعار منتجاتهم بصورة مطردة، فإن أسعار صادراتنا تتدحرج، أو تتجمد، وهذا يعني أنه يجب أن نصدر أكثر حتى نستطيع الحصول على نفس القدر من الواردات. إن التخلف شأنه شأن التقدم لا بد

أن يعكس نفسه في صورة السلع التي تكون موضوعاً للتبادل الدولي^(١).

في عام ١٩٩١ بلغت حصة الفرد السويسري من الدخل القومي ٣٦,٣٠٠ دولاراً على حين أن هناك ملياراً من البشر يكافحون ليعيشوا بأقل من (٣٧٠) دولاراً في السنة^(٢). وكثير من هؤلاء مسلمون.

قد توقف النمو تقريرياً في كثير من دول أفريقيا خلال العقد المنصرم، وهبط دخل الفرد في ثلث بلدان أفريقيا^(٣).

وجاء في تقرير اقتصادي صادر في جنيف عام ١٩٨٨ أن متوسط الدخل الحقيقي للفرد في العالم النامي قد انخفض بمعدل ٦٪ في الفترة التي بين عامي ١٩٨١ - ١٩٨٧. في حين ارتفع متوسط الدخل الحقيقي للفرد في العالم المتقدم في الفترة نفسها ١٣٪.^(٤)

إن الهوة بين البلدان النامية والبلدان الأخرى تكشف عن حقيقة واضحة، هي: كلما كنت في مرتبة اقتصادية أعلى حققت نمواً أسرع^(٥).

إن من لا يتقدم لا يبقى في موقعه النسبي، وإنما يتهاقر، ومن ثم فإن من الوهم أن نتصور أن أوضاعنا قد وصلت إلى القاع، لنبدأ بعد ذلك بالصعود، فما دام مصيرنا معلقاً بغيرنا فإن إمكانات التراجع تظل مفتوحة!

ومضاعفات هذه الهوة تظهر، وتتفاعل كلما أخذ الاتصال والافتتاح العالمي في التوسيع، وهذا ما نشاهده الآن.

٧ - ثورة الاتصالات الحديثة، والتي ما زالت موجتها الجديدة في بدايتها وضعت بني الإنسان بعضهم أمام بعض وجهًا لوجه. وقد صارت الأسواق العالمية تعمل بمنزلة سوق واحدة، ورأى الفقراء المعدمون كل

(١) التنمية والتخلف في العالم العربي: ١٠٦.

(٢) الاستعداد للقرن الحادي والعشرين: ٧١.

(٣) مستقبلنا المشترك: ٩٢.

(٤) الطريق إلى المعجزة الاقتصادية: ١١.

(٥) التربية والتقديم: ٩٣.

إنجازات العصر، وألوان متعه ومرفهاته؛ ولم تمنع الرزانة والخشمة الموجودة لدى كثير من الناس في العالم الثالث من أن يخف الكثيرون للتمتع بمباحث الحياة التي تعرضها عليهم وسائل الإعلام^(١).

وإن كثيراً من الناس الذين اطلعوا على أنماط الحياة الغربية المسرفة في التأنق والرفاهية سوف يحاولون الوصول إليها برأ أو بحراً أو جواً ولا سيما أن سلبيات الحياة الغربية تُغطّى، وتُحجب بطرق كثيرة، لا يعوزها الدهاء، ولا النفاق والرياء!

وقد حدث في نفسية المسلم نوع من التمزق العميق، فهو يعطي الأولوية في الاستهلاك لما هو أجنبي، ويعلن في الوقت نفسه حربه ضد الاستعمار ويدعو إلى مقاطعته^(٢)!

ويجب أن يقال: إن الوعي لدينا لم يُفتّن بفنون اللهو والمتعة التي تشتمل عليها الحياة الغربية فحسب، وإنما فتن قبل ذلك بالتقدم الصناعي والعلمي، وبالدرجة الفائقة من التنظيم، وبالطريقة التي يعالج بها الغرب خلافاته الداخلية، ويحقق بها وبالتالي الإجماع الوطني، إلى جانب شعور الفرد هناك بكرامته والاطمئنان على حقوقه.

قد نشأت حضارة جديدة شديدة الإغراء، تتجاوز فيها بالضرورة الحاجات المطلوبة الوسائل المتوفرة، ولا سيما ما لدى الفقراء في العالم النامي، وصار الناس بين خيارين، أحلاهما مر: إما العزلة، وبالتالي سيطرة مشاعر التهميش والتضاؤل والإحباط، وإما الانخراط في الموجات المادية والاستهلاكية العاتية!

وقد آثر جلُّ الناس الخيار الثاني، وانغرز في الأعمق شعور قوي

(١) في العالم أكثر من ١,٥ مليار مذيع، و٦٠٠ مليون جهاز تلفاز، كما أن هناك أكثر من ٢٠٠ ألف مراقب يتبادل المعلومات حول حركة الأسواق العالمية. الاستعداد للقرن

الحادي والعشرين: ٧٣، ٨٧.

(٢) التطورات الاقتصادية: ٥٠.

بالسطحية، وبالانغماس في استجداء الاستمرارية على أبواب الثقافة
القاهرة^(١).

هذا كلّه جعل المشكلة الكبرى في العالم النامي هي مشكلة التنمية الاقتصادية والاجتماعية وتأمين الغذاء والدواء والكساء، وفرص العمل لملايين الشباب الذين تدفعهم البيوت إلى الشوارع دون حد مقبول من التأهيل المهني والتربية الجيدة، ودون تكوين ثقافي مناسب^(٢).

وصار الناس يشعرون يوماً بعد يوم أنه لا بد للمرجعية الإسلامية العليا حتى تستطيع الصمود أمام الفلسفة الليبرالية من أن تسهم في تطوير أساليب للفكر المنتج الفعال، وبناء أخلاقية ناجعة للرقي الحضاري، ووضع (استراتيجية) أنساب وأفضل للرقي الاقتصادي والاجتماعي، وإلا فإنه سينشا لدى كثير من الناس نوع من الأزدواجية المقيمة، تمارس في ضوئها الشعائر الإسلامية وفق ديننا الحنيف، ويتم تشيد التقدم الاقتصادي والتقني والتنظيمي وفق الأنماط الغربية؛ وهذا ما نلاحظ أنه يتغلغل في أعماق سلوك كثير من المسلمين اليوم!

إن المشروع الحضاري في جوهره ليس مجرد فكرة أو نسق معين من الأفكار يضعه شخص أو مجموعة من الأشخاص، وإنما هو مجموعة من الإجابات على الأسئلة الكبرى التي تشكل امتحان التاريخ، وتحديات الواقع لمجتمع ما^(٣).

إن الأمم التي فقدت إحساسها بهويتها لم يحدث لها ذلك إلا بسبب ضعف مشاركتها الحضارية وضعف فاعليتها، مما جعل تحديد علاقتها بالآخرين، وتميز ذاتها عن غيرها أمراً عسيراً، ولا معنى له^(٤).

(١) انظر التنمية الثقافية: ٢٦.

(٢) حول الخيار الديمقراطي: ١٤٢.

(٣) نحو مشروع حضاري عربي: ٢٣٦.

(٤) أغتيال العقل: ٣٠٧.

ونحن نعتقد أن التنمية المتكاملة المؤصلة هي التي ستحد من تشتت وعي المسلم، وشعوره العميق بانسداد الآفاق والدونية الحضارية.

٨ - هناك حقيقة، هي عبارة عن ميدان للمعاناة الدائمة لمئات الملايين من المسلمين، هذه الحقيقة هي أن الحد الأدنى المطلوب لحياة كريمة صار مرهقاً، وفوق طاقة الكثير من الناس. قد تعقدت أساليب العيش، وزادت أسعار المواد الأساسية، وكثرت التجهيزات، وصار ما يتطلبه الإعداد التعليمي والمهني الذي يؤهل الشاب للحصول على عمل مناسب، عالي التكلفة. في أكثر بلدان العالم الإسلامي يحتاج الموظف المتوسط الدخل إلى أن يدخل كل مرتباته التي يتتقاضاها خلال ثلاثين سنة؛ حتى يتمكن من امتلاك بيت يؤمن به مع أسرته! .

فكيف إذا علمنا أن مرتبه لا يكفيه للإنفاق على حياة شبه كريمة سوى نصف شهر، ويدبر نفقات باقيه عن طريق الاقتراض؟! .

إن التواصل العالمي جعل مقاييس العيش المقبول تخضع لآلية الإنتاج والاستهلاك في العالم الصناعي الثري؛ مما زاد من نفقات كل شيء.

حين يكون المرء أمياً بين أميين، وفقيراً بين فقراء، وفوضوياً بين فوضويين، فإن ذلك يشكل نصف مشكلة، لكن المشكلة القاسية هي أن يكون المرء أمياً في وسط متعلم مدرب، وفوضوياً في وسط منظم.... إن النتيجة المباشرة لهذه الوضعية أن ذاك الأمي أو الفوضوي يُعد نفسه بطريقة مدهشة لأن يُستغل أسوأ استغلال من قبل الآخرين. وهذا ما تعاني منه أمة الإسلام، كما يعني منه الفرد المسلم اليوم.

إن من ومضات (فولتير) العجيبة قوله: «إذا لم يكن لك روح عصر كانت لك كل شرورة»!! .

في الماضي لم تكن ثمة وسائل طبية متقدمة للعلاج؛ فكان الموت يحل إشكالات كل الحالات المستعصية، وأما الأمراض والإصابات الصغرى فالمرء يتحملها دون أن تؤثر في حياته.

أما الآن، فماذا يكون موقف أسرة أصبح أحد أفرادها بعطلة في الكلى هل تركه يموت؟ أو تسلمه إلى مستشفى حكومي، كثيراً ما يكون نموذجاً للإهمال^(١)؟ أما المشافي الخاصة، فإنها أبعد من أن يداعبها خيال الفقير والمحروم！.

وماذا تكون الحال إذا كان لا يجد عملاً إلا من تخصص، أو تلقى تدريباً يكلف مئات الآلاف؟ وماذا تكون حال أسرة تسكن في بيت صفيح من غير ماء ولا كهرباء ولا علاج على هامش مدينة متفرقة^(٢)، يساوي البيت فيها الملايين؟!

إن هذه الوضعية الآخنة في التفاقم تنذر بتحلل أخلاقي وانحطاط إنساني يفوق كل تصور. وليس هناك حلول سحرية لذلك، لكن بإمكان الفكر المبدع والتربية الجيدة والإرادة الصلبة، وقبل ذلك وبعده الاستقامة على أمر الله - جل وعلا - بإمكان كل ذلك أن يحل كل تلك الإشكالات ولو بعد حين.

٩ - إن الإنسان لا يستطيع أن يتقدم في حالات الفقر المدقع، بل إنني أقول: إنه لا يستطيع أن يعيش وفق مبادئه، ولا يستطيع أن يحيا كل أبعاده، وهو يرضخ تحت ضغوط الحياة المعاصرة وتکاليفها الباهظة.

إن قلة الموارد حملت كثيراً من الناس على الاختلاس وقبول الرشوة، وعلى اقتراف الكذب والاحتيال وإراقة ماء الوجه، وتحمل الجور والهوان؛ بل صار كثير من المسلمين يعيش حياة هي أقرب إلى حياة النبات، فهو يأكل ويشرب ما يتيسر له، ويتنفس، ويتکاثر، ثم يموت！.

(١) في إحدى الدول العربية لا يعيش كثير من مرضى الفشل الكلوي سوى فترات قصيرة بسبب رداءة عمليات الغسيل! وإذا ما أراد المصاب الغسيل في مستشفى خاص، فإن أجراً الغسلة الواحدة تتبلغ مرتب موظف لمدة شهر كامل!!.

(٢) في كثير من الدول الإسلامية مدن كاملة من الصفيح، وهي نماذج حية لكل ما يمكن أن يجتمع في مدينة من هوان ورذائل وفaca!.

أما ارتقاء آفاقه الروحية والعقلية والخلقية فإنه أمسى من الماضي البعيد ! .

إننا حين نتذكر أننا خير أمة أخرجت للناس ، وأن تلك الخيرية منوطه بقيامنا بوظائف الأنبياء - عليهم السلام - من الدعوة والهداية للخلق ، وتعاونتهم على الاستقامة ، حين نتذكر ذلك ، ونرى التكاليف المادية الباهظة التي يتطلبهما ذلك نحس بضرورة دفع عجلة التنمية والعمل من أجل توفير الحد المناسب من الرخاء ، وما يتطلبه التقدم البشري من شروط وأجواء وإمكانات .

إن العالم بحاجة مائة أكثر من أي وقت مضى إلى من يمنحه الأهداف الكبرى لوجوده ، ويرسم له منهجية مطلقة ، وغير بشرية للخلاص من الكرب الذي يغشاه؛ ولا يملك ذلك أحد اليوم غير أمة الإسلام . والمشكلة أن وسائلنا قاصرة ، فتحن نعتمد على غيرنا حتى في المعدات التي نشيد بها المآذن ، ونرفع بها الأذان ! .

إن إيصال رسالتنا إلى العالم تتطلب شبكات اتصالات ضخمة ، وقنوات إعلامية عملاقة ، حتى تجعل الصورة الندية للإسلام حاضرة في كل مكان في الأرض ، لكن الفقر المدقع الذي يلف كثيراً من المسلمين يحول بيننا وبين ذلك ! .

إن مسألة التنمية عامة ، والتنمية الاقتصادية خاصة ليست مما يمكن تجاوزه أو تأجيله ، لأنك حين تعيش في عصر ، محوره المال والإمكانات المادية - تجد كل إنجازاتك مرهونة عنده ، ومنوطه به ، وتجد أن كل ما تملكه من مخزون ثقافي وحضاري أشبه بسيارة ليس عند صاحبها ثمن وقدر لتشغيلها ، أو كمسدس من غير ذخيرة ، أو فارس من غير فرس ! .

لكل هذا ، ولغيره أرى أن مسألة محاولة التقدم المستمر ينبغي أن تدرس في أكثر من مقرر دراسي ، وفي أكثر من مرحلة؛ حتى تصبح جزءاً من النسيج الثقافي للمسلم المعاصر .

لا بديل عن التكامل في التنمية

حين نفهم التنمية على أنها عبارة عن دفع وتحريك للكينونة الفردية والاجتماعية نحو الأفضل، ندرك أن عمليات الدفع ينبغي أن تشمل كل الجوانب الحضارية للأمة. وفي اعتقادنا أن الطبيعة الإنسانية كُلُّ متكاملة، لا يمكن تجزئتها؛ وحين نهتم بأنشطة وأعمال تخدم جانباً من تلك الطبيعة، ونهمل باقي الجوانب، فإننا في الحقيقة ندخل نوعاً من الخلل على التوازنات العميقية والظاهرة في الشخصية الفردية، والشخصية الاجتماعية.

وحين فتح المسلمون عيونهم على إنجازات الغرب العمرانية والصناعية والتنظيمية كانوا في حالة يرثى لها من الفقر والتمزق والجهل والإحباط... فأدى ذلك بصورة عفوية إلى أن يلتفت وعيهم عن تقدم الغرب كل ما يُسهل استيعابه، وما يشعرون أنهم بحاجة إليه، فاتجه السواد الأعظم من كتاب التنمية لدينا إلى بلورة الأسس والآليات والأساليب التي تساعد على التقدم في أصعدة الخدمات والصناعة ومعالجة المشكلات الحضرية مستلهمين في كل ذلك أدبيات الغرب ومناهجه ووسائله... وظانين أن ذلك سوف يولّد لدينا عين النتائج التي حصلوا عليها؛ بل إن الأمر تجاوز ذلك إلى الاعتقاد بأن علينا أن نتحمل كل السلبيات التي ستنجم عن ذلك النقل؛ حيث إن الشمار البانعة التي سنحصل عليها تستحق التضحيات مهما كانت كبيرة! ويضاف إلى هذا أن الكتاب الإسلاميين لم يولوا مسألة التنمية الاهتمام الذي تستحقه إلا في الآونة الأخيرة، وعلى نحو ما يزال إلى اليوم غير مُرضٍ ولا مجزئ.

وقد فات كل دعاء النقل الشامل للمذهبيات الأجنبية أن العمل في الحقول الثقافية والإنسانية حساس تجاه كل الوافدات، وأن ثقافة كل أمة تتمتع

بنوع من الممانعة الداخلية التي تساعدها على رفض كل الأفكار والمناهج التي تتجاوز مهامها توظيف المبادئ الأساسية للثقافة، أو تنشيط وظائفها وتفعيلها؛ ومن ثم فإن مما استقر عليه الرأي لدى كبار المنظرين والمفكرين أن التجارب الكبرى لا تُنقل؛ لأنها لا تقبل الاستنبات في غير تربة نشأتها الأولى، وإنما يستفاد من بعض أجزائها وخبراتها وأساليبها.

ونتيجة للخبرة التي تكونت لدينا من وراء رحلات التغريب والتشريق أتجه عدد من كتابنا في العقود الأخيرين إلى المنداد بضرورة النهوض الشامل بجميع جوانب الحياة، وأخذوا يولون التنمية غير الاقتصادية بعض الاهتمام، لكن ذلك لم يشكل تياراً قوياً إلى اليوم، كما أن هناك نوعاً من العتمة الفكرية والثقافية لدى أبناء هذا التوجه، إلى جانب قصور عظيم في الدراسات والبحوث التي تكشف القناع عن طبيعة التشابك بين جوانب الشخصية الإنسانية وعمليات التشيد الحضاري.

إن التحسين الشامل الذي نحاول أن ننظر له يتطلب إلماماً حسناً بمجموعات عديدة من الكائنات الحضارية، وبطبيعة العلاقات التي تربط بينها وأنماط التفاعل والتكمال والتنازع والتأثير المتتبادل الذي يحدث أثناء محاولات الإصلاح وبناء مجتمعات راشدة جديدة.

إن علينا أن نلاحظ في خططنا التنموية وجهودنا الإصلاحية الآثار السلبية المباشرة والمشتركة والدائمة والارتدادية التي يُحدثها الاهتمام الخاص بجانب من جوانب الحياة الإنسانية في الجانب الآخر. وإن علينا أن نعترف أن خبرة الإنسان بذلك ما زالت متواضعة؛ فالرخاء الاقتصادي قد يكون فرصة عظيمة لشعب من الشعوب كي يجدد كل أبنيته الحضارية، لكنه بالنسبة لشعب آخر قد يصرفه عن استثمار الجوانب اللامركبة في كيانه المعنوي.

والتشدد في التربية قد يُخرج من فتن ما إنساناً عصامياً، لكنه قد يكون مدمرًا للبنية النفسية لفتى آخر.

وهذا في الحقيقة ليس نابعاً من طبيعة الرخاء والتربية القاسية والفقر الشديد، وإنما يتولد من طبيعة التفاعل بين هذا العنصر وبين العناصر الثقافية والمادية الموجودة في ذاكرة ذلك الشعب وواقعه.

فالخوف من المجاعة لدى اليابانيين جعل منهم الشعب الأكثر دأباً وإبداعاً في العالم، على حين أن الفقر دمر إمكانات حضارية هائلة لدى شعوب أفريقية عديدة، وجعلها على حافة الهاوية، ومع ذلك فلم يستفرو فيهم الطاقات الكامنة! .

الفراغ خرب حياة كثير من الشباب، لكنه بالنسبة للعظام قد يُعد شرطاً أساسياً لإنجاز الأعمال الكبيرة، وهكذا... في (التنمية المتكاملة) تقوم علاقات اعتمادية كثيرة؛ فالآمة حين تصاب بجائحة اقتصادية تعتمد على رصيدها الأخلاقي في حجز الناس عن الانحلال الخلقي، وفي التعويض على المنكوبين وإغاثتهم. وحين تكون آمة من الأمم فقيرة في العتاد الذي يمكنها من الدفاع عن أرضها، فإنها تعتمد على روح التضحية وال福德اء وحسن التنظيم، وذلك للتعويض عن نواقصها.

وحين تتعاظم ثروة شعب فإنه يتلافى الآثار الترفية التي يمكن أن يحدثها العيش السهل بالاعتماد على ما لديه من أدبيات الزهد والإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة، وعلى ما لديه من تقدير لأعمال البر والإحسان وبناء المرافق العامة... .

وإننا سنحاول الكشف عن بعض العلاقات التكاملية والاعتمادية والتعويضية التي اهتدينا إليها، وذلك من خلال النقاط التالية:

١ - ما بين التنمية الشاملة والتنمية المتكاملة :

تعني التنمية الشاملة نوعاً من صرف العناية والاهتمام لكل مجال من مجالات الحياة المختلفة الروحية والمادية، الثقافية والعمانية... هذا موجود لدى كل دول العالم، حيث ليس هناك دولة، لا تلقن أبناءها عدداً من القيم والمبادئ، كما أنه ليس هناك دولة لا تبني المدارس والمشافي، ولا تفتح دوراً للرعاية الاجتماعية... .

والذي يلاحظ على هذا النوع من التنمية أنه لا يقوم على فلسفة محددة، ولا تحكمه رؤية واحدة، ولا توجد لديه معايير دقيقة لإعطاء كل جانب من جوانب التنمية، وكل مجال من مجالاتها - القدر الذي يستحقه من الاهتمام والجهد.

والقائمون على هذا النوع من التنمية لا يملكون ما يكفي من الخبرة ولا الحساسية والشفافية لإدراك وجوه التوافق والتناقض بين الأنشطة التنموية المختلفة، كما أنهم لا يعرفون الحدود التي ينبغي أن يقف عندها نوع معين من النمو، والتي إذا جازوها تحول من عنصر مساعد في الإصلاح العام إلى عنصر سلبي وعميق. وحتى نوضح الصورة نضرب بعض الأمثلة:

أ - الرخاء الاقتصادي، وتكون رأس مال وطني وفردي مطلب إسلامي، ولا سيما أننا في زمان صار المال فيه الأداة التي يستخدمها كل شيء، لكن حين تتكون الشروة عن طريق الربا والغش والرشوة والتلاعب بالنظم واستغلال النفوذ والاحتكار والنهب، فإنها تحول من أداة خيرية يستعين بها الأفراد والشعوب على تحريك الأنشطة المختلفة إلى عنصر مدمر، تدمر سعادتها جامعها الداخلية، وتدمّر تربيته لأولاده الذين يعرفون مدى خروج سلوك والدهم على ما يقرؤونه في الكتب، وتدمّر روح التضامن الأخوي بين الناس، وتدمّر في النهاية نفسها؛ لأن طبيعة مثل هذه الشروة لا تسمح بالاستمرار، وكيف يستمر من يدمر محیطه الحيوي الذي يتفسّس فيه؟ إنها أشبه شيء بالسرطان الذي يدمر العضو الذي يغزوه، ويتدمّر يكون قد دمر نفسه أيضاً.

ب - ملاطفة الناس، وغض الطرف عن مساوئهم، ومعاملتهم بالي هي أحسن، كل ذلك آداب إسلامية معروفة، لكن ذلك إذا تجاوز حدوده ليصل إلى المداهنة والسماح للأخطاء والانحرافات بالانتشار، فإن الأمر يتحول من مطلب خلقي إلى عامل تفسخ وتحلل اجتماعي، على نحو ما حصل لبني إسرائيل، حيث سايرهم أحبارهم، وشاركتهم في لهوهم وارتکاب المنكرات والموبقات، فكانت النتيجة هي الانحطاط العام واستحقاق اللعن، كما قال -

جل وعلا : ﴿لَعْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَقِيَتْ إِسْرَئِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاؤِدَ وَعَيْسَى ابْنِ مَرِيمٍ ذَلِكَ يَمَا عَصَمُوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾^(١) ۚ كَانُوا لَا يَتَنَاهُونَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوْهُ لِنَسَ ما كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾^(٢) ۚ

جـ - إن الله - تعالى - يحب أن يرى أثر نعمته على عبده: ﴿وَأَنَّا يَنْعَمُ بِرِبِّكَ فَعَطَّثُ ﴾^(٣) . لكن ذلك التحديث حين يكون بصورة استفزازية للجيран والأصدقاء والزملاء... فإنه يتحول من شيء ممدوح إلى عامل تحasd وتباغض، وإلى وسيلة كسر لقلوب الفقراء والضعفاء. بل إن التحدث بالنعمه قد يفسد نسيجاً اجتماعياً بأكمله؛ فحين تصرف الفوائض المالية على شراء السلع المغفرة في الكمالية والبذخ يندفع الفقراء إلى تقليد ذلك، ويؤدي التقليد إلى تبديد الثروة الوطنية، وتسود روح الشكلية والمظهرية والرقى الكاذب، إلى جانب إشاعة مشاعر البَرَم والسطح وعدم الرضا لدى السواد الأعظم من الناس، حيث إن الرضا ينبع أصلاً من خلال مقارنة الإنسان نفسه بالآخرين.

إننا نستطيع القول إن ما يتم الآن من صنوف التخطيط التنموي على مستوى العالم ما هو إلا نماذج للتنمية الشاملة، على تفاوت في حجم النواقص والعلل الكامنة فيها.

والعالم ليس مؤهلاً بما لديه من خبرات ومهارات وأصول لرسم خطط رشيدة يجد فيها الأفراد والمجتمعات حاجاتهم وحقوقهم وطموحاتهم .

وما دامت البشرية لم تملك عبر تجاربها الطويلة ما يؤهلها لإدراك الوضعية المثلث لأجيالها، فإني أظن أن ما تبقى لها على هذه الأرض لن يشهد ذلك ! .

إن الأمة الوحيدة التي تملك إمكانات - أقول إمكانات - بلورة تنمية متكاملة ومتزنة هي أمة الإسلام؛ لأنها وحدتها التي تملك أصول رؤية منهجية

(١) سورة المائدة، الآيات: ٧٨، ٧٩.

(٢) سورة الفتح، آية: ١١.

مطلقة وراشدة، حباما بها: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾^(١).

ولا ينبغي أن يفهم من هذا أننا نملك فعلاً خططاً لتنمية متكاملة؛ فقد اقتضت حكمة الابتلاء أن يملكونا الله - جلَّ وعلا - الأرضية والمنهجيات والأهداف الكبرى، وأن يترك لنا البحث عن الأساليب والوسائل وتقسيم المراحل وإقامة الموازنات ومراجعة الخطوات ورسم السياسات، وكل ما من شأنه التفاعل ضمن الإطار العام والمعالم الأساسية التي زوَّدنا بها.

إن التنمية المتكاملة ترتكز على نوع من الرؤية الشاملة لطبعات الأشياء وعلاقاتها وتفاعلاتها وتأثيراتها عبر الماضي والحاضر والمستقبل، وإدراك ذلك فوق طاقة العقل البشري. وهي تقضي ضبطاً لنوازع الشهوات والأهواء، ودرجة من التضحية والبذل والعطاء السخي، وهذا يحتاج إلى طاقة روحية هائلة، وهي مفقودة اليوم لدى الأكثريَّة من أبناء الأمم المتقدمة صناعياً.

وتتطلب إلى جانب هذا سلوكاً خاصعاً للمبدأ، وليس لمقتضيات العمل السياسي، وهذا ميدان جهاد فسيح، يختلف كسب الناس فيه اختلافاً يتناقض.

وتحتاج التنمية المتكاملة إلى فيض من البحوث والدراسات والاختبارات والتجارب وعمليات المراقبة والرصد؛ وإنجازاتنا على هذا الصعيد في المؤخرة!! .

وعلى كل حال سيظل الفارق كبيراً بين من يحرث في البحر، وبين من عنده أرض خصبة، ويعرف ماذا يجب أن يزرع، لكنه بحاجة إلى محراث.

٢- إذا أغنينا الحياة المعنوية خفَّ الطلب على المال:

الطبيعة البشرية طبيعة تكاملية تعويضية، فحين تنسد آفاق النمو والتفتح أمام جانب من جوانبها، فإنها توجه طاقات نموها نحو الجوانب والأفاق المفتوحة. وقد يحدث نتيجة ذلك خلل في حياة الفرد، وفي حياة الجماعة أيضاً. في القرنين السابع عشر والثامن عشر أخذ الفلاسفة في الغرب يروجون

(١) سورة طه، آية: ٥٠.

لجعل الهدف الرئيسي في الحياة هو تحقيق رغبات الإنسان، وصارت كلمة (كسب) التي تعني الكسب الروحي في المفهوم اللاهوتي مقصورة على المحتوى المادي والربح النقيدي باعتباره المدخل الرئيس لشعور الإنسان بالتميز. وأخذ السلوك الاقتصادي يتحرر شيئاً فشيئاً من المبادئ الأخلاقية، بعد أن كانت مقولات اقتصادية، مثل الثمن والملكية الخاصة عند أتباع المدرسة الفلسفية جزءاً من علم الأخلاق^(١).

وهكذا تقع في حسّ الإنسان الغربي نوع من التقديس للمال باعتباره المفتاح الذي يفتح كل الأقفال! لكن مشكلة المشكلات في الاقتصاد كله هي (الندرة) ولو لا الندرة ما نشأ شيء اسمه «علم اقتصاد» فالمعروض من المال أصلًا أقل من المطلوب بالإضافة إلى أن الإنسان لا يشبع منه، كما ورد في الحديث: «لو أن لابن آدم وادياً من ذهب أحب أن يكون له واديان...»^(٢).

وانتقلت الموجة إلى ديار المسلمين، وصاحب ذلك أوضاع سياسية واجتماعية بائسة؛ مما دفع كثيراً من الناس إلى اعتبار جمع المال وتشميره في الميدان الأرحب المحرّر لكل أنشطتهم...

وال المشكلة أننا حين نكتب النشاط الروحي والأدبي والاجتماعي، فإننا تكون آنذاك قد اختزلنا كل الفروق بين الناس، وكل مجالات التنافس وتحقيق الذات - إلى مجال واحد، هو امتلاك المال، ويكون الحال آنذاك مروعًا، حيث يُسْخَن المجتمع بروح الحقد والحسد والجشع والعنف...

وهذه المرحلة من التهافت على جمع المال أسلمنا إلى مرحلة أخرى، لا بد لمالك المال منها، وهي مرحلة ثقافة (الاستهلاك العظيم) وهي ثقافة غربية المنشأ، تروج لها أساساً الشركات المتعددة الجنسيات، وقد صارت ثقافتنا الإسلامية كلها في خطر!

(١) المفاهيم الاستهلاكية في ضوء القرآن والستة: ٥٩، ٦١.

(٢) متفق عليه.

ليس أمامنا من حلول سوى أن ننمى داخل ثقافتنا قيم القناعة والإقبال على الآخرة والحرية والانفتاح والحوار والعدالة والتعاون، ذلك أن هذه القيم هي التي تجعل ثقافة أكثر جاذبية من ثقافة أخرى.

ولو أن فلسفة الملكية في الإسلام تجذرت في فكرنا ومشاعرنا لخبا الكثير من وهج المال وبريقه، حيث يضفي على الملكية الخاصة طابع الوكالة والاستخلاف^(١)، فالمسلم مستخلف في المال، وعليه أن يضعه حيث يأمره المالك الأصلي - جل وعلا - وحين أعطى الإسلام للمال مفهوم الخلافة جراءه من كل الامتيازات المعنوية التي اقترنت بوجوده على مر الزمن، فالملكية أداة وليست غاية^(٢)، ومن ثم فإن على من يجمع الثروة أن يلاحظ الجانب الوظيفي لها.

ومن جانب آخر فإن غنى الحياة بعلاقات المودة والترابم والتضامن، كما أن انتشار العلم والمعرفة وتفتح آفاق الأنشطة الفكرية والروحية - مما يساعد على تحطيم الكثير من جاذبية المال والتملك والمظهرية الفارغة. وقد دلت بعض الدراسات على انخفاض تأثير الدخل في حصول السعادة، حيث لا يتجاوز ذلك التأثير أكثر من ٢٠ بالألف. وفي دراسة على (نوعية الحياة الأمريكية) قدر الأفراد أن مستواهم المالي من أقل العوامل تأثيراً في مستوى رضاهم عن حياتهم؛ فالمال مثلاً أقل تأثيراً في السعادة من العلاقات الاجتماعية. كما ثبت أيضاً أن تأثير الدخل في سعادة ذوي التعليم المرتفع أقل^(٣). نعم يمكن للمزيد من الشراء أن يؤدي إلى إزالة الهموم المادية، ولكن ربما تحول بؤرة الهموم إلى مشكلات شخصية، ومشكلات في العلاقات مع الآخرين، بحيث لا يمكن للمال أن يحلها^(٤)، وتدل بعض الدراسات على أن

(١) يقول - سبحانه - : «أَمْتُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفَقُوا مَا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ» سورة الحديدة، آية: ٧.

(٢) اقتصادنا: ٥٠٦، ١٢٧.

(٣) سيكلوجية السعادة: ١٢٧. وهذا الكلام لا ينطبق طبعاً على الدخل الذي لا يقوم بالأولد، ولا يكفي لسد الحاجات الأساسية.

(٤) السابق: ١٣٣.

(الاكتئاب) يقل شيوعه لدى الشعوب التي تتميز بالأسر الكبيرة، وتلك التي تتمتع بدرجة أعلى من التضامن الاجتماعي^(١). وهكذا يمكن لنا من خلال إدراك العلاقات بين الأشياء أن نكسر من سورة الجشع المادي والتزاحم على المال، حين نقوى روح الأخوة، ونشر العلم، ونغذي الروح بالذكر، ونسقي الإيمان بالأعمال الصالحة.

٣ - التفاوت الكبير في الدخل يلحق أضراراً بالغة بالحياة العامة :

يحترم الإسلام الملكية الخاصة احتراماً شديداً، كما أنه يقر مبدأ تفاوت الدخل بين الناس على أساس أن الموهاب والقدرات والإمكانات متفاوتة، ولا يحرم الإسلام أحداً من ثمار الامتيازات المشروعة التي لديه.

لكن الإسلام يعطي في الوقت نفسه للحاكم المسلم صلاحيات واسعة في إقامة التوازن الاجتماعي، بمساعدة الأكثر حاجة، وبالتدخل في هيكل المرتبات، وفي وضع القيود على الكماليات ويسن الضرائب... التصاعدية، والمباشرة وغير المباشرة - بما يضمن الحفاظ على الثروات الوطنية، وبما يزيل الأحقاد والأضغان من النفوس. والعيش في مجتمع له دائماً ثمنه واستحقاقاته، ويجب أن تكون على استعداد للدفع؛ فالغرم بالغنم.

وقد علمت الخبرة التاريخية والاجتماعية مخططى الاقتصاد في العصر الحديث مدى الأضرار التي تلحق بالمجتمعات من جراء التفاوت الكبير بين دخول الفئات المختلفة، وصار تحقيق نوع من التقارب بين مصادر عيش الناس شغل كثير من الدراسات والبحوث، وكثير من السياسات والتنظيمات. وهناك من يرى أن من أسباب نجاح التجربة اليابانية في المجال الاقتصادي بشكل جوهري - عدم وجود فارق كبير بين الموظفين في الدخل والصلاحيات والمسؤوليات؛ فدخل المدير المتدرب بعد خصم الضريبة يبلغ ٥/١ أو ٦/١ من دخل الرئيس التنفيذي، على حين أنه يبلغ ١٥/١ في أمريكا، وأحياناً ٢٠/١.

(١) السابق: ١٤٥.

ويقل الفارق عن ذلك في أوربا، لكن الفارق يظل فيها أعلى من اليابان⁽¹⁾، ولا شك في أن ظروف المجتمعات تختلف في إمكانية التقرير إلا أن من المهم ألا تسسيطر المقارنات الاجتماعية العلنية بين الأغنياء والفقراط على الحياة العامة، ولا يكون ذلك إلا عندما تزيد الفوارق بين الناس زيادة فاحشة، وإلا عندما تكون جوانب الحياة غير الاقتصادية فقيرة ومتجمدة.

ومما لا خلاف فيه بين علماء الاقتصاد أن الفوارق الكبيرة في الدخول تؤدي إلى زيادة الاستهلاك؛ حيث تشجع الفوائض المالية على شراء الكثير من الكماليات، ويؤدي ذلك إلى ضعف الادخار.

وهناك ظاهرة أخرى هي ظاهرة (الانقسام الثقافي)؛ إذ إن من الملاحظ في كثير من المدن العربية والإسلامية وجود أحياط للأثرياء وأخرى للفقراط؛ ولكل من الفريقين ثقافته في التعامل والتسوق وطريقة الكلام، والتقويمات الخاصة... .

إن الغنى يشكل دائماً ثقافة نخبة، على حين تتشكل الثقافات الشعبية في ضوء الفقر وال الحاجة. ويتربى على ذلك نوع من التضاد في المصالح، ومن ثم في المواقف من الخطوات الإصلاحية، والعلاقات مع الخارج.. .

وهذا في تصوري من أكبر العقبات التي تعوق التقدم والإصلاح.

٤ - حين يضعف الموضوعي فإن أول حلوله تدعيم الذاتي:

هناك علاقة جدلية بين الذات والموضوع؛ فحين توسيء الظروف الاقتصادية والاجتماعية، فإن الناس يعتمدون في تحسينها على جهودهم الاستثنائية؛ كما أن الظروف السائدة تغير في أخلاق الناس وسلوكاتهم وعلاقتهم... وإن العقل يفكر دائماً وفق أنماط ونماذج معتادة، ولذا فإن الناس يندفعون من غير وعي إلى معالجة مشكلاتهم بنوع من العفوية واللاشعور وفق أنماطهم الخاصة، فيعالجون المشكلات الاقتصادية بإجراءات

(1) أضواء على الاقتصاديات العربية: ١٥٤

وحلول اقتصادية، ويعالجون المشكلات الاجتماعية بمزيد من الضبط الأخلاقي والإرشاد التربوي

وإذا ما نحن أمعنا النظر وجدنا أن أكثر المشكلات التي يعيشها الناس لا تعود إلى جذورها المألوفة، وإنما تعود قبل كل شيء إلى نوع من القصور الإنساني ، فال المشكلات الاقتصادية الطاحنة التي تحتاج الشعوب ليس سببها قلة الموارد أو التأمر العالمي ، أو ركود الأسواق العالمية ، وإنما تصلب وانحراف في الفكر، واعوجاج في السلوك، وسوء تصرف وتدبير ، وأنانية في النفوس . . . ولذا فإن التفكير المبدع هو الذي يعتمد في حركته واستنتاجاته على مقدمات ومداخل غير مألوفة ، وينتهي كذلك إلى حلول غير مألوفة؛ فالتأخر الصناعي مثلاً قد يعود إلى سوء التربية أو بعض العادات الاجتماعية التي تحتقر العمل المهني ، وتعلّي من شأن التجارة . - كما هو شأن عرب الجahiliyah - والفساد الأخلاقي قد يعود إلى الاستبداد والطغيان السياسي ، وتمزق الشعب الواحد قد يعود إلى تمنع فئات منه بامتيازات خاصة وهكذا . . .

وعلينا اليوم أن نعود من جديد إلى استثمار جهودنا في (الإنسان المسلم) فإذا استطعنا أن نتقدم به تقدماً لدينا كل شيء ، وهذا ما فعله النبي ﷺ حين جعل من إصلاح الإنسان وتغييره مدخلاً حضارياً لتشييد العمran ، والنہوض المدني . وهذا ما أراد القرآن الكريم أن يؤكده عندما قصّ علينا أخبار الأمم البائدة ، حيث لم يذكر لنا أن استئصال أي منها كان بسبب قصور عمراني ، وإنما بسبب الحيدة عن المنهج الرباني ، وجحود رسالات الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - أي بسبب قصور إنساني .

والملحوظ اليوم أن الإنسان آخر ما يتم التفكير فيه ، وقد أصبح خادماً لكل ما حوله ، بدل أن يكون سيداً له ! .

إن سوء الأحوال المادية لأكثر المسلمين يفرض تدعيم حُلق الإنسان ونفسيته وفكره؛ حتى يتمكن من التغلب على الظروف الصعبة .

٥ - يستسلم العقل حين تضعف الأخلاق:

يحرص كثير من الكتاب العرب على أن يظهروا في كتاباتهم بمظهر (العقلاني) البعيد عن التحيز للمبادئ الأخلاقية، وسيطر على كثير منهم شعور بأن الدعوة إلى الأخلاق إرث من إرث الماضي، وظنوا أن مشكلة الإنسان لدينا تكمن في عدم امتلاكه منهجة قوية في التفكير. وتجاوز الأمر ذلك إلى اتهام دعوة التمسك بالخلق القويم بالسذاجة والنفاق ومحاولة كسب تعاطف الناس من غير وجه حق... حتى إذا انحدر الناس نحو الهمجية، وسيطرت عليهم الأنانية أخذوا يجأرون بالشكوى من سوء الأحوال؛ وما دروا أن ما نحن فيه يعود في جانب منه إلى ما نفثته أقلامهم من التهويين من شأن الفضيلة.... !!.

إن التيار الشه沃اني الغرائزى بإمكانه أن يطوع العقل لمطلباته؛ ويتحول دون ذلك في العادة المبادئ والأخلاق التي يتحصن بها الإنسان؛ فإذا انهدم الحصن، فإن الغريزة تستعبد العقل.

إن العقل قد يكشف عن فرص للربح والفوز، لكنه لا يحجز أبداً عن ارتكاب الفظائع في سبيل الوصول إلى تلك الفرص، وما يفعله الغرب (العقلاني) اليوم بالأمم الصغيرة برهان على ذلك !.

إن العقل والعلم قد يدلان الإنسان على كيفية العلاج وكيفية القتل، لكن المبادئ والأخلاق وحدها هي التي تحدد متى ينبغي أن يكون العلاج، ومتى ينبغي أن يكون القتل !.

في العالم مئات من الملايين المصايبين بسوء التغذية، وفي الغرب جبال القمح والزبدة التي تحرق أو تلقى في البحر استجابة لما يقول به علم الاقتصاد من فرض توازن المنحنى البياني بين الإنتاج والاستهلاك !

إن كثيراً من دولنا الإسلامية ضحت بأخلاق الناشئة لديها، وتركتهم مكشوفين أمام التيارات الشهوانية الرهيبة رضوخاً لما يأتي به الانفتاح من (بركات) السلع المستوردة والأفلام والمجلات المجانية؛ فكانت النتيجة نشوء

أجيال لا تصلح لأي شيء! وماذا عسى أن يكسب من يخسر نفسه؟!⁽¹⁾
إن الطاقة الحيوية لدى الناس حين يديرها العقل بعيداً عن القيود
والمدلولات الأخلاقية تحول إلى عامل تدمير لا يُبقي ولا يذر، وإن التلاعب
بالجينات الوراثية الذي يجري اليوم ما هو إلا شاهد أولى على ما يمكن أن
يحدث في المستقبل！

٦ - لا ولادة للأمة على نفسها في ظل ظروف متدهورة:

نظراً للتكاملية والجدلية القائمة بين الجوانب الحضارية المختلفة، فإن
إرادة التغيير والإصلاح تظل مقيدة بمعجم الظروف الاجتماعية السائدة؛ فرغبة
مجتمع من المجتمعات في أن تكون له ولادة حقيقة على نفسه، وسيادة تامة
على أرضه، لا يمكن أن تكون حرفة طلقة، وإنما يقف أمامها سدود وحواجز
من طبيعة الضغوط المختلفة والأوضاع السيئة.

وقد أخذت بعض الدول الإسلامية بالنهج الغربي في الحكم⁽¹⁾، على
أمل أن تؤمن نوعاً من السلامة والشفافية في تداول السلطة ومراقبتها، لكن
النتائج كانت مخيّبة للأمال، وكان كل ما حصلوا عليه نوعاً من قشور ليبرالية
وديمقراطية؛ فالانتخابات تزور بشكل سافر، وأصوات الناخبين تبع
وتشتري، والقضاءتابع غير مستقل، والرشوة تسل الأنظمة والقوانين ..

وكل هذا مفهوم وظيفي في ظل أخلاق متدهورة، وظروف معيشية
قاسية، وقد صار معلوماً اليوم أن قدرة الشعوب على تنظيم وجودها المعنوي
مرتبط إلى حدّ بعيد بقدرتها على تنظيم وجودها المادي. ولو فرضنا أن شعباً
استطاع تأسيس حكم شوري نزيه، فإن ذلك الحكم يفقد جاذبيته ومضمون
شرعيته ما لم يتمكن من إيجاد تنمية جيدة، وتحقيق أمن عسكري مناسب.

إن قوة الأفكار والوعي النقدي العظيم لا يرقيان بالأمة كثيراً ما لم

(1) بين المنهج الإسلامي والمنهج الغربي في الحكم نقاط التقاء، ونقاط افتراق، ليس هنا
مكان بسطها.

تتمكن من إحداث تغييرات اجتماعية واقتصادية جيدة؛ فالتفكير يجد نفسه متازماً ما لم يمده الواقع بنماذج مثيرة، وما لم يستحوذه على الإبداع، ويطالبه بتجديد نفسه. إن توالي الاختراعات الخاصة بوسائل النقل والمواصلات والإنتاج هو الذي حمل الجماهير الغربية على استبدال ضياء المدينة بظلام القرية^(١).

ويقول أحد الخبراء الإسبان: إن إسبانيا ستكون مهيأة للديمقراطية حين يصل متوسط دخل الفرد إلى (٢٠٠٠) دولار. وقد كان هذا فعند عشية وفاة (فرانكو) كان دخل الفرد الإسباني (٢٤٦٦) دولاراً، وانتقلت إسبانيا إلى النظام الديمقراطي^(٢).

إن الفقر وال الحاجة والجهل والكسل والتفكير لا بد لها أن تنعكس على أساليب تنظيمنا لأنفسنا، كما لا بد لها من أن تصبح أشكال إنتاجنا الأدبي والصناعي بصباغها، وإن النهضة الشاملة المتناغمة، ستكون هي الحل - بعون الله - لهذه الجدلية الرديئة.

٧ - انعكاسات الظروف المعيشية القاسية أسوأ مما نعتقد:

انعكاسات الحياة المعيشية الصعبة لا تقتصر على ضعف تنظيم الأمة لنفسها، وتحقيق ولایتها على ذاتها، وإنما تتجاوز ذلك إلى التأثير في قدرة الناس على الكسب المعرفي، وتنمية ذكائهم وتمتعهم بالراحة العقلية وأوقات الفراغ، بل وحسن أخلاقهم. وهذه القضايا كلها ذات أهمية خاصة في زمان يتطلب العيش الكريم فيه أن يشغل الإنسان كل طاقاته النفسية والذهنية والجسمية حتى يشعر بالسواء الاجتماعي، ويتمكن الوصول إلى أهدافه.

وسنعرض هنا لبعض الدراسات التي تناولت علاقة الأوضاع السيئة بالحالة الثقافية والعلقانية للفرد، وذلك فيما يلي:

(١) الغرب وأسباب ثراه: ٣٢٧.

(٢) نهاية التاريخ: ١٠٨.

أ - تدل الدراسات التي أجريت على بعض القراء أن التخلف العقلي يزيد بين الذين يولدون في بيئة فقيرة، ويرجع ذلك إلى ارتفاع نسبة المخاطر المقتربة بالولادة من ناحية، وبالحرمان الثقافي التعليمي من ناحية أخرى. ويؤدي ذلك - غالباً - إلى مزيد من الفقر في المستقبل، كما قال (ونسلو) مبيناً الدورة الرديئة: «في البلاد الفقيرة يمرض الرجال والنساء؛ لأنهم فقراء معدومون»^(١).

ب - إن الطلاب القراء يحصلون في العادة على كم كبير من الأنشطة الثقافية (السلبية)، مثل مشاهدة التلفاز. أما أبناء الطبقتين الغنية والوسطى، فيحصلون على:

- ١ - القراءة المكثفة في المنزل.
- ٢ - مناقشات جادة داخل المنزل حول موضوعات جوهرية و مهمة.
- ٣ - العيش في بيئة اجتماعية تضمن معلومات متقدمة، ومعقدة بدرجة كبيرة^(٢).

وأثبتت بعض الدراسات أن الآباء ذوي التحصيل الدراسي والتعليمي المنخفض يشكلون في منازلهم بيئة تساهم في تنشئة أطفال مشابهين لهم في المستوى في بعض الأحيان.

وأكملت معظم الدراسات أن متوسط ذكاء الطبقة الوسطى أعلى من متوسط ذكاء الطبقة الدنيا، وأن متوسط ذكاء أطفال الحضر أعلى من متوسط ذكاء أطفال الريف^(٣).

ج - التقدم الحضاري ساعد الإنسان الحديث على السيطرة على بيئته، فتخلص من ضغوط عوامل المناخ، مثل البرودة الشديدة والحرارة المرتفعة،

(١) الحرمان والتخلف في ديار المسلمين: ٣٣.

(٢) التدريس من أجل تنمية التفكير: ٥٠.

(٣) الفروق الفردية: ١٠٤.

ومثل البيانات التي استوطنتها الأمراض الخطيرة، لكن السيطرة على المناخ تحتاج إلى المال من أجل التكيف^(١)، والتدفئة والأدوية.

والفقراء المحرومون ليس لديهم ما يكفي للأساسيات والضروريات؛ مما يعني تغلب تأثيرات المناخ عليهم. ومن الواضح أن الجو الحار يفرض حدوداً على طموح الفرد، وهو من الأسباب الأكثر أهمية لمستوى الحماسة المنخفض لدى معظم الأفارقة^(٢). كما أن مجموعة من الأمراض ونوع الغذاء وطريقة المعيشة ونقص البروتين، يؤدي كل ذلك إلى كسل مؤقت أو شبه دائم^(٣).

د - يترقى الإنسان كلما كان مجتمعه الذي يعيش فيه زاخراً بالإبداع والتراحم والاستقامة والنقاء والمعلومات المتقدمة والاستقرار والإنتاج... وعلى مقدار كمال هذه السمات والأحوال يكون كماله.

وحين يكون المجتمع فقيراً فيما ذكرناه فإن هموم الناس وتفكيرهم - بصورة عامة - تتجه من أجل تأمين الضروريات التي لا بقاء لهم بدونها. وهذا في الحقيقة يخفض الوجود الإنسان إلى مستوى المنتج - المستهلك ، ويحرّك الحياة من فرصة للكفاح من أجل الأهداف النبيلة إلى ساحة صراع من أجل البقاء! وهذا هو مصدر فقد التاريخ بالنسبة لكثير منا. يقول (توبيني): «لو تصور المرء أنه يحتاج دوماً إلى إعمال الفكر، وإلى العمل الإداري ليبحث في رئتيه كل نفس، وفي قلبه كل نبضة لما توفرت له قط أية فضيلة من طاقة ذهنية أو إرادية، يدّخرها لا لشيء سوى مجرد الحفاظ على حياته. وبعبارة أدق. ما كان ليتيسر لأي كائن بشري التطور إلى إنسان كامل»^(٤).

(١) في العديد من الدول الإسلامية لا يكفي راتب الموظف لسداد ثمن الكهرباء إذا أراد تكيف منزله !!.

(٢) تدل بعض الدراسات أن أفضل حالات الطقس بالنسبة للنشاط البشري، هي التي تتراوح فيها درجات الحرارة بين ٥ و ١٦ درجة.

(٣) التربية والقدم: ٢٥٥.

(٤) مختصر دراسة التاريخ: ٤: ٢٢٩.

إن كثيرين من إخواننا في العالم يغتبطون إذا ما حصلوا عملاً إضافياً ينفقون فيه ما تبقى لهم من طاقة حيوية بغية تأمين حاجات أطفالهم؛ وهذا وحده كاف لقتل أي إبداع، بل لقتل السعادة والشعور بالرضا!.

هـ - الأنشطة التي تقوم بها في أوقات الفراغ مصدر عظيم من مصادر الشعور بالرضا، كما أنها مصدر ترميم لما تأكل من نفوسنا وعواطفنا وطاقتنا الذهنية والبدنية من جراء الأعمال الريتيبة التي صارت سمة من سمات هذا العصر. علينا أن نتذكر أن مصطلح (وقت الفراغ)^(١)، لم ينشأ إلا حين نشأ العمل في المعامل والمكاتب بصورة مستمرة على مدار العام، وهذا يعني أنه لا معنى لوقت الفراغ بالنسبة لأولئك الذين ستمتهم الأساسية البطالة عن العمل معظم أيام السنة، حيث الفراغ بالنسبة لهم داء دوى.

في عالم الفقراء تظهر دائمًا الحالات المتطرفة، ويقل في التوسيط والاعتدال، ومن ثم فإن السواد الأعظم من الناس ينقسم إلى قسمين قسم مؤهل، ويجد فرصة للعمل، فهو يعمل الساعات الطوال، نظراً لتدني مردود عمله، وقسم لا يجد في كثير من الأحيان أي عمل. والت نتيجة بالنسبة للفريقين عدم الاستفادة من الفراغ!.

إن جميع الإنجازات العظيمة التي حققتها البشرية في الفنون والعلوم كانت ثمرة للفراغ الذي تمت به تلك الأقلية المبدعة، وأحسنت استخدامه فيما ينفع الناس.

وقد شغلت الحكومة السويسرية منذ ما يزيد على عشرين سنة بعزو الإنتاج الصناعي لأوقات الفراغ؛ مما صرف الناس عن الاهتمام بالثقافة^(٢).

وفي حكومة (ميتران) السابقة في فرنسا وزير للوقت الضائع؛ ليتعلم الناس الاستفادة من أوقات الفراغ!.

(١) الفراغ والعمل قد يمان لكن قبل الصناعة كانت ممارسة الأعمال تأخذ سمة التحديد الصارم، كما أن الفراغ كان كثيراً، ولذا لم يكن الاهتمام بأوقات الفراغ يأخذ الاهتمام المطلوب.

(٢) التنمية الثقافية: ٣٤٧.

ومن مهام مخططي التنمية توفير أوقات الفراغ للمكددودين الذين يجاهدون الساعات الطوال من أجل لقمة العيش، ومساعدة الذين حياتهم كلها فراغ بسبب البطالة على وجود عمل شريف، وهذا وذاك لن يتم إلا من خلال التحسن العام للأحوال المعيشية والاجتماعية الذي يستحق كل اهتمام.

و - لعل أكثر جوانب الشخصية حساسية لسوء الأحوال المعيشية هو الأخلاق، حيث يمكن للوازع الأخلاقي أن يضعف بسهولة عندما تجري عملية (تأويل)، وتتسطع عليه الرؤية النسبية. وقد صار من الشائع بين الناس أن يقولوا: فلان معدور؛ لأن ظروفه صعبة. وكثير من الموظفين يسوغون لأنفسهم أخذ الرشوة؛ لأنهم يعتقدون أن على الدولة أن تؤمن لهم كفايتهم، وهي لم تفعل، فالرواتب في كثير من الدول لا تكفي إلا أيام معدودة في الشهر ! .

في أوان الأزمات الاقتصادية تسود حالة من الانكماش الاجتماعي، حيث إن الصلات مكلفة مادية بصورة دائمة، كما أنه ينتشر الكذب والغوار من الوظائف، ويشعر كثير من الناس بالضيالة وانسداد الأفاق لديهم، وينتشر السخط والتآلف، ويفتّش الناس عن كبش فداء لتحميله تبعات ما هم فيه .. وقد أثبتت دراسات عديدة أن الناس حين يكون مزاجهم حسناً، فإنهم يكونون أكثر كرماً، وأكثر تقديماً للعون لغيرهم.

وأثبتت دراسات أخرى أن الحالات المزاجية الطيبة تؤدي إلى مزيد من التقدير الإيجابي للآخرين. وتكون مشاعر الناس أكثر دفناً إذا تقابلوا في أماكن جميلة، على حين يكون الوضع مختلفاً إذا هم التقوا في غرف قبيحة أو غرف مزدحمة أو حارة^(١).

وقد أظهرت بعض الدراسات التي أجريت حول النمو الأخلاقي لدى الأطفال وجود حقيقة مؤلمة، هي أن الأخلاق تتدنى بتدني المنزلة الاجتماعية؛ فقسوة الحرمان تقلل من درجة إنسانية الإنسان، والفقر يمحو

(١) سيكولوجية السعادة: ١٨٤ ، ١٨٥.

الإيثار النفسي الذي يبديه الموسرون، والذين لا تهدى حياتهم البطالة. وتضيف تلك الدراسات أن أثر المنزلة الاجتماعية في الأخلاق يبدو في أمور خمسة، أطلقوا عليها اسم (الصفات الأخلاقية)، وهي: الحكم الأخلاقي، والإشاع المرجأ، والتكييف المستقبلي، والشخصية الأخلاقية، والإبداع الأخلاقي^(١).

ومن كل هذا يتضح أن تحسين الأحوال المعيشية للناس ينطوي على نوع من التقرب إلى الله تعالى، حيث يجلب عليهم الفقر الشديد ما لا يحصن من المشكلات والعلل الخلقية والاجتماعية!

٨ - الوساطة بين المبدأ والواقع :

المبادئ والنصوص تشد المسلم نحو المطلقاً والمعتالياً؛ فهي تكون أفكارهم وعقائدهم وقيمهم محورةً من ضغوطات الواقع وملابسات الظروف؛ فهي تمثل في جملتها الثوابت والأصول، وتوسّس المعايير لسلوكيات البشر وعلاقاتهم، لكن الجماعة المسلمة لا تعيش في فراغ، وهي تواجه مشكلات عديدة تحتاج إلى اجتهاد وتنظير فقهي دائمين، من أجل تسهيل حركة الأمة، وتحقيق مصالحها في إطار ثوابتها وأصولها.

وهنا يمكن القول: إن العلاقة بين النص والواقع ليست علاقة صماء ولا متجردة؛ فالنص يعمل في إطار المقاصد العامة للشريعة والمصالح العليا للأمة، وبما أن القضايا الكبرى تحكم عادة بمجموعة من النصوص فإن للمقاصد الشرعية العامة والقواعد الكلية المقررة دوراً مهماً في تقديم نص على آخر، وفي انعقاد الإجماع على جواز بعض التصرفات، بما يمثل في النهاية نوعاً من مرونة النصوص، أو نوعاً من افتتاحها على الواقع.

ونريد أن ننفذ من هذا إلى أن هناك نوعاً من الجدلية بين النص والواقع؛ فإذا تحسّن موقع الأمة، وتحررت من ضرورات الحركة الحضارية،

(١) اتجاهات معاصرة في التربية الأخلاقية: ٤١، ٤٢.

فإن قدرتها على الانصياع للنصوص ستكون أفضل، حيث يتبع الواقع الجيد خيارات أكثر، وبذلك تصبح الأمة أكثر انسجاماً مع أصولها؛ مما يجعل رصيد ثقتها بمبادئها ودينه أعظم، وبذلك يتتوفر لديها نوع من الشعور بالتألق الذي لا يجده إلا من ينجز كل ما يريد في إطار الالتزام الصارم بمعتقده ومبدئه.

ويحدث العكس حين تسوء الشروط السياسية والاجتماعية والاقتصادية المطلوبة لحياة حرة كريمة ومنتجة، حيث يجد الناس نوعاً من الهوة الفاصلة بين مبادئهم وواقعهم المعاش، وما في وسعهم أن يعملوه، بل يسود نوع من الاختلاط، في tieten المفترط المتقاعس أنه فعل كل ما في وسعه، وأنه لن يستطيع بسبب سوء ظروفه أن يعمل أفضل مما عمل!

وعوامل السعة والمرونة في الشريعة السمحاء، تستجيب في كثير من الأحيان لكثير من ضرورات الواقع؛ فإذا خيم الضعف العام على المسلمين، وجدوا لهم مندوحة شرعية عن الجهاد في سبيل الله وفتح طرق جديدة أمام الدعوة. وإذا أصاب الأمة تمزق داخلي كبير، فقد يستعين بعضها على بعض بقوى خارجية، وسيجد ذلك نوعاً من التسويف العقلي والشرعى والمصلحى؛ حتى يُدفع الضرر الأعظم بالضرر الأصغر. وماذا يمكن للمفلس أن يفعله تجاه ما عليه من نفقات واجبة، وماذا يمكن للقاضي أن يفعله معه؟ .

وقد أوقف عمر - رضي الله عنه - قطع يد السارق عام الرمادة حين فشت المجاعة خشية أن يقطع يد من سرق ليدفع عن نفسه ال�لاك من الجوع .

ويتجاوز الأمر انحطاط الفعل وتأويل النص والشعور بالبعد عن المبادئ إلى نوع من التحول عن الإطار المرجعي والرموز الأخلاقية العميقة، وذلك من خلال الالتصاق بالواقع والمصلحة والمقاييس الشعيبة المبتذلة. وهذا هو بالضبط الانحدار نحو البربرية والهمجية الذي نجده لدى كثير من الناس اليوم !!.

إن وعي الناس ليس ثابتاً، وإن سوء الأحوال يفقد ذلك الوعي حساسيته الخاصة التي تمكّنه من التمييز بين ما يقدم عليه المرء تحت مطاراتق الضرورة والحاجة الملحة، وبين ما يفعله بداعف شهوة خفية أو قصور قيمي أو كسل وتقاعس.

فتحسين الأحوال والشروط الاجتماعية والاقتصادية قد يكون شرطاً لبقاء سلطان المبادئ، وهيمنة القيم على سلوك الناس وعلاقتهم؛ فالتنمية الجيدة تساعد على الالتزام الجيد.

٩ - يتمدّد النسق الثقافي عند ضمور الأساق الأخرى:

يتحكم توازننا الاجتماعي عدد من الأساق والمنظومات الفكرية والأخلاقية والاقتصادية والرمزية؛ وعلاقة هذه المنظومات بعضها مع بعض علاقة تكامل وتعاون وتتنافس في آن واحد؛ فالمنظومة الأخلاقية توجّه السلوك الاقتصادي، وتضغط عليه، كما أن المصالح الاقتصادية تضغط على المنظومة الأخلاقية والاجتماعية، وتحاول التمدد على حسابهما. ومع أن الفكر يحكم الواقع، ويقوّمه، ويرشده إلا أن الصحيح أيضاً أن الواقع يضغط على الفكر، ويحمله على تغيير طروحاته وفروضه كلما تبدّلت نتائج الاجتهادات والخطط التي حاولنا من خلالها اجتراح المستقبل.

وهذه الجدليات بين الأساق والمنظومات المختلفة تهدف كلها إلى تلبية حاجاتنا الروحية والمادية، الفردية والاجتماعية، لكن علينا أن نعلم أن ذلك لا يتم بصورة عفوية وألية، وإنما يجب أن تكون هناك رعاية دقيقة، وعلى مستوى عال من المتابعة، وإلا فمن الممكن لأية منظومة أن تخنق المنظومات الأخرى، وتحطّ بالتألي من مستوى توازن الحياة الحضارية كلها. فإذا تم إشباع الحاجات المادية دون إقطاع، فإن ذلك يمنع التفكير من ابتكار نظم اقتصادية أكثر إنتاجية، أي ظهور نظام اقتصادي ذي بعد ثقافي.

وفي كثير من مجتمعات العالم الثالث عُلّق توازن الحياة الحضارية كلها

على السياسة والدولة؛ مما أدى إلى ضمور وتفكك كل المنظومات الأخرى^(١).

وقد يسيطر على مجتمع ما التنظير العقلي، وتكون وسائل التجربة محدودة؛ فيؤدي ذلك إلى سيادة نوع من المثالية الخيالية التي لا تصمد أمام أي تمحيق.

إن التنمية المتكاملة سلسلة من العمليات والموازنات الدقيقة، وإن جعلها حقيقة مائلة يتطلب أن تسود فينا روح المفاتحة والمفاثنة، وأن تكون نظمنا الاجتماعية شفافة بدرجة يمكن معها تلافي الانحرافات قبل أن تتكلس، وتصبح أصولاً وقواعد يصعب تعديلها وتجاوزها. وبالصبر والخيال الخصب ودقة الملاحظة والغيرة يمكن صنع أشياء كثيرة لهذه الأمة. والله الهادي إلى سواء السبيل.

(١) اغتيال العقل: ٩٤.

الفَصْلُ الثَّانِي
فِي
السَّمِيَّةِ الْفَكَرِيَّةِ

- ١ - حول العقل والفكر والثقافة.
- ٢ - مبادئ في التفكير القوي.
- ٣ - تقنيات في تنمية التفكير.
- ٤ - انحرافات عن التفكير المنهجي.

(١) حول العقل والفكر والثقافة

إن تطوير أي جانب من الجوانب المتصلة بشخصية الإنسان يعد بالغ الأهمية؛ لأن تكلفته ليست كبيرة، ولأن ذلك قد يكون الخيار الوحيد في بعض الأحيان؛ ولأن النجاح فيه قد يكون بعيد الأثر إذ يدفع بأمة من القاع إلى القمة!

وليس لنا أن ننسى أن ذلك من وجه آخر لا يتم إلا ببطء شديد، فهو يحتاج إلى صبر لا يقبل التقادم، وإلى عنابة فائقة؛ فلما اقتناع شخص بفكرة جوهرية قد يستغرق سنوات، وتدعيم الناحية الروحية لدى إنسان، أو تغيير عادة قبيحة عنده، يستغرق وقتاً أطول مما نظن؛ لأن الانتكاس أمر مألف في هذه المجالات، لكن لا توجد خيارات ولا بدائل عن النهوض بالإنسان.

ال الفكر هو الذي يقود التقدم، فلا يمكن لمجتمع أن ينهض ما لم يتقدم الفكر لديه، ويكن في وسعه توفير الأسس المنهجية والإصلاحية لذلك.

إن التفكير لا يُسهم في الكشف عن حقائق جديدة فحسب، وإنما يساعدنا على تناول المعلومات المتاحة بطريقة جديدة، تضفي عليها أبعاداً جديدة، لم تكن مألوفة، كما أنها تفسرها على نحو جديد.

بالتفكير وحده يمكن لنا أن ندمج حقائق الماضي ونظمها في الحقائق والنظم المستجدة، ونزيل التناقض بينها.

إن من الملاحظات المنقولة عن (أشتاين) قوله: «لا يمكن حل المشكلات المهمة التي نواجهها بنفس مستوى التفكير الذي كنا عليه عندما

أوجدنها»^(١). فالمشكلات تراكم في كثير من الأحيان بطريقة غير مرئية، ونتيجة عوامل عديدة ومعقدة، والخلاص منها يحتاج إلى تفكير يتطور، ويتعقد باستمرار؛ وهذا كله يجعل تنمية التفكير وتطويره أمراً ضرورياً للغاية! إن لحوية الأفكار سلطاناً أعظم بكثير مما يظن الناس، وإن قوة الفكر في المدى البعيد هي أكبر من أية قوة إنسانية أخرى، مع أن ثمار إشرافات المفكرين قد لا يتضمن بها الناس إلا بعد ممات أصحابها^(٢)!

العقل والثقافة :

زؤد الله - جل وعلا - بني الإنسان ببطاقات ذهنية فطرية قادرة على التحليل والتركيب والتقويم والاستفادة من الخبرات المختلفة.... وهذه الإمكانيات قد تختلف من شخص إلى آخر اختلافاً عظيماً، لكنها على مستوى الشعوب متقاربة - في الأحوال العادلة - إلى حد بعيد.

ومع تقدم المعرفة وتعقد الحياة، واحتياج كثير من الأعمال إلى تعاون فريق متكامل أكثر من حاجتها إلى الفرد المبدع - صرنا نشعر بترابع أهمية الذكاء الفطري، وتعاظم قيمة المعرفة والخبرة والتدريب. ومما يروى عن (أديسون) قوله: العبرية واحد في المائة إلهام وتسعة وتسعون في المائة عرق جبين^(٣).

في الحضارة الإسلامية الزاهية كانت المعرفة تستمد نموها واكتتمالها من التجربة. وعندما دخلنا في نفق الجمود والانحطاط، صارت المعرفة تنموا بعيداً عن الواقع، وتستلهم الخيال، وتستند إلى معطيات المحاكمات الجدلية واللفظية. ومنذ (جليلو) في القرن السابع عشر أخذت التجربة الأولية في بناء العلم على البحوث الميدانية والآلات الصناعية التي يتم تحسينها باستمرار،

(١) العادات السبع : ٣٧.

(٢) أسس لإعادة البناء الاجتماعي : ١٨٢.

(٣) العبرية والإبداع والقيادة : ١٢٧. ولعل مراده بالعبرية الأعمال الفنية والاختراعات المدهشة، وإن فإن العبرية المتعارف عليها عبارة عن إمكانات ذهنية استثنائية.

وبتقديم العلم ذاته. وصار تقدم الفكر من ذلك اليوم مرهوناً بتقدم المعرفة^(١).

وقد طرأ تحول ذو شأن على تعاملنا مع القدرات الفطرية، حيث كان يُنظر إليها على أنها شيء محظوظ لا حيلة لنا تجاهه، لكن الأمر قد تغير اليوم؛ إذ إن هناك فيوضاً من الدراسات واللاحظات التي تؤكد ارتفاع مستوى الذكاء نتيجة التدريب واستخدام تقنيات الوسائل التعليمية. وقد أظهرت بعض الدراسات أن الأطفال الذين نقلوا من بيئه فقيرة بالثيرات العقلية إلى بيئه غنية بالنشاط الثقافي، أظهروا ارتفاعاً في نسبة ذكائهم^(٢).

وفي بحث حديث حول أثر تقنيات التعليم في الذكاء لدى الأطفال سُجل الأطفال الذين يدرسون في مدارس غنية بوسائل التعليم ذكاء مرتفع قدره (٥٣/١٠٤) بالنسبة للبنات و(١٠٦) بالنسبة للبنين.

أما الطلاب الذين يدرسون في مدارس فقيرة بالوسائل التعليمية، فكان حاصل ذكائهم منخفضاً، وهو (٤/٨٦) لدى البنات، و(٧٥/٨٨) لدى الذكور^(٣).

وهذه فوارق كبيرة، وهي تؤكد على أن الحد من ضعف الإمكانيات الذهنية صار اليوم ممكناً أكثر مما كان يُظن.

ويمكن تعريف النظام المعرفي بأنه: «جملة من المفاهيم والمبادئ والإجراءات التي تعطي للمعرفة في فترة تاريخية ما بنيتها اللاشعورية، أو هو في ثقافة ما بنيتها اللاشعورية»^(٤).

والخبرة هي ما يتزايد باستمرار مما يُسجل في الذاكرة... من وقائع وضوابط ودّاوع وقواعد وفرض.

(١) تكوين العقل العربي: ٣٣٧.

(٢) أثر تقنيات التعليم على الذكاء: ٣٨١.

(٣) السابق: ٤٣٥. وقد عرض زميلنا د. فائز الحاج نتائج (٤٥) دراسة سابقة، كلها يؤكد نتائج البحث الذي أجراه على بعض طلاب وطالبات المملكة.

(٤) تكوين العقل العربي: ٣٧.

والوعي هو استخدام الخبرة استجابة للإرادة^(١).

والتفكير هو مهارة التشغيل التي تؤثر من خلالها الإمكانيات الذهنية في الخبرة^(٢).

إن التفكير هو نوع من الاستقصاء والسبير والخض لـما لدينا من معلومات و المعارف و مبادئ و ملاحظات و انطباعات من أجل الفهم أو اتخاذ قرار أو القيام بعمل ما.

إن التفكير قد يكون مستحيلًا في بعض الأحيان دون وجود معلومات، وقد يؤدي توافر المعلومات بصورة كافية إلى جعل التفكير غير ضروري.

أما ما يقع بين هذين الحدين فإنه يتطلب كلاً من التفكير والمعلومات^(٣).

ويمكن القول بعد هذا وذاك: إن بين الأفكار والمعلومات تفاعلاً دُوَّرياً؛ فالآفكار تتولد بتطبيق التفكير على البيانات، ولدى قيامنا بجمع المعلومات، فإننا نجمع البيانات التي سبق أن نظمت عن طريق الأفكار القديمة. وللإفاده من تلك الأفكار نجدنا بحاجة إلى التفكير، وليس إلى مزيد من المعلومات.

إن الوعي حين يصدم بمشكلة يعود إلى (الثقافة)^(٤)، باعتبارها مخزون الخبرة الجماعية، فإن لم يجد جواباً، أو وجد جواباً ناقصاً لجأ إلى الخبرة المباشرة التي تشكل التجربة مصدرها الأساسي، فإن لم يجد لجأ إلى تلفيق أجوبة سحرية أو خيالية أو خرافية بعثة الخلاص من القلق الذي يصاحب كل مجهول^(٥).

(١) المذكر والغامض: ٢١٦.

(٢) تعليم التفكير: ٤٢.

(٣) السابق: ٤٢.

(٤) بمفهومها الشامل الذي تمثل المعرفة جزءاً منه.

(٥) اغتيال العقل: ٣٣١.

إن من جملة مشكلاتنا فقد التوازن بين المعلومات والتفكير، وكثيراً ما ننحاز إلى جانب المعلومات على حساب الاهتمام بالتفكير، لكننا في بعض الأحيان نمارس التفكير دون أدنى قاعدة معلوماتية مقبولة^(١).

إن كثرة المعلومات والتفاصيل حول قضية محددة قد تعوق العقل، وتضيئه، وتجعل استخدامه لنماذجه الخاصة صعباً؛ لأن المعلومات كثيراً ما تتوزع على نماذج ومساقات متعارضة ومتقاطعة، مما يُربك العقل الذي سيستخدمها إرباكاً عظيمًا! وما يذكر في هذا الصدد أن الحكومة الأمريكية طلبت من شركة آي بي إم) أن تجمع لها كل المعلومات المتعلقة بقضية ما، فجمعت الشركة سبعة ملايين وثيقة (!!). ولو حاول القاضي البحث في هذه الوثائق كلها فسيقضي عمره كله قبل الانتهاء منها، ولذا قرر إسقاط القضية^(٢).

إن الخلاصة التي ننتهي إليها، هي أن تنمية قدراتنا العقلية، وتنمية طرق التفكير الجيد صارت ممكنة أكثر من أي وقت مضى، وإن الذي يحتاجه هو التدريب الجيد إلى جانب عطش للمعرفة لا يعرف الارتواء!

إن تنمية الفكر تقوم على ثلاثة أسس رئيسية، هي : التعرف على المبادئ والمنطلقات الصحيحة التي تستخدم في التفكير، إلى جانب معرفة بعض التقنيات التي تساعدنا على استخدام إمكاناتنا العقلية على نحو صحيح، بالإضافة إلى تسلیط الضوء على بعض الانحرافات عن سبيل التفكير المنهجي. وهذا ما سنحاول التحدث عنه في الصفحات التالية؛ ومن الله الحoul والطول.

(١) يظهر هذا جلياً لدى الشعوب العربية عندما تحاول تحليل حدث سياسي ما.

(٢) تحسين التفكير: ١٧.

(٢) مبادئ في التفكير القوي

حاولت في الكتاب الأول والثاني والثالث من هذه السلسلة أن أسلط بعض الضوء على بعض قضايا الفكر، كما كنت كتبت كتاباً مستقلاً حول التفكير الموضوعي. وإنني في كل مرة أحارو أن المس قضايا جديدة، أو أتناول بعض القضايا التي طرقتها من قبل بطريقة جديدة، ويتعمق أكثر. وهذا الإصرار على التذكير بمسائل الفكر ومشكلاته نابع من الأهمية الخاصة التي أراها له.

وأود أن أشير في البداية إلى أن الفصل بين المبادئ والتقنيات والمشكلات كثيراً ما يكون مصطنعاً، لكن لأسباب فنية، ومن أجل تسهيل الاستيعاب أثربنا ذلك، مع الاعتراف بأن الفصل الكامل ليس ممكناً دائماً. وسنذكر هنا بعض الأسس والمبادئ والمنطلقات التي نظن أنها تساعد على تنمية التفكير والنهوض به، وذلك في المقولات التالية:

١ - العقل الإسلامي معياري التكوين:

إن العقل الإنساني على الرغم من إمكاناته الكبيرة لا يستطيع أن يعمل إلا وفق أنماط ونماذج محددة، فقد أوجده الله - تعالى - ليكون في الأساس عقلاً عملياً، يستغل في إطار عالم المادة، وكلما خرج عن مجده، وحاول النفاذ إلى المعرفة المطلقة والبحث في الغيبيات، وجد أن وسائله، بل طبيعة تركيبه لا تسعفه^(١)؛ ومن ثم فإما أن يعود كليلاً حسيراً، وإما أن يخطط خطط عشواء، على غير هدى ولا بصيرة؛ فيكون كنجم خرج عن مداره، وقد

(١) المنهجية الإسلامية: ٨٨

اتجاهه، على ما نشاهده اليوم عند كثير من أمم الغرب والشرق. وفي اعتقادنا أن العقل المترافق لم يحن أوان محتنته الحقيقة بعد؛ فإن جازات الحضارة الغربية أسبغت عليه مشروعية عظيمة، وستكون الكارثة عندما يت弟兄 الرفاه، وتبلغ المجتمعات مداها في التحلل، ويصل تلوث البيئة إلى الحدود الخطيرة المرئية، وتتقدم علوم الهندسة الوراثية، بحيث يجعل أشياء كثيرة جوهرية موضع جدل... !!....

أما العقل العربي الإسلامي الذي كونته الثقافة الإسلامية المتمحورة حول (الوحى) فإنه عقل معياري يعمل ضمن إطار مشيد بالأصول والثوابت، ومن ثم فإنه حين يعالج الأفكار لا يبحث عن مكوناتها الذاتية، ولا يحاول الكشف عما هو جوهرى فيها، بل يبحث لكل فكرة عن مكانها وموقعها في منظومة (القيم) التي يتخذها العقل المسلم مرجعاً له ومرتكزاً.

من خلال الثقافة الإسلامية تتكون لدى العقل المسلم المفاهيم والرؤى الفكرية والأخلاقية؛ وكثيراً ما يتصرف المسلم في مواقف الحياة المختلفة على هدى من تلك الرؤى بطريقة عفوية تقائية^(١).

ونخلص من كل هذا إلى أن طبيعة الأنشطة الحضارية تظل موضع تقويم خاص لدى المسلم؛ فنجد نوعاً من الرفض المبهم لإنتاج أدوات معرفة في الزينة والترف، كما نجد نوعاً من الرفض للبحث في قضايا لا تخدم الواقع، أو لا يترتب عليها عمل؛ وهذا يمنع الإنتاج الحضاري الإسلامي خصوصية وتفرداً.

ويقال نحو هذا حيال القيم المختلفة؛ فالحق في بنية ثقافتنا مقدم على (الجمال) ومن ثم فإن كل أشكال التجميل ينبغي أن تكون في إطار المباح وإطار الستر والعفة.

وبما أن نظرة المسلم إلى فنون إعمار الأرض هي نظرة معيارية، فإننا

(١) انظر في هذا: تكوين العقل العربي: ٢٩ - ٤١.

نعتقد أن حماسة المسلم في التعامل مع كل ألوان البناء الحضاري، ستظل مرهونة بشيء واحد، هو صلته بالله - جل وعلا - فإذا فترت تلك الصلة، وضعف الإحساس بعالم الآخرة؛ فإن الوعي المسلم يصاب بالارتباك، ويحصل آنذاك أحد أمرين: إما التكاسل والترهل في التعامل مع الطبيعة والاكتفاء بما يُبقي على الأود، والبقاء المجرد، وإما أن يتتج، وينشط كما يفعل غير المسلم، لكن إنتاجه ونشاطه لا يكتسب التنساق والتناغم والمشروعية التي نحسها في أنشطة المسلم المتزمت. وهذا كله يعني أن البداية الصحيحة لكل نهضة حضارية إسلامية، هي الرقي بمستوى العلاقة الداخلية بين العبد وربه، والرقي بدرجة التزامه وشفافيته.

٢ - تغيير الحالة الراهنة يحتاج إلى وقت طويل :

حين يرى الناس رجلاً متفوّقاً عليهم، فإنهم يطروحون عليه كل مشكلاتهم ويطلبون منه حلولاً سريعة لها. وقد جرت العادة عندنا ألا يعرض الناس إلا المشكلات المستعصية، ومع ذلك فإنهم يريدون الخلاص منها في لمح البصر!

إنني أعتقد أن كثيراً من الإحباط الذي يحيط بنا ينبع من أننا نريد تغيير الأخلاق والعادات والأفكار بأقصى سرعة متجاهلين أن الوسائل التي اخترعها البشر لتحقيق ذلك ما زالت أكثر من قاصرة؛ إذ من السهل أن تغير أثاث مدينة في سنة، لكن قد لا تنجح في تعديل رأي خمسة أشخاص في قضية ما خلال ثلاث سنوات!

قد تجد قائداً عسكرياً لا يأبه بمواجهة جيش جرار، لكنه يقف حائراً أمام تغيير عادة سيئة عند أحد أبنائه!

إن تمنع الإنسان بالإرادة الحرة والعنصر الروحي هو السر الكامن وراء صعوبة التعامل معه.

وعندما تتأزم الأحوال، وتتسد الآفاق؛ فإن ما نستطيع أن نعمله بصورة فورية يكون محدوداً جداً، لكن إذا قلنا: ما الذي في إمكاننا أن نعمله حال

مشكلاتنا خلال عشرين سنة - فإننا سنجد الكثير الكثير مما يمكن القيام به . إن مهمتنا على مستوى الأفكار أن نجعل فكر الأقلية المتميزة الراسدة فكراً للأكثرية المشغولة بالكفاح من أجل البقاء ، والصادرة في التمتع بالملذات ؛ وما ذلك بالمطلب اليسير ! .

٣ - التقدم الشامل يحتاج إلى رؤية شاملة :

على صعيد التنمية المتكاملة والإصلاح العام نلقى ألف العلاقات الجدلية بين جوانب الحياة المختلفة ، وبين الأزمنة : ما ماضى منها ، وما هو قادم .

الرؤية الشاملة تعنى التعرف على تكوينات متباينة في تكوينها الزمانية ، وانتمانها المعرفي ؛ إلى جانب إدراك ما بينها من وشائج التكامل والتنافر . وسلط الضوء على هذه المسألة في العروض الصغيرة الآتية :

أ - التفكير المنطقي والتفكير الرياضي يوليان اهتماماً خاصاً للإجابة بـ(نعم) أو (لا) وهم أساسيان في قيادة التقدم العلمي والتكنى^(١) .

أما في الحالات التي تتوجه فيها الأنظار لمعالجة شؤون وقضايا ذات صلة بالإنسان ، مثل مشكلات الفقر والتفكك الاجتماعي والبحث عن هوية . . . فإن هذين النوعين من التفكير لا يكونان عقيمين فحسب ، وإنما يؤديان إلى نوع من التصلب الذهني وقد السيطرة على المنهج الصحيح للتغيير .

ومن المؤسف أن كتب التراث لدينا مشحونة بأطروحات ومقولات المنطق اليوناني ! هذا المنطق أوجد لدينا عقلية التحزب والتنافس ، وجعل الناس ينقسمون إلى فريقين : مهاجم ومدافع ، وتكون لدينا نوع من الرؤية الأحادية ؛ فإما أن تكون معى أو ضدى ، وإما أن تكون على خطأ أو على صواب ، لا غير ! .

(١) تعلم التفكير : ١٣

إن التفكير الذي نحتاجه اليوم هو التفكير (الإحاطي) الذي يساعد على رؤية الخيارات، ويطرح البداول، ويدرك التأثيرات المتبادلة والآثار المترتبة على كل خيار، وهذا لن يأتي إلا من خلال المعرفة المتعددة، وإنما من خلال التأمل والحوار دراسة علوم التفكير الحديثة.

ب - الرؤية الشاملة هي رؤية تركيبية متطورة؛ فالعلاقات الجدلية بين القضايا والأشياء ستظل موجودة؛ لأنها جزء أساسي في بنية الوجود، وفي النوميس التي تحكمها؛ لكن شدة التأثير والتأثر متذبذبة دائمًا؛ فتأثير الجوع في تردي كرامة المرء شيء ثابت، لكن شدة التأثير متوقفة على السياق الذي يكتنف الجائع، إذ إن هناك فرقاً بين فقر مفاجئ، وفقر تكون عن طريق التدرج، وبين فقر عام، وفقر أصحاب فئة محدودة، وبين فقر وقع نتيجة تقصير من الفقير، وفقر جاء بسبب ظلم وقع على الفقير. فكل نوع يثير مشاعر، ويوسّس استجابات مختلفة.

وتسبّب التحدى في إثارة روح المقاومة وشحذ الذهن ويقطّع القوى الروحية للإنسان شيء لا مراء فيه أيضًا، لكن حجم الإثارة للرد على التحديات متوقف أيضًا على كيفية (إخراج) التحدى؛ فالصدمات المباشرة والتحديات السافرة يكون ردّها في العادة عنيفًا. أما التحديات والانحرافات والمصاعب التي تواجهنا بصورة بطيئة وخفية أو ناعمة فإنها قلما تستثير ردودًا حاسمة، بل ربما تحولت إلى (مخدر) كما حدث لأمة الإسلام حين ابتليت بظاهرة الردة عقب وفاة النبي ﷺ حيث جابتها برد فعل هائل. أما الانحرافات الخطيرة العقدية والمنهجية والأخلاقية التي حصلت عبر مراحل طويلة فيما بعد فإن ردود الفعل عليها كانت هشة وغير منظمة!

إن العالم من حولنا يتغير، وإن أهداف دولة ما قد تتغير، فتصبح الأهداف القريبة بعيدة، والبعيدة قريبة. وكذلك الطموحات والمثيرات والإمكانات والخصومات... كل هذا يتغير بصورة سريعة. وهذا يعني أن الصورة التي نكونها عن محيطنا الأدنى والأقصى يجب أن تكون تطورية قابلة للمراجعة والإضافة والتشذيب، وإنما نقلت الواقع من بين أيدينا، وصرنا إلى العماء والرؤبة العشاء!

ج - الصورة - أية صورة - تتصف بزاوية الرؤية ودرجة الدقة في الالتقاط والتسجيل. اتساع زاوية الرؤية يعبر عن الشمول، ودرجة الدقة في الالتقاط تعبر عن كمية التفاصيل^(١).

كلما ابتعدت الصورة عن عيوننا رأينا مساحات أوسع، وتفاصيل أقل، وكلما قربناها رأينا مساحات أقل، وتفاصيل أدق. حتى نتمتع برؤى شاملة، لا بد لنا من أن نحكي أنفسنا من أن نفرق في تفاصيل أية صورة، أو أية قضية أو أي علم، أو أي فن.... وإنني أشبه صاحب الرؤية الشاملة بقائد قافلة كبيرة في رحلة طويلة؛ فهو يعرف أهداف الرحلة، ويعرف المشكلات التي يمكن أن تواجه القافلة، ويعرف أن القافلة بحاجة إلى طبيب، ويعرف، ويعرف... لكن معرفته بكل ذلك معرفة إجمالية.

في هذه القافلة الطبيب والطباخ والمهندس الذي يصلح عربات القافلة.. وكل واحد من هؤلاء يعرف تفاصيل كثيرة ودقيقة، لكن معرفة كل واحد منهم محصورة في تخصصه ومهمته الخاصة.

سوف يحصل ضرر عظيم إذا ما شغل قائد الرحلة بالطبع أو خيطة ثياب الناس الذين أمروه عليهم. وكذلك ستكون الخسائر فادحة حين يشغل المفكرون والعلماء بتفاصيل علم من العلوم، أو ينشغلون بتحقيق كتاب من كتب التراث، يستغرق أمداً طويلاً من الحياة!

إن أمتنا غنية بالاختصاصيين، لكنها فقيرة إلى حد الإذاع، إلى قادة الفكر الذين يرون صوراً تضم أكبر قدر من التكوينات المتباعدة، ويستطيعون في الوقت نفسه صياغة خطة تركيبية أصلية لصلاح الشأن العام الذي يمثل لكل واحد منهم المحيط الحيوي الذي يتنفس فيه!!.

إن من الجوهرى أن نقول: إن اتساع الرؤية الشاملة لا يكون ذات جدوى حقيقية بسبب كميات المعلومات التي بحوزتنا، ولا بتعدد المجالات التي

(١) المذكر والغامض: ٣.

تغطيها تلك المعلومات، وإنما بإدراك العلاقات التي تربط بين تلك التكوينات. إن معرفة تلك العلاقات تظل هي المقياس الأهم للقدرة على توظيف المعلومات والاستفادة منها.

لا يعني كل هذا أننا في غنى عن الرؤية الدقيقة التي تقترب من الرؤية المطلقة لقضية من القضايا؛ فمن المستحيل حدوث تقدم ذي شأن لأي علم من العلوم من غير وجود تخصصات دقيقة، ومن غير وجود مختصين يجعلون كل اهتمامهم في دفع عجلة المعرفة خطوة إلى الأمام.

إنما المطلوب من أولئك المختصين أن يكونوا على وعي بأن الإغراء في التفاصيل الدقيقة، هو في الحقيقة عبارة عن تعامل مع حقائق فرعية، وهذا ما يجعل الواقع العام - الذي يتألف أصلاً من تكوينات دقيقة - يُفلت من أيديهم، بل إن من المحتمل أن يُوظفوا هم وثمار تخصصاتهم في أغراض شريرة، دون دراية منهم!

٤ - دقة الرأي نابعة من دقة العمليات المؤدية إليه :

القوانين التي تحكم العلاقات البشرية ما زالت مكتنفة بالغموض، وما زالت مطبوعة بطابع الاحتمالية، ويبدو أن الطريق أمام نضج علوم الاقتصاد والاجتماع والسياسة والنفس - ما زال طويلاً جداً.

ومما ينبغي أن يكون واضحاً أن الآراء والاحكام التي تُصدرها حول المسائل والمواضيعات الكبرى - تستند دائماً إلى عمليات ذهنية ومعرفية متعددة، وإن صلابة أحکامنا ودقتها لا يمكن أن تكون أرقى من مجموعة المقدمات التي استندت إليها؛ ومن ثم فإن من الواجب ألا نعطي وزناً لخططنا - مهما كانت - لا تتحمله النظريات والفرضيات والمقولات التي بنيناها عليها.

فدراسات الجدوى للمشروعات - مثلاً - ستظل ظنية واحتمالية؛ لأنها تعتمد على عدد كبير من المعطيات بموقع المشروع والمواد الأولية وأجرور العمالة وإمكانية التسويق وحجم المنافسة، وأمور أخرى من هذا القبيل ..

والمعلومات المتعلقة بكل هذه الجوانب معلومات ظنية تقريبية، ولذا فمؤشرات أية دراسة ستكون كذلك. ولذا فإن الأعمال التجارية - ولا سيما الكبرى منها - والصناعية ستظل تحمل درجة من المخاطرة. ويقال مثل هذا عن الخطط الدراسية والاقتصادية... .

ومن وجه آخر فإن دقة الإجابة على أي سؤال سوف تتحدد بإمكان إخضاع المقدمات والمعطيات التي بُنيت عليها الإجابة للتجربة^(١).

فالإجابات التي لا يمكن التجريب بشأنها ستظل ظنية؛ لأنها آنذاك ستخضع لاعتبارات إنسانية وتقديرية وثقافية.... وهذه كلها تختلف بين الناس اختلافاً عظيماً.

إن استخدام قاعدة تحصص الأسس والمقدمات سوف يحجم ما تعود الناس استعماله من الألفاظ الفضفاضة، وألفاظ المبالغة والأقوية الخاطئة، وسوء التقدير المتعمد وغير المقصود.

إن المطالبة بشرح الأسس التي قام عليها رأي من الآراء سوف توفر علينا كثيراً من خيبة الأمل التي ستصيبنا عندما نصفي لكل إجابة، ونجاري قائلها على ما يهوى!

٥ - الانشداد إلى الأصول يقيناً من الانحراف:

نحن - بحمد الله - الأمة الوحيدة التي حفظ الله - تعالى - لها اتجاهها العام وأهدافها الكبرى، بما أذن به من خلود الرسالة، لكن تقلب الأيام والليالي وبعد العهد وطول الأمد وطروع الحوادث وامتزاج الثقافات وتنوع الظروف.. كل ذلك يؤدي إلى نوع من الغَيْش في الرؤية واحتلاط العادات والتقاليد بالعبادات وضعف الإحساس بالهدف.

ومما استفادناه من التجربة التاريخية أن الناس يميلون بطبيعتهم إلى جعل الدين جزءاً من ثقافتهم عوضاً عن أن يكون مهيمناً عليها، وموجهاً لها.

(١) انظر الإنسان ذلك المجهول: ٤٦.

الانحرافات التي تصيب أمة الإسلام أمر طبيعي للعوامل التي ذكرناها، وكان من تمام الابتلاء أن تظل الأمة تجاهد من أجل البقاء ضمن المسار الصحيح؛ وذلك الجهاد يجب أن يقوم على سلسلة من الانتفاضات الفكرية والمنهجية المستمرة، وقد حصل ذلك في بعض الفترات لكنه لم يكن كافياً ولا شاملاً للعالم الإسلامي كله.

إن الانتفاضات المطلوبة تقوم على ركيزتين أساسيتين:

الأولى: الانشداد إلى الأصول والالتزام بها في المننشط والمكره، ولو كان ذلك على حساب مصالحنا؛ فإن التمسك بالأصول إن ظهر أنه غير مواتٍ في الأمد القريب، فإنه يمثل طرق النجاة على المدى البعيد.

ولا يعني هذا الدعوة إلى الجمود وعدم قبح الفكر في فهم أفضل للنصوص، وتحسس أعظم لروح الشريعة ومقداصها، ولكنه يعني الالتزام الصارم بالقطعييات، وعدم الخروج على ما أدى إليه اجتهاضنا في الظنيات والخلافيات.

والركيزة الثانية: هي التحام سلوكياتنا وخططتنا الحياتية العامة بالأهداف الكبرى لوجودنا، من نحو السعي إلى رضوان الله - جل وعلا - وتبلیغ الرسالة ونصب رایات الحق والعدل والإحسان في ربوع بلاد المسلمين، وتهيئة كل الظروف والوسائل التي تمكّن الفرد المسلم من القيام بأمر الله تعالى

إن المشكلة التي أحسّ بها في هذا الصدد أن حالة الوهن الحضاري التي نعيش فيها تجعل إدراكتنا لأهدافنا يتم بطريقة مبتذلة أو رتيبة، كما أن تراكم الضروريات فوق رؤوس الناس جعلتهم ينشغلون بتحقيق إنجازات صغيرة، لا ترتبط - في أكثر الأمر - بالأهداف الكبرى التي ينبغي أن يعيش المسلم من أجلها.

وعلى كل حال فإن الناس بحاجة إلى تثقيف دائم بالأهداف والأصول ومحاولة تجاوز التّف الثقافية التي تشغّلهم عن الوعي بها.

٦ - الاستمرار في النقد شرط للبقاء في الطريق الصحيح :

حين تتجه الإرادة للقيام بعمل كبير معقد، فإن المأثور والمنطقى أن نضع التصورات أولاً؛ ومهما كان حذقنا عظيماً، ومهما كانت خبرتنا واسعة فإن تصوراتنا تحتاج إلى نوع من التمحيص والتدقير، وليس ثمة أفضل من الممارسة والتطبيق لتحقيق ذلك، والممارسة سوف تسفر عن نتيجة، والت نتيجة هي الحكم العدل على صحة التصورات التي بنينا عليها. والعمل الذي علينا أن نقوم به بعد ذلك هو النقد والمراجعة واختبار المفاهيم والتصورات، وأشكال الممارسة التي تجسدت فيها التصورات. وهذا يعني تعديلاً في كل ذلك، وإلا فلا معنى لمراجعة لا تفضي إلى نوع من التغيير والتحسين.

كثير من الناس يضيق بالنقد والمراجعة، وقد يتهم من يفعل ذلك بالتأمر وزرع الإحباط.... وما ذلك إلا لمشقة التغيير على النفوس، وإلا للاعتراض بالرأي والثقة المبالغ فيها بالنفس ! .

وكثيراً ما يتوجه النقد لدينا إلى المواقف وإلى الأشخاص والإجراءات والأفكار الصغرى، وهذا في حد ذاته مطلوب، لكن العطب كثيراً ما يكون في البنى الأساسية، وفي الأطر العامة، كذلك الذي ينقد طريقة استخدام مدفع في معركة، مع أن الإشكال الأساسي يكمن في قرار خوض المعركة!

وكذاك الذي ينقد إجراءات عقد صفقة من الصفقات، مع أن النقد يجب أن يتوجه إلى فكرة الشراء نفسها لمثل ذلك النوع من البضاعة!

إن نقد الأسس والأطر العامة شاق جداً، ولذا فإن من يستطيع ممارسته قليلاًون جداً؛ لأن ذلك يتطلب الخروج عن أنماط التفكير المألوفة والخروج عن الثقافة الراحجة والأعراف الراسخة، وذلك كله يتطلب مغامرات حقيقية؛ وطبيعة تربيتنا وتنشئتنا الاجتماعية لا تشجع على الكثير من ذلك!

إذا أردنا أن نعرف أهمية النقد في الحياة؛ فلنحذف على سبيل التدريج وظائفه، ولنتصور وجود خطط وأعمال ومعارك لا تُقْوِّم نتائجها، ولا تُنَقَّد

آلياتها وأهدافها ومرتكزاتها الذهنية^(١).... إن العاقبة ستكون نفاذ الطاقة، وكل رصيدنا من (العقلانية) ثم الارتطام بجدار يسد سبيل التقدم والنمو أمامنا!

وعلى كل حال فلن يكون هناك أسوأ من الرضا عن الحالة الراهنة، والاطمئنان على ما تم إنجازه دون شعور أكيد بضرورة الرقي نحو الأفضل بصورة مستمرة.

٧ - سوء الفهم ليس حادثاً غريباً:

إذا ما أردنا لمسيرتنا الفكرية الرشد والسداد؛ فإن علينا أن نعطي اهتماماً أكبر لطريقة استخدامنا اللغة، حيث إن ما يمكن أن يتبدّل إلى الذهن من دلالات الألفاظ أوسع بكثير مما تفيدها به المعاجم اللغوية، فالتراتيب اللغوية حين توضع في سياقات ثقافية وشعرية متنوعة تعطي من الإيحاءات والانطباعات ما يصعب حصره!

والذى منعنا من الاهتمام بهذا الموضوع اعتقادنا أن سوء الفهم شيء غريب وشاذ، يقع فيه الآخرون الذين حُرموا كفاءة الإدراك الجيد.. وربما كان الموقف الصحيح أن نرى التفسير الموفق نصراً فردياً أو طارئاً في خضم مغريات كثيرة. ويجب على الجامعات أن تعيد النظر فيما تقدمه إذا أرادت إنقاذ المجتمع من سوء الفهم، وإذا أرادت تحسين التواصل الفكري والاجتماعي بيتنا^(٢).

لا بد لنا من أن نخترع وسائل لاختبار دقة الفهم والتفسير لما يسمعه الناس بعضهم من بعض، ولا بد للمتكلّم منا أن يتعلم كيف يحتاط في أدائه، وكيف يوصل رسالته إلى سامعيه وقارئه على أفضل حال ممكنة من الوضوح والدقة.

(١) انظر في النقد الذاتي: ٤٧.

(٢) انظر اللغة والتفسير والتواصل: ٢٧٦ وما بعدها.

ولا نخلِي السامِع من مسؤولية اتهام النفس وضرورة التساؤل عما إذا كان فهُمه لما سمعه صحيحاً، وهل هناك إمكانية لفهم أَفْضل؟.

٨ - تفكير السابقين أقرب إلى البساطة والقطعية^(١) :

كلما رجعنا إلى الوراء وجدنا الحياة أكثر بساطة؛ فما اكتُشفهُ الإنسان من مكونات الحياة على مختلف الصعد كان محدوداً، والعلاقات المكتشفة بين الأشياء كانت هي الأخرى أقرب إلى الضاللة.

وسائل الاتصال كانت محدودة، وقد كانت قرية الرجل تعد بالنسبة له عالماً متكاملاً! أما اليوم فكل شيء قد اختلف، ومن الطبيعي أن يختلف معه أيضاً التفكير.

يشكو كثيرون من الناس من تعقيد التعبيرات والخطط والإجراءات، ومع ذلك قد يكون مبالغأً فيه أحياناً، إلا أن العيل إلى التبسيط قد يشتمل على نوع من الخيانة للحقيقة المعقدة؛ وهي تتطلب دائماً كفاءها من الألفاظ. وإن التزاحم والتنافس على أشهده في كل مجالات الحياة، فهل تستطيع أن تنافس من غير استعدادات وإمكانات مكافئة لما عند المنافسين؟!

إن ما جال في عقول البدائيين وأشباههم كان محدوداً؛ لأن عالمهم كان محدوداً، وخبرتهم والصور الذهنية لديهم كانت ضئيلة إلى حد الإلماق، وهذا جعل إمكانات المقارنة هي الأخرى ضئيلة.

والرؤى النسبية للصواب والخطأ لا تُنبع غالباً إلا عند مقارنة مستويات عديدة للظاهرة الواحدة أو الظواهر المختلفة. ومن ثم فإن ما نسميه اليوم رأياً كان كثيراً من الناس يسميه حقيقة، ويراه مذهبًا جيداً. إن اكتشافنا لللسن الربانية مدّ في آفاق الرؤى، وجعلنا نبصر ما هو أكثر من الحقبة الراهنة، كما جعلنا نرى في صلب الهزيمة نوعاً من النصر، ونرى ضعف المتجر، وجبروت الضعفاء في آن واحد!

(١) انظر المدزك والغامض: ٨٨.

إن المشكلة الحقيقة ليست مشكلة العقل البدائي، لكن مشكلة الذين يحملون عقلاً بدائياً في زمان شديد التعقيد، واسع الخيارات، ثري بالخبرات والموازنات ! .

٩ - المستحيل درجات عديدة:

تعود كثير منا إطلاق الألفاظ الدالة على الاستحالة، أو عدم الإمكان دون تحديد لدرجة الاستحالة، ودون أي تعليل لذلك؛ مما أوجد اختلالات عديدة في الذهن .

إن عودة الحياة التي كانت سائدة منذ ألف عام بكل مكوناتها وتكرارها مرة أخرى - مستحيلة؛ لأن تغييرات كيميائية وفيزيائية كثيرة وقعت، وهي غير قابلة للارتداد نحو الوراء. وهذه الدرجة من الاستحالة تكون مطلقة.

إذا طلبنا من رجل لم يتلقّأ أي تعليم أو تدريب أن يكتب اسمه، أو يقود طائرة، فإننا نكون قد طلبنا منه مستحيلاً مؤقتاً، وهو مستحيل بالنسبة لشخص واحد. وإذا تعلم الرجل أو تدرب التدريب المطلوب صار ذلك المستحيل بالنسبة له ممكناً.

وقد كان الصعود إلى القمر بالنسبة لعامة الناس قبل مئة سنة مستحيلاً استحالة مطلقة - وهو إلى الآن ما زال مستحيلاً في نظر بعض الناس! أما العلماء الذين يرون إمكانات الحاضر، ويمدون قرون الاستشعار في جوف المستقبل، فقد كان الصعود إلى القمر في نظرهم مستحيلاً استحالة مؤقتة، ريثما تتوفر بعض الشروط الضرورية . . .

إن العاجزين والخاملين وأصحاب الكسل الذهني تحجّبهم قسوة المعطيات الحاضرة عن رؤية الإمكانيات الكامنة ! .

أما أهل البصيرة والخبرة فإنهم يرون أن كل حركة في الاتجاه الصحيح تنزع لبنة من صرح المستحيل، وتنقلنا خطوة من دائرة المستحيل إلى دائرة الممكن، ثم إلى دائرة المتحقق الذي يصبح حدثاً غابراً في يوم من الأيام.

إن القصور في فهم الواقع وحدود الممكن هو الذي يجعلنا نضفي على الممكّنات سمة المستحيلات؛ وإن علينا أن نوجّد عقلية تركيبية، ترى وجه الاستحالة فيما نعده مستحيلًا إلى جانب الشروط التي إذا توفّرت صار المستحيل ممكّنًا.

١٠ - التفكير بالمستقبل قضية مصيرية :

الشعوب البائسة شعوب بلا مستقبل؛ لأن بؤسها الشديد لم يترك لها أية فضلة من وقت أو جهد للتأمل في واقعها، أو مد النظر نحو مستقبلها. ولا ريب أن جزءاً من بؤسها يعود في الأصل إلى أن الواحد منهم لم يفكّر أبداً في (الغد)، ومن ثم فإن تصرفاته تتسم دائمًا بالآنية المغلقة والمقطوعة الصلة بأية اعتبار من الماضي أو مراعاة لما تأتي به الأيام من أحوال وظروف. وإنني لأتساءل هل الذي ينفق جل كسبه اليومي على (القات) وغيره من المكيفات، ويترك أطفاله فريسة لسوء التغذية - يكفر بمستقبل تلك الذرية الضعيفة التي أوثمن عليها؟!

وهل الذي ينفق كل ما يأتيه دون أن يدخل منه شيئاً لمناسبات مهمة، أو لاستثماره لتلبية الحاجات المتزايدة لأسرته - يفكّر بالمستقبل؟ . إن المشكلة أن مناهجنا الدراسية تشغل أذهان الطلاب بأحداث الماضي، وترهقها بالحفظ لما هو مهم، ولما ليس مهمًا، ولم نر منهاجاً واحداً في أي مرحلة دراسية يعلمُ الطالب التفكير المستقبلي الذي بدونه لن يكون من الممكن ترشيد الواقع الذي نعيشه.

إن ثقافة الاهتمام بالمستقبل تحتاج إلى تعميم واسع من خلال كل الوسائل المتاحة، ويجب أن يساهم فيها جهات عديدة.

إن الحاضر سيظل أقرب إلى التسيب والضياع ما لم نضغط عليه بظموحات وأمال مستقبلية تتطلب استثماره والتصرف فيه بحكمة وبصيرة.

١١ - الفكاك من النمطية شرط للتتجدد:

فطر الله - تعالى - العقل البشري على العمل ضمن مسارات محددة،

وإذا ما تجاوز تلك المسارات حُطِّمَ منطقيته، ولم يجد منطقية أخرى تسعفه في الاستمرار في ذلك التجاوز. وهو لا يستطيع أن يفكِّر إلا ضمن أنماط معينة، يستفيدها من كسبِه الثقافي والمعرفي؛ ومع مرور الأيام يميل العقل إلى التطابق مع الأنماط السائدة، والخضوع لها، ويصبح إنتاجه عبارة عن تدعيم للواقع الموجود وإثرائه، دون تفكيره وتغييره^(١).

وليس من السهل على العقل أن يخرج عن كل الأنماط السائدة، لكن بإمكانه أن يتعد عن بعض الأنماط اتكاء على أنماط أخرى.

وعلى كل حال فإن (الإبداع) ليس سوى التحرر من أسر النمطية وحتميات الطبيعة ومقولات التاريخ. وإن هناك قدرًا مشتركًا بين الإبداع والفكاهة، فكلاهما خروج عن المألوف، والأنماط السائدة التي يسير عليها الناس في تفكيرهم.

إن الشرط الأول لكسر رتابة النمطية هو أن نعرض عقولنا للتنوع المعرفي، فنحكم (علم الأسس) وندقق النظر في الأصول، ونمتلك إلى جانب ذلك القدرة على الغوص نحو الفرعيات لكن مع الاحتفاظ بالقدرة على العودة إلى الأسس مرة أخرى، حتى لا نضيع في الفروع، وحتى لا تنقلب الفروع إلى أصول، أو تتولد لدينا فروع من غير أصول.

إن كل الإبداعات الكبيرة كانت تخرج عن التفكير النمطي المألوف، كما كانت تنطلق من فلسفة جديدة للأسس والأفكار الكبرى؛ إنها في جوهرها طريقة النظر إلى المعلومات المتوفرة أكثر من أن تكون اكتساب معلومات جديدة.

(١) نجد هذا واضحًا عند بعض طلاب العلم الذين يتعصبون لشيخ أو طريقة أو مذهب، حيث يدورون في فلك بعض الأصول المتوارثة من المدح والتقدير واختراع الخصائص المohoمة. وأحاديثهم في مجالسهم الخاصة مكررة ومتشبهة، ولا يكتشفون ذلك إلا عندما يلتقيون بغيرهم، لكن ذلك لا ينفعهم، ولا يردعهم عما هم فيه، حيث يستطيع العقل إيجاد المسوغات لمخالفة الآخرين مهما يكن عددهم أو علمهم.

إن التنوع المعرفي يتبع لنا مجال المقارنة، وإدراك الخصائص العامة، والقواسم المشتركة بين جوانب الحياة المختلفة، هذا كله يتبع للعقل البشري إمكانات جيدة لتأسيس أنماط جديدة؛ مما يعني دفع عجلة الحياة إلى الأمام. وقد أظهرت إحدى الدراسات حول بعض المبدعين أنهم يميلون إلى أن يقرؤوا أكثر من خمسين كتاباً في السنة^(١). وهذا يعني أن استمرارهم في القراءة ذو تأثير في نبوغهم وتفوقهم.

إن إثراء مثاقفة التساؤل شرط ثان لإطلاق الطاقات الإبداعية؛ فالإسلام للمأثورات مصدر عظيم للتكرار، ومحمود نار الفكر؛ ولا مخرج من ذلك إلا بمحاولة العثور على أجوبة جديدة وتعليلات حديثة لكثير من الظواهر التي تعامل معها.

إن بعض الدراسات يذهب إلى أن العقل البشري لم يستمر منه حتى الآن إلا نحو ١٥٪ وإن الاستفادة من باقي إمكاناته الكامنة تحتاج إلى شروط تربوية وثقافية واجتماعية، لا بد من توفيرها، وإنما أسهل أن ينصلع العقل لأمر العادة والإلف والتطابق!

إن فائدة (الإبداع) لا تكمن في تسهيل الحياة وإثرائها فحسب، وإنما في كونه أعظم مصدر للتنوع وتحقيق الذات والتميز والشعور بالإنجاز؛ على حين أن (الاستهلاك) يجعل الناس بعضهم أشبه ببعض، وذلك مصدر مهم من مصادر السامة والضجر والتبلا.

١٢ - المرونة الذهنية شرط لكتافة التفكير في زمان معقد:

لا يستطيع العقل أن يعمل بكفاءة ما لم يأخذ من الوجود زاداً من المعنى؛ فالمعرفـة الجيدة هي التي تتيـح للعقل نوعاً جيداً من العمل. وقد اكتشف الإنسان في هذا العصر الكثير من العناصر وال العلاقات، لكن ذلك قد لا يؤدي إلى (المرونة الذهنية) بصورة تلقائية، بل قد يؤدي إلى إعطاء نتائج

(١) العبرية والإبداع والقيادة: ١٢٢.

تُصلب الذهن، وتقلل من فاعلية التفكير؛ فالعلاقات (اللينة) التي تربط بين كثير من الظواهر الإنسانية قد تتم قراءتها بصورة خاطئة، وقد يُظن أن الكشف العلمي قد أدى إلى معارف يقينية جازمة؛ مما يؤدي إلى تصليب المواقف أكثر فأكثر . . .

ونعني هنا بالمرونة الذهنية قدرة العقل البشري على إدراك الفروق الدقيقة بين الأشياء والمراوحة المستمرة بين الأسس والأصول وبين المسائل الفرعية التخصصية، وتعريضة الألفاظ والمصطلحات مما يعلق بها من شوائب الاستعمال والتقليد، من أجل بعث حيويتها في الدلالة والإيحاء؛ إلى جانب قدرته على التفلت من (القولبة) والنماذج الثابتة . . .

ولعلنا نفضل بعض هذه القضايا في النقاط التالية :

أ - إن من مظاهر المرنة الذهنية وتطبيقاتها القدرة على إدراك العلاقات (المتدرجة) بين الأشياء، فالحرام ليس درجة واحدة؛ وإنما هو درجات؛ فليست حرمة الغيبة مثل حرمة قتل النفس أو الزنا؛ والفرائض أيضاً درجات، فوجوب الصدق ليس كوجوب الصلاة أو الزكاة . . .

والأعداء أيضاً درجات، فهم قد يستوون في كرهنا وإرادة الشر لنا؛ لكن ربما يكون لدى بعضهم أولويات أو ظروف أو موازنات معينة تحول دون تشكيل خطر ناجز علينا . . .

وحين نتعامل مع أشياء ذات أوساط متدرجة فإن وضع الموسى على المفصل يكون أمراً تقديرياً اجتهادياً، فمن الصعب في لوحة زيتية ذات ألوان متداخلة أن نقول: هنا يبدأ اللون الأصفر، وينتهي اللون البرتقالي، ولو فعلنا ذلك لوقعنا في التعسف والتحكم.

الدرج قد يظهر في مسائل جوهرية، فقد يقول فقيه من الفقهاء عن مسألة إنها من مسائل الأصول، على حين يقول فقيه آخر إنها من مسائل الفروع. وقد يقول عالم في مسألة: إنها عقدية، على حين يقول عالم آخر: إنها مسألة فقهية اجتهادية. وهكذا فقد ننظر إلى عنصر من العناصر بأنه

أساسي في خطة ما، على حين يرى غيرنا أنه هامشي، وقد نطيل في ذلك الجدل دون أن نصل إلى أية نتيجة. ولا ينبغي أن يُفهم من هذا أن كل شيء قابل للخلاف، ولكن المقصود أن بين ما لا يُشك أنه أصل، وما لا يُشك أنه فرع (منطقة برزخية) تحتمل الخلاف الجدي؛ لأنها تحمل من خصائص الطرفين، وتظل قابلة للنزاع، مهما كان احتياطنا عظيماً.

ب - القدرة على إدراك الفوارق الدقيقة بين الأشياء مظهر آخر من مظاهر المرونة الذهنية. وفي هذا الصدد يمكن القول: إن المرء حين يحاول إيجاد شبه بين الأشياء؛ فإنه سيجد أكثر من وجه في أكثر الأحيان لكن المهم أيضاً لا ننساق وراء التشابه الجزئي وننسى الفوارق العظيمة التي تميز بين المشابهات. ونجد في هذا السياق - على سبيل المثال - أن بعض الدعاء يرى أن حالة المسلمين اليوم تشبه حالتهم في مكة حيث الضعف الشديد، وتكلّب الأعداء مع قلة الحول والطموح. ويمضون في ترتيب الأحكام على ذلك بما يؤدي إلى انحرافات خطيرة؛ فهناك من لا يرى إقامة صلاة الجمعة؛ لأننا في حالة تشبه الحالة المكية، وهناك من يرى اعتماد عين الوسائل التربوية التي اعتمدتها النبي ﷺ في مكة؛ بل إن هناك من يقدر مدة لتجاوز المحن والانتقال إلى المرحلة التالية كتلك المدة المكية، أي ثلات عشرة سنة وهكذا...

وغاب عنهم أن كثيراً من الأحكام والفرائض لم يكن متزاً في مكة، على حين أنها مكلفوون بها اليوم. كما غاب عنهم أن آليات نشر المنهج الرياني وتبلیغ الرسالة يجب أن تتطابق مع عصر استخدامها، وأن ما كان من الوسائل ناجعاً في الماضي قد لا يكون صالحاً اليوم.

بعض الناس يشتبه الهجمة الحديثة على أمّة الإسلام بهجمة التتار أو الصليبيين، ويعتقدون أن آليات المواجهة والمدافعة لا تبعد كثيراً عن آليات مدافعة الهجمات السابقة.

وفاتهم أن الوضعية العامة لأمة الإسلام لم تكن تختلف كثيراً عن وضعية الصليبيين على المستويين الحضاري والعسكري، كما أن التتار قوم

همج، واجهوا أمة متحضرة، على حين أن المسلم يرى أن أعداءه اليوم متوفون عليه في المعرفة والتنظيم والتقدم الصناعي، وينظر في الوقت ذاته إلى قومه بعين الاستخفاف حيث الجهل والفقر والفوضى والحروب الأهلية . . .

وهذا يعني أن أسلوب المدافعة ووسائلها مختلفة كلّاً.

ج - من أمارات المرونة الذهنية وزن مصادر المعرفة بطريقة صحيحة، وعدم الخلط بين معلومات تفيد الظن، وأخرى تفيد اليقين. وقد حاول علماء المسلمين القدامى استخدام صحة الإسناد والبرهنة العقلية والمنطقية سبيلاً للوصول إلى عصمة الذهن من الخلط بين القطعي والظني، ووصلوا في ذلك إلى ضوابط رائعة، لكن المشكلة كانت دائمًا في القدرة على تعميم تلك الضوابط بحيث تصبح جزءاً من ثقافة الناس، وفي استخدامها وتطبيقها خارج نطاق العلوم، أي في الحياة اليومية والمواضف المختلفة.

هناك فارق مثلاً بين معلومات، مصدرها الاستقراء، وأخرى مصدرها القياس. لا شك أن المعلومات التي مصدرها استقراء كامل قد تقترب من القطعية المطلقة، كما لو استقرأنا رأي أعضاء مجلس من المجالس حول قضية ما، فإن من الممكن أن نقول: إن ٥٩٪ يرون كذا و٤١٪ يرون كذا. ويكون كلامنا ذا دلالة قطعية يقينية.

أما إذا أردنا معرفة رأي شعب تجاه حادثة، وقمنا بسؤال (٤٠٠٠) شخص حول رأيهم في تلك الحادثة، ثم قلنا إن ٩٠٪ من الشعب الفلاني يرى في تلك الحادثة كذا، بناء على أن ٩٠٪ من العينة ترى ذلك - فإن نتيجة ذلك الاستقراء ستكون ظنية؛ لأننا استخدمنا استقراء ناقصاً، وعمّمنا نتيجته عن طريق القياس. وقد صار من المألوف اليوم أن تتجه استطلاعات الرأي إلى الحكم بفوز شخص، ثم يفوز غيره.

إن في استخدام القياس استخداماً لعناصر ذهنية في أمور حسية، لا يحكمها نمط أو نموذج محدد، وذلك لا ينبع عنه سوى التنتائج الظنية.

ومصدر المعلومة المستخدمة مهم كذلك في اعتبار صحتها وصدقها فقد ترد المعلومة عن شخص غير مطلع، وقد يكون مطلاً لكن لهوئ في نفسه قال غير الحقيقة . . .

د - نحن دائماً على صلة بعالمين مختلفين: عالم المدركات الواضحات، وعالم الغرامض والمبهمات. وقد جرت العادة أن نستخدم (الفلسفة) وسيلة للتعامل مع المسائل الغامضة. أما الأمور الواضحة فإننا نسيطر عليها من خلال التجربة والملاحظة وإدراك أبعادها المختلفة.

والحقيقة أن التعامل مع القضايا المختلفة يمر بثلاث مراحل: مرحلة الفروض والأحكام التخمينية، فإذا انجلت لنا قضية، وصدق فيها حدستنا بدأنا نتعامل معها عن طريق المعلومات والأرقام والمحددات المعرفية. فإذا زادت سيطرتنا على تلك القضية، وأمكن إدخالها في حيز التطبيق والتصنيع صارت تعد في حيز الفنون العملية. وهكذا تنتهي الفلسفة إلى أن تكون فناً، أي أنها تتقلل من الحيوية والإبداع إلى الجمود والنمطية والآلية.

ومن المهم أن نفرق بين معطيات الفلسفة ومعطيات العلم؛ فمهمة الفلسفة لا تتجسد في مدننا بالمعلومات، وإنما في زيادة شفافيتنا، وفسح المجال أمام استشراف المستقبل، وتكوين قدراتنا في مجال التحليل والتعليق؛ إنها تعلم الشمول، لكنها لا تمنع أبداً الدقة، ولا تسعفنا باليقين.

أما العلم فإنه على العكس من ذلك، فهو يوقفنا على جملة من الخبرات الجزئية الدقيقة، لكنه ينفر من التعامل مع غير المحدد والمتبادر والملموس^(١) إن معرفتنا بإرواء الماء وتمدد الحديد وعناصر تركيب الهواء لا تخضع لأي تخمين شخصي أو قياس أو استنتاج، ومن ثم فإنها معرفة تستوجب الاطلاع، ولا تحتمل الجدل.

أما تفكيرنا بالمستقبل وتحليلنا للأحداث المختلفة وتفسيرنا للمواقف،

(١) لا نعني بالملموس المحسوس، وإنما نعني ما يمكن البرهنة عليه.

كل ذلك يشتمل على فراغات معرفية كثيرة، وهذه الفراغات تُملأ عادةً عن طريق التفلسف والتحليل والتقدير؛ مما يجعل موقف جميع المتحاورين حولها مائعاً، ويعيدها عن اليقين.

ويظهر التصلب الذهني بوضوح في هذه القضايا، حيث يدافع أكثر الناس عن وجهة نظرهم ورؤيتهم لحدث ما دفاعاً مستميتاً، وتُبَدَّد الساعات الطوال في البرهنة على قضية لا ينفع معها البرهان، ولا الجدل الطويل.

أما صاحب الذهن المرن، فيعرف أنه يقف على أرض هشة، وأن ما تجمع لديه من مقدمات ومعلومات لا يمكن أن يجعل تحليله قطعياً، ومن ثم فإنه يكتفي بعرض وجهة نظره، ويبدى رأيه في وجهة نظر الآخرين، ويترك لمناظريه الخوض في الظنون والأوهام ومحاولات القبض على السراب !! .

هـ - العقل المرن يفرق بين القيمة الأصلية والقيمة الإضافية للأفكار والأساليب والأشياء .. في مجال الإصلاح الشامل - مثلاً - تكتسب التربية الصحيحة للأجيال أهمية خاصة؛ حيث إن المجتمع لا يمكن أن يكون في النهاية أقوى من مجموع أفراده.

أما القيمة الإضافية فتتجلى في إمكان القيام بالتربيـة المطلوبـة في أجواء يسودـها الفسـاد والخـوف والانـغلـاق والـطـغيـان .. فإذا قلـنا إن التـربيـة الجـيدة يمكنـ القيام بها في هـذه الأـجوـاء؛ فـهـذا يـعـني أن التـربيـة تـكتـسب قـيمـة إـضافـية؛ حيث لا يـحتاجـ القيام بها إلى إـصلاحـ المناـخـ العامـ الذي يـأخذـ فيـ العـادـةـ وـقـتاـ طـوـيلـاـ، وـهـذا يـعـني توـفـيرـ الكـثـيرـ الكـثـيرـ.

أما إذا قلـنا: إن التـربيـة المطلوبـة لا تـتمـ في تلكـ الأـجوـاء؛ فإنـ التـربيـة تـفقدـ الـقيـمةـ الإـضافـيةـ، كماـ أنـ الإـلاحـاحـ عـلـيـهاـ قـبـلـ توـفـيرـ أـجوـانـهاـ يـفـقـدـ الكـثـيرـ منـ قـيمـتهـ؛ لأنـ حـصـولـهاـ عـسـيرـ آـنـذـاكـ وـمـحـدـودـ. وـذـلـكـ كـلـهـ لأنـ أـهـمـيـةـ تـطـبـيقـ منـهجـ أوـ فـكـرةـ أوـ أـسـلـوبـ تـتـنـاقـصـ كـلـمـاـ كـانـتـ شـروـطـ تـجـسيـدـهـ أـكـثـرـ أوـ أـشـقـ؛ وـكـلـمـاـ كـانـتـ الفتـةـ التيـ يـمـكـنـ إيـصالـهـ إـلـيـهاـ أوـ قـيـامـهاـ بـهـ ضـئـيلـةـ وـمـحـدـودـةـ، وـالـعـكـسـ.

إن مما يؤلمني أن كثيراً منا يطالب بنشر أفكار طيبة، دون أن يغير أدنى اهتمام لتدبير الوسائل والآليات التي تجعل نشرها ممكناً، أو التفكير فيما إذا كان توفير تلك الوسائل هو من الممكن أصلاً!

و - العقل المرن يرتب أولوياته بشكل جيد، ويدرك العلاقات المباشرة وغير المباشرة، والعلاقات الجدلية والخطية بين الأشياء، وهذا كله يمنحه بصيرة خاصة، تحمله على رؤية شاملة للوضع الراهن.

وعلى سبيل المثال لا الحصر يفرق العقل المرن في المسائل الحضارية بين الشروط والواجبات^(١)، وهذا التفريق ضروري لأن الوضع العملي آنذاك يكون مختلفاً. فإذا قلنا إن التحسين المقبول للشروط السياسية والاجتماعية والاقتصادية واجب على الدعاة والمصلحين، فإن المرء يقوم بها جميعاً، ويحاول أن يرتب بينها بحسب البلد والظرف، وبحسب اجتهاده، ويصبح تحسين كل منها مطلباً مقصوداً لذاته، وليس لأي اعتبار آخر.

أما إذا قلنا إن تحسين ما ذكرناه ليس واجباً لكنه شرط للرقى بالإنسان المسلم، وشرط للتمكين لدين الله - تعالى - في الأرض فإن ذلك يعني أمرين :

الأول: أن إصلاح المناخ العام يصبح ذا أولوية ما دام شرطاً؛ فال موضوع سابق على الصلاة، وتوفير الماء له هو ما يشتغل به من يريد الصلاة أولاً.

أما الأمر الثاني: فهو أن النظر إلى الشيء على أنه شرط يجعل المرء لا يقف عنده، بل يتخرّه هدفاً مرحلياً يتسلّل به إلى تحقيق الهدف النهائي الذي هو تمكين المسلم من القيام بأمر الله، وتمكين الرسالة الخاتمة من بلوغ الآفاق، وإذا وضع كل ذلك فإن المسلم ينظر إلى الرخاء الاقتصادي - مثلاً - على أنه شرط، لا معنى لإيجاده إذا لم تتجاوزه إلى المشروط؛ وما معنى أن تستقبل القبلة، ونقف على مكان طاهر دون أن نصلّي؟! .

(١) يختلف الفقهاء أحياناً في أمر هل هو من قبيل الشروط أو من قبيل الواجبات.

ومن وجه آخر فإن المرونة الذهنية تقتضي إدراك العلاقة بين الشرط والمشروط؛ فالوضوء شرط لصحة الصلاة، لكن هذا الشرط ليس وحيداً، ومن ثم فإن هذا لا يعني أن كل من توضاً صحت صلاته، فقد يكون غير مستقبل للقبلة، أو غير ظاهر الثياب.. وكذلك ما نحن فيه من قضية الإصلاح والتقدم، فتحقيق تحسن اجتماعي، أو اقتصادي لا يعني بصورة آلية أن وضع التدين والالتزام سوف يتحسن، فهناك دول فيها انفراج سياسي، ورخاء اقتصادي وتقدم اجتماعي، لكنها علمانية. إذ لا بد من اعتبار هذه الأنواع من التحسن فرصةً مواطنة للقيام بعملية الهداية، وصقل المسلم... وهذه الفرص قد يتم استغلالها، وقد تُضيئُ.

العقل البليد لا يفرق بين الشرط والواجب، ولا يدرك طبيعة العلاقة بين الأسباب والمسببات في الحقول الإنسانية، ولا يعرف أنها ليست صارمة ولا اطرادية، بل يظن أن العلاقات بينها أشبه بالعلاقة بين الحرارة وتمدد بعض المعادن؛ فيؤدي ذلك إلى أن توكل أمور لا بد من القيام بها، إلى قانون ليس مسؤولاً عن إيجادها!

إن إهمال (علوم التفكير) و المعارفه وأدبياته يمكن أن يؤدي إلى اختلالات ذهنية كافية لإضاعة جهود جيل كامل !.

١٣ - سيظل التزام الموضوعية أمراً نسبياً:

الخلط بين المطلق والنسيبي ليس أمراً مستغرباً، بل هو الأصل؛ إذ إن رؤية (المطلق) أسهل من رؤية النسيبي، وكأن بنية العقل البشري مفطورة على ذلك، ولأن ملاحظة (النسبية) لا تتم إلا عند وجود مقارنات جيدة وصحيبة؛ وهي ليست متاحة دائمًا.

المبادئ والأفكار والخطط والطموحات والخيالات، كل أولئك من باب المطلق، ولا تظهر نسبية شيء من ذلك إلا عندما يتشخص في الواقع. ومجرد نزول شيء من ذلك إلى الميدان العملي الطبيعي يُخضعه لقيود الزمان والمكان، وتأثيرات الإمكانيات والثقافات والموازنات المختلفة... وعلى هذا

فالصدق والبعد عن الهوى والمهارة والحكمة، كل ذلك قيم مطلقة، لكن اتصف الناس والأمم بها بتفاوتاً عظيماً.

هذه المقدمة ضرورية لوضع النقاط على الحروف في أمور عديدة؛ فكثيراً ما تتحدث - على سبيل المثال - الحكومات والشعوب عن إنجازات ضخمة حققتها؛ وما يذكر من حقائق وأرقام قد يكون صحيحاً، لكن عندما نلاحظ مسألة (النسبة) ندرك أن تقويم الإنجازات على نحو مطلق شيء لا معنى له، إذ إنها مثل (الأرقام) تماماً عبارة عن أعداد مبهمة ما لم يتبعها تمييز؛ فقيمة أي إنجاز توزن من خلال أمرين: ما أجزءه الآخرون، وما هو متاح من الإمكانيات^(١). وحين نلاحظ هذين الأمرين تبرز النسبة، وتظهر الأمور على حقيقتها!

ومهما ادعينا الموضوعية في البحث العلمي، فإن الفصل التام بين الذات والموضوع يكاد يكون ضريراً من المستحيل؛ لأنه لا يمكن التعامل مع أي موضوع دون التفاعل معه بعاطفة إيجابية، وذلك قد يؤدي إلى توحيد الوعي مع الواقع وإضفاء الرغبات أو المقاصد الذاتية على موضوع البحث. وهذا واضح فيما يختلف الناس من أسباب الحب والاحترام عندما تتعلق قلوبهم بشخص أو ثقافة أو شيء ...

إن المشكل الأكبر في سيطرة الأهواء على الناس لا يتجلى في الرضوخ للأهواء الظاهرة والميول المكشوفة، وإنما في الشروط النفسية والثقافية والبيئية وأوهام العصر، التي تحكم بكل علاقة بين الذات المفكرة وموضوع التفكير؛ وبغض النظر عن وعي الباحث بها وعدمه.

ليس من السهل على أي إنسان أن يتخلى الشروط الخاصة الذاتية والموضوعية التي تحدد وعيه وطريقة تمثله للواقع، وتفرض عليه رؤية خاصة تميزه عن غيره.

(١) أخرج النسائي في سنته أن النبي ﷺ قال: «سبق درهم مائة ألف درهم» فالصدق بالدرهم من لا يملك سواء أعظم دلالة على سخاء النفس من مائة ألف، تصدق بها من يملك عشرات مثلها.

وليس من السهل على أحد تجاوز محدودية قيم ثقافته أو عالمه الثقافي وعاداته وتقاليده ومشاعره الشخصية والدينية والوطنية؛ حتى لو ادعى إنكارها، وليس من اليسير عليه تجاوز أوهام الحقيقة وأفكارها السائدة.

وليس هناك أي نظام للوقاية من أهواء الذات ومغريات الواقع^(١).

نعم هناك مجاهدات وتبصّرات وإجراءات عديدة، في إمكانها جعل الباحث يقترب من الموضوعية، ويشعر بالاطمئنان النسبي إلى حياده وإنصافه.

أول تلك الإجراءات أن ندرج أنفسنا على سماع رأي الآخرين في الموضوع الذي نفكّر فيه، وأن نحاول الاهتمام به بدل تجاهله أو تقويل الناس ما لم يقولوا^(٢). وفي ذلك نوع من الخروج عن الأنماط الفكرية التي يكونها فكرنا لنفسه من أجل تسهيل عمله.

وثاني تلك الإجراءات إبراز عواطفنا نحو الموضوع، وإخراجه من اللاوعي إلى الوعي؛ حتى لا تعمل عملها الخفي دون أن ندرّي.

ولا ريب أننا لا نستطيع أن تكون حياديّن تجاه انتمائنا لعقيدتنا وثقافتنا وأمتنا، ونحن لا نجد مناصًا من أن نذكر إيجابياتنا من أجل رفع المعنويات وتدعيم الآمال، كما نذكر المثالب بصورة مختصرة، وفي سياق التأكيد على قدرتنا على تجاوزها. وهذا كله طبيعي، و موجود لدى كل الأمم؛ ومن ثم فإننا إذا قبلنا بقسط من (اللاموضوعية) في رؤيتنا لقضاياها وخصوصياتها فإننا تكون قد أخذنا بعين الاعتبار العوامل الذاتية والإنسانية التي لا يستطيع النظر العلمي أن يدركها. وبهذا تكون في قمة الموضوعية التي تستوعب كل العوامل، ولا تتجاهل أيًّا منها^(٣).

وثالث تلك الإجراءات يتعلق بنتائج البحث وال الحوار والتفكير، حيث إن اعترافنا بعدم بلوغ الموضوعية التامة ينبغي أن يدفعنا إلى عدم التصلب

(١) انظر أغتيال العقل: ٧٥.

(٢) السابق: ٦٨.

(٣) السابق: ٧٦، ٧٧.

والتشبّث الشديد بالنتائج التي نتوصل إليها؛ إذ من المحتمل أن تناح المعلومات التي أتيحت لنا، لباحث آخر، ثم ينتهي إلى نتائج مغايرة. وربما تحول الباحث نفسه عن بعض الرؤى والمقولات التي أسلمه إليها البحث إلى رؤى جديدة نتيجة استمرار البحث أو التغيير في زوايا الرؤية. وقد كان علماؤنا القدامى على وعيٍ تامٍ بظنية نتائج اجتهاداتهم حين قالوا: مذهبنا صوابٌ يحتمل الخطأ، ومذهب غيرنا خطأً يحتمل الصواب. وهذا غاية الإنصاف وغاية الموضوعية!

وأخيراً فإن مما يساعد على الحكم الموضوعي أن نقوم بتقسيم الموضوع إلى أكبر عدد ممكن من الجزئيات، ثم القيام ببحث كل جزئية على حدة؛ لأن هذا يمكننا من السيطرة التامة على الموضوع، كأن تدرس أسباب قضية ما ومظاهرها والعناصر المؤثرة فيها والنتائج التي يمكن أن تتمحض عنها، وكيفية العلاج . . .

ويمكن أن يكون تحت كل جزئية من هذه جزئيات عديدة.

واني أعتقد أن تجزئة القضية موضوع البحث سوف تساعد على تشتت بنية الانحياز والتغصّب للموضوع أو ضده، من خلال التنقل بين جزئيات متنوعة إلى حد ما، ولا سيما إذا اتبعنا طريقة تفكيك بنية المعالجة العلمية، كما ستحدث عنه فيما بعد.

وعلى كل حال فإن التدريب على مقاومة الهوى ومحاولة رؤية المسألة من جميع الزوايا يساعدان على الارتقاء نحو الإدراك والحكم الموضوعيين.

(٣) تقنيات في تنمية التفكير

المقصود بالتقنيات هنا مجموعة الأساليب والأدوات والإجراءات التي تساعد إمكاناتنا الذهنية على الارتفاع، وتحسن من كفاءة التفكير لدينا.

ونحن نعتقد أن تنمية التفكير تستحق الاهتمام الخاص، حيث يشتد الطلب اليوم على الإنسان الفذ الذي يستطيع استخدام إمكاناته الذهنية بصورة جيدة، وحيث يتطلب تزايد المشكلات على الصعيد الإسلامي عقولاً من نوع خاص.

وسوف نركز في الصفحات التالية على ما نظنه يرقى بقدرة التفكير على حل المشكلات وطرح البديل واكتشاف الخيارات، وذلك من خلال النقاط التالية:

١ - تنمية الإبداع:

التفكير الإبداعي تفكير يؤدي إلى إنجاب شيء جديد لم يكن معروفاً - على مستوى ما - من قبل. وتطلق صفة الإبداع على الخيال متى قام تلقائياً في إنشاء مجموعة جديدة من الأفكار والصور. إن الإبداع يعني تأليفاً بين الأفكار وتركيبها تركيباً فذاً، وذلك حين تكون الثمرة العقلية أكثر من مجرد خلاصة جماعية للأجزاء. إنه الإتيان بقاعدة جديدة، أو اكتشاف لقانون جديد، أو استخراج لشكل جديد غير مألوف....

إن نوعاً من الخفاء يلف جوهر العملية الإبداعية التي يقوم بها الدماغ، ومن ثم فإن جدلاً يدور حول إمكان زيادة القدرة الإبداعية من خلال التعليم والتدريب.

وأتصور أنه لا ينبغي الخلاف في رفع كفاءة الفرد، وزيادة مهاراته في توظيف الطاقات المبدعة لديه. ويمكن أن يتركز الجدل حول فائدة التدريب في زيادة القدرات الإبداعية نفسها^(١).

إن عملية الإبداع تخضع لعوامل أساسية ثلاثة، هي النشاط العقلي، والأبعاد الوجدانية (سمات الشخصية)، وأنواع المناخ. والباحثون في هذا المجال يؤمنون بصيغة أساسية، مؤداتها: أن الإبداع هو محصلة لما يشهده (اللقاء السعيد) بين أعلى الوظائف العقلية كفاءة، وأكثر الخصال الوجدانية في الشخص المبدع فعالية، وأفضل أنواع المناخ ملائمة للتفكير المبدع^(٢).

تغير نظم التعليم وتحويلها من التقليد إلى تقديم المعلومات المعلبة الجاهزة^(٣)، إلى تعليم يثير التساؤل ويعتمد الاستنتاج، شرط ضروري لتحسين التفكير وتنمية الإبداع. وما زال إتفاقنا على التعليم محدوداً، وما زالت هناك مشكلات كثيرة تحول دون أداء المدارس لوظيفتها المنشودة.

في الميادين العملية تجارب كثيرة لتنمية الإبداع، لا تسمح لنا هذه المساحة باستعراض الكثير منها، فلنقتصر على بعضها:

أ- القصف الذهني:

من أهم الأساليب وأكثرها شيوعاً في تنمية الإبداع ما يسمى بالـ(القصف الذهني) ويقوم هذا الأسلوب على مبدأين: أحدهما يقضي بتأجيل النقد أثناء جلسات توليد الأفكار التي تُعقد للتدريب على مهارات حل المشكلات، والثاني: يتلخص في معنى أن «الكم يولد الكيف».

(١) انظر تنمية الإبداع: ١٦.

(٢) السابق: ١٩.

(٣) أجريت دراسة مقارنة على بعض الطلاب الغربيين والشرقيين، فتبين أن ذاكرة الطالب الشرقي أفضل (نفراً لكتلة ما يحفظ) من ذاكرة الطالب الغربي وحين عرضت مشكلات تتطلب حلولاً كان الطالب الغربي أقدر على حلها؛ لأنه تعلم بطريقة أقرب إلى التفكير.

وينطوي هذا المبدأ على التسليم بأن الأفكار والحلول المبتكرة للمشكلات تأتي تالية لعدد من الحلول غير الجيدة. ومن ثم فإنه لا بد من استنفاد كل الأفكار التقليدية والتداعيات المألوفة؛ حتى نصل في النهاية إلى استقبال الأفكار الأصيلة والأراء المبدعة.

وهناك قواعد أربع تترتب على هذين المبدأين، هي :

- ضرورة تحجب النقد أثناء جلسات (القصف الذهني) سواء أكان ذلك من قبل بعض الحاضرين أم من قبل صاحب الفكرة؛ فالوقت وقت تفريغ واستنزاف للأفكار؛ والنقد يوقف طوفان التداعيات الذهنية.

- إطلاق حرية التفكير والترحيب بكل الأفكار مهما يكن مستواها، ما دامت متصلة بالمشكلة موضوع الاهتمام. وترسخ هذه القاعدة فكرةً، محتواها: كلما كانت الفكرة فجة أو بكرةً، أي: غير معقولة، ولا مشدبة كانت أفضل؛ فالمهم وجود أفكار، وسيكون تشذيبها فيما بعد أسهل. والغرض من هذه القاعدة مساعدة الفرد على أن يكون أكثر استرخاء وأقل تحفظاً، وبالتالي أعلى كفاءة في توظيف قدراته على التخييل وتوليد الأفكار.

- الكم أساسى في توليد الأفكار الأصيلة، وهذه القاعدة مبنية على المبدأ الثاني، وتنطوي على معنى، هو: أنه كلما زاد عدد الأفكار المقترحة من أعضاء الجماعة زاد احتمال بلوغ قدر أكبر من الأفكار الأصيلة أو المُعينة على الحل المبدع للمشكلات.

- البناء على أفكار الآخرين وتطويرها. والمقصود بهذه القاعدة أن تشحد دافعية المشاركين في جلسة القصف الذهني على أن يضيفوا لأفكار الآخرين وذلك بأن يقدموا ما يمثل تحسيناً أو تطويراً لها، أو يشكل مع غيره من الأفكار التي سبق طرحها في الجلسة تكوينات جديدة^(١)....

(١) السابق: ٢١ وما بعدها.

ب - التغيير في الخصائص:

وهو أسلوب بسيط و مباشر للتفكير في مقتراحات أو توليد أفكار تستهدف تحسين أو تعديل منتج ما. ودور الشخص الذي يستخدم هذا الأسلوب أن يحدد أولاً ما هو هام وأساسي من الخصائص المميزة لهذا المنتج، وأن ينظر إلى كل خصيصة من هذه الخصائص على أنها عنصر قابل للصور عديدة من التغيير أو التحسين. وعليه بعد ذلك طرح أكبر عدد ممكن من الأفكار أو مقتراحات التطوير الممكنته بالنسبة للخصيصة المعينة.

إذا كنا في صدد تطوير جهاز (هاتف) مثلاً أمكن طرح أسئلة حول اللون والشكل والوزن والحجم واستخدام الأزرار بدل القرص والمادة التي يصنع منها، وكيفية وضعه على المنضدة أو تعليقه على الجدار، وما يمكن أن يضاف إليه من ميزات وكماليات، مثل عداد الوقت أو الأجرة المستحقة . . .

ج- برنامج (بوردو):

قامت بتصميمه مجموعة من الباحثين في جامعة (بوردو) في الولايات المتحدة، من أجل تنمية قدرات إبداعية محددة، هي : الطلاقة والأصالة والمرونة والتفصيل. وقد أعدَّ هذا البرنامج لتدريب طلاب الابتدائي (من الصف الثالث إلى الخامس) على التفكير المبدع، ولتعزيز هذه القدرات بوجه خاص.

ويتكون هذا البرنامج من سلسلة من الدروس (٢٨ درساً) مسجلة على أشرطة بأصوات إذاعية مدربة، ويعرض الطالب عند سماعه لها إلى نوعين من المعلومات :

- ١ - بعض الأفكار والمبادئ التي تؤدي إلى تحسين القدرة الإبداعية، ويستغرق ذلك بين ثلث إلى خمس دقائق.
- ٢ - قصة أحد رواد المبدعين من العلماء أو المستكشفين. وتستغرق هذه الفقرة من الدروس سبعاً إلى عشر دقائق.

ويعقب ذلك في كل جلسة تدريب تقديم عدد من التمارين التي تشتمل على مواد لفظية وشكلية مطبوعة، لتنمية قدرات الإبداع المختلفة.

وقد فُدِرَ لهذا البرنامج الذيع والانتشار. وقد كشفت الدراسات المختلفة عن فعاليته في تنمية الإبداع لدى طلاب المدارس^(١).

إن هناك أفكاراً تدريبية صغيرة كثيرة يمكن أن يستفاد منها مثل التدريب على رؤية العلاقات بين الأشياء والأفكار، والأساليب التي لم يتبه إليها أحد من قبل، ثم القيام بتصير المعطيات الجديدة في مركب جديد^(٢).

إن على الأسرة واجباً كبيراً تجاه تنمية الإبداع لدى أطفالها، وقد أظهرت إحدى الدراسات التي أجريت على عدد من علماء الطبيعة النابهين أن أفراد هذه المجموعة يشعرون باحترام كبير نحو آبائهم، ويرتبطون بأمهاتهم وجديانياً. وتوضح بعض النتائج أن مرونة الأسرة في السماح لأبنائها بالقيام بأي نوع من أنواع النشاط الاستكشافي العقلي أو اليدوي، وعدم عرقلتها بذلك النشاط له تأثير كبير في تشجيع الإبداع لدى الأبناء.

إن من قدرات الإبداع الأساسية الطلاقة، وإن الأسرة التي يسودها روح النقاش والتفاهم والمصارحة تساعد على تنمية هذه القدرة لدى أبنائها؛ على حين أن الأسر التي تعامل أبنائها بالتوبيخ والاستخفاف تكتبت نشاطهم الأدبي الداخلي، وتفقدتهم الثقة في أنفسهم، وتحرمهم من تجارب وثمار التعبير عن الرأي.

وأخيراً فإن تنمية الإبداع ليست تنمية للدماغ والمحاكمة العقلية فحسب، وإنما تربية الروح وحفز الهمة وبناء حب الاستطلاع والدهشة من الجديد. وقد يبدأ غالوا: العلم روح تُفعّل لا مسائل تُنسخ!

(١) السابق: ٤٦، ٤٧.

(٢) العبرية والإبداع والقيادة: ١٢٢.

٢ - التفكير الجيد مهارة يصنعها التدريب :

إن المهارة هي القدرة على الأداء بشكل فعال في ظروف معينة. ولا ينكر أحد أن ذوي الإمكانيات الذهنية الجيدة أقدر على الاستيعاب والاستفادة من التدريب من متوسطي أو ضعيفي الذكاء، لكن علينا أن نعتقد في الطرف المقابل أن الذكاء لا ينفع الذين لا يملكون سواه شيئاً. وإذا كان التفكير لا يعود أن يكون تطبيقاً غرّاً لذكاء فطري موروث، فليس أمام المرء عندئذ سوى القليل لي فعله^(١).

إن التدريب على التفكير الجيد كفيل بأن يجعل قدراتنا وملكاتنا الذهنية تعمل بصورة منظمة وواعية. وقد ذكر أحد أساتذة تعليم التفكير أن التفكير مهارة تستدعي عدداً من التغيرات النفسية والسلوكية، من أهمها ما يلي:

- مزيد من الإصغاء للآخرين، وقليل من الحديث مع أفراد جانبيين.
- تمركز أقل حول الذات.
- استخدام التفكير للاستكشاف بدلاً من استخدامه لتدعميم وجهة نظر معينة أو للدفاع عنها.
- استخفاف بآراء الآخرين أقل وتسامح أكثر إزاء وجهات النظر الأخرى.
- استخدام أشكال من التفكير غير تلك التي تُستخدم في النقد المحسض.
- معرفة ما ينبغي عمله بدلاً من انتظار تلقي فكرة من الأفكار.
- ابعاد أقل عن صلب الموضوع.
- مزيد من الرغبة في التفكير في الموضوعات الجديدة بدلاً من رفضها أو نبذها على اعتبار أنها سخيفة، أو غير ذات صلة بالموضوع.

(١) تعليم التفكير: ٥٧.

- مزيد من الثقة.

وهذه الصفات مطلوبة بصفة أساسية في حالات التفكير أو النقاش الذي يدور بين مجموعة من الأفراد^(١).

إن المهارة في التفكير لا تعني حلولاً غير نمطية، ولا سبراً أفضل للخبرة فحسب، إنها أكثر من ذلك بكثير، فهي تتضمن معرفة ماذا ستفعل؟ ومتى تفعله؟ وكيف؟ وما الأدوات الالزامـة؟ والتائـج المتوقـعـة؟ وما الذي ينبغي أخذـه بالاهتمام؟.

ومن أجل بيان أثر التدريب في ترقية التفكير وتحسين المحاكمة العقلية قامت مجموعة من الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين عشر سنوات وإحدى عشرة سنة في مدرسة ريفية بمناقشة اقتراح «منع الأطفال أجراً أسبوعياً من أجل ذهابهم إلى المدرسة». وكانت كل مجموعة تضم خمسة أطفال. وقد أخذت إحدى المجموعتين عشرة دروس في التفكير مع مدرس متـميز جداً.

أما المجموعة الثانية فلم تأخذ شيئاً، وهي (المجموعة الضابطة).

وقد تم تسجيل حديث كلا المجموعتين، وبعد الاستماع إلى الحوارين بين الأطفال تم رصد المناقشات التالية:

أولاً: المجموعة المدرّبة:

- لماذا ينبغي الدفع للأطفال؟ إنهم يتعلمون أموراً سوف تنفعهم عندما يكبرون.

- من أين ستأتي الأموال؟ ربما لا تتوفر أموال كافية لدفع أجور المعلمين. وقد لا تتوفر أموال كافية للتوسيع في المباني المدرسية. ويمكن إنفاق الأموال بصورة أفضل على أشياء أخرى كالحافلة الصغيرة التي تريد المدرسة شراءها.

(١) السابق: ٦٠.

- لا بد أن يأتي المال اللازم من دافعي الضرائب. فالأجور سوف تنخفض، وفي هذا ظلم لمن ليس عنده أطفال في المدرسة، يتلقاً مالاً.

- لا يقدر الأطفال المال، ولسوف ينفقونه في شراء الحلوي.

- سوف يكتفي بعض الأطفال بالجلوس في الصف دون أن يعملوا شيئاً.

فالسباحة لا تفيد أحداً، فلماذا يتبعون عليهم إذن أن يدفعوا أموالاً من أجلها؟ كما أنه قد يستغل بعض الأطفال النظام، ويقضون فترة أطول في الدراسة كي يحصلوا على مال أكثر.

ودار كلام آخر على هذا النمط، وانتهى الأطفال إلى خلاصة هي أن الأطفال لا يستحقون أموالاً، تُصرف لهم من أجل التوجه إلى المدرسة، كما أنه من أين ستأتي هذه الأموال؟

ثانياً: المجموعة الضابطة (غير المدربة):

إذا تقاضى المعلمون مالاً، فيتعين أن يتلقوا التلاميذ مالاً كذلك، ذلك لأن التلاميذ يبذلون جهداً أكبر مما يبذله المدرسون.

- إن ما يصرف للمدرسين كثير جداً، ولكنهم دائم الشكوى، بل يقومون بالإضراب.

- يحصل المدرسون على إجازات عديدة جداً، ويرغب التلاميذ في المزيد من الإجازات يجب مناقشة مدى طول فترة الإجازات، وأية مقتراحات بشأن الإجازات.

- مناقشة الشكوى حول أسعار الوجبات المدرسية، وحول تقديم الحليب مجاناً في المدرسة.

- يمكن إنفاق الأموال في شراء الحلوي أو حصان أو قارب، وما شابه ذلك.

- يبني السماح للأطفال بمضغ الحلوي في المدرسة.

خلاصة:

يتناقض المعلمون مالاً، ومن ثم يتتعين أن يتناقض الأطفال مالاً كذلك.

مقارنة عامة:

أظهرت المجموعة الضابطة ميلاً إلى الانحراف بالموضوع نحو ما يمكن تسميه بتفكير (النقطة التي تجر النقطة). فالنقطة التي تبرز في أثناء الحوار تفتح باباً جديداً للتفكير، على ما رأينا في العرض السابق.

ولم يذكر أبداً من أين سيأتي المال الذي سيدفع إلى التلميذ، أو ما إذا كانوا يستحقونها أم لا. لقد بدا أن التفكير يقوم على أساس عدائي حيث سعى كل فرد لإقناع الآخر بوجهات نظره؛ مما جعلهم يلتجأون إلى الاقتراع كحكم أخير في الموضوع.

وبالمقابل فإن المجموعة المدرية بدت كأنها تستكشف الموضوع أكثر مما تتصارع حوله. وقد التزمت بصلب الموضوع دون أن يتشعب نقاشها إلى مجالات أخرى^(١).

وتدل بعض الدراسات على أن الأطفال من سن التاسعة حتى الثانية عشرة مستعدون لمناقشة أية مشكلة تقريباً. وقد كان عند الأستاذ (دي بونو) مجموعات تناقش لمدة ثلاثة فصول بمعدل ساعة أسبوعياً دون مراقبة - المسألة الأساسية: هل يجب أن تدفع للفرد حسب حاجته أو حسب جهده؟.

وقد يرى بعض المدرسين مثل هذه المشكلات أكبر بكثير من مثل هذه الفئة العمرية. وقد يعود ذلك إلى الاعتقاد أن التفكير مثل المعرفة؛ مع أن الأمر مختلف إلى حد بعيد^(٢)...

(١) السابق: ٦٥ وما بعدها.

(٢) السابق: ١٨٢.

إن من أسرار تفوق الشعب الياباني عنائه الهائلة بالتدريب والتأهيل المستمر للعمال والموظفين، فالشركات لا تسُرّح الموظفين نتيجة تقليص الإنتاج وإغلاق بعض خطوطه، لكنها تعيد تأهيلهم في فروع إنتاج جديدة.

إن تعاظم حركة التدريب في اليابان والعالم المتقدم هو نتيجة لحكمة، تقول: «إعطاء الفرد سمكة واحدة، يوفر له غذاءه مرة واحدة. أما تعليم الإنسان كيف يصطاد السمك فإنه يضمن له غذاء متجدداً دائمًا»^(١).

٣- تحسين التفكير عن طريق القبعبات الست:

إن القبعبات الست ليست قبعبات حقيقة، وإنما هي عبارة عن مواقف نفسية عقلية يجري تقمصها خلال جلسات الحوار والمناقشة، أو خلال حالات التفكير الفردي، وهذا موجز لها:

- القبعة البيضاء:

تعني القبعة البيضاء أن يبدأ الفرد بطلب المعلومات والحقائق أولاً، ثم ينتقل إلى الوصول إلى نتائج. وإن على المرء ألا يطلب المعلومات غير المفيدة لموضوعه؛ حتى لا يتشتت الذهن، ويغرق في أرقام ومعلومات لا علاقة لها بها. وعلى المرء أن يتساءل أيضاً هل هو يريد الحقائق، أو يبحث عن الأفكار والمعلومات التي تدعم ما قرره سلفاً؟.

إننا لا نستطيع أن نعتمد على الحقائق الذائعة والمثبتة في كل أمور حياتنا، ومن ثم فإن علينا أن نكون على وعي بأن هناك طبقتين من الحقائق: حقائق ثابتة، وحقائق معتقدة لشخص ما. الحقائق المثبتة حقائق من الطبقة الأولى، إنها نوع من المسلمات التي انقطع النزاع حولها. أما الحقائق المعتقدة، فهي حقائق من الدرجة الثانية، إنها أقرب إلى أن تكون رؤى شخصية، ويمكن أن يجري حولها نزاع طويل. وليس المطلوب هو التخلص منها، وإنما تفكير القبعة البيضاء هو الحقائق الحيادية نضعها على الطاولة دون

(١) بنية التخلف: ٢٦.

محاولة إعطائها صبغة ما، ودون محاولة استغلالها لانتصار لفكرة أو دفع فكرة.

يقول (دي بونو): نحن نتعجب كيف لا يجادل اليابانيون، وهم يتتعجبون كيف نتجادل. يأتي اليابانيون للجتماع، وليس لدى أي منهم أي أفكار مسبقة (!) يأتون للاستماع، ويقدم كل منهم معلوماته الموضوعية، وتتشكل بالتدرج خريطة لقرار يساهم فيه كل منهم^(١).

- القبعة الحمراء:

هذه القبعة توفر الطريقة لإخراج العواطف والانطباعات والحدس، لتصبح تحت المراقبة والضبط. إن العواطف تصبح جزءاً من مشروع التفكير الكلي.

عند كل واحد منا عواطف نحو الموضوع المبحث، ولا نعرف بها، وأحياناً لا نكون على وعي بها، ومن ثم فإنها تؤثر في التفكير على نحو بعيد عن السيطرة. وإن إخراج العواطف إلى السطح يساعد على نزعها وتحييدها.

يمكن للفرد أن يلبس القبعة الحمراء عندما يمارس عملية التفكير وحيداً، فهو بهذا يجعل مشاعره أمراً مقبولاً، ثم يحاول أن يبعدها عن عملية التفكير. علينا أن نتذكر أننا كثيراً ما ننظر إلى المشكلات بعيون قلوبنا، ومن ثم فإننا لا نقبل النقاش حولها! وإن العواطف كثيراً ما تشكل الخلفية التي تحدث في جوها المناقشات المنزلية ومناقشات العمل، ومناقشات الخصوم والشركاء... ماذا يحدث لو كان لدينا حساسية لدى شخص ما، وحاولنا إخراج تلك الحساسية إلى انتباها؟

إننا بالتأكيد سوف تكون أكثر موضوعية وإنصافاً وتحرزاً من التحييز.

- القبعة السوداء:

تفكير القبعة السوداء هو التفكير الناقد، وهو تفكير منطقي، لكنه

(١) تحسين التفكير: ٢٠ - ١٧.

سلبي، وهو تفكير مطلوب، وكثيراً ما يكون مبنياً على حقائق وصادقاً، وإن كان لا يشترط أن يكون منصفاً دائماً.

على عكس ما يظن الناس، فإن إتاحة فرصة للنقد، ولإبداء الملاحظات السلبية - لا تزيد في النقد، وإنما تخفف من حدته، وميل الناس إليه.

إن إعطاء وقت للنقد يعني أننا استطعنا وضع حد للنقد الدائم. وهذا ينبع إلى جانب من الطبيعة الإنسانية حيث لا يرغب الشخص الماهر في النقد في أن يكشف عن أنه ضعيف في غير هذا اللون من التفكير.

وعليينا أن نتذكر أن التفكير الناقد هو على مستوى ما تفكير بنائي، حيث لا يستغني أي عمل جيد عن المراجعة وإعادة النظر، والأعمال التافهة وحدها هي التي لا تحتاج إلى ذلك.

وهذا لا يمنع من أن الملكة النقدية تتضخم لدى بعض الناس إلى حد المرض! وربما كان النقد شديد الإغراء لأنه يمنحك الناقد تفوقاً سريعاً على النظارء، على حين أن التفكير الذي يُشيد بالنظريات والقوانين يحتاج إلى وقت طويل، ويحتاج حتى يكتسب المصداقية المطلوبة أن يتجسد في واقع مرئي، وليس كذلك النقد^(١).

- القبعة الصفراء:

تفكير القبعة الصفراء هو: التفكير الإيجابي الذي يركز على الإيجابيات في المسألة موضوع البحث، ويقوم المرء به بدافع من الفضول والسرور. ويستخدم المرء تفكير القبعة الصفراء في الغالب حينما يكون له مصلحة شخصية في الموضوع. قد تكون الإيجابيات خفية، وغير واضحة.

والحقيقة أن الجوانب الإيجابية غير الواضحة هي التي ينبغي أن تلقي اهتماماً؛ والناجحون دائماً ينتبهون إلى جوانب النفع الخفية، فيسبقون غيرهم.

(١) انظر السابق: ٢٧ - ٣٠

إن من الثابت أنه في أغلب الحالات لا يُغلق باب إلا ويُفتح معه باب آخر، لكن غالباً ما يصيّنا الارتباك، وتشغل بالباب الذي أغلق عن رؤية الباب الذي فتح.

إن التفكير الإيجابي ليس تفكيراً مبنياً على أوهام، ولا على مجرد التفاؤل، ومع هذا فلا بد من القول: إن الخط الفاصل بين الاندفاع الأحمق والتفكير الإيجابي المتفائل هو خط ضيق جداً، وإن اختلاط الأمرين على الناس ليس من الأمور المستغيرة!

إن في تفكير القبعة الصفراء رؤية نافذة للجوانب الإيجابية، ولو لم تكن مبنية على مؤشرات موضوعية؛ ثم تأتي بعد ذلك دراسة متفائلة لترى الجوانب الطيبة الإيجابية⁽¹⁾

- القبعة الخضراء:

إن تفكير القبعة الخضراء يعني النمو والتغيير والخروج عن المألوف. إنه يخالف ميلنا الطبيعية التي تدعونا إلى البقاء ضمن الخط المعهود.

فالعقل الإنساني يكون لنفسه نماذج يقيس عليها ما يرد عليه من أشياء من خارجه وكل ما لا يواكب النماذج المستقرة في العقل يتم طردها ونبذها. لا يعني دخول المرء في التفكير الإبداعي أن يغير المرء عقله، ولكن ما عنده من قدرة على التفكير سيجري استغلاله بشكل أشمل وأتم بحيث يرى الاحتمالات كلها.

إن أكثر التفكير الذي نتشبع به من البيئة مهيأً لمعالجة المعلومات، وذلك مثل المنطق والإحصاء والرياضيات وجمع المعلومات. وهذه العمليات لا تحدث إلا من خلال الرموز؛ والذي يقوم به التفكير الإبداعي هو إيجاد أشكال جديدة تضاف إلى مجموعة ما عندنا من تراكيب، ندرك من خلالها العالم.

(1) السابق: ٣١ وما بعدها.

إن التفكير المبدع يحتاج إلى الوقت؛ والعجلة هي عدوه الأول. والعادة تجعلنا نقبل الحل الذي يظهر لنا لأول وهلة. والمطلوب هو أن نوفر الوقت لاستخراج حلول أخرى، ثم نختار منها الأكثر مناسبة لحاجتنا وإمكاناتها.

إن من المهم أن نظل نرى أن الحلول التي توصلنا إليها ليست هي الوحيدة، وقد لا تكون هي الأفضل. وهذه الرؤية هي وحدها التي ستجعل تطلعنا للجديد غير قابل للاستنفاذ^(١).

- القبعة الزرقاء:

إن تفكير القبعة الزرقاء يعني تفكير التحكم في أنواع التفكير الأخرى، إنه بمنزلة لوحة تحكم كبيرة، عليها أضواء وأزرار وأذرعة تحكم. ويمثل من يلبس القبعة الزرقاء دور القائد لجلسة الحوار والتفكير، ومهنته ضبط عمليات التفكير وتوجيهها؛ فهو يحمي المجموعة من أي انزلاق أو ابتعاد عن الموضوع الذي يدور حوله البحث أو التفكير. كما أن عليه أن يوجه أنواع التفكير بحسب الظروف المحددة. ففي جو يكون الحاضرون كثيري الانفعال تجاه الموضوع المطروح للبحث، يعطي للمشاعر والانفعالات وقتاً أوسع؛ حتى يُخرج الحاضرون كل ما لديهم من مشاعر. وبعد فتح المجال لإبداء المشاعر قد يجد صاحب القبعة الزرقاء أن من المناسب إتاحة المجال لتفكير القبعة البيضاء أو السوداء وهكذا^(٢)...

إننا بعد استعراضنا لأساليب تحسين التفكير عن طريق القبعات المستدرك مدى الفرضي والجهف الذي يتخلل جلسات الحوار وعمليات التفكير، وكيف يختلط تفكير العواطف بالتفكير الناقد، بتفكير المعلومات...!

كما أننا ندرك كم هي عظيمة سيطرة جانب من جوانب التفكير على شخص، أو على مجلس؛ إذ من غير المستغرب أن تجد جلسة كاملة، لا

(١) السابق: ٣٧.

(٢) السابق: ٤٥ وما بعدها.

يذكر فيها إلا النقد، كما أن من المأثور إلا تسمع في جلسة ثانية إلا المعلومات التي تُنشر، دون أي تحليل، وفي جلسة ثالثة نجد البشائر وألوان التفاؤل التي تنهل من كل صوب! .

إن التفكير الجيد يحتاج إلى ملاحظة دائمة ومتابعة، حتى لا يخرج عن مساره، ويفقد توازنه.

(٤) انحرافات عن التفكير المنهجي

إن التنمية الفكرية التي ننشدها ستظل مرهونة بالنجاح الذي نحققه على صعيد التخلص من ألوان التفكير القاصر والمنحرف والخاطئ؛ إذ لا بد قبل زرع النباتات الفكرية الجديدة من تطهير الأرض من الأشواك، وتعريض التربة لأشعة الشمس الساطعة...

لا يعني هذا بالطبع التوقف عن بث المنهجيات الصحيحة والجيدة والأفكار العظيمة إلى أن نتخلص من أنماط التفكير المعوج، لكنه يعني ضرورة محاصرة الأخطاء الفكرية التي تظهر في مظاهر شتى.

ولا بد مع هذا أن نكون على وعي بأن الفكر كثيراً ما يكون مرأة لجوانب الحياة المختلفة؛ إذ لا يمكن للأمية والقصور الاجتماعي والتحلل الأخلاقي والاستبداد السياسي... إلا أن تُشيع أساليب خاطئة في التفكير، وتتمدّها بالماء الأسن كلَّ حين！.

وليس هذا فحسب فالأجيال الجديدة التي تدفع بها الأرحام تحتاج إلى جانب الحاجات المادية إلى استيعاب نفسي واجتماعي وفكري وتربيوي، وهذا يحتاج إلى أجهزة وخطط، كثير منها مفقود الآن.

وعلاوة على كل هذا؛ فإن في تركيبة الذهن البشري، وفيما يفرضه الاجتماع الإنساني من عادات وتقالييد... ما يولّد أنماطاً فكرية خاطئة، لا نعرف إلى الآن عواصم نهاية منها.

هذا كلّه يدعونا أن نظل نجاهد بدون استرخاء في سبيل تأسيس تفكير إسلامي، يفيد من المنهج الرباني، ومن التجارب والخبرات البشرية المتتابعة على صعيد التأزّر بين العقل والثقافة.

وسنعرض هنا إلى بعض ما نعتقد أنه انحرافات ومظاهر فكرية خاطئة من خلال المفردات التالية:

١ - الانتقال من موضوع إلى آخر لأدنى علاقة تربط بينهما:

حين نعم النظر في مختلف الظواهر الحياتية نجد أمراً مطرباً، لا يكاد يتخلّف، وهو أن كل ظاهرة محاكمة بنوعين من الشروط والعوامل: داخلية وخارجية؛ فالجانب الاقتصادي مثلاً محكوم بشروط داخلية عديدة، مثل: العادات الاستهلاكية والموارد الأولية وأعداد السكان... مما هو في صميم المجال الاقتصادي.

وهناك إلى جانب هذا مؤثرات خارجية من نحو قيم العمل والعادات الاجتماعية والاستقلال السياسي والبنية التحتية، وما شابه ذلك مما لا يعد في جملة المعطيات الاقتصادية، لكنه يؤثر في الشأن الاقتصادي تأثيراً كبيراً.

الذي يحدث في كثير من مجالسنا ودراساتنا أنتا حين نبحث الوضع الاقتصادي لبلد ما، لا نغير الاهتمام الكافي للشروط الداخلية، وإنما نقفز إلى الوضع السياسي، أو الوضع الاجتماعي، فنعزّز المصاعب والإخفاقات الاقتصادية إلى سوء الإدارة السياسية أو إلى كسل الشعب، أو إلى انتشار الأمية... ونحن لا ننكر تأثير كل ذلك في الوضع الاقتصادي، لكن ذلك لا تتجاوز نسبة تأثيره ٣٠٪. وماذا يمكن أن تصنع حكومة جيدة لشعب فقير في الموارد، مزدحم في السكان سوى أن تخفف من المعاناة إلى مستويات حدية^(١). على أن البلاد الغنية بالموارد مع عدد سكان قليل - مثل بروناي - تستطيع أن تؤمن للسكان رفاهية عالية بأقل جهد من الإدارة والتنظيم وهكذا...

إنني أعتقد أن الشروط الخارجية لأية ظاهرة تظل هامشية ما لم تستطع أن تزحزح بعض الشروط الداخلية، وتحل محلها، أي ما لم تتحول إلى

(١) يبلغ عدد سكان بنغلاديش مائة وعشرة ملايين، وهم يسكنون في ١٤٤ ألف كم².

شروط داخلية على مستوى من المستويات. فإذا أدت القيم الاجتماعية إلى إنشاء عادات استهلاكية سيئة، أو إلى التقاус عن الاستفادة من الموارد الاقتصادية المتاحة - مثلاً - تحولت من شرط خارجي إلى شرط داخلي . . .

إن علينا عند مناقشة أية قضية أن نمنع المؤثرات الداخلية الوقت الكافي لاستقصاء كل أغوارها وسبلها، ثم نلتفت إلى العوامل الخارجية، ونستقرئ مدى تأثيرها في الظاهرة موضوع البحث.

٢- المعرفة الفاقدة تعطل الإمكانيات الذهنية الجيدة:

يتلخص المرض دائمًا للمعرفة وإدراك الحقيقة، لكن ذلك ليس متاحًا دائمًا. ومع أننا نعيش عصر الاتصال وتسهيل المعلومات إلا أن ما يحتاجه المرض من المعرفة لاتخاذ قرارات حاسمة هو أضعف أضعف ما كان يحتاجه من قبل. هذا بالإضافة إلى أن قدرة الناس على إخفاء المعلومات أكبر بكثير مما كان لديهم فيما مضى.

في العالم الإسلامي قدر أقل من المعلومات والإحصاءات عن كل شيء، وهناك أشياء كثيرة محظوظ الاطلاع عليها، على حين أنها مكشوفة تماماً في البلدان المتقدمة!

نحن لا نستطيع إيقاف حركة الفكر؛ لأننا لا نملك معلومات، ومن ثم فإن الدماغ يكون تصورات عديدة عن الواقع الذي يجهله، ويحاول تقدير النتائج المحتملة لذلك الواقع المجهول^(١).

إن المخيلة الشعبية طالما ملأت الفراغات المعرفية من خلال التصورات والأحكام المبترسة، حيث يكره الإنسان الفراغ، بكل معانبه.

ويتعاني الإنسان لدينا من نوعين من القصور: قصور في كمية المعلومات، وقصور في نوعيتها؛ فالاختلاف الشامل الذي تعاني منه في

(١) المذكر والغامض: ٢١٧

استيعاب المنهج الرباني، على الصعيد المادي - يؤدي دائماً إلى إنتاج معلومات مشوهة ومغلوطة. ويتم هذا في زمان صارت المعرفة المادة الأساسية التي تشغل العقل، وتساعده على اتخاذ قرارات راشدة.

إن نظام عمل العقل لا يختلف عن نظام عمل (الحاسوب) فالمدخلات الخاطئة تعني دائماً مخرجات خاطئة^(١). والعقل - كالحاسوب - لا يستطيع إضفاء تحسينات كثيرة على المدخلات القاصرة، إلا بعد بلوغ درجة عالية من النضج والرشد؛ ومن ثم فإن كثيراً من القرارات التي نتخذها مصاب بعيوب جينية، حيث إنها لا تعتمد على معلومات جيدة وكافية. وكم قتلنا من الوقت، وضيعنا من الجهد في جدل عقيم حول قضایا كبرى لا نملك أية خلفية عنها! بل إن هناك جماعات وأحزاباً ودولاؤ وهيئات وقفت موقفاً صارمة خاطئة، ما كان لها أن تقفها لو أنه توفر لها الحد الأدنى من المعرفة الجيدة!

إنني أعتقد أننا لو وفرنا ربع وقت الجدل العقيم لتحصيل معلومات جيدة حول ما نتداول فيه الرأي لاستغنينا عن تسعه عشر الكلمات الذي تولده أذهاننا من نماذج عقيدة وقياسات منطقية مغلقة ومعزولة عن الواقع!

إن مشكلة نقص المعلومات على نحو مستمر، أنها تولد عقلاً محدوداً، والناس يرفضون الاعتراف بهذه الوضعية؛ فمن السهل أن يعترف المرء بأنه مخطئ في هذا الموقف، أو ليس له خبرة به. أما أن يعترف بأن عقله محدود، فهذا ما لا يرتضيه أحد! بل إن كثيراً من الناس من يزعم أن ما لديه من الحدّة في الذكاء يجعله في غنى عن كثير من المعلومات التي يلوّكها كثير من الناس. ويشعر هذا الفريق أنه يمتلك عدداً كبيراً من البدهيات التي لا ينبغي الخلاف حولها!!.

٣ - النظرة التجزئية :

يفرز الجسم بعض المواد التي تخرب (الكلى) ويكون بذلك قد حكم

(١) تعلم التفكير: ٨١

على نفسه بالدمار! وهكذا الفكر يصنع بنفسه ما يعوقه، ويجعل أحکامه أقرب إلى الخطأ والضلال.

إن العقل حين يُترك؛ ليعمل دون رقابة ومتابعة وتكميل فإنه بطبعه ونُظمِّمه يميل إلى تكوين الرؤى التجزيئية؛ فهو حتى يستوعب الواقع الموضوعي والتاريخي، وحتى يستوعب المعرفة بشكل عام - يقوم بتفكيك المفاهيم والموضوعات واحتزال الأحداث والمراحل؛ وليس في مكتنته الاستحواذ على معلومات كثيرة دفعة واحدة. لكن الذي يحدث بعد ذلك أن قلة قليلة من الناس يحاولون إعادة ربط وتركيب ما فككه الذهن. والسوداد الأعظم منا ينساقون مع الذهن في عمله الذي أجهته إليه ضرورة القصور الذاتي؛ فيكونون صوراً جزئية مبتسرة ومشوهة، مما يؤدي إلى خلل كبير في عمليات الإدراك المختلفة.

والرؤى التجزيئية ذات أبعاد عديدة، نذكر منها ما يلي:

أ - إننا في كثير من الأحيان نطلب الكمال المطلقاً في الأشياء والأشخاص والأفكار، وهذا الطلب المبالغ فيه نابع من الرؤى التجزيئية نفسها؛ فحين نبصر الأشياء معزولة عن أسبابها وسياقاتها، فإننا نفتقد خاصية (النسبية) التي لا تكاد تفارق كثيراً مما نتعامل معه، وقد هذه الخاصية هو الذي يدفع نحو تحسس (المطلقة) واعتبار الكمال أصلاً وحيداً.

حين نرى الصورة كاملة نجد النواقص والاختلالات في كل ما حولنا أموراً طبيعية، بل أشياء لا بد منها للتكامل والتعاون والتآزر.

لو نظرنا إلى الرجل والمرأة كل على حدة لوجدنا نقصاً في عواطف الرجل وضموراً في قدرة المرأة على القيادة ومواجهة الصعاب... لكن حين ندرك أن الرجل والمرأة خلقاً للعيش في أسرة واحدة نجد أن علاقة (التخالف) هي علاقة الكمال والتكامل، ولو لا التخالف بين الرجل والمرأة في التركيب الذهني والنفسي والعضوي لما أمكن تكوين أسرة، ولا كان هناك إمكان لحياة زوجية أصلًا.

حين نتعامل مع المرأة على أنها جزء من أسرة ندرك أن قوة العاطفة لديها ليست ضعفاً، ولا نقصاً، وحين ننظر إلى الرجل على أنه خلق ليقود أسرة نجد أن تغلب العقل لديه على العاطفة أحد مستلزمات الوظيفة التي أنيطت به.

فإذا نظرنا إلى كل منهما على أنه مخلوق منفرد مستقل وقفنا على العيوب والنواقص والزواائد الشائهة.

إن (القلق) إذا نظرنا إليه على أنه حادث نفسي متفرد فسوف نراه مرضًا أو كالمرض النفسي، لكن إذا نظرنا إليه على أنه جزء من توازن الشخصية، فسوف نراه فضيلة، وربما كان فقد القلق على الواقع والمصير أكثر من مرض، إنه مؤشر على بدايات تراجع حضاري شامل!

وهكذا فإن رؤيتنا المجزأة للواقع تجعلنا نطلب حلولاً وأشياء كاملة، على حين أن الرؤية الكلية التكاملية تعلمنا أنه يستحيل الحصول على حلول كاملة في وسط غير كامل.

ب - مما يشجع على الرؤية الجزئية وجود حجة منطقية متسقة لدى المرء، فمن السهل على الواحد منا أن يربط بين ظاهرة وظاهرة أخرى بينهما نوع من التلازم السطحي؛ فلو فرضنا أن الشرطة قامت بإجراءات أمنية معينة لمكافحة الجرائم في بلد ما؛ وبعد عام من تطبيق تلك الإجراءات تبين أن الجرائم زادت بنسبة ٤٪ - عن العام السابق - فإن بإمكان أي إنسان أن يقول: إن تلك الإجراءات كانت سيئة؛ لأن مردودها كان عكس ما كان يرجى منها^(١).

النظرة التجزئية في هذا الموقف ناتجة عن ضيق الأفق وقصر تعليل الظاهرة على عامل واحد؛ مع أن أكثر الظواهر لا تتعلّم بعلة واحدة. وفي حالتنا هذه قد تكون زيادة نسبة الجرائم ناتجة عن زيادة عدد السكان بالنسبة

(١) تعلم التفكير: ٨٣

نفسها، ومن ثم فلا تكون هناك زيادة في الجرائم. وقد تكون ناتجة عن اجتياح موجة من الفقر أو الانحلال الخلقي في المنطقة كلها، ومن ثم فإن نسبة الجرائم في بلد مجاور قد تكون ارتفعت بنسبة ٦٪ مع أنه لم يطبق الإجراءات الجديدة التي طبقت في البلد الآخر. وهذا يعني أن الربط بين الإجراءات التي اتخذتها الشرطة وبين زيادة نسبة الجرائم كان ربطاً شكلياً، وهو نابع عن رؤية جزئية للعلاقات.

وهذا الخطأ من الأخطاء الشائعة بين العامة والخاصة، وعلينا أن نجد آلية أخرى لاختبار صحة تلك الإجراءات عن طريق استخدام الخيال الخصب واستخدام نظام الاحتمالات المتعددة، وسبر ما يمكن أن يقف خلف الظاهرة من احتمالات عديدة.

ج - التمركز حول الذات مصدر آخر من مظاهر الرؤية التجزئية للواقع، فكثير من طلاب العلم يقيس أحوال العالم الإسلامي كله على الحالة التي يعيش فيها؛ فإذا كان يعيش في رخاء وأمن ظن أن المسلمين جميعاً كذلك، ومن ثم فإنه يستغرب من شكوى بعض الناس من سوء الأحوال، ويرى أن الحديث عن انهيار حضاري أو تحلل أخلاقي أمر مبالغ فيه؛ لأن البيئة الضيقة التي تغذي ذهنيته بالصور والنماذج بيته يغلب عليها الصلاح.

وقد يكون للتربية الأنانية التي تلقاها بعض الناس في صغره أثر في جعله لا يرى أبعد من أربنة أنفه!

د - من مظاهر النزوع إلى الفهم الجزئي التركيز على حقبة تاريخية معينة على أنها تمثل التاريخ الإسلامي كله، أو التركيز على جانب من جوانب التاريخ، على أنه يمثل حقبة تاريخية كاملة.

ويتم هذا تارة عن حسن نية، حيث يعمد المتفائلون منا إلى نزع بعض الصور المشرقة من تاريخنا، ثم يصير إلى تعميمها على الناس، على أنها نموذج للتاريخ كله. ففي مجال العدل - مثلاً - يذكر العُمران - رضي الله عنهما - ويُغضّ الطرف عن أشكال الظلم والقهر الذي مارسه غيرهم، مما

تطفح به المصادر التاريخية، وكان أولئك الظلمة لا ينتمون إلى أمة الإسلام،
ولا إلى تاريخها!

بل إن بعضاً منا يحكم على صحة أحداث التاريخ وفق تركيبه العقلي
الخاص بعيداً عن آية معطيات موضوعية؛ فإذا نُقل له خبر يدل على أخطاء
وقدت من قبل بعض الخاصة من المسلمين حكم على ذلك الخبر بالوضع
والزيف، أو وجد له تأويلاً يحيله إلى فضيلة.

إذا نقل له خبر يكيل المدانين، ويسرد المناقب دون حساب قبله دون
أي نقاش، وكان تاريخنا من صنع أشخاص معصومين!

في المقابل يعمد فريق آخر من بنى جلدتنا إلى أسوأ ما في تاريخنا،
فيتزرعه من سياقه، ثم ينشره بين الناس، ويستخدمه لدعم ما يدعوه من
القصور في بنية فكر الأمة وماضيها وحضارتها، ناسياً كل الأعمال الجليلة
التي قام بها عظاماؤنا في التاريخ! إنهم يريدون تصوير الرذائل، وكأنها من
صنعتنا وحدنا!

إن التاريخ كالواقع صنوع بشر، لهم مبادئ وقيم، ولهم مصالح
واجتهادات وشهوات، وقد مرروا في فترات نهوض، وفترات ركود؛ ولا
يكون البشر إلا كذلك.

إن التاريخ أداة مهمة من أدوات التربية، وإن عدم استيعابه بطريقة
صحيحة قد يحوّله إلى أداة هدم وتخريب!

٤ - ليس الإنسان ضئيلاً لكنه كسلول إلى حد مقيد:

خلق الله - جل وعلا - الدنيا داراً للابتلاء، فوفّر فيها كل شروط
الابتلاء، فالمرء أينما ذهب وفي أي حال كان مبتلى وممتحن وعليه دوماً أن
يتلمس سبل النجاح. والمشكلة الكبرى تكمن في كسل الإنسان وتقاусه عن
محاولة الارقاء، مع عظم الإمكانيات التي زوده البارئ بها.

«يولد الحيوان مبرمجاً برمجة كاملة؛ فدودة القرز تنسج خيوط الحرير

بنفس الطريقة، وعلى نفس المستوى من الدقة منذ وُجدت، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. أما الإنسان فهو بمنزلة مشروع مقترن ومفتاح لكل احتمالات التألق والانطفاء، وكافة إمكانات الخير والشر. ومعضلة الإنسان أنه لا يشعر بالحاجة إلى المجاهدة، فهو في الغالب يتورّم أنه قد ورث كل الكمال في العقل والجسم، وأنه يمثل كل الكمال في الفعل والسلوك»^(١).

إن غرائز الإنسان لا توصله إلى أن يتحلى بشروط الاستخلاف والقيام بحق العبودية، فإذا لم يستخدم عقله، ويُسْعَى إلى تفتح ملائكته، ويخرج من أسر النمطية والطبيعة، فإنه سيظل إنساناً بالقوة لا بالفعل - كما يقول المناطقة - ويظل حائزاً بين أهداف كبرى وموهاب وإمكانات معطلة.

قليل جداً أولئك الذين يناقشون الأفكار السائدّة، وقليل أولئك الذين يملكون أية مقولات مضادة للتقالييد والعادات البالية التي صارت أثقالاً وقيوداً، يرسف فيها الناس، دون أن تتحقق لهم أية فرص للرقي والتحسين!

إن قعود المرأة عن اكتساب أفكار جديدة يجعله كُلّاً على مجتمعه، يمتصّ أسوأ ما فيه من نقائص؛ وقد كان (جوته) يقول: «نقائص الإنسان مستمدّة من عصره (مجتمعه) أما عظمته وفضائله فمستمدّة من نفسه»^(٢).

إن الرضا عن التفسير الأولي للحقائق وعن الأحكام المبدئية التي تصدر من جهات عديدة، هو أحد مظاهر الكسل الذهني الذي يعاني منه كثير من الناس، مع أن كل حكم مبدئي ينبغي أن يكون معبراً لحكم نهائي، فالانطباع الأول هو نوع من الحدس، ونوع من التأثر بالمظاهر والخبرة المتواضعة الراكدة. وأخطر الأحكام والتعليلات التي تؤدي إلى السُّباب العقلي هي تلك التي تشحّب بشيء من المتنطق، وتحمل درجة ما من الصدق والقبول، إنها الأحكام والأراء (الرجراجة).

(١) بنية التخلف: ٢٠٦.

(٢) السابق: ١٩١.

ويشابه ذلك في التأثير شخصية صاحب الرأي أو ناقل الخبر؛ فإن الناس قد تعودوا تقبل الآراء الصادرة عن أشخاص، هم موضع ثقة، وذاك في الحقيقة نوع من معرفة الحق بالرجال بدل أن يُعرف الرجال بالحق!

ولا ينبغي أن ننسى بعض الرسوم، والأداب التي طبعت حلقات التعليم في عصور الانحطاط، حيث صار السؤال عن البرهان، أو مخالفته الشيخ، أو مناقشته في أمر، مما يخدش التمجيل والاحترام الواجب على طلاب العلم تجاه شيوخهم!

وقد أدى ذلك إلى سيادة نوع من التلقى السلبي الصامت للمعلومات دون محاولة الكشف عما فيها من تناقض وتهافت ومباغة. وقد أدى هذا إلى تكديس المعلومات، دون استثمارها في حل مشكلاتنا أو الرقي بأفكارنا، وصار من غير المستهجن أن نلمح ضمور الفكر إلى جانب غزارة المعلومات على نحو لم يسبق له نظير!

إن اليأس من الإصلاح وتحسن الأحوال دفع كثيراً من الناس إلى أن يعطوا أذهانهم إجازة مفتوحة، فما فائدة التفكير إذا كنت لا تجد مجالاً للتعبير عنه، وما فائدة التعبير إذا لم يتمكن صاحبه من إيجاد آية آلية إلى تحويله إلى حقائق ومشروعات...

وهذا صحيح إلى حد ما، لكن هناك نقص واضح في الأفكار الضرورية لتسخير حركة الحياة، وهناك مجالات كثيرة، يمكن أن يجد فيها الفكر النير آليات للتجسد والتحقق في الواقع العملي.

إن العقل البشري رغم إنجازاته الهائلة ما زال بكرأً، وإن بعض الدراسات يقرر أنه ما زال هناك ما بين ٩٥٪ و٩٠٪ من إمكانات أذهاننا قابلاً للاستثمار والتشغيل والإبداع، وإن كثيراً مما ينبغي عمله غالباً لا يجد سبيلاً للولادة سوى سبيل كدّ الأذهان وإطلاق الطاقات العقلية التي أصابها الضمور والانحسار بسبب سوء الاستخدام أو قلته!

٥ - المهارة اللغظية ليست ميزة في كل الأحوال:

كان تعلم الإنسان للقراءة والكتابة الحدث الأهم على صعيد العلم والفكر، وقد أمكن بفضل الكتابة إخراج المعرفة من حيز التابع الزمني إلى حيز التابع المكاني، وأمكن نقل المعلومة إلى كل صقع وعبر القرون دون أن يطرأ عليها تبديل يُذكر، ودون أن تتحكم فيها الذاكرة والأهواء والتفسيرات الشخصية.

بسبب تمكن الأمية وانتشارها في العالم الإسلامي، فإن تقاليد الثقافة الشفاهية ما زالت تطبع المعرفة السائدة لدينا، حيث يتم الاعتماد على اللسان والسمع أكثر من الاعتماد على القلم والعين. وهذه الوضعية تدفع دفعاً إلى التأكيد اللغظي والإطناب والخصوص لنظرات المخاطبين ومراعاة أحوالهم؛ فالمنطوق الشفاهي يكون قد تلاشى بمجرد النطق به، ومن ثم يكون على العقل أن يتحرك إلى أمام بشكل أكثر بطئاً محتفظاً قريباً من بؤرة الانتباه بالكثير مما تناوله قبلًا، وهذا هو الذي يدفع نحو الإطناب، أي تكرار ما قبل توا. والجمهور نفسه يطلب الإطناب حيث لا يكون في إمكان كل فرد في الجمهور الكبير فهم كل كلمة، يتغوه بها المتحدث، مما يجعل التكرار للفظ أو لمعناه أداة تفهم.

إن الثقافات الشفاهية تشجع الذلالة والمبالفة وطلقة اللسان ودعاوي هذا التشجيع أملتها الضرورة - كما ذكرنا - لكن البلاغيين ظلوا يشجعون هذه السمات حتى انتقلت إلى الكتابة، وبذلك تحولت (البلاغة) من فن للخطابة إلى فن للكتابة^(١)!

كثيراً ما تنكر البيان والطلقة في الحديث بزء التفكير. وإن التدرب على استخدام اللغة، إضافة إلى خلفية في بيت يتسم أهله بالبيان، ينمّي براعة لغوية، وغالباً ما يكون التفكير هزيلاً. ويعود ذلك إلى أنه لم تجر تربية مهارة التفكير الفعلية بدرجة عالية؛ فتنصبُ الأفكار طوعاً أو كرهاً في الفراغ (الخواء) الذي ولده أسلوب التعبيرطلق، فلا تزيد المهارة في التعبير عن

(١) الشفاهية والكتابية: ١٠١ - ١٠٣.

كونها مهارة في التعبير فحسب^(١).

وكان سائداً أن اللغة تعد القوام الفعلي للتفكير، وليس وسيلة للتعبير فقط. أما اليوم فقد قلَّ التأييد لوجهة النظر هذه، وذلك نتيجة أعمال بينت أن التفكير في ثقافات فقيرة محرومة قد يكون فعالاً، كما هو في ثقافات مزدهرة، مع أن وسيلة التعبير عنه قد تبدو محدودة. قد تشير مقالة سلسلة متربطة إلى مهارة لغوية، لكنها لا تشير بالضرورة إلى مهارة في التفكير^(٢).

وإن الأمر يتتجاوز ذلك إلى الاعتقاد بأنه في كثير من الأحيان يكون استخدام الألفاظ البدعية المنمقة وسيلة لإخفاء النقص والاحتلال بأردية من البلاغة! وهذا في الحقيقة ذو خطر بالغ على تكوين الفكر والشخصية الاجتماعية؛ لأنه يسلب الوعي، ويضعف الشعور بالمسؤولية، ويظل يشيع الحرفة والخيالية من دون أن يساهم في تقديم شيء ملموس لعملية التغيير والنهضة^(٣)!

وعند البخاري أنه قدم رجلان من المشرق، فخطبا، فعجب الناس لبيانهما، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا يُحِبُّ الْمُجْرِمَ إِنَّمَا يُحِبُّ الْمُجْرِمَ».

قال الخطابي: البيان اثنان: أحدهما ما تقع به الإبارة عن المراد بأي وجه كان. والأخر ما دخلته الصنعة بحيث يروق للسامع، ويستميل قلبه، وهو الذي يُشبَّه بالسحر إذا خلب القلب، وغلب على النفس، حتى يحوّل الشيء عن حقيقته، ويصرفه عن جهته، فليوح للناظر في معرض غيره^(٤).

إن من الواضح في كلام الخطابي أن في البيان المتتكلف المنمق ما يعطي بعض الحقائق أكثر من قدرها وقيمتها الحقيقة، وفي ذلك نوع من الإخفاء لنواصص كثيرة.

(١) تعليم التفكير: ٤٥.

(٢) السابق: ٤٦.

(٣) التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي: ١٨٣.

(٤) فتح الباري: ١٠: ٢٣٧.

إن ضحالة الفكر تجعل الإنسان عبياً، وإن تشدق، وأطلق العنان
لصفوف من الألفاظ، فكلامه مثل كلام النائم!

في عهود التخلف تصبح الأفكار ضحالة، وتتصبح اللغة عبارة عن قوالب
فارغة جامدة محتضنة. وهذا معنى كلام الإمام الغزالي: «من طلب المعاني من
الألفاظ ضاءع، وهلك»، وكان كمن استدير الغرب وهو يطلبها!.

وبين (توبيني) أيضاً أن هناك ثقافات تجعل الكلمة مصدر المعاني،
بدل أن تكون الكلمات أمارات على المعاني^(١).

إن علينا ألا نسحر ببلاغة الألفاظ، وأن نحاول تجاوزها إلى المضامين
التي تعبر عنها، ومحاكمتها ورؤيتها مدى الصدق والاتساق الواقعي الذي
تحمله.

إن كثيراً من الكلام الذي يقال يصدق فيه قول القائل: «تكلم كثيراً،
ولم يقل شيئاً»!

٦ - المنطق التقليدي قليل الجدوى في حل مشكلاتنا المعاصرة:

حين قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن المنطق اليوناني: إنه
لا ينتفع به الغبي، ولا يحتاج إليه الذكي - نظر إلى قوله بشيء من
الاستغراب، حيث كان الافتتان بالمنطق اليوناني عاماً. لكن الخبرة التاريخية
واتساع آفاق التفكير وتعقد الواقع، واتجاه الأذهان نحو القضايا العملية كل
ذلك نبه الأذهان إلى قصور مهام المنطق التقليدي في عصمة الأذهان من
الخطأ، وعجزه عن المساعدة على استيعاب الواقع الموضوعي، وحل
المشكلات المعاصرة.

المنطق التقليدي يسعى إلى نوع من الاتساق والانضباط الشكلي أو
الداخلي بعيداً عن الواقع العملي. وهو منطق أقرب إلى أن يكون عقيماً في
جوانب عديدة منه؛ فالقياس مثلاً لا يأتي بجديد؛ إذ إن نتيجته متضمنة في

(١) «اقرأ وربك الأكرم»: ٥٨.

مقدمتيه، فحين نقول: سعيد إنسان، وكل إنسان فان، وتكون التبيّنة: سعيد فان - لا نكون قد جثنا بتجديد سوى تنبية الأسماع إلى شيء من الفذلـة الذهنية! .

ويبدو أنه لا سبيل لتخلص ثقافتـا الإسلامية من الآثار السيئة المـنـطقـيـة اليونانيـة إلاـ بـأن تـضـعـفـ فيـ صـمـيمـهاـ منـهجـياتـ وأـفـكـارـ جـديـدةـ تعـتمـدـ المـعـرـفـةـ والـتجـربـةـ والـخـبـرـةـ، وـتـقـدـمـ الـحـلـولـ الـمـرـنـةـ وـالـخـيـارـاتـ الـمـتـعـدـدـةـ
وـيمـكـنـ أنـ نـلـمـسـ جـوـانـبـ قـصـورـ الـمـنـطـقـ الـتـقـليـديـ وـالـمـشـكـلـاتـ الـتـيـ
أـثـارـهـاـ فـيـ الـحـرـوفـ الصـغـيرـةـ التـالـيـةـ:

أـ -ـ الـمـنـطـقـ الـيـونـانـيـ أـشـاعـ رـوـحـ التـحـزـبـ بـيـنـ طـلـابـ الـعـلـمـ؛ـ فـهـوـ لـصـرامـتـهـ
يـقـسـمـ النـاسـ إـلـىـ قـسـمـيـنـ:ـ مـخـطـئـ وـمـصـيبـ،ـ فـإـمـاـ هـذـاـ،ـ وـإـمـاـ ذـاكـ.ـ وـالـمـنـاظـرـاتـ
الـتـيـ كـانـتـ تـجـريـ بـيـنـ الـعـلـمـاءـ كـانـتـ تـحـكـمـ بـآـدـابـ الـمـنـاظـرـةـ لـدـيـ الـيـونـانـ،ـ وـكـانـ
الـعـالـمـ الـفـذـ يـدـخـلـهـ فـيـعـلـبـ،ـ ثـمـ يـخـرـجـ مـنـهـاـ مـهـزـوـمـاـ؛ـ لـأـنـ لـمـ يـجـبـ عـلـىـ سـؤـالـ
أـوـ سـؤـالـيـنـ،ـ عـلـىـ حـيـنـ أـنـ عـالـمـاـ مـنـ الـدـرـجـةـ الـثـالـثـةـ كـانـتـ تـطـيـرـ بـشـهـرـتـهـ الـأـخـبـارـ؛ـ
لـأـنـ أـجـابـ فـيـ الـمـنـاظـرـةـ عـلـىـ سـؤـالـيـنـ أـوـ ثـلـاثـةـ!!ـ.

هـذـهـ الـوـضـعـيـةـ السـيـئـةـ أـوـجـدـتـ نـوـعـاـ مـنـ التـصـلـبـ الـذـهـنـيـ،ـ وـجـعـلـهـ لـقاءـ
الـمـخـتـلـفـيـنـ فـيـ مـسـأـلـةـ أـشـبـهـ بـلـقاءـ الـأـضـدـادـ.ـ وـمـاـ كـانـ بـالـإـمـكـانـ بـنـاءـ رـؤـيـةـ نـسـبـيـةـ
وـمـتـدـرـجـةـ لـلـصـوـابـ وـالـخـطـأـ فـيـ ظـلـ مـنـطـقـ يـجـعـلـ الـذـهـنـ يـلـتـصـقـ بـقـوـاعـدـهـ.
كـالـتـصـاقـ القـطـارـ بـسـكـةـ الـحـدـيدـ!ـ.

وـمـنـ ذـيـوـلـ التـصـلـبـ الـفـكـريـ الـظـنـ بـأـنـ الـمـرـءـ إـذـ ثـبـتـ أـنـ خـصـمـهـ عـلـىـ
خـطـأـ،ـ كـانـ هـوـ عـلـىـ صـوـابـ،ـ مـعـ أـنـ هـنـاكـ اـحـتـمـالـاـ أـنـ يـكـونـ الـصـوـابـ مـعـ
شـخـصـ ثـالـثـ.

بـ -ـ الـمـنـطـقـ الـقـدـيـمـ مـتـغـلـلـ إـلـىـ الـيـوـمـ فـيـ عـلـومـ الـأـصـوـلـ وـالـعـقـيـدةـ
وـالـنـحـوـ وـغـيـرـهـاـ،ـ وـقـدـ عـانـتـ أـنـظـمـتـ الـتـقـلـيـدـيـةـ مـنـ صـعـوبـاتـ جـمـةـ فـيـ تـعـامـلـهـاـ مـعـ
(ـالـمـقـدارـ)ـ ذـلـكـ لـأـنـ الـلـغـةـ تـعـامـلـ مـعـ طـبـيـعـةـ شـيـءـ ماـ،ـ لـأـنـ حـجمـهـ.ـ خـذـ مـثـلاـ
وـاحـدـةـ مـنـ دـعـاوـيـ الـإـعـلـانـاتـ:ـ «ـالـمـعـقـمـاتـ تـقـتـلـ الـجـرـائـيمـ»ـ.ـ فـالـجـرـائـيمـ تـؤـثـرـ فـيـ
الـطـعـامـ التـالـفـ؛ـ لـتـتـسـبـبـ بـرـائـحةـ الـفـمـ.ـ فـإـذـاـ اـسـتـخـدـمـتـ مـعـقـمـاـ فـيـ غـسـيلـ الـفـمـ

فسيكون تفسك ألطاف. ويبدو هذا في معايير المتنطق القديم صحيحاً؛ لأن الصدق الشكلي لهذه الترابطات صحيح. إلا أن هذا خاطئ من وجهة نظر (كمية). فالمعنى ينحل سريعاً في الفم، بحيث لا يمكنه قتل الجرائم إلا لمدة دقيقة واحدة، على الأكثر. أما الجرائم فتتضاعف؛ لتعوض نفسها بسرعة! .

ولا يمكن كشف حجم الخطأ عن طريق الحجة نفسها، لكن يمكن ذلك إذا توافر لدى السامع مجال واسع الإدراك والخبرة، يتبع له الحكم على الحجة^(١).

ج - إن المتنطق اليوناني كان يعادي التجربة والتزول إلى الواقع العملي بقدر ما كان يحث على تمثيل المشكلات وحلها في الذهن اعتماداً على قوانين وتجريدات ذهنية ثابتة. وهذا هو الذي يشكل البنية العميقية لإعراض كثير من مثقفينا عن محاولات فهم الواقع وعلاقاته الجدلية المتشابكة اكتفاء ببعض المفاهيم والقوانين والصور المختزنة في الذاكرة. وهم حين يفكرون في الواقع لا يفكرون فيه باعتباره كائناً متغيراً ناماً قابلاً للاستيعاب عن طريق الإحصاءات والتحليلات العملية، وإنما يتعاملون معه من خلال صور ذهنية يولدونها من مفاهيم تكونت عبر النظر التاريخي، وعبر العقيدة التي يؤمنون بها، وعبر بعض التجارب الضيقة المحدودة التي مروا بها، أي يحوّلون ما هو عام إلى شيءٍ شخصي! .

السياسة - مثلاً - تخضع لمبادئ، وتخضع أيضاً لمصالح وتوازنات واجهادات ومعطيات على الأرض، وكثيراً ما تفقد التناسق الشكلي، لكنها منطقية على مستوى ما، حيث إنها في جوهرها جملة من الأعمال (التكليكية) ضمن خطة بعيدة المدى. وهذه الوضعيّة يستعصي استيعابها على الذين تعودوا معايشة الكتب والأفكار والأحكام النظرية؛ وفي هذا يقول ابن الأزرق: «إن العلماء من بين الناس أبعد عن السياسة ومذاهبها لأمرين: الأول: أنهم يعتادون النظر الفكري وانتزاع المحسوسات وتجريدها في الذهن.

(١) تعلم التفكير: ٨٩

الثاني: أنهم يقيسون الأمور على أشباهها بما اعتادوا من القياس الفقهي، فهم منفرون في سائر أنظارهم بالأمور الذهنية. والسياسة تحتاج إلى مراعاة ما في الخارج، ولذلك يقعون في الغلط الكبير. والعامي السليم الطبع المتوسط الكيس، حيث يقتصر في كل حادثة على حكمها الخاص بدون تعميم، فيكون مأموناً من الغلط^(١).

إن كثيراً من الأفكار يمكن أن يكون صحيحاً في ذاته إذا أبعدناه عن معايير الواقع الاجتماعي «ومدى تناصها معه وخدمتها له. فرض ضرائب تصاعدية، وفتح جامعة، وإغلاق قسم، ومنع استيراد سلعة... كل هذه الأمور إذا نظرنا إليها بصورة مجردة قد تكون تصرفات صحيحة ومقبولة، لكن إذا نظرنا إليها باعتبارها إجراة في بيئة وظروف ومعطيات محددة فقد تكون صواباً، وقد تكون خطأ بحسب المهام الإيجابية التي تؤديها في خدمة المصلحة العليا».

د - حجب الانهكاك في الاحتكام إلى المنطق التقليدي كثيراً من طلاب العلم - ولا سيما في الماضي - عن الاستفادة من رؤية سنن اقتصادية واجتماعية وسياسية بثها الله - جل ثناؤه - في هذا الكون، ومن ثم فإن زاد كثير منهم من فهم السنن وإدراك الترابطات الواقعية - قليل -، لا يمكن من تكوين رؤية كافية للواقع العام.

إن المنطق التقليدي له دقة الرياضيات، وهو يساعد على كشف بعض التناقضات، لكنه أعجز من أن يساعدنا في حل مشكلات معقدة، تعيش تحت وطأتها أمم الإسلام اليوم؛ فهو مثلاً لا يفيينا في الكشف عن الآثار التي تركها الأزمات الاقتصادية في أخلاق الناس، ولا عن أثر الرفاه الزائد في الترهل الأخلاقي والانفعالي، كما لا يساعدنا في معرفة المفعول الارتجاعي، ولا للتغذية الارتدادية، ولا معرفة تعدد الأسباب لظاهرة واحدة، ولا معرفة الآلة المُؤازرة^(٢)...

(١) حركة النفس الزكية: ١٥٢.

(٢) انظر عودة الرفاق: ٢٣٢.

سيكون من الأمور الحميدة التوجه إلى تقليل المنطق التقليدي إلى أبعد الحدود، واللجوء إلى الاستفادة من ثراء الواقع في بناء مفاهيم جديدة ومحاولة الكشف عن الترابطات السنوية بين الاتجاهات والأحداث والأشياء وملء عقول الناشئة بعلوم التفكير الجديدة.

٧ - انقسام الصفة أعقاق التقدم الفكري :

الإجماع على التفاصيل في القضايا الإصلاحية مستحيل، ولا سيما حين تتسع الرقعة، وتختلف الظروف والإمكانات والمعطيات.....

أما الاختلاف في الأصول والأسس والمحاور بين الذين يفترض أنهم يقودون سفينتين واحدة، فإنه في الحقيقة أكبر من أن يوصف بأنه مشكلة؛ لأنه أوجد مشكلات لا حصر لها، وقدع بالأمة كلها عن القيام بمهمتها في البلاغ المبين، وعن التلخص من المشكلات الكثيرة المتراكمة في حياتها.

ولا نتحدث هنا عن الانقسام بين من يرى الحلول خارج الإطار الإسلامي، وبين من يراها داخله، وإنما حديثنا عن المثقفين المسلمين الذين يتلقون في المنطلقات الكبرى والأهداف الإصلاحية العامة، ويستخدمون من العقيدة والشريعة مصدرأً للضوابط والمعايير . . .

ويبدو أن أسباب هذا الانقسام عديدة، لكن يمكن اختزالها إلى سبعين:

الأول: هو الزاد الثقافي والمعرفي الذي يتسبّع به كل منا، فهناك من يعرف كل شيء عن التاريخ والتراجم والأحكام الشرعية، لكنه لا يقرأ أبداً في العلوم الاجتماعية، ولا يحاول إعمال الذهن في استيعاب الواقع الموضوعي، وكيفية السيطرة عليه، والتحكم به وتجيئه. وتغلب هذه الوضعية على أكثر طلاب العلم الشرعي.

ولدينا فريق ثان، يقف على الطرف الآخر، فخبرته الشرعية والتراجم محدودة وهو مشغول بالتعمعق في تخصص من التخصصات، ويعرف عن الواقع نتفاً يلتقطها من بعض نشرات الأخبار والمطالعات العامة. وينغلب هذا الشأن على كثير من أساتذة الجامعات، ومن على شاكلتهم.

وئمة فريق ثالث اتخذ من العلم مهنة وحربة، يرتزق من ورائها، وهو يحاول القيام بالحد الأدنى من عمله الوظيفي المهني بما يضمن له الاستمرار؛ ومعظم همه منصرف إلى تشير الأموال وإطعام الزوجات والعيال!

الثاني: مدى الاهتمام بالشأن العام للأمة، وتوفير الشروط الموضوعية الالازمة لقيامها بحق الاستخلاف. وكثير من نسمتهم صفة صرف همه إلى تحقيق أو تأليف كتاب، يعلق على نشره أمالاً كبرى، أو إقراء خمسة حاشية من الحواشي، أو بناء مسجد، أو إتقان خطبة يريده إلقاؤها....

ولا يسأل هؤلاء أنفسهم عن مدى جدوى الجهد الصغرى إذا لم تكن موظفة في سياق عام، وفي مناخ صحي غير مسمم ولا خانق....

وثمة فئة محدودة جداً تبصر كل أجزاء الصورة، وتعرف الأولويات... ولعل الله - تعالى - يبارك في عددها وجهدها في خدمة الإسلام وأمته.

قد أدى هذا الانقسام إلى إيجاد جزر ثقافية منعزلة، كما أوجد حيرة كبرى لدى الأجيال الجديدة التي بدأت تشعر بقسوة العيش وانسداد الآفاق وهم يجدون الكبار الذين سينيرون لهم الطريق منقسمين على أنفسهم، ويتحدث كل منهم على موجة، ليس لها جهاز استقبال عند الآخر!.

لا أريد هنا أن أقترح شيئاً لسد الفجوات وتوحيد الرؤى، لكنني أعتقد أن بإمكاننا أن نفعل أشياء كثيرة، لو تملكتنا الغيرة على رفعه هذا الدين وكرامة هذه الأمة، ولو انطوت جوانحنا على مثل حرقة الأمهات!!.

٨ - الطريقة التي نرى بها المشكلة هي المشكلة :

إن وجود المشكلات أمر طبيعي في حياة الناس، وربما يؤدي إنعام النظر إلى الاعتقاد بأنها نعمة؛ حيث تجدد روح المقاومة، وتحفز آليات العمل والحركة؛ ولكن تراكم المشكلات دون حلول جيدة يؤدي إلى إطفاء فاعلية الإنسان، وجعل الشروط الموضوعية للأداء العالي المطلوب مفقودة.

إن أهم مجال يتجلّى فيه إبداع العقول البشرية هو الحلول للمشكلات

والمصاعب المختلفة التي تولدها حركة الرقي والصراع في سبيل البقاء. كما أن أهم مراحل حل أية مشكلة يتعدد في طريقة رؤيتنا لها ومدى قدرتنا على تحديدها وتوصيفها بدقة. وإن كل مشكلة يتم تحديدها بشكل جيد، هي مشكلة محلولة جزئياً. لذا يمكن القول: إن أشد المعاناة لا يتجلّى في طبيعة المشكلة، وإنما في طريقة رؤيتنا لها، وتعاملنا بالتالي معها.

جرت العادة ألا نتبّه إلى مشكلاتنا إلا بعد فوات الأوان، وإذا رأينا من ينبهنا إليها قبل الإحساس بهاً منها وصفناه بأنه يبالغ، أو أنه متشائم! .

وحيث نرى رجالاً فذّا متفوّقاً، فإننا نصب كل مشكلاتنا بين يديه، ونطلب لها حلولاً سريعة؛ ولكن التجربة أثبتت أن الحلول العاجلة لمصاعب متأسسة، لا تحلها، وإنما تساهم في طمسها، ثم تظهر أعراض جديدة؛ لأن جوهر المشكلة لم يحل، وإنما شوّهت معالمه!

قصتنا مع محاربة الأعراض، وقطع الأوراق، وترك الجذور لتنبت من جديد قصة طويلة، وما ذاك إلا لأن رؤية الجذور تحتاج إلى رؤية ثاقبة، تتجاوز حاجز كثيرة، كما تتجاوز بعض أنواع الأشعة اللحم والدم والعصب إلى العظم!

تمزق العالم الإسلامي - مثلاً - ليس هو المرض، وإنما هو من أعراض المرض، ولو جئنا بمادة لاصقة، وحاولنا جعل عدد من المجتمعات والدول الإسلامية شيئاً واحداً لاكتشفنا سريعاً أن ذلك العمل إن نجح فسيكون نجاحه شكلياً، ولو شكّلنا إطارات وحدودية في ظروفنا الراهنة، فسنجد أنها محدودة الكفاءة، ولا تتناسب أبداً مع ما أقامه غيرنا. فالتوحد لا يتم إلا بعد وجود قدر من الاستقلال السياسي والوطني، كما أنه لا يتم إلا بعد الاتفاق على المحور الذي ستدور في فلكه الدول المتحدة، هل هو ديني أو قومي أو إقليمي أو اقتصادي... .

تبسيط معضلة أخرى نعاني منها في طريقة تصور المشكلات؛ وقد قرأت بحثاً لأحد الكتاب المسلمين، قسم فيه العالم الإسلامي إلى ستة

أقاليم، وقد استخدم في تصوير إمكانات التعاون داخل كل إقليم أرقاماً كثيرة مفيدة ومعلومات قيمة وعلى سبيل المثال، فإنه ذكر أن إقليم (السندي) يضم كلّاً من أفغانستان والبحرين ودولة الإمارات العربية وإيران وباكستان وقطر. وأخذ الرجل يصور لنا الثروات والإمكانات ودخل الفرد في كل منها... على غرار ما تحسب أسرة، تعيش في منزل واحد دخلها الشهري ومصاريفها اليومية، وما يخص كل فرد منها من ذلك^(١) !!.

ولست أدري كيف يمكن أن تشكل دول متفاوتة تفاوتاً عظيماً في لغاتها وثرواتها وعدد سكانها ومساحتها إقليماً واحداً.

كان من المنطقي - ما دمنا ننظر - أن تكون بنغلادش وباكستان وإيران وأفغانستان إقليماً واحداً، وأن تكون دول الخليج إقليماً ثانياً، ودول المغرب العربي إقليماً ثالثاً وهكذا....

وهذا في الحقيقة ليس هو الخطأ الأساسي، إنما يكمن الخطأ الأساسي في تصور الكاتب أن العالم الإسلامي بمنزلة قطعة من العجين يمكن أن تشكّلها كيف شئنا!!.

إن إدراك طبيعة أية مشكلة لا بد أن يستند إلى فلسفة ورؤى خاصة محددة للحياة بأسرها؛ بمعنى أن تكون آليات وإجراءات تحديد المشكلات ومعالجتها جزءاً من فهم واضح لطبيعة الترابطات والتداعيات القائمة بين الداخل والخارج، والمادي والمعنوي، والماضي والحاضر، والعام والخاص.... وإنما فإن من السهل أن تصدر عدداً من التوصيات والمواعظ دون أنشعر أن شيئاً ما قد تحقق.

إن بإمكاننا أن نذكر المزيد من المشكلات والانحرافات الفكرية، لكن الحرص على ألا يتضخم الكتاب، يلجم القلم عن التوسيع. والله حسينا.

(١) انظر الوحدة الإسلامية: ٤٣٥.

الفَصْلُ التَّالِثُ
فِي
التَّنْمِيَةِ الْعَرْقِيَّةِ

- (١) تنمية المعرفة ضرورة حيوية .
- (٢) أية معرفة تبني؟ .
- (٣) كيف تبني المعرفة؟ .
- (٤) عقبات في طريق تنمية المعرفة .

(١) تنمية المعرفة ضرورة حيوية

لم تعرف البشرية في تاريخها الطويل ديناً أو فلسفه أو مذهبًا، أعطى كل هذا القدر من الاهتمام والاحترام لمسألة العلم - كدين الإسلام. وأديباتنا في هذا أوضح من أن تحتاج إلى شرح أو تذكير. وما ذلك إلا لأن الإنسان لا يكتمل، ولا يترقى في مدارج الإنسانية إلا بمقدار ما يتعلمها، وما يستفيده من أنواع الإدراك والخبرة في جوانب الوجود المختلفة.

لم يعد ما لدى الإنسان من ذكاء واستعدادات فطرية كافياً للعيش في هذا الزمان المعقد المتحول. وقد كان في إمكان الأمي فيما مضى أن يعيش بكل رامته، وضمن الحد المقبول من الفاعلية والسيطرة على شؤون الحياة المختلفة؛ لأن الوسط الذي يعيش فيه كان كذلك. أما اليوم فإن طفولة الإنسان صارت هي الأصل، وبإمكان أن يصبح المرء هرماً، دون أن يكتسب النضج الكافي للعيش الجيد في هذا الزمان المنقطع النظير!

ما يحتاجه الإنسان من زاد معرفي ليعيش حياة طيبة يختلف باختلاف العصور وسيظل باستمرار شيئاً نسبياً. وفي ظل التواصل الكوفي الذي تتصاعد وتيرته على نحو مدهش صارت أهمية المعرفة ضعيفة الارتباط بالمكان، حيث لم يبق هناك عوالم مختلفة، وإنما عالم واحد: أجزاء منه متقدمة، وأجزاء أخرى متخلفة. وكل تقدم معرفي أو حضاري تحرزه الأجزاء المتقدمة سيزيد من صعوبة الحياة في الأجزاء المتخلفة، لكن ذلك قد يتم بصورة غير منظورة.

ولا تظهر انعكاسات الفجوة بين من يعلم وبين من لا يعلم إلا عندما يحاول هذا الأخير حل مشكلاته المتراكمة؛ آنذاك فقط تدرك الأجزاء المتخلفة

مدى ارتهان إرادتها ومصيرها في أيدي الذين يقودون الحضارة، ويصنعون المعرفة! .

إن من المؤسف حقاً أن تتحول أمة العلم والبحث والتجربة إلى أمة تغلب عليها الأمية الهجائية والأمية الثقافية، وأن تحتاج إلى من يشرح لها مدى حاجتها إلى العلم مع أنها تتلو كتاب ريها الذي يمجد العلم، في كل آن! .

إننا على قناعة متزايدة أن الاستثمار في العلم هو أفضل أنواع الاستثمار، وأن المخ الشعري هو منحة الله - تعالى - العظمى للفقراء الذين حُرمت أرضهم من الموارد.

ويتعاظم الاعتقاد بأن التقدم العلمي ومحاولة دمجه في الجهد البدني قد يكون هو الفرصة الوحيدة أمام الفقراء للخلاص مما هم فيه.

إن خلود الرسالة وارتباطنا المصيري بها، يجعلنا في حاجة مستمرة إلى الاجتهد والتدبّر وتوليد الأفكار من النصوص والأصول، إلى جانب توظيف المبادئ الإسلامية، وإيجاد الشروط الموضوعية لعملها في حياة الناس. وهذا كلّه يحتاج إلى وعي تام، يستند إلى العلم والمعرفة والخبرة الحسنة. ولا يخفى أن ساحات الحياة المختلفة مزدحمة بالمذاهب والأفكار والخبرات ذات الطابع العلماني البحثي مما يجعل دعوة الإصلاح يواجهون منافسات حادة، ولا بد لهم من أن يكونوا على مستوى المواجهة. والمعرفة والرؤى الشاملة هي عنادهم الأفضل في ذلك.

واني لأذهب إلى أبعد من ذلك إذ أقرر أن استيعاب الإسلام الحضاري يحتاج إلى درجة من التثقف والفهم والتمدن، ومن ثم فإنه لم يكن من المستغرب أن تنتشر الصحوة الإسلامية الحديثة في المدن أكثر من القرى، وفي قطاع المثقفين أكثر من قطاع العمال أو التجار.

إن المعرفة هي السبيل الأكثر نجاحاً اليوم لاكتساب منظور واسع للقضايا المختلفة، من خلال إدراك خصائص الشؤون المختلفة وعلاقاتها.

ولا يستطيع المرء أن يشعر بالقدرة على الاختيار إلا من خلال العمق المعرفي بكل الخيارات المطروحة على الصعد النظرية والعملية؛ وإن الذين يشعرون بالانحسار والحيرة هم الذين لا يعرفون إلا قليلاً، فيخشون كل شيء، ويدفعهم الاحتياط الزائد إلى موقف (لا أدرى) مُبْهَم ومغلق. وفي هذا وذاك يقول - جل وعلا -: «وَيَرَى الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْعَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْمَرْيَزِ الْحَمِيدِ»^(١).

وقال سبحانه: «قَالَ اللَّهُ عِنْدَهُ حِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا مَا يَكُونُ يَعْلَمُ، فَقَالَ أَنَّ يَرَنَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ»^(٢). وقال جل وعلا: «إِنَّ كَذَّابًا بِمَا لَرَأَ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ، وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ»^(٣).

إننا نرى اليوم بأم أعيننا أن الذين بأيديهم نواصي المعرفة هم أكثر الناس قدرة على التصرف في الطبيعة، وأعظم قدرة على إبداع النماذج وتطويرها، فقد استطاع العلماء أن يصنعوا من عناصر الأرض التي تزيد على المائة بقليل أكثر من مليوني نوع من المصنوعات!

إن العلم يكشف القوانين، ويطلعنا على صرامتها، لكنه في الوقت نفسه يعلمنا كيفية الخلاص من ضروراتها ومحدوبيتها، وذلك من خلال سنة (المدافعة) التي أوجدها الخالق - جل وعلا - في هذا الكون، ومن خلال ما هو معروف من أن الشيء يطرأ على خصائصه تعديلات وتغيرات حينما يوضع في سياق جديد أو تركيبة مختلفة.

إن كثيراً من النزاعات العالمية ينشأ من خلال عجز مثقفي العالم عن رؤية ثقافة الآخرين من وجهة نظر أصحابها، والعجز عن رؤية ثقافتهم الخاصة من وجهة نظر مغايرة، مع أن الدمج بين رويتين سيخفف من التوتر، وسيشرئي كلتا الثقافتين. ولا يتم شيء من ذلك إلا بالمعرفة الموسوعية الرصينة.

(١) سورة سباء، آية: ٦.

(٢) سورة النمل، آية: ٤٠.

(٣) سورة يومن، آية: ٣٩.

وإن مما لا يخفى أن الجهل المتبادل بحقيقة ما لدى الجماعات والحركات الإسلامية المختلفة - أدى إلى تدابيرها وتنافرها واستهلاك كثير من جهودها في رد بعضها على بعض . وكان بالإمكان الصبر ورة إلى التسامح والتفاهم لو كانوا يملكون رؤية حضارية أوسع من أطهرهم العملية والاجتهادية جميعاً، لكن ضحالة المعرفة تأبى إلا أن تتجلّى في صورة سوء الفهم وتزكية النفس والبَرَم بالمخالفين وتتبع سبل الفتنة والمعارك التافهة !!

إن أسلحة العلم اليوم هي الأسلحة الأشد فتكاً، حيث صار من الممكن تحويل العدو إلى تابع مجند لخدمة أغراضك بدل أن تخليص منه بطريقة ما.

ومما كان يقال فيما مضى: الشرقي إذا أراد الخلاص من شخص شدّخ رأسه، والغربي إذا أراد الخلاص من شخص فتح له كلية !

ولم يكن هذا القول صادقاً في يوم من الأيام صدقه في هذه الأيام؛ ففي ظل استهجان الصراعات المكشوفة، وارتفاع نغمة (السلم العالمي) أصبحت المعرفة هي السلاح الأساسي المستخدم في السيطرة على المستضعفين الذين لا يعرفون عن كل شيء إلا القليل !

بعد أن تطورت تقنيات التحكم عن بعد وتقنيات الاتصالات والهندسة الوراثية والأقمار الصناعية التي تصور كل شيء^(١). صارت مصائر الشعوب المختلفة مرتبطة بغيرها من الدول المتقدمة، حيث إنك لا تجد البحوث الراقية إلا في جامعتهم، ولا تستطيع تأهيل كفاءات متقدمة إلا عندهم، ولا تستطيع الكشف عن الثروات المخبأة في أرضك إلا بوساطة عتادهم ...

وقد سبب ذلك نوعاً من الاستخدام النفسي لدى الشعوب التي لا تعامل مع المعرفة إلا بمقدار الضرورة، وبرؤوس الأصحاب !!.

وقد علمتنا التجربة أن العدو الجاهل ينفع فيك روح المقاومة

(١) يقولون عن القمر الصناعي الإسرائيلي (افق - ٢) : إنه أنساب أداة لرصد ما يدور في الأقطار العربية في وقت السلم !.

والاستبسال من خلال حماقاته وقصر نظره؛ فهو يجدد دماء الشباب في عروقك من حيث أراد هزيمتك! أما العدو المتعلم فإنه يصطادك بشباك من حرير و يجعلك تخده، وأن تشعر له بالامتنان!!

وويل للذين يريدون إسقاط طائرة بمسدس، والذين يريدون نشر أفكارهم عن طريق نشرة سرية، وعدوهم يستخدم البث الفضائي!!.

إن العناي الذي يكابده رواد المعرفة لن يكون بدون ثمن؛ فطلب العلم - إذا خلصت النية - أفضل من التوافل ، بالإضافة إلى أن المعرفة أكبر مصدر من مصادر المباحث الروحية، كما أنها مصدر مهم للأمن النفسي؛ فهي تومن نوعاً من الطلاقة للروح والمتعة للعقل، وكم تكون سعادة العالم كبيرة حين يلوح له مخرج من نفق مظلم، أو بداية طريق ظليلة في صحراء مهلكة؟!

ومهما ذكرنا من وصف السعادة الغامرة التي تنشرها المعرفة الأصيلة فإن الحقيقة ستظل أكبر؛ فهذه الملذات تتأبى على النعت؛ إذ ليس لها سوى الذوق إفشاء!!.

(٢) أية معرفة تنمي؟

لا بد من القول ابتداءً: إن مجتمعاتنا بحاجة ماسّة إلى نوع من التوسيع المعرفي الرأسي والأفقي؛ حيث إن لدينا أعداداً كبيرة من الأميين الذين لا يقرؤون، ولا يكتبون، كما أن لدينا تربياً عالياً من المدارس في بلدان كثيرة. وأكثر الذين يقرؤون ويكتبون ليس لديهم اهتمامات ولا عادات قرائية، فمعرفتهم بالقراءة والكتابة أشبه بسيف لم يفارق غمده في يوم من الأيام! .

ولدينا مشكلات معرفية على مستوى المثقفين وطلاب العلم ..

لا يعني كل هذا أن المعرفة لدينا في فوضى تامة، فالرقي المعرفي شيءٌ نسبيٌ، والمعرفة نفسها تتأثر تأثيراً بالغاً بالأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية السائدة في أي مجتمع، لكن علينا في كل الأحوال أن نسعى إلى ترسیخ مفاهيم ثقافية^(١) ومعرفية، ترقى بالفرد والمجتمع، وتساعد على تلبية الشروط الموضوعية للعيش في عصر يشهد انفجاراً معرفياً هائلاً. وهذا السعي يجب ألا يتوقف؛ لأنَّه لن يبلغ مداه في يوم من الأيام، حيث تفرز البنى المعرفية الموجودة في أية ثقافة نمائصها وعقابيلها على نحو مستمر.

وهذه أهم السمات التي نرى أنه يجب توفيرها في معرفة المستقبل.

(١) الثقافة هي ذلك الجو من العادات والأذواق والقيم التي تؤثر في تكوين شخصية الفرد، وتحدد دوافعه وانفعالاته وصلاته بالناس والأشياء. أما العلوم فإنها ذلك التعبير المنظم عن ما يدركه الإنسان في مجالات الحياة المختلفة. وعلى هذا فإن المعرفة جزء من الثقافة، أو الجزء الأكثر تنظيماً ووضوحاً فيها. وفي كثير من الأحيان تطلق كلمة (ثقافة) ويراد منها المعرفة والعلم، من باب تسمية الجزء باسم الكل.

١ - معرفة مشدودة إلى الأصول:

إن هناك قدرًا من المعرفة يُعد ضروريًا لصحة إيمان كل مسلم، وهناك قدر ضروري لاستقامة عباداته ومعاملاته وعلاقاته وتحديد أهدافه الكبرى. وهذا القدر ضروري لكل مسلم، مهما كان تخصصه، ومهما كان عمله... والافتراض أن التربية البيئية بالإضافة إلى المناهج الدراسية توفر هذا اللون من المعرفة قبل الانتهاء من المرحلة الابتدائية أو بعدها بقليل.

ثم باعتبارنا أمّة مسلمة تدين الله - تعالى - بالعبودية، فإن من المهم ألا يسود فيينا أي لون من ألوان المعرفة التي تخدش الانتماء لهذا الدين، أو تصطدم بإطار من أطروحة العامة، أو تشوه الرؤية العامة للأمة في تعاملها مع بعضها أو في إدراكتها لواجباتها وأهدافها....

أنا لا أطلب من مدارسنا أن تلقن الطلاب الخلافات الفقهية، ولا المناظرات العقدية والفلسفية، ولا أخبار الفرق والمذاهب التي بزغت في تاريخنا، لكنني أطالب بأن يتم زرع حب الله ورسوله في قلوب الناشئة، وتوقير الشريعة، وأهمية الالتزام بها، والانتماء لهذه الأمة، وضرورة السعي الحيثي نحو القيام بالواجبات والكف عن المحرمات....

إن عصرنا يتطلب الكثير من المعارف، ومن ثم فإني أدعو إلى تعليم معرفة شرعية وكonneية منسجمة ومتوازنة وعملية، لا تهتم بالكثير من التفاصيل، وتركز على الأصول والمبادئ والأحكام الكبرى؛ لا تأسير العقل في إطلاقاتها، لكنها لا تؤدي بالناشئة والشباب إلى الضياع، وقد الاتجاه.

وهذا كله لن يتم إلا من خلال إثراء الساحة العلمية بالإنتاج المعرفي المتميز، في شتى العلوم؛ فالأجود يحاصر الجيد، والطيب يكشف عورات الخبيث، ويطردته.

إن الأصول التي يجب أن تدور معرفتنا في فلكها لا تقتصر على الأصول العقدية والتشريعية، وإنما تتسع لتشمل الأصول والفرضيات الحضارية التي تساعد أمّة الإسلام على الالتزام بدينيها وعيش عصرها بكرامة وكفاءة،

من نحو تحقيق العدل والحرية وكرامة الإنسان وتكافؤ الفرص والإعلاء من شأن العمل والإبداع والاعتزاز بالانتماء الإسلامي والتحصن ضد الاستلاب، والاقتداء بالغرب، والانحدار نحو لهوه ومجونه، وما شاكل ذلك مما هو أساسي وممحوري في تبلور شخصية الأمة، وتحقيق ولاليها على نفسها... .

إن الأصل لم يكن أصلًا إلا ليكون مثارة يهتم بها، وإنما ليكون مطلقاً، تُنسب إليه الفروع، وتقاس عليه المستجدات، وتعتبر به الطوارئ والمتغيرات. والدوران في فلكه يعني الإحساس القوي به واستهدافه والتضحية بالفرعيات من أجله، وإيجاد الوسائل لتحقيقه.... .

٢ - معرفة منصفة ومتوازنة :

الراكم المعرفي المتتسارع سوف يوسع دائرة الاجتهاد، ويشري الساحة المعرفية بالكثير من الأفكار والأراء والمذاهب. وكلما كثرت الاجتهادات كان إمكان الانتقاء والحدف والتعارض والتتجاهل والاختلاف أكبر.

وهذا يلقي علينا أعباء صياغة معرفة تتسم بالتوازن والإنصاف.

أما التوازن فإننا نعني به عدم التركيز على جانب معرفي وإهمال الجانب الآخر؛ إذ كثيراً ما يحدث أن يركز بعض مثقفينا على النقل المحسن وتكتيس النصوص والنقل والأخبار، دون محاولة فقهها والاستنباط منها، وتوظيفها في رؤية حضارية معاصرة.... .

وفي الوقت نفسه نجد من يعتمد على العقل والتجربة ومعطيات الدراسات المعاصرة في تكوين الرؤى والأحكام، دون آية محاولة لدعمها بالنصوص، ودون السؤال عن مدى ملاءمتها لأطر الشريعة ومبادئها الأساسية.

بعضنا يعتمد في توجهه الثقافي والمعرفي هيكلًا معرفياً محلياً بحثاً، ولا يحاول أن يطعم ثقافته بخبرات و المعارف الآخرين، فيضيق على نفسه واسعاً، ويحرم فكره من كثير من التفتح والتجدد. ونجد في جوارهم من انغماس في الثقافة الغربية، وظن أنه استخرج منها الدرر، ونوادر الأفكار مع

أن كثيراً من ذلك موجود بصورة واضحة في أدبياتنا وتراثنا!

هذه الوضعية أوجدت نوعاً من الخلل في نتاجنا المعرفي، كما أوجدت نوعاً من الاضطراب في موقف القراء والمعلمين؛ وتم تصنيف المفكرين والعلماء على أساس إنتاجهم، وأقبل على كل طائفة نوع من الناس، وساد التحذب والتناحر والاستخفاف المتبادل!

نحن بحاجة إلى معرفة تستفيد من الخبرة الإنسانية كاملة مع نوع من الانفتاح وممارسة النقد وفق معايير شرعية وحضارية ومصلحية.

وممارسة النقد لما عندنا، ولما عند غيرنا قد تزعج بعض الناس إلى درجة الاعتقاد بأنه نوع من الهدم والتحطيم؛ وهو يميلون إلى ثقافة وفافية مساملة، تمسك بالعاص من الوسط في كل موقف؛ مع أن النقد يبلور وعي الثقافة بنفسها، وهو على كل حال لا يؤذى إلا الحالات المريضة!

إن فقد التوازن المعرفي، مسؤول عن نشأة مذاهب فكرية ومعرفية عديدة، ما زلت نعاني منها إلى اليوم. فالتركيز على الفروع وبعض الشكليات والتدقيقات دفع بعض الصوفية إلى تجاوز المعايير الشرعية النصية كلها، واعتماد معايير ذوقية ووجودانية، كثيراً ما تكون بعيدة عن أي ضابط شرعي. والتأكيد على النقل والنصوص دون إعمال كاف للعقل في الفهم وتلمس مقاصد الشرعية العامة - دفع فريقاً من الناس (المعتزلة) إلى التعويل على العقل والاستخفاف بأمر النقل في موضع كثيرة⁽¹⁾.

وهكذا نتأرجح بين أفعال وردود أفعال، ونتنقل من شطط إلى آخر نتيجة غياب الرؤية المعتدلة والبعيدة المدى.

ونقصد بالإنصاف أن تكون صرحاء في نسبة الفضل لأهله، ولو كان عدواً لنا، ولو كان ذلك سيُضعف موقعنا إمامه. ولا ينبغي أن يمنعنا جحود العلمانيين أو الغربيين من أن نشيد بالأفكار والإسهامات الممتازة، كائناً من

(1) انظر قضايا التجديد: ١٠٣.

كان مصدرها؛ فالمسألة ليست مسألة مصلحة، وإنما مسألة مبدأ.

ومما علمتنا ربنا - جل وعلا - في الكتاب العزيز: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ مَاءَمُوا كُوُنُوا فَوَيْبِرَتْ يَلَوْ شَهَدَةَ يَأْلَقْسِطٌ وَلَا يَجْرِيَنَكُمْ شَهَادَةُ قَوْمٍ عَلَى أَلَا تَعْدِلُونَ أَغْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾^(١).

إن مما يساعدنا على إنصاف الثقافات الأخرى أن نبحث في الخصائص المشتركة بين المعارف والمذاهب والنظريات والأفكار المختلفة والمتضادة، وبمجرد الحصول على أرضية مشتركة فإن الخلاف سوف يصبح نسبياً، وسيفتح باب للنقد وال الحوار والترجيع، وستزول أوهام كثيرة أدت إلى التنازع والتداير دون مسوغ مشروع في كثير من الأحيان.

إن من المؤسف أن بعض الطيبين يبحث بجدية نادرة عن أوجه الخلاف بيننا وبين غيرنا، ويفتح فيها، حتى يجعل منها حواجز لا يمكن تخفيتها أبداً، ويظن أنه بذلك يسعى إلى التميز. فيما أنها أصحاب رسالة ومنهج فإن الحدود والحواجز تؤذينا أكثر من أن تفعتنا.

ومع أنني ضد تمييع الأمور إلا أنني أعتقد أن تحويل الجزئيات والمسائل الاجتهادية والخلافية إلى محاور للمفاصلة والمناضلة، لن يخدم منهجاً، ولا مجتمعاتنا، وإنما سيستهلك الطاقات، وسيجعل منشار المفاصلة لن يقف عند حد من الحدود، إلى أن يصبح أتباع الفكرة الواحدة والمذهب الواحد أشلاء ممزقة!

وليس من النادر أن يدمّر الغلو وضيق الأفق مصادره وحماته، بل ذلك سنة الله في الذين خلوا من قبل !!

٣ - معرفة تجريبية:

دفع المنهج الإسلامي الأصيل بالإنسان إلى محاورة الطبيعة، وأوجد لديه العقلية الواقعية العملية؛ ومن ثم فإنه حصل لدينا قبل كل الأمم تقدم

(١) سورة المائدة، آية: ٨.

علمي ضخم في مجالات العلوم والكيمياء والفيزياء والفلك والطب...
لكنني أزعم أن السابقين لم يستوعبوا بشكل جيد مرامي المنهج الإسلامي في
الحث على السير في الأرض، وإجراء التجارب، واستخلاص المعرفة منها،
ومن ثم فإن التراجع عن ذلك المنهج كان سهلاً.

ويسبب قلة الدراسات التي تستهدف معرفة سنن الله - تعالى - في
الأنفس والمجتمعات كانت خبرة السابقين بالضروريات وال حاجيات
والتحسينيات ليست على الدرجة المرجوة من النضج والكمال؛ مما جعل
أخذها بعين الاعتبار عند الربط بين النصوص ومقاصد الشريعة الكلية ضعيفاً.
وقد أدى هذا وذلك مع أسباب فنية أخرى إلى جمود الواقع الحضاري
ثم تدهوره، وصعوبة النهوض به بعد ذلك.

لا أدرى اليوم لتحريك المعرفة لدينا، وفتح نوافذها للتغيير والتجدد
سبلأً سوى الاتجاه نحو التجربة واستقراء الواقع عن طريق الإحصاء والمقارنة
والاهتمام بجزئيات الواقع وربطها بأصولها، ثم استخلاص الأحكام والنتائج،
وذلك في سبيل فهم أفضل للسنن، وفي سبيل تلمس وجوه الانسجام بين
الكتاب المقرؤ (القرآن) والكتاب المفتوح (الكون) بكل ما فيه...

إن من أسباب عزوفنا عن التجربة ومحاورة الطبيعة أن التخلف يمد
الناس عادة بأجوبية وهمية، ويُضعف شهيتهم نحو التساؤل!

لا ريب أن كثيراً من التجارب يحتاج اليوم إلى عتاد ومواد ومال
وصبر... وكثير من هذا ليس متوفراً لدى الشعوب الإسلامية على نحو
كاف؛ لكن المجال الأهم لفهم السنن هو السلوك الإنساني على صعيد الفرد،
وعلى صعيد الجماعة. والدراسات والتجارب في هذا المجال تحتاج إلى
باحثين أكثر من أي شيء آخر، وهم لدينا كثر؛ ويامكانهم أن يكتشفوا عن
الكثير إذا توفرت القناعة بأهمية ذلك.

إنه إذا كان المطلوب من المعرفة أن تنهض بمجتمعاتنا، وتخدمها فإن
عليها أن تتجه إلى الحياة، تسر أغوارها، وتفهم نظمها، وما فيها من اعتماد

٤ - معرفة متتجددة:

المعرفة اليوم أهم الأسلحة المستخدمة في الصراع العالمي؛ فعن طريقها يتم تطوير كل الأسلحة الأخرى، وعن طريقها تتم السيطرة على عقلية الخصم واحتلال نفسيته وروحه. ولم يسبق للمعرفة أن تطورت في أي عصر من العصور بالسرعة والصورة التي تشاهد بها اليوم. وصارت الشيخوخة تصيب المعلومات، وهي في صباها، وذلك بفعل الإنتاج المعرفي الهائل، والتقنيات الجديدة المستخدمة في صناعة المعرفة.

هناك دراسات عديدة حول تحديت المعلومات وتقادها، وكلها ينطوي بقصر عمرها وتقلص مدة صلاحيتها. وتفيد بعض التقديرات أن نحواً من ٩٠٪ من جميع المعارف العلمية قد تم استحداثه في العقود الثلاثة الأخيرة. وسوف تتضاعف هذه المعارف خلال (١٢) سنة^(١)!

ويقول أحد الباحثين: إن على المتخصص المعاصر أن يضع في حسابه دائماً أن نحواً من ١٠ - ٢٠٪ من المعلومات التي في حوزته قد شاخ، وعليه أن يجده. ويرى عدد من الباحثين أن أعراض الشيخوخة تعتري المعلومات بنسبة ١٠٪ في اليوم بالنسبة للجرائد، و ١٠٪ في الشهر بالنسبة للمجلات و ١٠٪ في السنة بالنسبة للكتب^(٢).

إن تقادم المعلومات يأخذ أشكالاً مختلفة، فتارة يتجلّى في ظهور زيف المعلومات أو عدم دقتها، وتارة يتجلّى في عدم ملاءمتها للخطط الجديدة، وأحياناً بتحول الاهتمام عنها؛ لأنها لم تصبح ذات قيمة في البناء المعرفي نظراً لفرعيتها أو هامشيتها، أو وجود ما يشغل الأذهان وصناع المعرفة عنها.

هذه الوضعية شملت كل أنواع المعرفة التراثية والمعاصرة. ولا ريب أن

(١) نصر بلا حرب: ٣٢٥.

(٢) القراءة أولاً: ٧١.

المعلومات الأساسية في كل فن تستعصي على التغيير السريع، لكن ليس هناك أية وسيلة لصونها من القراءة الجديدة، والتي قد تغير الكثير من دلالاتها ومعطياتها. كما أن توظيفاً جديداً للمعلومات القديمة قد يغير في النتائج المستقة منها.

هذا كله يعني أن من الواجب على كل واحد منا أن يتبع الاطلاع والقراءة المنظمة الوعائية؛ حتى لا يشعر في يوم من الأيام أن المعلومات التي لديه صارت بمثابة (نقود) سحبت من الأسواق، ولم تعد صالحة للتعامل！.

إنني من المؤيدين لكل ما يمكن أن يؤدي إلى تحديث المعرفة لدى الناس، وإلى كل ما يتتيح لهم الاطلاع على الجديد في كافة فروع العلم ومجالات الحياة. وقد يكون من الأطر والآليات التي تخدم هذا الهدف إحداث فصول إضافية في الكتب المدرسية، تتناول الأرقام والأخبار والأفكار الجديدة الطارئة على المادة التي يتناولها الكتاب؛ وإن كانت ما زالت في حيز الظني وغير المستقر. ويجب أن تقدم للطلاب على أنها كذلك، من أجل توسيع آفاقهم، وزرع حب التساؤل إلى الجديد في أنفسهم.

ويمكن لأجل هذه الغاية إقامة دورات تنشيطية لمدرسي المراحل التعليمية تتضمن على نحو رئيس تقديم الأفكار والمعلومات الجديدة التي يقومون بتدريسيها....

إن البنية المعرفية والذهنية لكل واحد منا تأخذ في التأكيل إذا لم يستطع أن يجددها عن طريق المعلومات والخبرات الجديدة، على ما نراه لدى الذين بينهم وبين الجديد نوع من العداء!

٥ - معرفة لا يختلط الظن فيها باليقين :

المنهج القرآني صارم في ضرورة الفصل بين القطعيات والظنيات، بين ما يشاهده المرء وبين ما يتناوله الناس، بين ما لا يتحمل إلا وجهاً واحداً من الفهم وبين ما يحمل وجهاً عديدة.

فقد نهى الله - سبحانه - أهل الكتاب عن الإفاضة في الجدل دون علم حقيقي حيث قال: **﴿يَأَهْلَ الْكِتَابِ لَمْ تُعَاجَّوْنَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُزْلَكَ التَّوْرِثَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَدْوَةٍ أَفَلَا تَمَقِّنُونَ﴾**^(١).

ونهى المؤمنين عن استخدام الظن في بناء المعلومات والموافق حين قال: **﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ مَأْمُونُوا أَجْتَبْيُوكُمْ مِنَ الظَّنِّ إِنَّكُمْ بَعْضَ الظَّنِّ إِنَّمَا﴾**^(٢).

إن من أهم مقاييس التخلف المعرفي فقد الناس للدقة، وللحاسة التفريق بين القطع والظن، وما هو من قبيل الوهم، وبين الموضوعي والذاتي، وبين ما هو من قبيل التحليل الشخصي وما هو من قبيل الأخبار المتداولة...

إن مفردات اللغة وتراكيبيها - بصورة خاصة - ظنية الدلالة، وتتيح وجوهاً عديدة من الفهم، أو تفيد علمًا ليناً يحتمل التأويل بحسب عقلية المتكلمي. وبسبب ضعف الخبرة (والطبيبة الزائنة) قد نقف مع الدلالات المباشرة للألفاظ، ونتلقاها على أنها المفهومات الوحيدة، ثم نبني عليها مواقفنا وردود أفعالنا.

وقد بذل علماء أصول الفقه - على نحو خاص - جهوداً مشكورة في سبيل بلورة بعض القيود التي تحول دون الاندفاع نحو الفهم السطحي لظاهر ما نسمع فإذا كان النص قطعي الثبوت، قطعي الدلالة؛ فإنه يفيد القطع واليقين^(٣).

الحكم العقلي الثابت يفيد اليقين أيضاً عند المسلمين وعند غيرهم. أما الإجماع فقد يكون قطعياً، وقد يكون ظنياً، والقياس لا يكون إلا ظنياً^(٤).

وقد حاول بعض الفلاسفة تحديد بعض السمات التي يجب أن تتوفر

(١) سورة آل عمران، آية: ٦٥.

(٢) سورة الحجرات، آية: ١٢.

(٣) هناك تفصيل وخلاف في إفاده أخبار الأحاداد للعلم، وفيما إذا كان الظني يندرج تحت أصل قطعي. انظر المواقفات ٣: ١١.

(٤) السابق...

في المعرفة حتى تكون يقينية، وذكروا من تلك السمات:

- ١ - أن تكون واضحة صادقة متميزة.
- ٢ - أن تكون متوافقة مع الواقع الموضوعية.
- ٣ - أن تساعد في الاستشراف والتبؤ وإجراء البحوث المستقبلية.
- ٤ - أن تمكن صياغتها في قوانين عامة.
- ٥ - أن تكون متسقة ومنطقية وقابلة للاختبار^(١).

هذه السمات مهمة في الوقوف على المعرفة اليقينية، وإن كانت ليست قاطعة في دلالتها. كما أنه يبقى (تحقيق المناط) كما يقول الأصوليون، أي متى تكون معرفة متميزة أو متسقة، أو مما يساعد على التبؤ....؟

وفي ظني أن نوعية التركيب العقلي، وبعض قوانين الفكر بالإضافة إلى وعي المجتمع وخبرته هي الضمانات الحقيقة للتمييز بين أنواع المعرفة ومستوياتها.

لا ينبغي أن يُفهم من هذا أننا ضد الظن العلمي والحدس والتخمين، واستشراف حدود المعرفة اليقينية والمغامرات العلمية، فهذه كلها ضرورية من أجل إثراء عمليات التحليل المعرفي، وفتح آفاق جديدة للخبرة المتتجدة، لكن المحظور دائماً هو الخلط بين الأمور، ووضع الأشياء في غير موضعها الصحيح، وذلك باستيلاد نتائج قطعية من مقدمات ظنية، أو بناء مواقف متعددة على معطيات يقينية وحاسمة.

٦ - معرفة موسوعية عبر التخصص:

إن العيش في مجتمع يولد المعرفة، وإن معالجة مشكلات الحياة تحتاج أيضاً إلى المعرفة. والأصل أن تكون هناك معرفة واحدة تمتزج فيها

(١) علم اجتماع المعرفة: ١١.

الإنسانيات بالطبيعيات والأخلاقيات والتطبيقات.... لكن الذهن البشري لا يستطيع أن يستوعب المعرفة دون تقسيمها إلى تكوينات متقاربة ومتراقبة ومتسلسلة؛ ومن ثم فإن تقسيم المعرفة هو تقسيم اصطناعي أملته ضرورة الاستيعاب والفهم. ومن هنا فإني أعتقد أن التقدم المعرفي الصحيح ينبغي أن يقوم على نوع من إعادة تركيب المعرفة حول محاور محددة، ولنا مع هذه السمة الوقفات التالية:

أ - الوضعية الحالية للسود الأعظم من القراء عندنا هي الاطلاع غير المنظم على عدد واسع من العلوم والمعارف؛ فترى الواحد منا يقرأ في اليوم الواحد في علوم متعددة، وهو قلما يقرأ كتاباً إلى نهايته! وإذاقرأه ملؤنة ومجذأة، لا تربط بين مفرداتها رابطة، وقد تغيب عن الواحد منهم عشرين عاماً، ثم لا تجد عند روئتك له أي تغيير جوهري في ثقافته وتكونه الذهني والمعرفي! والسبب في هذا واضح، وهو عجز ذهنه عن الإمساك بهذا الشتات من المعرفة والمعلومات ذات الطبائع والانتماءات المختلفة، والتي وردت إليه أيضاً عبر سياقات ومناسبات وقوتات شتى . . .

هذا اللون من التثقف لا يتبع للمرء الشعور بمباهج المعرفة، ولا يساعده على التقدم المعرفي، كما لا يُسعفه في أي لون من ألوان الإبداع العلمي.

والأهم من كل ذلك أنه لا يؤدي به إلى تقدم عقلي جيد، ولا يملأ نماذج فكرية خاصة به

والقارئ ذو الاطلاع المشتت وغير المنظم لا يملك الحماسة للاستمرار في القراءة، كما لا يملك أهدافاً محددة لها؛ وربما كان فقد حماسته ناتجاً من فقد أهدافه المعرفية.

ب - عندنا فئة ثانية من المثقفين، وهي تعمل في حقول معرفية متعددة، وهذه الفئة تتكون أساساً من أساتذة الجامعات والباحثين وغيرهم من ذوي التخصصات. ويقرأ كل فرد من أفراد هذه الفئة في علم واحد كالعربية أو التاريخ أو الفقه أو الفيزياء . . .

وهذه الفئة ذات أثر بالغ ورئيس في تقدم المعرفة؛ حيث يتطلب التقدم الرأسي في العلم التخصص الدقيق - على ما يبدو - وتركيز الفكر والخبرة في بؤرة معرفية ضيقة؛ حتى يمكن الوصول إلى شيء جديد. هذا ما يغلب على ظتنا دائمًا معاشر المتخصصين. إن التخصص هو أن يتبنى الإنسان معرفة مدققة في موضوع ما مكتفيًا بالمعرفة العامة في باقي الموضوعات. وهذا التدقيق يجعله يعرف عدداً متراوحاً وقليلاً من التكوينات بمستوى أفضل مقارنة بباقي التكوينات^(١).

إذا ارتفعت درجة التخصص لدى إنسان ما فهو يتعامل بصورة مستمرة مع حقائق فرعية، إنه ينحو منحى الدقة لا التعميم. والمتخصص المبالغ في التخصص سوف تتوقف معرفته في النهاية ما لم يتمكن من إضافة حقائق جديدة، حيث إن هناك حداً أقصى هو المحيط الخارجي لمنحنى المعرفة^(٢).

إذا كانت القواعد الفرعية هي مجال عمل إنسان ما فإن تأثيره في الواقع يظل محدوداً؛ ذلك لأن رصيده من النماذج سوف يكون محدوداً^(٣)؛ وذلك لأن الواقع مزيج من النماذج المختلفة المتباعدة والمترابطة، ويصعب على من يملك جزءاً منه أن يؤثر في مجموعه.

ومن الواضح أن كثيراً من فروع الدراسات العليا يواجه أزمة موضوعات؛ وهذا يؤكد ما ذكرناه من أن معرفة المتخصص سوف تتوقف ما لم يفتح على العلوم القريبة من تخصصه على الأقل.

لم يكن السلف يفرقون بين العلوم الشرعية والتجريبية، فقد كانت الفاعلية الحضارية تمزج النظري بالعملي، ليمثل الأول روح الثاني. ونعني اليوم من مشكلة (تفتت المعرفة) فتائي النظرة للحياة دائمًا نظرة جزئية ضيقة، مع أنه كلما تعرّف الإنسان على قوانين أكثر كانت قضية عمران الحياة على الأرض أيسر^(٤).

(١) المدرك والغامض: ١٢٠.

(٢) السابق: ١٢٢.

(٣) السابق: ١٤٤.

(٤) فقه الدعوة: ٧٢.

إن كثيراً من الباحثين لدينا يضيّعون أوقاتاً ثمينة في بحث قضايا فرعية جداً لا تسهم في تقدم العلم؛ لأنها مبتورة الصلة بأسس العلم الذي تنضوي تحته، وذلك نظراً لفرعيتها الشديدة. إن أولئك الباحثين يصدق فيهم قول القائل: «يعرفون كل شيء عن لا شيء»!^١.

ج - الفئة الثالثة هي الفئة التي تملك ثقافة موسوعية عبر المتخصص، إن ثقافتهم ليست (منفلتة) كثقافة الفتنة الأولى، ولا هي (مغلقة) كثقافة الفتنة الثانية. ثقافة هذه الفتنة هي الجديرة بالتنمية؛ لأنها هي المعرفة المنتجة والقابلة لأن تطور ذاتها، وأن تطور المجتمع من حولها.

إن المتخصص من هذا النوع هو إنسان خاص، إنه ذلك الباحث الذي يستطيع أن يوسع معرفته كما وكيفاً^(١). إنه يعرف عدداً كبيراً من التكوينات مع دقة عالية. إن لديه بين الدقة والاسعة علاقة جدلية إيجابية؛ فهو يستفيد من سعة معارفه والعدد الكبير من الأسس التي يعرفها في خدمة تخصصه والتقدم فيه، كما يستفيد من تقدمه الرأسي في تخصصه في مراجعة أسس علمه الذي تخصص فيه، وتطوير تلك الأسس والأصول بما يمثل إضافات حقيقة للحقيقة.

إن افتتاح هذا المتخصص ينبغي أن يتم بصورة أساسية على الثقافة الإسلامية وأصول العلوم الشرعية؛ لأنها تمثل البنية المعرفية العميقية بالنسبة لكل العلوم عندنا؛ وبإمكانها أن ترشد حركة المعرفة، وتحدد أهدافها، وأن تشكل مرجعاً تأصيلياً بالنسبة لها.

وانفتاح المتخصص بالعلوم التطبيقية على الواقع أمر في غاية الأهمية؛ لأن ذلك هو الذي سيساعد على تغيير مقولات تخصصه واختبارها، وسوف يمده بأفاق واسعة من المعرفة الجديدة. الواقع التقني الهزيل في العالم الإسلامي هو الذي خنق العلوم التطبيقية لدينا، وجعل كثيراً من الناشئة لا يرى أية فائدة من كد الذهن في استيعاب مسائلها! .

(١) المذكر والغامض: ١٢٢.

وسيظل افتتاح المتخصص مهمًا للغاية على نوعين من المعارف: المعارف التي يمكنها أن تؤثر في التخصص، والمعارف التي يمكن للتخصص أن يؤثر فيها؛ لأن هذين المجالين يشكلان امتدادات طبيعية للتخصص، وهم أعظم قدرة على تعريفه بنفسه من أي مجال آخر.

فالمتخصص في العربية سينتفع انتفاعاً عظيماً من خلال القراءة المكثفة في علم النفس والاجتماع والتاريخ والجغرافيا واللغات السامية والأسلوبية الحديثة والمنطق القديم والحديث؛ حيث إن في هذه العلوم من المعطيات والتطورات ما يفتح آفاقاً جديدة للبحث والتطوير بما يمكن من تقدم علوم اللغة على اختلافها على نحو مدهش.

إن التطوير الحقيقي لأي علم من العلوم ينبغي أن يتم على مستوى الأسس، وإن كل المجددين في الماضي والحاضر، في أمتنا وفي غيرها من الأمم ليسوا أولئك الذين يعالجون الفروع، ويوجدون تقسيمات جزئية جديدة وإنما أولئك الذين يعالجون المبادئ الكبرى والأطر العامة؛ بما يتبع إيجاد منطق جديد لنمو المعرفة موضع المعالجة. ومعالجة الأسس لا تتطلب درجة عالية من التخصص، وإنما تحتاج إلى رؤية متسعة ومدققة. إن اتجاه النمو دائماً نحو الدقة والاتساع، الدقة تعني أنني أستطيع أن أقترب من الرؤية المطلقة للتكون بمعرفة جزئياته الأدق، وارتباطاته الأدق. واتساع مجال الرؤية يعني أن أرى تكوينات جديدة في هذا الكون، كما أبدعه الخالق - جل وعلا^(١) ..

إن تنوع مصادر المعرفة شرط لخصوصية الذهن، ولكن لا بد أن يرافق التنوع تأصيل فلسفى وفهم روح العلم والتزام بمنهج البحث، وإلمام بكيفية بناء النظريات وإدراك حسن لطبيعة المعرفة البشرية^(٢).

من هذا كله يتضح أنه لا بد من اشتغال برامج الدراسات العليا على

(١) السابق: ١٣٥.

(٢) بنية التخلف: ١٣٧.

مواد ومهارات تمثل الامتداد الطبيعي للتخصص الذي يدرس فيه الطالب؛ حتى يمكن له أن يدرك مدى الفائدة التي يجنيها من وراء توسيع معارفه التخصصية.

وعلى نحو ما ذكرنا من قبل، فإن خصائص الشيء تتعرض للتعديل عندما يوجد في تركيبة جديدة.

د - إن مسألة الموسوعية عبر التخصص ينبغي أن تصبح فكرة محورية لدى قرائنا؛ حيث إنها تكاد تكون أفضل وسيلة لمعرفة مركزية ومنظمة، كما أنها السبيل الأفضل لإثارة حماستنا للقراءة والمطالعة؛ لأنها ستكون آنذاك قراءة بنية الإضافة للمعرفة. ومن خلال التجربة تبين أن أكثر الناس صبراً على معاناة القراءة هم أولئك الذين يقرؤون من أجل التأليف والبحث والتحقيق؛ حيث إن القراءة صارت مشدودة لذديهم إلى أهداف واضحة.

إن لدينا أعداداً هائلة من القضايا التي تحتاج إلى دراسات وإحصاءات ومعالجات جادة؛ وتلك القضايا منها الشرعي، ومنها التاريخي والاقتصادي والصناعي والاجتماعي . . . ولدينا إلى جانب هذا ملايين القراء النهمين إلى المعرفة، ويتمكن كل واحد منهم أن يصبح مختصاً من خلال الاهتمام بقضية من القضايا، ثم القراءة الموسوعية حولها؛ بما يجعل منه مرجعاً فيها. إن الإنسان لوقرأ في أيام قضية من القضايا كل يوم نصف ساعة، فإنه يصبح أستاذًا فيها بعد خمس سنوات!

ولتقرير المسألة إلى الأذهان نقول: إن الطلاب في قسم اللغة العربية يقرؤون في مادة (النحو)^(١) ما يقارب (٤٥٠) ساعة، ويترجون بهذا القدر من الساعات مدرسين للغة العربية في المرحلة الثانوية. ولو أن المرء قرأ في (النحو) كل يوم نصف ساعة لمدة خمس سنوات فإنه يكون قد قرأ أكثر من (٩٠٠) ساعة!

(١) يكاد يكون هذا هو الحد الأقصى؛ وفي بعض الجامعات لا يقرأ الطالب إلا نحوً من ثلثي هذه الساعات في هذه المادة.

إنني لا أريد أن يدرس القارئ كل أبواب النحو، لكنني أريد منه أن يتناول مشكلة من المشكلات النحوية، كأن يدرس قضية تطوير مادة (النحو) أو يدرس الصعوبات التي يواجهها الطالب في مرحلة ما تجاه هذه المادة، أو يحاول تحديد المحتوى المناسب تدريسه من هذه المادة لطلاب مرحلة من المراحل . . .

إن بحثاً جاداً حول قضية من هذه القضايا سيجعل من الباحث حجة في هذه القضية، وسيتسع بدراساته جهات تعليمية عديدة، وذلك حين يعتمد على دراسات وإحصاءات وبيانات جيدة في صلب الموضوع، وحين يشري رؤيته له من خلال الاطلاع على العلوم والمواد اللصيقة به، وحين يستطيع فلسفة الأسس التي تقوم عليها معالجة القضية التي يعني بها.

إن الواقع السيئ للأمة هو نتاج وجود مئات أو ألف المشكلات والأوضاع السيئة؛ ولو أن كل واحد عنى بحل مشكلة لوجدنا تحسناً واضحاً في حياتنا ولكن !

٧ - معرفة مستقبلية:

إن العالم يتغير بسرعة هائلة لم يسبق لها مثيل، وعلى الواحد منا أن ينظر إلى الأمام، وإلى مسافات بعيدة، بشكل يتناسب مع السرعة الفائقة لهذا التحول الكوني العظيم في كل شيء!

إن من حق الإسلام علينا، ومن حق الأجيال القادمة من أبنائنا أن نفك ملياً في الآتي، وأن نضبط سلوكياتنا وتصيرفاتنا في ضوء متطلبات المستقبل لكل منها.

إن بعض الفلاسفة يرى أنه لا يوجد سوى زمانين: ماضٍ ومستقبل، وأما الحاضر فهو وهم. ولم يكن هذا القول أقرب إلى الصواب في يوم منه في هذه الأيام!

إن النظر إلى الأمور بعيون مستقبلية منهج إسلامي صميم، وإن المسلم

يضبط إيقاع حركته في الحياة كلها وفق متطلبات الفوز بالجنة الموعودة في الآخرة^(١).

وقد كان من العامل أن يتولد من هذا المنهج نظر مستقبلي فريد لدى المسلم في كل أمور الحياة، لكن يبدو أن انتفاع المرء بمبادئه لا يتأتى بطريقة عفوية، وإنما يحتاج إلى نوع من الفاعلية الذهنية والشعورية التي لا توفرها إلا درجة معينة من التحضر.

إن المعرفة المستقبلية تعنى مزيداً من الفهم للحاضر، حيث إنه سوف يظهر في المستقبل بصورة من الصور. والنقص في فهم الحاضر سوف ينعكس على فهم المستقبل بصورة كبيرة. وإن الواقع الذي نعيشه على درجة عالية من التعقيد بحيث لا يمكن فهمه من غير تفتيت وإعمال للإحصاءات والدراسات فيه.

العالم اليوم مشغول بالمستقبل، وهو يخطط لاستيعاب الأحداث المتوقعة فيه، واحتلال مواقع متقدمة كلما كان ذلك ممكناً.

ويذكر على سبيل المثال أن (السويد) أنشأت وزارة تابعة لرئيس الوزراء للاهتمام بالمستقبل، وذلك منذ عام ١٩٧٣، كما أنه بلغ عدد المؤسسات المهتمة بالدراسات المستقبلية في أمريكا وحدها نحو من (٦٠٠) مؤسسة. ويذكر بعضهم أن الدراسات المستقبلية تشكل حالياً نحو من (٤١٥) مقرراً دراسياً موزعة على (١٨) ولاية أمريكية^(٢).

السؤال الملحق الذي على علمائنا ومفكرينا الإجابة عنه هو: ما نوعية المسائل والمشكلات المحورية التي علينا أن نبني معارف أطفالنا وشبابنا حولها؟ حتى يتمكنوا من خاللها من معايشة المستقبل بطريقة فاعلة ومؤثرة؟

(١) يروى عن أبي بكر - رضي الله عنه - أنه قال: «لا تغبطوا الأحياء إلا على ما تغبطون عليه الأموات». وهذه نظرة تقويمية رائعة للأمور بحسب مآلاتها، وهل النظر المستقبلي شيء غير هذا؟!

(٢) تحضير الطفل العربي لعام ألفين: ٢٦.

ومع أن لكل بلد إسلامي همومه الضاغطة، والتي يوليهها أهمية خاصة، إلا أن المحاور والهموم المشتركة كثيرة جداً. إن كل تفكيرنا المستقبلي يجب أن يتمحور حول موضوع أساسي، هو كيفية توفير الشروط النفسية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تجعل المسلم يحيا حياة كريمة، تمكّنه من القيام بأمر الله - تعالى - والتمكّن لدینه في الأرض.

ما يجب أن ننمّي معارفنا حوله كثير، لكن يمكن أن نقتصر على بعض المهم منه، في المحاور التالية:

أ - إذا ما أردنا استشراف المستقبل ب بصيرة وصدق فإن علينا، أن ندرك أن خير ما يمكن أن نفعله في سبيل ذلك هو تحسين قرارات الحاضر؛ إذ لا ينبغي أن تخدعنا الأوهام، ونظن أن جهودنا الحالية في التنمية، وحديثنا بملء الفم عن المستقبل سوف تحسن من فرص العيش الكريم في قابل الأيام؛ إذ من غير المألوف أن نستولد مستقبلاً جيداً من واقع رديء.

إن الأمة بحاجة ماسة إلى أن تحسن من أداء أجهزتها المختلفة، وتتوفر الأجزاء التي تمكن الفرد من بذل أقصى جهده مع الشعور بالانتماء وروح الإخاء. وتقدم الحياة المعنوية والمادية معاً، يتطلب المزيد من التضحيّة والتعاون والكفاءة والشوري والانفتاح والحرية والشعور بالمسؤولية والسيطرة على عوالمنا الداخلية... وما لم نوفر القدر الضروري من كل ذلك فإن المستقبل لن يكون أكثر إشراقاً من الواقع؛ بل قد يصبح أكثر بؤساً وقتمة!

ب - مما يحتاج إلى دراسات مستقبلية قضية الالتزام بالإسلام وتبليغه في عالم شديد التواصل والتنافس. وإن علينا أن نجيب على أسئلة كثيرة في هذا الصدد، منها: كيف نجعل الالتزام بالإسلام حقيقة واقعة في حياة المسلمين؟ وما هو جوهر الالتزام؟ وما حدوده في ظروف صعبة محفوفة بالضرورات والظروف المعيشية الصعبة؟ ما الذي ينبغي أن يتجلّى في السلوك الظاهري والواقع الشكلي للMuslim؟ وما حدود المروءة والخشمة؟ ما هي أصول الحركة بهذا الدين باعتباره رسالة الإنقاذ العالمي؟ وما الطروحات والأدبيات والوسائل والأهداف المرحلية التي ينبغي تبنيها في دعوة غير

المسلمين للإسلام ، وفي العلاقات الخارجية بين المسلمين وغيرهم ؟

ج - هناك مشكلات مشتركة بين دول العالم ، ومشكلات خاصة بالعالم الإسلامي ، ومشكلات خاصة بالبلد الواحد؛ وهناك دول إسلامية تعاني من مشكلة قلة الموارد وضيق مساحة الأرض ، وببلاد تعاني من الأمية وأخرى من النعرات الطائفية ، ودول تعاني من شح المياه العذبة والتلوث البيئي والمطلوب من أهل كل بلد أن يحددو المشكلات الأخطر في حياتهم ، وأن يشقوا الناس بها ، وينشروا الوعي بطرق معالجتها؛ حتى يسمم كل واحد بجهده للتخفيف من آثارها.

العالم الإسلامي يعاني من مشكلات الغزو الثقافي الخارجي والفقر والبطالة وضعف أداء النظم والديون الخارجية . . . وهذه المشكلات تتفاقم في أكثر بلدان العالم الإسلامي ، ولا بد من عناية خاصة بها .

وخلالمة القول أن المعرفة المستقبلية هي معرفة متصلة بتطورات الأمة ومشكلاتها وهمومها ، إنها قرون الاستشعار الممدودة في جوف المستقبل وعلى مقدار تحسسها له والتصاقها به تكون كفاءتها وصلاحيتها .

(٣) كيف ننمي المعرفة؟

إن تنمية أي جانب من جوانب الحياة هو في الحقيقة عمل جزئي، لا يتم في فراغ، ولا من غير اعتبارات وشروط متعددة؛ فمن الصعب مثلاً أن يجعل الناس يقرؤون بنهم وتعطش وهم يكذبون بياض النهار وجزءاً من سواد الليل من أجل سد الرمق ومن العسير أن يوجد لدينا مراكز مجانية لتدريب الناشئة على استخدام الحاسوب الآلي وبعض الدول لا تستطيع تقديم الكتب المدرسية لتلاميذها، أو لا تستطيع تأمين أماكن لهم في المرحلة الابتدائية

إن نظرة الناس للمعرفة عندنا ما زالت تصنفها مع الأمور الثانوية، ومن ثم فإن قلة من الناس أولئك الذين سيضيغطون على مصروفهم الشهري من أجل شراء كتاب! .

وإن رؤية الناس لهشاشة تأثير المثقفين في مسيرة الحياة الاجتماعية سوف تدفعهم إلى الزهادة بالعلم، وكل ما يدللي إليه بسبب .

مع هذا فإن التأكيد على بعض الأطر والوسائل التي تساعد على تنمية المعرفة سيكون، مفيداً، وهو جزء من العلاج الذي تتشوف إليه. ويمكن أن نذكر منها ما يلي:

١ - تأسيس علم الجهل:

كان العلم في الماضي - على اتساعه - محدوداً بالنسبة لما هو موجود اليوم، وإن ما لدى طالب في كلية الطب من معلومات اليوم أكثر وأدق مما كان لدى شيخ الأطباء في العصور الماضية، وليس هذا دليلاً على شيء سوى كثرة المعلومات وتحسن إمكانات اختبارها.

إن من الواضح أن جهلنا يزيد، حيث تتضاعف المعرفة فيما بين عشر سنوات وخمس عشرة سنة! وإن نصف العلماء الذين عرفهم العالم في تاريخه الطويل يعيشون بينما الآن! وعلى هذا فإذا كانت معلوماتي الآن هي واحد على الألف، فستكون بعد خمس عشرة سنة واحداً على ألفين، في أحسن الأحوال! .

إن من الضروري أن نغرس في أذهاننا جميعاً أن ما لدينا من العلم - مهما كان كثيراً - قليل. ودقته وعمقه وصدقه، كل ذلك نسبي وظني في أكثر الأحيان ولا بد - على هذا - من أن نقدم المعرفة للناس بصياغة مفتوحة قابلة للإضافة والتعديل، كأن أقول: هذا ما أراه أنا، وهذا ما يغلب على ظني وهذا ما هو ثابت عندي حتى الآن.

ولا بد مع هذا من إشعار الأجيال التي نعلّمها بأن يعرفوا أكثر وأكثر حتى لا تتفاقم نسبة انتشار الجهل وفجاجة المعرفة بينهم.

إن على الواحد منا أن يكافح في سبيل ألا يصاب بالتهميش العلمي، ويفقد سيطرته على المعرفة، ويفلت الزمام من يديه! .

٢ - لا بد من جهود جماعية لتوفير الكتاب:

الخطوة الأولى على طريق الارتقاء بمعرفة الناس وعلمهم - توفير الكتاب لهم بسعر مناسب أو تمكينهم من استعارته بيسر وسهولة للاستفادة به فسيظل الكتاب - على الرغم من كثرة قنوات التثقيف - الوسيلة الأهم، حيث يمكن للقارئ أن يختاره، كما يمكن التثقيف به في مساقات ومناهج متراقبة، والتعامل معه لا يحتاج إلى وساطة تقنية. . .

ومهما كانت إمكانات الحكومات ضخمة، فإنها ستظل دون مستوى الوفاء بمتطلبات الناس من وسائل المعرفة، ومن ثم فإنه لا بد من أن تساهم الهيئات المختلفة في تأسيس المكتبات، مثل النوادي والنقابات والاتحادات والغرف التجارية والصناعية ومجالس الأسر ومجالس الأحياء والبلديات والشركات والمؤسسات والمصانع والموانئ، ولا بد من تعليم المكتبات في المساجد وتطويرها بما يلبي الحاجات المعرفية الجديدة.

ويمكن أن توضع بعض النظم التي تلزم بعض الجهات التي ذكرنا بإنشاء مكتبات فيها ذات أحجام تتناسب معها؛ ليجد المواطن نفسه محاطاً بالكتاب أينما ذهب.

وقد اتبعت هذه الطريقة في (رومانيا) حيث أمكن توفير شبكة ضخمة من المكتبات الأهلية والحكومية، كانت تمتلك في نهاية عام ١٩٧٣ رصيداً من الكتب يبلغ نحواً من (١٢٤) مليون كتاب، يستفيد منها نحو من ثمانية ملايين قارئ^(١).

لا بد من أجل تحقيق مشروع تعليم الكتاب من تشكيل مجلس وطني لإقامة المكتبات ودعمها وتطويرها. وإنني أعتقد أن كثيراً من الناس مستعد لوقف مكتبة على طلاب العلم أو الوصية بها بعد موته، لو توفرت لهم النوعية الكافية وبعض الضمانات باستمرارها على شرط الواقف.

وقد قام بعض الموسرين بعمل مشكور؛ إذ خصصوا مباني ملحقة ببيوتهم، ووضعوا فيها كتبأ، وهنثوا قاعات للمطالعة من أجل خدمة طلاب العلم !.

وفي أيامنا هذه صار كثير من الكتب يحوي معلومات سهلة الهضم، وهي أقرب ما تكون إلى معلومات العجرائد والمجلات، حيث لا يعود إليها القارئ مرة أخرى؛ فيمكن إهداء هذه الكتب إلى المكتبات العامة؛ ليطلع عليها من لم يقرأها من الناس.

تأجير الكتاب بسعر رمزي وسيلة معايدة على الاطلاع. ويمكن للجامعات والمدارس أن تبني مثل هذا العمل.

وأنا على يقين أننا حين نضع ثقيف الناس ضمن أولوياتنا فسوف نجد أساليب عديدة لتحقيق ذلك.

(١) التنمية الثقافية: ٣٧٦.

٣- الجامعات المفتوحة والدارات (التلفازية):

حين نرى أن رفع السوية المعرفية للناس ضرورة حيوية، فإننا حينئذ سنلجأ إلى كل الوسائل المتاحة. ومن أهم الوسائل التي يمكن أن تدفع الناس دفعاً إلى التعلم (الجامعات المفتوحة) والدراسة بالمراسلة، وفتح أبواب الانتساب في الجامعات على مصراعيها لكل من يرغب في تحسين مستواه العلمي واكتساب مهارات جديدة^(١)، وكذلك استخدام الدارات التلفازية المغلقة والمفتوحة وشبكات الحاسوب الآلي...

كل ذلك وسائل فعالة في التعليم. ويجب أن يُوجه كثير من هذه الأنشطة إلى الريف والمناطق النائية. ويمكن مع شيء من التنسيق والتنظيم أن تكون كل هذه الأطر مكملة لما هو موجود في التعليم الجامعي.

إن ربط الترقىيات في الوظائف بالحصول على شهادات معينة، أو بحضور دورات وبرامج ثقافية سوف يدفع الناس إلى التعلم في الجامعات وغيرها.

لا بد من نشر ثقافة التعلم المستمر^(٢) بين الناس، وتوفير الأطر والمراكيز التي تؤمن لهم ذلك؛ حتى يستطيع الواحد منهم الاستمرار في الترقى الإنساني والمهني والتربوي.

٤- تقريب المعرفة سبيل الوحدة الثقافية في المجتمع:

المستوى المعرفي للناس في العالم الإسلامي يميل إلى الانخفاض؛ فقلة قليلة أولئك الذين يقرؤون كتاباً كل شهر، وأقل منهم الذين يقرؤون كتاباً كل أسبوع. والسوداد الأعظم لا يقرؤون أصلاً، أو يقرؤون بشكل منقطع،

(١) كثيراً ما يدفعنا إلى تضييق نطاق القبول للمتسبّبين الخوف من هبوط المستوى. وفي تصوري أن الاختبارات الجيدة في الفروع النظرية سوف تبدد هذا الخوف، حيث إن اعتماد الطالب في الجامعة على أسئلته محدود.

(٢) يقدر بعضهم أن ٨/١ من السكان في السويد يشاركون في شكل من أشكال التعلم المستمر. وهذه نسبة عالية جداً. انظر التنمية الثقافية: ٤١٨.

وغير منظم. هذه الوضعية هي البوابة الرئيسية للتمزق الاجتماعي؛ حيث يكون من العسير تعميم المفاهيم الإسلامية والاجتماعية والحضارية عامة على أبناء المجتمع الواحد.

كثيراً ما نتعجب على المفكرين؛ لأنهم لا يكتبون بلغة سهلة؛ حتى يتفع بكتابتهم أكبر عدد ممكن من الناس؛ لكن ذلك في الحقيقة عمل شاق جداً، وقد يكون غير صحيح؛ فالأفكار المعقّدة الراقية يصعب التعبير عنها بلغة سهلة مبسطة، وحين يتم ذلك، فإنه إن لم يؤدِّ إلى تشويهها، فإنه يحرمنا من طاقاتها الموحية

ومن هنا فإن الحل الأمثل يتمثل في سياسات تقريب المعرفة، وإيجاد مؤسسات وأطر وبرامج نشر متخصصة في ذلك، حيث إن بإمكان كاتب قصة أو مسرحية أن يستخدم لغة سهلة قريبة في التعبير عن الحقائق العلمية والأفكار والمفاهيم الشرعية والإنسانية.

وطرح سلاسل من الكتب في الأسواق، مهمتها توفير المعلومات حول القضايا المختلفة سيكون عملاً جليلاً، ولا سيما إذا تحملت الدولة أو بعض الجهات بعض نفقات تكلفتها! ومع أن لدينا جهوداً طيبة في بعض البلدان في هذا المجال إلا أنها ما تزال دون المستوى المطلوب.

إن بإمكان الجامعات أن تقدم خدمات جليلة للعلم إذا جعلت من جملة أنشطتها في خدمة المجتمع إصدار بعض الكتب في التخصصات التي تدرسها من أجل تعريف الناشئة وذوي الثقافة المتواضعة من الكبار بها، وذلك بأسلوب سهل وجذاب. ويمكن لبعض تلك الكتب أن يقتصر على الأسس وبعض الحقائق والمعلومات، على حين يمكن أن تشتمل كتبات أخرى على الجديد في كل تخصص. وهذه الأعمال لا تكلف الكثير، بل يمكن للجامعات أن تجني بعض الأرباح من ورائها، لكن الذي نحتاجه دائماً هو الوعي والاهتمام!

يمكن بصورة مماثلة للمكتبات التجارية الكبرى والنوادي والنقابات

والمصانع.. أن تسهم في إشاعة المعرفة السهلة من خلال إصدار النشرات والكتيبات وإقامة المسابقات وتقديم الحوافز المختلفة.

إن التقدم الحضاري والتماسك الاجتماعي مرهون بسيادة مفاهيم اجتماعية محددة، وبوصول رسالة المجتمع إلى جميع أفراده. ولن يتم ذلك إلا من خلال حركة ثقافية مواردة، تلبي حاجات الأفراد المعرفية بالأسلوب الذي يناسبهم.

- لنجعل القراءة عادة لكل مسلم:

أول كلمة في الرسالة الخاتمة كلمة (اقرأ)، وما ذاك إلا لأن القراءة هي مفتاح التعلم والدرجة الأولى في الرقي الفكري والشعوري... الاهتمام بالكتاب والوله به واحترامه والحرص عليه عادات تتكون لدى الطفل في المنزل - غالباً - فالطفل الذي في منزل والديه مكتبة يفتح عينيه على الكتاب، والحديث عنه، ويجد نفسه محاصراً بالكتب حينما تجول في البيت. كل كتاب جديد يثير موجة من القراءة والتلخيص والنقاش والنقد؛ إنه ضيف مثير وطريف!

ولذا فإن الخطوة الأولى على طريق إشاعة القراءة هي انتشار مكتبة (المنزل)^(١).

وإن مما يسهل ذلك تخصيص ميزانية شهرية لتزويد مكتبة المنزل بالجديد النافع من الكتب. إننا نتفق على الأطعمة والأشياء الاستهلاكية الكثير من المال، فماذا لو خصصنا ٢٪ شهرياً من جملة مصاريفنا لهذا الغرض؟

إن المعرفة هي التي تجعل الميل للاستهلاك ضعيفاً، والجهل هو الذي

(١) تدخل بيوت بعض الأثرياء، فتجد أمامك مكتبة أنيقة منظمة، ومحبوها نظيفة، تلمع، ولا شيء بعد ذلك؛ فلا صاحب البيت ولا ذريته من يهتم بهم العلم، لكن ما يسمعونه من التنشئة بفضل العلم والعلماء دفعهم إلى هذا!! والحكاية قديمة، وفيها قصص وطرائف متداولة!!.

يولد الفراغ، الذي يحاول الناس ملأه عن طريق اقتناء الأشياء وإنفاق مزيد من المال في شراء ما لا يحتاجونه!

يمكن للمدارس والجامعات والمراكم الثقافية والمصانع والنادي . . . أن تبني عادة القراءة من خلال المسابقات العلمية وحلقات الحوار حول الكتب الجديدة، وتقديم عرض عنها من مؤلفيها أو غيرهم، ومن خلال الدعوة إلى تلخيصها وتقديم دراسات حولها . . .

حين نعتقد أن ما نكتسبه من المعرفة هو أهم ما نرثه من الذكاء والإمكانات العقلية من آبائنا فإننا سوف نبادر آنذاك إلى القراءة وتوفير الأجواء والظروف التي تشجع عليها.

إن الأمة ستظل تعيش على هامش التقدم العلمي ما لم تحاول إكساب أبنائها عادة القراءة وحب الكتاب واصطحابه في كل مكان! .

(٤) عقبات في طريق تتميم المعرفة

إن النهوض بأي جانب من جوانب الحياة يتطلب أموراً عديدة، من أهمها تسلیط الضوء على المشكلات والتآزمات والمعوقات التي تكتنف عمليات التحسين لذلك الجانب.

إحساس الناس بأن التزود من العلم شيء كمالي يجعلهم يعرضون عنه كلما كانت الظروف غير مواتية للتعامل مع الكماليات! ولذا فإن الفقر وطغيان المادة والاضطراب السياسي وانخفاض الوعي والتآزم الاجتماعي، كل ذلك ينعكس بصورة سلبية على التقدم العلمي، ويدفع الناس إلى مجافاة المعرفة والاستخفاف بها! .

وسوف نسلط الضوء هنا على بعض المشكلات التي نظن أنها تعرق النمو المعرفي، وذلك فيما يلي :

١ - خمود جذوة الشوق إلى المعرفة :

كان سلف هذه الأمة ينظرون إلى العلم نظرة فريدة، لم تشركهم فيها أمة من الأمم القديمة أو المعاصرة، فهو عندهم عبادة، بل أفضل من كثير من العبادات؛ وقد سطر علماء هذه الأمة من المآثر في الوله بالعلم والصبر عليه والاحتفاء به ما يثير الإعجاب ويستحق التقدير! ..

فقد كان منهم من يقسم ليله إلى ثلاثة أقسام: ثلث للقراءة والتأليف، وثلث للنوم، وثلث للصلة والذكر. وينذر عن الإمام أحمد - رحمة الله - أنه كان إذا لقي شيخه أبا زرعة يقتصر على صلاة الفريضة؛ ليغتنم وجوده لأنه يرى أن طلب العلم أفضل من صلاة النافلة؛ ولأن بإمكانه أن يتفضل متى شاء!

وكان العلماء لا يعرفون لطلب العلم أمراً ينتهي إليه، ولا يعترفون بشاغل يشغل عنه، فهو عبادة، وهي لا تتوقف إلا عند انقضاء الأجل! وقد كان أحدهم يحفظ أبياتاً من أحد المتنون، وهو في حالة شديدة من المرض، فقال له ابنه: يا أباًت أهذا أوان هذا؟! فقال: إني أحب أن ألقى الله - تعالى - وأنا أطلب العلم!!.

ويمكن القول: إن ضعف الوازع الديني، وضعف حضور الآخرة في حسٌ كثرين منا أدى إلى الإحساس بأن العلم وسيلة لانتزاع منصب أو وظيفة أو مال، وصار الحصول على العلم أشبه بثمن لا بد من دفعه في صفقة تجارية، ومن ثم فالعلم للشهادة، والشهادة للوظيفة، والوظيفة للمال، ومن ثم التمتع بالحياة! ..

حين ينظر إلى العلم نظرة تجارية فإن الناس يبذلون الحد الأدنى من الجهد للحصول عليه، وإذا نجح الطالب أو حصل على الشهادة التي يدرس من أجلها بدأ ما حصله من العلم بالتراجع التدريجي؛ فهو لم يتعلم ليصبح عالماً، ولكن ليصبح موظفاً!

وقد كان بعض السلف يقول: إذا لم تعط العلم كلك لم يعطك بعضه.

ولو فتشنا عن الأعمال الجليلة التي نراها في ميادين المعرفة المختلفة لوجدنا وراءها رجالاً تملّكتهم حب المعرفة، واستولى عليهم الشوق إلى التعرف على الحقيقة؛ فمن ثم يذلوا عظيم التضحيات!

يقول أنشتاين: «إن أولئك الأفراد الذين ندين لهم بأعظم الأعمال العلمية كانوا جميعاً تواقين عقلياً إلى المعرفة، ولو لم يكن لهم هذا الاقتناع الجياش بالمعرفة لما استطاعوا الانقطاع الدائب الذي يستطيع وحده أن يدفع المرء إلى القيام بجرائم الأعمال»^(١).

إن العزوف عن العلم هو في حد ذاته مشكلة، لكن المشكلة ستكون

(١) بنية التخلف: ١٢٦.

أعظم حين نصاب بالزهد في العلم في زمان تُقبل فيه الشعوب على التهام المعرفة؛ وذلك لأن التواصل العالمي جعل آية ميزة فائقة عند شعب أو دولة تمثل مشكلة للدول الأخرى؛ لأن تلك الميزة سوف تستخدم للضغط على الآخرين الذين حُرموا منها.

في هذا السياق نستطيع أن نعرف موقعنا بين قراء العالم من خلال بعض الأرقام^(١) التي تشير إلى أعداد القراء أو نسبهم، أو بعض ما يتعلق بصناعة النشر المكتبي بشكل عام. وقد تسأله بعض الكتاب الغربيين: هل يستطيع المرء أن يعيش بدون قراءة؟ وراحوا يستطلعون الآراء، فجاءت النتائج عندهم أن:

٢٥٪ يقرؤون كتاباً كل شهر.

٥٠٪ يقرؤون كتاباً كل عام.

٦٥٪ يقرؤون مجلة أسبوعية بانتظام.

٨٠٪ يقرؤون صحيفة يومية بانتظام.

والباقيون يكتفون بمشاهدة التلفاز، والاستماع إلى وسائل الإعلام الأخرى^(٢)، أما نحن فليس عندنا آية أرقام، وفي ذلك بعض الخير؛ حتى لا ينكشف المستور!

وتنظر بعض الدراسات في الغرب أن الرجال في أمريكا يقرؤون في المتوسط (٣٩) دقيقة يومياً، على حين تقرأ النساء ما متوسطه (٤٦) دقيقة. ويقرأ ٧٢٪ من الناس في بريطانيا (عام ١٩٨٣) جريدة يومية. وبلغ معدل الاستهارة من المكتبات العامة في بريطانيا (٦٥٠) مليون كتاب. أي حوالي

(١) لا ينبغي تلقي آية أرقام تنشر على أنها أرقام يقينية، وذلك لاعتبارات عديدة؛ وإنما يجب أن تفهم على أنها مؤشرات لوضعية ما، ليس أكثر.

(٢) القراءة أولاً: ٥٤.

٢٦ كتاباً لكل من يقرأ كتاباً على الإطلاق. هذا عدا الكتب المشتراء والمستعارة من الآخرين^(١).

أما إذا أردت أن تعرف ماذا يباع لدينا من الكتب، فأسأل المؤلفين والناشرين الذين سوف يخبرونك أنه في المتوسط يباع من الكتاب الواحد - غير المقرر في معهد أو كلية - نحو من ألف نسخة في العام، مع أنه يكون موزعاً على مئات المكتبات، ويشاهده الملايين مرصوصاً على رفوفها!

٢ - غثنائية ما ينشر، وما يقرأ مشكلة أخرى:

إننا نؤمن أن الدين للحياة، وأن العلم ينبغي أن يكون من أجل النهوض بالإنسان: عقله وروحه وجسده والوسط الذي يعيش فيه... . ونؤمن مرة أخرى أن العلم للعمل، حتى التاريخ فلم تندفع الأمم إلى قراءته والتعرف على أحداته إلا من أجل تدعيم ذاتها الشاعرة، وأخذ العبرة منه لتحسين قرارات الحاضر والمستقبل.

إن النبي ﷺ أخبر أن أمّة الإسلام ستمر بمرحلة الغثنائية، حيث يتضاءل الكيف، على حين يتضخم الكم؛ فهل الغثنائية تكون عامة، فتمس كل شيء؟ . الحقائق والرجال والأفكار والكتب والمعارك والجامعات... . فيكون كل شيء مسمى بغير اسم، أو يكون أصغر من اسمه؟! .

هذا هو الظاهر؛ فالناظر فيما تعرضه المكتبات من علوم و المعارف يرىرأي العين هشاشة ما يعرض وفقره، وعدم صلاحية كثير منه لأي شيء؟ .

القراء لدينا نوعان رئيسان:

نوع خبرته ومعرفته سطحية؛ فهو يندفع إلى كل سطحي لشرائه وقراءته؛ ليزداد بذلك ضغثاً على إيمانه، وجهالة على جهالة؛ لأن الكتاب السطحي لا يستنفد مال القارئ ووقته فحسب وإنما يشوه رؤيته للأشياء؛ حيث يثير النماذج الذهنية السطحية لديه، ويعطيها شواهد جديدة على رصانتها وأهميتها!

(١) سيكولوجية السعادة: ١٠١، ١٠٠.

أما النوع الثاني، فيغلب عليه الرقي المعرفي والتعطش إلى شيء جديد يعني معرفته، ويضيف إليها. وهذا الفريق - إلا ما ندر - يُضطر إلى أن يقرأ مئات الصفحات؛ حتى يجد فيها صفحة أو صفحتين، مما يناسب حصيلته المعرفية؛ فهو كمن يبحث عن إبرة في كومة من القش!

والسبب قلة الرواد والمفكرين العظام الذين يمتلكون رؤية نقدية لواقع الأمة، ويعرفون حاجاتها المعرفية الأساسية في المرحلة الراهنة، فيحاولون تلبيتها، يملكون رؤية جيدة لأحوال العالم، فيصورونها بصدق وأمانة.

قلة هذا الصنف من المؤلفين أدت إلى أن يصبحوا هم وكتاباتهم وقارئهم غرباء في حشود من القراء والكتاب الذين يؤثرون الصيد على السواحل أو في المقلة، ويظلون أن أمة تعاني من مشكلات كبرى - تنهض بها الفكرة القريبة، والمعلومة الجزئية والنظرية العجلى والاهتمامات المشتتة!!

إن الزغل في العلم لا يقتصر على طرح المعرفة الهشة والهزيلة، وإنما يتجاوزه إلى الإطناب في بحث القضايا الجزئية، وشغل الناس بها، على حين أن الناس تركوا الأصول، وابتعدوا عنها مسافات بعيدة!!.

كثيراً ما ننسى أن طاقة (الوعي) محدودة، وأن من السهل الانحراف بوعي العامة وكثير من الخاصة عن الاهتمام بجلائل الأمور إلى صفاتها.

وقد لاحظنا في السنوات الخمس عشرة الأخيرة تصاعد وتيرة التأليف والنشر في قضايا كثيرة تناولها القرآن الكريم والسنة النبوية بالإيجاز والاختصار، وحول قضايا ليس لها أدنى أولوية في تدين الأمة أو في نهضتها؛ بل إن بعضه ينشر الشقاق والفرقة، في وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى بلورة الأصول، وجعل القضايا الكبرى تسيطر على مشاعر الناس وأذهانهم؛ حتى يتسعى لنا أن ننهض جميعاً بواجباتنا ومسؤولياتنا الجسام.

كتب كثيرة تبلغ المئات، تغزو الأسواق اليوم، يتحدث بعضها عن الجن والعفاريت والسحر والتنجيم والروح، ومن تحدث بعد الموت (!)

وي بعض آخر منها يتحدث عن قضايا فرعية، ينفع أصحابها فيها بصورة عجيبة؛ حتى يظن القارئ أن القضايا التي تتناولها من القضايا المصيرية أو قضايا الولاء والبراء؛ كتب تتحدث عن وضع اليدين على الصدر بعد الرکوع وعن النزول على الركبة وعن الجهر بالبسملة وجلسة الاستراحة... ومنها كتب في منسك العالم الفلاني وعقيدة العَلَم الإمام... .

إنني لا أرى لأهل العلم أن يتتفقوا على كل شيء، وليس هذا بالممكן، ولكن لا ينبغي ملء الساحة العامة بالخلافيات والفرعيات التي هي مناط الاجتهاد، واتفاق الأمة عليها غير ممكناً، واختلافها حولها لا يضر.

إن هناك عشرات الملايين من المسلمين الذين لا يعرفون عن جوهر التوحيد، ولا عن أركان الإسلام شيئاً، ونحن لا نعرف الأسلوب الأمثل لخطابهم وتعليمهم والوصول إليهم!

وهناك أمثالهم من نهبت حقوقهم وطمست هوياتهم، وآخرون هائمون على وجوههم في الأرض شردهم المجاعات والحروب الأهلية... . وهناك قبل كل ذلك أمة تعاني من التبعية والتخلف والتمزق وقهر الأعداء... .

إن من أعظم الخيانة للمنهج الذي نؤمن به أن نصرف وجوه الناس عن جوهره لتشغل الناس بأشباح مشكلات وأشباح قضايا! وإن من أعظم الخيانة للأمة التي ننتهي إليها أن نشغل عن إنقاذهما بتحقيق طموحات شخصية والانتصار لعصبيات جاهلية، ونزاعات ضيقة، وتحقيق مكاسب آنية وهامشية... !!.

٣ - التخلف يعطيك أجوبة، ويحررك من التساؤل:

السؤال مفتاح العلم، لكن المقدرة على التساؤل ليست متاحة دائماً؛ فالعقل لا يستطيع أن يتصور أشياء لم ير لها مثيلاً أو شبيهاً؛ إذ كيف يتساءل عن معدات وألات تتعلق بالقمر الصناعي)، وهو لم ير ولم يسمع شيئاً عنه؟ .

ومن هنا فإن البيئة الفقيرة بالمعارف والأدبيات والخبرات والمواضيعات لا تمد العقل بشيء ذي قيمة ولا تشغله، ولا تدفعه إلى التساؤل والاكتشاف... .

هذه الوضعية توجد نوعاً من الفراغ والجمود والاختلال، ومن ثم فإن (المخيلة الشعيبة) تنشط لسد الفراغ وإقامة نوع من التكامل والتوازن للعناصر الثقافية المختلفة. ولن تكون المواد المستخدمة في ذلك سوى مزيج من الأساطير والخرافات والمقولات المشبعة بالتأملات الخاصة ومحرّف الاعتقادات... . فيشعر المرء أن عنده كل شيء، وفي ثقافته وحياته جواب لكل شيء، وفلسفة لكل مبدأ، وتعليل لكل ظاهرة... .

على العكس من هذا كله يؤجج العلم الصحيح نار التساؤل، ومحاولات الفهم والرقي في مدارج المعرفة؛ فقد فجر القرآن الكريم في الوسط الأمي المحدود كل ينابيع الحكمـة، ونفض عن الوعي والشعور والعقل كل ما علق بها من أوهام الجاهلية، وأسس يقيناً جديداً، وصار كل شيء موضع تساؤل وتفهم... . ونما العلم نمواً لا نظير له.

وحين أخذت الأمة في التراجع الحضاري بدأ الناس في تحضير أجوبتهم الخاصة النابعة من السكون والفووضى والانحراف عن المنهج الريانى للأقوم... . وهكذا فأحوالنا الراهنة طبيعية جداً، ولا يجوز التساؤل بشأن مسبباتها، ولا جذورها والمراحل التي مررت بها؛ فما نحن فيه قضاء وقدر محتموم، لا خيار لنا فيه! ثم إننا بذلك جهتنا، ولم نستطع أن نفعل أكثر مما فعلناه، ولا نظن أن الإمكـانات المتوفـرة بين أيدينا تؤهـلنا لأكثر مما نحن فيه. وما نحن فيه ليس سيناً جداً، فإدمان المـخدـرات لدينا أقل، وكذلك الأمـراض الوبـائية، والـتـرابـط الـاجـتمـاعـي لـدـينـا أـفـضل... . ثم إن الحـضـارة الغـربـية مـادـية، وهي ولو بعد حين إلى زوال... .

وهكذا أوجدنا كل الأجـوبة التي توسعـ ما نـحنـ فيهـ، وأـسـكتـناـ كلـ الأـفـواـهـ التي تـضـعـفـ بالـشكـوىـ منـ سـوءـ الأـحـوالـ!!.

وتأتي رسوم التعليم القائم على التلقين ورسوم العلاقة بين الأساتذة والطلاب، لتكمل الحلقة، ولتكتب ما فطر البارئ - جل وعلا - الطفل عليه من حب للتساؤل والتطلع إلى فهم ما حوله؛ فكثرة الأسئلة قد تكون من أجل حب الظهور على الأقران، وهي قد تسبب الحرج للمدرس، وقد يكون سؤالاً منطرياً على شيء من سوء الأدب، وقد يكون الجواب عليه مما يخدش الحياء، وقد يكون السؤال أكبر من سن الطفل، فالأخلى تأخير الجواب عليه. وقد يقال للطالب: إنك لم تستوعب المسائل السهلة، فكيف تسأل عن المسائل الدقيقة؟ سؤالك خارج الموضوع، وربما قطع سلسلة أفكار المدرس. وإذا كان السؤال من طالب علم لشيخه حول دليل ما يقوله، فهذا دليل عدم الثقة في الشيخ... !! وهكذا فهناك مجموعة من السينات تصاحب كل سؤال، وكل تساؤل، وأفضل الخيارات هو الصمت والتأمين على ما يقوله الأساتذة وغيرهم !

كل هذا ونظريات التعليم والتفكير الحديثة تعد القدرة على طرح الأسئلة أمارة على الذكاء وجودة الفهم، كما أن من أفضل طرق تنمية التفكير أن نطرح أعداداً كبيرة من الأسئلة حول القضية موضوع المعالجة أو الآلة موضع التطوير، ثم نبحث عن أفضل الأجرية عليها !!

٤ - سحب الثقة من العلم :

ما الدليل على أن من شروط الخلاص الفردي والجماعي مزيداً من العلم والمعرفة ونحن نرى كثيراً من المهنيين والحرفيين أحسن حالاً من طلاب العلم وحملة الشهادات؛ وما دمنا نرى كثيراً من يُؤلفون، ويتحدثون في كل مكان لم ينفعوا أحداً سوى أنفسهم، وهم دائماً يصورون للناس أن كل شيء على ما يرام !

ولماذا العلم ونحن نرى الجامعات لا تخرج باحثين، وإنما طلاب وظيفة يصطفون على أبواب الدوائر الحكومية والشركات يبحثون عن طاولة وكرسي لقضاء باقي العمر عليه؟ !

إن هذه الوضعية أدت إلى سحب الثقة من العلم، والبحث عن مخرج
يمكن أن يكون أي شيء إلا العلم!

أسوأ ما في الإحباط ليس سحب الثقة من العلم باعتباره شرطاً للتقدم
 وإنما انسحاب الأفراد من المجتمع، ويبحث كلٌ منهم عن سبل خلاصه
 الشخصي بعيداً عن أي حساب لمصلحة الجماعة - المجتمع - حيث تنتهي
 جاذبية المجتمع، وينتهي تأثيره في صهر أفراده في بوتقة واحدة!

إن الناس إن لم يروا ثمار العلم تتجسد في المزيد من الرقي الفكري
 والشعورى ورشاد السلوك وتصحيح الأخطاء وفتح آفاق جديدة للعمل - فإنهم
 لن يقبلوا عليه، ولن يضخموا بشيء من أجله. ولذا فلا بد من إعطاء انطباع
 جديد عن مهمة العلم في الحياة إذا ما أردنا له أن يستعيد حيويته في الحياة،
 وهذا من مسؤوليات المثقفين والمخطلين للحياة العامة.

إن المشكلات التي تعوق تنمية المعرفة عديدة، لكننا لا نريد
 الاستقصاء، وإنما تنبئه الأذهان إلى المحاور الأساسية في كل قضية.
 وعلى الله قصد السبيل.

الفَصْلُ الرَّابِعُ
فِي
تَنْمِيَةِ الْخَصْيَّةِ

- (١) الشخصية وأهمية تربيتها.
- (٢) شروط أساسية لتنمية الشخصية.
- (٣) مبادئ وآليات في تنمية الشخصية.

(١) الشخصية وأهمية تنميتها

يختلف علماء النفس وعلماء الاجتماع اختلافاً واسعاً في تعريف (الشخصية)؛ حتى ذكر بعضهم أن للشخصية نحواً من أربعين تعريفاً. مصطلح (شخصية) مصطلح محدث لم يكن مستخدماً لدى القدماء، وقد يستخدمون كلمة (الشخص) للدلالة على كل جسم له ارتفاع وظهور. وغلب في الإنسان.

ويطلق الفلاسفة لفظ (الشخص) على الذات الوعية لكيانها المستقلة في إرادتها.

والشخصية في أبسط تعريفاتها: صفات تميز الشخص من غيره. ويقال: فلان ذو شخصية قوية: ذو صفات متميزة، وإرادة وكيان مستقل^(١). ويفهم بعضهم الشخصية على أنها تنظيم عقلي ثابت، وبناء نسق ينطوي إما على مجموعة من العوامل الدافعية الداخلية، أو على نمط من الاستجابات الخارجية^(٢).

ولعل أوضح تلك التعريفات أنها: «مجموعة الصفات الجسمية والعقلية والانفعالية والاجتماعية التي تظهر في العلاقات الاجتماعية لفرد بعينه، وتميزه عن غيره»^(٣).

ونعني بتنمية الشخصية هنا: السير نحو الأحسن والأكمل بمختلف أبعاد

(١) المعجم الوسيط: مادة (شخص).

(٢) دراسات في المجتمع والثقافة والشخصية: ٢٨١.

(٣) القيادة والتغيير: ٢٢٦.

الإنسان: الروحية والعقلية والنفسية والجسمية على الصعيد الفردي الذاتي، وعلى صعيد العلاقات مع الآخرين.

لماذا نهتم بتنمية الشخصية؟

إن فكرة (التسيير) التي أبرزها القرآن الكريم في مواضع عديدة منه^(١)، لا تهدف إلى حث المسلم على شكر الله - جل وعلا - والاعتراف بفضلاته فحسب، وإنما تهدف أيضاً إلى تقرير (مركزية الإنسان) في هذا الكون والسلطان العظيم الذي أمده الله - تعالى - به؛ ليستمر كل ما حوله لصالحه، ول يقوم بتوجيه إرادته وطاقاته كلها نحو الحصول على رضوان الله - تعالى - ولعيش في كف العبودية له.

إن الحضارة الإسلامية إنسانية النزعة، وذلك ليس من خلال الرموز والأدبيات فحسب، وإنما من خلال الأحكام والمعايير أيضاً؛ حيث لا توجد شريعة أعلت من شأن الإنسان، وصانت حرمه وحقوقه كهذه الشريعة الغراء. وفي هذا السياق يروى عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه قال في مسلم قُتل: لو اجتمع أهل صناء عليه لقتلتهم به!

وأفتى بعض علماء المسلمين بوجوب بذل الأموال في افتداء أسرى المسلمين لدى الكفار، ولو أدى ذلك إلى استنفاد جميع ما في خزينة الدولة المسلمة من مال، وبقطع النظر عن مدى صواب هذه الفتوى وإمكان تطبيقها اليوم؛ فإنها تنبع عن الرؤية الإسلامية العامة في مسألة كرامة الإنسان والحرص على حياته وحقوقه.

إن الطبيعة البشرية تحمل في تكوينها الأعمق أشواماً خاصة على المستوى الفردي وعلى المستوى الجماعي - إلى أشياء عديدة غير مادية، ولا يمكن للمادة أن توفرها. وإن حكماء العالم وعلماء لا يختلفون في أنه ينبغي

(١) في مثل قوله - سبحانه - : «وَسَخَّرْ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ» سورة الجاثية، آية: ١٣.

أن نعيش في عالم يكون الإنسان فيه مقياساً لكل شيء على العكس من الواقع العالمي المنكوس الذي بات الإنسان فيه غريباً، ويعيش مغهوراً من أجل كمال الوسط المادي الذي يعيش فيه!!.

إن النمو الفسيولوجي للإنسان إلى جانب مواد عديدة أخرى - غير قابل للاستمرار. أما النمو الروحي والعقلي، فإنه غير مسؤول بتحديديات في المجال أو الإيقاع^(١)؛ مما يعني أن خلاص الإنسانية الأكبر سيكون في السمية بالإنسان وتحسين ذاته وإدارتها بشكل أفضل، وليس في تنمية الموارد المحدودة والمهددة بالنفاد الكامل.

وعلى صعيد العلاقات الاجتماعية كشفت بعض الدراسات عن أن للعلاقات الاجتماعية تأثيراتها المستقلة، حيث تتحسن الصحة العقلية بفضلها بقطع النظر عن وجود بعض المشاكل - وبالطبع دائماً في الحياة بعض المشقة - كما أن العامل الحاسم في تخفيف العناء هو الدعم الاجتماعي الذي ينشأ من شعور الفرد باندماجه الشديد مع الآخرين. وإن الاضطراب العقلي ينشأ من اجتماع درجة عالية من المشقة مع درجة منخفضة من الدعم الاجتماعي^(٢).

إن أفعالنا وأقوالنا تنطق بمعانٍ محددة، لكن يظل الأهم هو ما توحّي به (شخصية) الواحد منا، أو الوضعية العامة التي هو فيها. ومن ثم فإن تنمية الشخصية تعني مزيداً من تحسن الوضعية العامة، وهي تعني مزيداً من التأثير في الآخرين؛ وهذا مهم جداً للدعوة وقادرة الرأي الذين يستهدفون تشكيل اتجاهات المجتمع، وتوجيه قيمة وتحركاته.

إن الإنسان يظل يحيا في وسط قاهر من الاحتمالات الوراثية والمؤثرات البيئية التي طبعت حيّيات نشأته وتربّيته الأولى، إلى جانب البيئة المتولدة من ظروف العمل وقوانين المجتمع والسياسات المحلية... .

(١) حاجات الإنسان الأساسية: ٤٢٣.

(٢) سيكولوجية السعادة: ٤١، ٤٧.

وهذه الأنواع من الاحتميات كافية لجعل الإنسان إمّة وعالة ومتخلّفاً عن الوضعية الثالثة به باعتباره خليفة ومكرّماً - ما لم يجاهد بكل ما أوتي من قوة، لتشكيل ذاته على نحو يمكنه من الإفلات من أسر حتميات الوراثة والطبيعة والعادة والتاريخ والتقاليد والقصور الذاتي؛ لتكون حياته وأنساكه ومواهبه وإمكاناته لله رب العالمين.

إن الرائع في تنمية الشخصية أنها لا تحتاج إلى مال ولا دولة ولا فكر

معقدٌ . . .

إنها هبة الله - تعالى - للفقراء والمعوزين والمحدودين وأهل العاهات والظروف الصعبة؛ فمن خلال الجهد المستمر يصبح هؤلاء أفضل بكثير من أتوا بسطة في المال والجاه والمتاع، لكن أبرز ما فيهم هو الإهمال لحياتهم الروحية والعقلية والاجتماعية!

إن الأمة تواجه اليوم ضغوطات خارجية هائلة على المستوى المعنوي والمادي، وهي إلى جانب ذلك تعيش ظروفاً معيشية صعبة؛ وإن أدبياتنا تعلمنا أن أفضل طريقة لمواجهة الخارج هو تدعيم الداخل وإصلاح الذات، واكتساب عادات جديدة والسعى إلى مزيد من التضمحية والتعاون والافتتاح والالتزام والتفتح ونكران الذات والاقتصاد والمحافظة على رأس المال الوطني إلى أن تمر العاصفة، ويتهي الظرف الاستثنائي. وفي هذا يقول - جل وعلا -: «وَإِن تَصْرِفُوا وَتَنْقُوا لَا يُغَرِّكُمْ كِيدُهُمْ شَيْئاً»^(١).

إن الأمم المنتصرة على أعدائها، هي أمم حققت نصراً داخلياً أولاً، وحققت كل واحد من أبنائها نصراً على الصعيد الشخصي من خلال تغييره ما في نفسه: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ بِهِ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا يَأْتِسِمُ»^(٢).

(١) سورة آل عمران، آية: ١٢٠.

(٢) سورة الرعد، آية: ١١.

(٢) شروط أساسية لتنمية الشخصية

إن التنمية الجادة للشخصية عبارة عن مقاومة الإنسان لرغباته وعاداته وأهوائه، وعبارة عن صقل لجوانبها المختلفة، وهذا كله يعني نوعاً من تحكم المرأة بنفسه، وذلك في الحقيقة ليس بالأمر اليسير ما دامت النفس نزاعة إلى الفوضى والكسل واستئصال الواجبات . . .

لا بد من القول ابتداء: إن نمو الشخصية شيء حاصل لدى جميع الناس، فالمرء لا يفتاً يتعلم، ويكتسب الخبرات، ويأخذ العبرة من أحداث الحياة . . .

وهذا يعني أن شيئاً من أسباب النمو موجود لدى الناس الأسيوية؛ لكننا لا نتحدث عن النمو العضوي أو العادي، وإنما نتحدث عن التنمية المطلوبة لجعل الإنسان سباقاً، وجديراً بالخلافة في الأرض. إنه الإنسان الصالح المتكامل المقدر للمسؤوليات المنوطة به. وهذا النوع من الناس لا يمكنه أن ينمو دون أن تتحقق فيه جملة من الشروط، التي سنذكر أهمها في النقاط التالية:

١ - وجود هدف أعلى:

لا يواجه المسلم مشكلة تحديد هدف نهائي للحياة؛ فذاك شيء تكفل به الإيمان نفسه، فالمسلم يعمل في اتجاه واحد طول حياته، وهدفه الأسنى حياة رضوان الله - تعالى - لكن يبدو أن الغرق في تفاصيل الحياة الكثيرة يجعل إحساسنا بهدفنا الأكبر رتيبة أو ضعيفاً، مملاً يجعل إثارة الهدف للحماسة والطاقة التغييرية لا تصل إلى المستوى المجدى والمطلوب لتنمية الذات.

لن يكون الهدف كبيراً إلا إذا كان يسمى فوق المصالح والغايات الدنيوية، بل ينبغي أن يكون على مستوى يُضحي بالحياة كلها من أجله! هذا في الحقيقة ما يفعله الشهيد، وهذا ما يفعله الملتمٌ صارماً.. الشهيد والملتم هما أعظم الناس نفعاً للبشرية؛ لأنهما يعطون للحياة، ولا يسحبون من رصيدها، وإنما يسحبون من رصيد آخر، هو رصيد الآخرة!.

إن الهدف الأسمى ليس ضرورياً لإثارة الحماسة للعمل فحسب، وإنما لإضفاء نوع من التوحد على حياتنا وإزالة التناقض منها.

هل يمكن القول: إن سبب بلادة الإحساس بالوقت والمخاطر والتحديات... يعود أساساً إلى عدم وجود أهداف واضحة على المستوى الفردي والمستوى الوطني؟.

هذا صحيح إلى حد بعيد، وينبغي أن يقال أيضاً: إن عدم وجود أهداف محددة يمكن إنجازها في مدة قصيرة سبب آخر أساسي وجوهري لما نحن فيه من ترهل الذات. إن الأهداف البعيدة تولد القناعة بضرورة الترقى وبذل الجهد، لكن الأهداف القرية هي التي تثير الحماسة، حيث يرى المرء نتائج عمله، ويغريه كل نجاح بالسعى إلى نجاح آخر... من هنا فإن من الحيوي أن تخضع أهدافنا الكبرى إلى عدد من الأهداف المرحلية الواضحة. كما أن من الضروري وضع برامج لتحقيق تلك الأهداف، وإلا فسيظل الهدف عبارة عن منارة تلوح من بعيد، لكن لا توجد آية أو وسيلة إلى الوصول إليها.

٢ - وجود قناعة بضرورة التغيير:

هذا الشرط على درجة عالية من الأهمية؛ إذ إن كثيراً من الناس يظن أن ما هو فيه جيد ومحبوب، أو أنه ليس الأسوأ على الأقل. بعض الناس يعرف أن ما هو عليه ليس بالجيد، لكنه يعتقد أن ظروفه سيئة، وإمكاناته محدودة؛ لذلك فإن ما هو فيه لا يمكن تغييره - الآن على الأقل - وفي هذه الحالة فإنه لا جدوى من النصائح والمواعظ، ولا من التأنيب والتوبیخ. وهذا

يعني أنه لا بد من توفير أساس فكري لقيام قناعةٍ ما لدى الواحد منا. والأهم من ذلك وجود حاسة المقارنة الجيدة بين الأوضاع المختلفة؛ إذ الشعور بالرضا أو السخط لا ينبع من داخل الإنسان، وإنما من خلال مقارنة الإنسان بأوضاع الآخرين. وفي هذا المقام، فإننا نعتقد أن المرء لن يعدم وجود أناس هم أسوأ حالاً منه؛ ولذا فإن المحك النهائي في هذا الموضوع هو شعور المرء بتفوقه على ذاته، وبأن يومه خير من أمسه. إن على الواحد منا أن يساعد نفسه على تحسين ذاته؛ لأنه إذا لم يساعد نفسه لم يساعد أحد.

٣ - قبول الذات:

حتى يحدث شيءٌ من تنمية الذات فإن على الواحد منا أن يشعر بقوة أنه لا مجال أمامه للخيار بين ذاته والآخر، وبين أمته والأمم الأخرى، وبين ثقافته ومعطيات العصر^(١). فالقبول بالذات على مستوى الفرد، وعلى مستوى الانتماء لأمته شرط أساسي لتطوير الذات. وحين يرفض المرء نفسه رفضاً تاماً، ويعتقد أنه لا يصلح لشيء تكون محاولات التحسين التي ندعو إليها غير ذات معنى بالنسبة له.

إن اليأس والإحباط وانسداد الآفاق يولّد نوعاً من الشعور بكرامة المرء لنفسه وازدرائه لها؛ مما يجعله لا يقيّم أي وزن لكل النصائح التي تُسدي إليه. وهذا الشعور مبالغ فيه دائماً، إذ إنه مهما ساءت الأحوال، وتضاءلت الإمكانيات يظل هناك مجال لتخفيض الضرر وتحسين الوضع؛ والله - جل وعلا - جعل اليأس من سمات الكفار؛ إذ قال: ﴿إِنَّمَا لَا يَأْتِيُّ مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَفَّارُ﴾^(٢).

إن اليأس خطأ منهجي، لا يقع فيه المسلم الحق؛ وإن تنمية الذات - كالسياسة - هي دائماً فن الممكن.

(١) الوعي الناتي: ١٣٦.

(٢) سورة يوسف، آية: ٨٧.

٤ - الشعور بالمسؤولية :

حين يشعر المرء بجسامته الأمانة التي رضي بحملها تفتح أمامه آفاق لا حدود لها للمبادرة بالقيام شيء ما، إنه يرنو دائمًا إلى اللحظة التي سيقف فيها بين يدي الله - جل وعلا - ويسأله عما كان منه...

في حالة الوعي بحقيقة التكليف لا يلتفت المرء إلى المتكلثين ولا إلى المثبتين، وإنما يستحضر حالة السباقين من أولي العزم الذين أمرروا عليهم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حين كان يطلي إيل الصدق بالقطران بيده، وحين كان يقول: والله وددت لو أني خرجت منها - أي الخلافة - لا علي ولا لي. والذي كان يقول: والله لو عشرت شاة في أرض العراق لخشيت أن يسألني الله عنها، يقول: لم لم تعد لها الطريق؟!!.

في حالات التخلف يصبح التهرب من المسؤولية ديدن الناس، ويندفعون إليه بالغريرة دون تفكير^(١)، وينتظر كل واحد من الناس من الآخرين أن يفعلوا شيئاً، ويكون السواد الأعظم في مقاعد النظارة! إن ضعف الشعور بالمسؤولية لا يخلف وراءه سوى الشعور بالتفاهة والفراغ، وإن كثيراً مما يسمى مشكلات عاطفية وعقلية، ليس في جوهره سوى أعراض لذلك الشعور^(٢)!

إن علينا أن نومن أن بزوغ (الشخصية) لا يتم إلا من خلال الشعور بالمسؤولية، وإن التczم الذي نشاهده اليوم في كثير من الناس ما هو إلا وليد تبلد الإحساس بالمسؤولية عن أي شيء! .

٥ - الإرادة الصلبة :

يعطينا الرياضي نموذجاً طيباً في إرادة الاستمرار، فالتدريب الشاق

(١) يروى أن سلطاناً طلب من أهل قرية ملة بحيرة بالحليب خلال الليل، ووعدهم على ذلك بمكافأة سنية، وقد شرع أحدهم بصب الماء في البحيرة بدل الحليب، على أقل أن ذلك لن يظهر، ولن يؤثر. وسرت الفكرة لدى الجميع... وحين لاح الصباح وجدوا أنفسهم أمام بحيرة من ماء لا بحيرة من حليب !!

(٢) العادات السبع: ١٠٢.

يُكسب المرء لباقة، وقوة في العضلات، وحتى لا يفقد لياقته، أو ترهل عضلاته، فإن عليه أن يواصل التدريب. وهكذا فإن تنمية الشخصية لا تعنى شيئاً أكثر من الاستمرار في اكتساب عادات جيدة والتخلص من عادات سيئة.

ليس بالأمر اليسير الوفاء بالالتزامات كافة في المنشط والمكره، حتى الالتزام الجزئي فإنه يحتاج إلى إرادة لا تلين!

إن المشكلة أن صلابة الإرادة تكاد تكون إحدى نوافع التحضر، حيث يحدد رقي المجتمع وتخلفه المستوى العام من الإرادة اللازم للعيش فيه بكرامة. وفي هذا السياق، فإن المجتمعات المتخلفة تحدد سقفاً منخفضاً من الإرادة الصلبة، على عكس المجتمعات المتقدمة. وهنا يأتي دور جيل (الرواد) الذين ينهضون بمجتمعاتهم، وبينون بسلوكهم الفذ النموذج الأمثل، ويدعون الناس إليه. إن الرواد أقوام أفلتوا من حتميات مجتمعاتهم، ثم انفتلوا إليها، ليحررها الناس من أوهامها! .

إن تنمية الذات تحتاج إلى صبر، وإلى نفس طويل، وقد قال الله - جل وعلا - : ﴿وَحَمَّلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدِيُونَ لَمَّا صَبَرُوا﴾^(١).

٦ - شيء من التحددي :

مهما كان الوعي النقدي يقطأ، ومهما تكن الأفكار عظيمة فإن تأثير الظروف والأوضاع العامة يظل أعظم أثراً في سلوك الناس وأحوالهم؛ ومن ثم فلا بد لتنمية الذات من وجود نوع من (معاكسة الظروف)؛ إذ إن السهولة عدو لدود لكل إبداع وكل تقدم! .

ليست المشكلة الجوهرية في عدم وجود التحديات - فهي موجودة - لكن المشكلة في طريقة الإحساس بها؛ إذ إن نعمة (التكيف) التي زود الله تعالى - بها بني البشر يجعلهم يتلاطمون مع الصعوبات التي تواجههم تلاطمًا سلبياً، فيوطدون أنفسهم للتعايش معها ظناً منهم أنه شيء طبيعي، أو شيء

(١) سورة السجدة: آية ٢٤.

يصعب الخلاص منه. وفي كلتا الحالتين فإن قوى التغيير الكامنة تتبدل، وتضمر مع مرور الأيام.

هنا يأتي دور المفكرين وذوي البصيرة الذين يبرزون للناس المشكلات التي يعانون منها، ويحاولون وضعهم في مواجهتها، كما يدللونهم على الوضعية الصحيحة التي ينبغي أن يكونوا عليها. إن فقر أمة الإسلام إلى (الكتلة الحرجة) من أولئك المفكرين، جعلها لا تكتشف بطريقة صحيحة حجم التحديات والمخاطر التي تحيط بها، ومن ثم فإنها لم تستنفر قوتها المخبأة الهائلة للمقاومة والإبداع والترقي؛ بل إنَّ فيينا من يقوم بوظيفة المخدر؛ حتى يستحكم الطوق، ونصل إلى نقطة اللاعودة!

(٣) مبادئ وأدليات في تربية الشخصية

ربما أخذ طابع الحديث هنا شكل الموعظة والنصيحة، وهمما ثقيلتان على النفوس، لكن يبدو أنه لا حيلة لنا في ذلك حيث تصطبغ كل الأحاديث عن التنمية بهذه الصبغة وأرجو ألا يحسب القارئ أن كاتب هذه السطور قد فرغ من الامتثال لكل ما يراه القارئ هنا، ثم انصرف إلى تنبية الناس إلى محاسنه وضرورة الالتزام به، فتحن جميعاً في طريق واحدة، نستشرف أهدافاً واحدة، ونكافح من أجل التخلص بالأخلاق التي تلقي بال المسلم، كما نكافح من أجل الخلاص من الوقوع في أحابيل الشهوات، وما تعودناه من سوء العادات؛ ولا راحة لمؤمن إلا بلقاء ربها.

من الواضح أننا بفضل المبادئ والقيم السائدة بالإضافة إلى العلاقات الاجتماعية المختلفة - ننتقل من طور الطفولة إلى طور النضج، ومن التوحش إلى الإنسانية. ومن هنا فإن المطلوب تنميته في شخصيتنا ينقسم إلى قسمين:

قسم خاص بتنمية السمات الفردية، وقسم يتناول تنمية العلاقات الاجتماعية مع الآخرين. ولا يقل القسم الثاني أهمية عن القسم الأول؛ حيث إن النجاح فيه ذو أهمية بالغة لكل واحد منا؛ بالإضافة إلى أنه مرآة تعكس النجاح والتقدم الذي يتحققه الناس على الصعيد الفردي.

وسنذكر - بحول الله تعالى - في كل قسم من القسمين بعض الأفكار والأساليب التي نظن أن من شأنها تنمية الشخصية والارتقاء بها إلى المستوى اللائق.

أ- تنمية الشخصية على الصعيد الخاص :

١ - لا بدile عن التمحور حول مبدأ :

إذا أراد المرء أن يعيش وفق مبادئه، وأراد إلى جانب ذلك أن يحقق مصالحه إلى الحد الأقصى فإنه بذلك يحاول الجمع بين التقىضين! إنه لا بد في بعض المواطن من التضحية بأحدهما؛ حتى يستقيم الآخر.

إن تحقيق المصلحة على حساب المبدأ يعد انتصاراً لشهوة أو غرض آني. أما الانتصار للمبدأ على حساب المصلحة فإنه بمثابة (التربع) على قمة من الشعور بالسعادة والرضا والنصر والحكمة والثقة بالنفس... وقد أثبتت المبادئ أنها قادرة على أن تكرر الانتصار المرة تلو المرة، وأن الذي يخسر مبادئه يخسر ذاته، ومن يخسر ذاته فإنه لا يصح أن يقال: إنه كسب بعد ذلك أي شيء!

ماذا لو قبل النبي ﷺ بعروض قريش من الجاه والمال والنساء، إنه لا يعدو آنذاك أن يكون واحداً من ساداتهم، لكنه قال قوله المشهورة: «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته؛ حتى يُظهره الله، أو أهلك دونه!».

إن المبدأ أشبه شيء بـ(النظارة) إذا وضعنها على أعيننا فإن كل شيء يتلوّن بلونها. فصاحب المبدأ له طريقة خاصة في الرؤية والإدراك والتقويم. وحين يتقاول الناس على الاستحواذ على شيء ما، فإنه ينظر إليهم نظرة استغراب؛ لأن مبدأه يعلمه أن المكاسب المحرمّة ليست مكاسب، وإنما هي مصائب تنزل في نفوس المستحوذين عليها وديارهم^(١).

بعض الناس يتمحور حول سمعته في سوق العمل، وبعضهم يتمحور حول زوجه، وبعضهم حول المال أو المتعة أو العجاه فيكون ما يتمحور حوله هو أساس كل تفسير لأنشطتهم المختلفة. إن شعور الانحطاط والهزيمة يلازم

(١) انظر حول ميزات التمحور حول المبدأ العادات السبع: ١٢١

هذا الصنف من الناس، ويكون اجتياح ذلك الشعور متناسباً مع الفجوة التي تفصل بين مبادئهم وسلوكياتهم!

إن طبيعة المبدأ أنه يمد صاحبه - كلما تحقق به - بقوى وإمكانات خارقة وخارجة عن رصيده الفعلي! .

التحول على المبدأ هو الذي يمنع الحياة معنى، و يجعلها تختلف عن حياة السوائم الذليلة التي تكافع من أجل البقاء المجرد والتكاثر. المبدأ هو الذي يُضفي على تصرفاتنا الانسجام والمنطقية، وهل للاستقامة معنى سوى ذلك؟

نحن لا ننكر أن الظروف الصعبة توهن من تأثير المبادئ في السلوك، لكن تلك الظروف نفسها هي التي تعطينا العلاقة الفارقة بين أنس تشبعوا بمبادئهم؛ حتى اختلطت بدمائهم ولحومهم، وبين أنس لا تمثل المبادئ بالنسبة لهم أكثر من تكميل شكري لبشريتهم واستحقاقهم العيش في مجتمع!!.

٢ - ركز اهتمامك في دائرة تأثيرك:

إن المسائل التي نواجهها تنحصر في ثلاثة مجالات:

مجال السيطرة المباشرة وهذا تقع فيه المسائل المتعلقة بتصرفاتنا الخاصة. ومجال السيطرة غير المباشرة، وتقع فيه المسائل المتعلقة بتصرفات الآخرين. وسيطرتنا غير المباشرة في هذا المجال تتفاوت تفاوتاً عظيماً؛ إذ إن هناك فارقاً بين أن يكون ذلك الآخر جاراً لي، وبين أن يكون شخصاً محكراً لسلعة ما، ويعيش في قارة أخرى.

المجال الثالث هو مجال انعدام السيطرة، مثل تأثيرنا في قضايا ماضية^(١)، ومثل المحددات الوراثية التي يرثها الأبناء عن الآباء، ومثل التأثير في المناخات والتغيرات العالمية.

(١) السابق: ٧٥ وما بعدها.

إعطاء كل دائرة من هذه الدوائر ما تستحقه من الاهتمام أمر مهم للغاية، إذ إن طاقاتنا محدودة، ودوائر اهتماماتنا في حالة من الاتساع الدائم، حيث صارت أخبار العالم تلع البيوت دون استئذان؛ وتشتت جهودنا على دوائر اهتمامنا كافة دون تركيز أو تمييز سوف يكون من الأخطاء الكبرى في حياة الواحد منا! .

وهذا الخطأ الفادح يقع فيه - مع الأسف - السواد الأعظم منا حيث تجد كثيرين يقضون أوقاتاً طويلاً في معرفة أخبار العالم الإسلامي، وأخبار أسعار العملات والكونوارث في أنحاء العالم... دون أن يقع شيء من ذلك في دائرة التأثير المباشر أو شبه المباشر لأي منهم!

إن أوقاتنا وإمكاناتنا وثرواتنا وعاداتنا هي مجال تأثيرنا المباشر، ومن ثم فإنه ينبغي إعطاؤها الاهتمام الأشد والأكبر؛ لأن استثمار العناية والاهتمام فيها سيكون ذا فائدة عظيمة. ومهمما تكن حيلتنا قليلة ومحدودة في هذه الدائرة؛ فإن استخدام ذلك القليل سيوسع دائرة التأثير، بمعنى أن سلطاناً يمتد باستمرار ليغطي مساحات جديدة من دائرة اهتمامنا، من المجالين الثاني والثالث. ومن المهم أن نعرف كيف يتم ذلك.

إذا اتجهت أنا وغيري من المسلمين في بلد ما إلى التركيز على دائرة التأثير؛ فهذا يعني أنها سوف تكون أفضل في سلوكتنا ومعرفتنا واقتصادنا وفهمنا لمحيطنا؛ لأن هذه الأشياء جميعاً هي ضمن دائرة تأثيرنا، وهذا يعني أنها ستقديم قدوة صالحة ونموذجًا حسنة لأبناء مجتمعنا، وللمسلمين في البلاد الأخرى، كما يعني أنها ستفهم مشكلات العالم الإسلامي بشكل أفضل، كما أنها تستطيع تقديم نوع من الدعم، والمساندة لهم على مستوى الخبرة والمعونة المادية.

ويعني نجاحنا في مجالنا الخاص أيضاً أنها نستطيع أن نؤثر في مجالات بعيدة جداً عننا. فإذا ارتفعت أسعار بعض السلع المستوردة - مثلاً - أمكننا أن ننشر في دوائر تأثيرناوعيناً بضرورة التقليل منها أو الامتناع عن استهلاكها،

وذلك سيؤدي غالباً إلى تخفيض سعرها^(١). فعملية النجاح في الإنقاذ بضرورة الاعتقاد عملية محلية ضمن دائرة التأثير المباشر، لكن النجاح يعني التأثير في دائرة بعيدة، هي دائرة المصدر لتلك السلعة.

أما المجال الثالث الذي لا نملك حالياً أي شيء فإننا في حالة التحسن والتقدير في المجال الأول نستطيع أن نؤثر فيه بعض التأثير؛ فالنسبة للماضي - مثلاً - نستطيع فهمه بشكل أفضل، وأن نأخذ العبرة منه، ونفهم مدى تأثيره في تشكيل الحاضر، كما أنتا تفهم الأفكار المغلولة المتسرية منه والمفاهيم الشائعة عنه، ونعرف ما كان منه ابتلاء، وامتحاناً ربانياً فرضى به، وما كان منه متولداً بسبب أخطاء السابقين، فنحاول اجتنابها... وهكذا فبتأثيرنا في مجالنا المباشر يصبح ما يُظن أنتا لا نملك أية حيلة تجاهه - ضمن نشاطات تأثيرنا.

لا يعني كل هذا الانصراف الكلي إلى الدائرة المباشرة، لكنه يعني أن ننزع إلى (العملية) ونستمر جهودنا فيما يمكن أن يتحقق نتائج ملموسة.

٣ - الفجوة الكبيرة بين الطموح والإنجاز مصدر شقاء:

مع أن أحوال كثير من الناس أفضل من أحوال آبائهم في السكن والطعام والشراب... إلا أن شعور الآباء والأجداد بالرضا والسعادة كان أعظم! وربما كان السبب في ذلك أن طموحات السابقين في اقتناء الأشياء والاستحواذ على الثروات كانت أقل، وأفاق شهية التملك كانت أضيق. وتؤكد الدراسات أن الظروف الموضوعية ليست ذات تأثير كبير في الشعور بالرضا، وأن اتساع أطماع الناس أكثر مجلبة للشقاء لهم من سوء الظروف المعيشية التي قد يعانون منها^(٢).

(١) كان إبراهيم بن أدهم إذا قيل له: غلا الشيء الفلاني - يقول: أرخصوه بالترك، ويشد:

إذا غلا شيء على تركه فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

(٢) سيكولوجية السعادة: ٢١٤.

يزداد الشقاء والإحباط لدى الناس عندما يتخذون قراراتهم على أفضل التصورات وأحسن الاحتمالات، ثم يُصدموهون بعد ذلك؛ فالتجارة للربح والدراسة للنجاح، والسفر للمتعة والترويح، ولا يُحسب أي شيء آخر ربما يقع! ولذا فإن التفاؤل الذي يزيد عن حده سرعان ما ينقل إلى يأس وإحباط!

اتساع الفجوة بين الطموحات والإنجازات مصدر شقاء واحتقار للذات لدى كثير من أبناء الجماعات الإصلاحية؛ حيث يتخيّل كثير منهم أن بإمكان جماعته قلب أحوال مجتمع بأكمله، مع أنها تكون في حالة لا تتمكن فيها من (الملمة) نفسها والحفاظ على رأس مالها من أبنائها وأتباعها.

في الحديث عن النبي ﷺ: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقضى الله بما آتاه»^(١).

وروي عنه أيضاً: «ليس الغنى عن كثرة العَرَضِ، ولكن الغنى فنِي النفس»^(٢).

ليس فيما نقوله دعوة إلى أن يعيش المسلم دون طموحات، ولكن دعوة إلى أن تكون الطموحات مشروعة ممكنة التحقيق، ومتناسبة مع الإمكانيات المتوفرة.

٤ - حافظ على الصورة الكلية مهما كان العمل الذي تقوم به مهمًا:

المنهج الإسلامي في بناء الشخصية يقوم على الشمول والتكميل، وهناك نصوص كثيرة جداً تشير إلى ضرورة تنمية كل أبعاد الشخصية: العقلية والروحية والبدنية والعاطفية... والملاحظ أن لدى الإنسان قابلية عجيبة للانجذاب نحو محور من المحاور، وتترك باقيها غفلًا دون أدنى اهتمام. وهذا مشاهد لدى السواد الأعظم من الناس؛ إذ ليس من النادر أن ترى من

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه الشيخان.

يصرف كل اهتمامه إلى (الرياضية) على حين أنه لا يقرأ كتاباً واحداً في السنة أو جزءاً من القرآن في الأسبوع. ونجد في المقابل كثيراً من أبناء الدعوة وطلاب العلم، لا يقيمون لللياقة البدنية أى وزن، بل إن بين بعضهم وبين الرياضة نوعاً من العداء!

وهناك من ينهمك في المسائل الفكرية والتنظيرية، لكنه يعاني من جفاف روحي وبرود عاطفي قاتل! وهناك من يقف على التقىض... .

إن المرء ينتزع الإعجاب عندما يجتمع فيه ما تفرق في غيره، وإن العناية الزائدة بجانب من الجوانب على حساب جانب آخر، هي نوع من التنمية المشوهة، والتي تظهر في بعض الأحيان كما لو كانت نوعاً من البراعة النادرة، لكنها في النهاية تشويه وتبييد لفضيلة التكامل، كما لو كان لأحد الناس يد طولها خمسة أذرع، فمع أن ذلك لا يخلو من بعض الميزات إلا أنه بعيد عن الكمال والجمال!

حتى لا فقد الصورة الكلية للوضعية التي ينبغي أن تكون عليها يجب أن نقوم بأمرين:

الأول: أن ننظر دائماً إلى خارج ذواتنا، من أجل المقارنة، ومن أجل أن نستشرف ما نحن عليه عن كتب؛ إذ إن الرؤية تتشهو عندما نعزل ذواتنا وأوضاعنا عن السياق الاجتماعي والتاريخي.

الثاني: أن ننظر دائماً إلى أهدافنا الكلية ومدى خدمة بنائنا لأنفسنا لتحقيق تلك الأهداف.

٥ - اقطع على نفسك عهوداً صغيرة، وحاول الالتزام بها:

إذا كان البحر عبارة عن تجمع ل قطرات الماء، وإذا كان الجبل تجمعاً لحبات الرمل - فلا يوجد إذن شيء لا أهمية له؛ فالأعمال الطيبة الصغيرة حين تراكم تصنع من الرجل إنساناً عظيماً.

من خلال التجربة وجدنا أن أفضل السبل هو محاولة الالتزام بعادات

وسلوكيات محددة، كأن يقطع المرء على نفسه أن يمشي كل يوم نصف ساعة مهما كانت المشاغل والأجواء، من أجل تجديد بعده البدني، وكأن يتلزم بأن يستيقظ قبل الفجر مرة كل أسبوع، وكان يتلزم أن يقرأ نصف ساعة كل يوم في موضوع محدد وهكذا . . .

والحرفية مذمومة إلا في هذا حيث إن الالتزام الحرفي هو السبيل الوحيد للاستمرار في الأعمال الطيبة.

يجب أن يكون ما تلزم به أنفسنا ميسوراً وضمن الطاقة، لكن إذا قررنا الالتزام، فليكن صارماً إلى أبعد حدود الصرامة والدقة.

وفي الحديث: «عليكم بما تطiquون، فواه لا يعلّم الله حتى تملوا، وكان أحب الدين إليه ما داوم عليه صاحبه»^(١).

٦ - إهمال التافه يحوله إلى شيء ملحّ ومهم^(٢) :

الأعمال التي ينبغي علينا أن ننجزها تنقسم إلى قسمين: أعمال ملحّة لا يجوز تأجيلها، وأعمال غير ملحّة، يصح تأجيلها إلى وقت آخر.

ما يجب إنجازه الآن لا يشكل مشكلة، لكن المشكلة في الأشياء غير الملحّة والتافهة، حيث إننا تعودنا أن نعاملها بإهمال تام، بل قد نستغرب من يهتم بها وهذا الإهمال يؤدي إلى أمرين سينين:

أولهما: أن كثيراً من الأشياء التافهة يتحول إلى أشياء مهمة بل قاتلة.

الثاني: أن حياتنا تصبح مزدحمة بالأشياء المهمة، وهذا يعني أن نظل دائماً مازومين ومغلوبين لمتطلبات الحياة المتعاقبة!

ما زال الشفاء من مرض السرطان متوقفاً إلى حد كبير على المرحلة التي يكتشف فيها، وكلما كانت مبكرة كانت إمكانات الشفاء أكبر - بإذن الله -

(١) أخرجه الشيخان.

(٢) انظر العادات السبع: ١٥١.

وعدم الالتفات إلى أعراضه قد يحوله من مرض ممكн العلاج إلى مرض مستعص ..

أسنان المرأة يكون علاجها سهلاً ما دامت هناك متابعة فإذا إهملها شكلت له قضية مزعجة ... خلل يسير في سيارة الواحد منها قد لا يكلف إصلاحه شيئاً إذا تم في وقته، لكن إهماله قد يخرب أجزاء أخرى مهمة، وقد يفضي إلى وقوع كارثة! .

لنجرب التفكير في الأشياء غير المستعجلة، ولنتعود التعامل معها بجدية حتى لا تتوالى علينا القضايا المنعقة.

٧- اعمل ما هو ممكн الآن، ولا تنتظر تحسن الظروف:

في تراثنا العربي أدب، يسمى (أدب الشكوى من الزمان) فقد كان الناس باستمرار يشكون من سوء الأحوال وتكرر الزمان، وكان الناس، وما زالوا يعتقدون في كل عصر أنهم وصلوا إلى القاع، وأنه ما مر على غيرهم زمان أسوأ مما هم فيه. ويظل في حسّهم أن ما هم فيه مؤقت، وأن الغمة سوف تنقضع ولو بعد حين! .

فهل الناس في وهم تجاه هذه القضية؟

لا شك أن جزءاً من إحساس الناس صحيح، حيث يسعى الوعي البشري إلى شيء من الثبوة، ويغفل من التغيرات الطارئة، ويقلق بشأنها، ويدرك السلبي منها على حين تكون حساسيته نحو ما تحمله من إيجابيات - غالباً - ضعيفة! .

الشعوب المحسودة اليوم كانت في يوم من الأيام في أوضاع أسوأ مما نحن فيه، ومن خلال مباشرة الممكن والتخطيط والتنظيم والإبداع والتضحيّة وصلوا إلى ما وصلوا إليه.

علينا أن نفترض دائماً أننا لم نصل إلى الهاوية بعد، وأن الأسوأ ربما يكون في الطريق، وأن التحسن الذي قد يطرأ على أحوالنا لا ندرى متى

يكون - فذلك غريب - ولا ندرى هل سندركه لنعمل في أجوانه أو لا؟ وإذا أدركناه، فهل أوضاعنا الشخصية الخاصة تمكّنا من الاستفادة منه؟

ويجب علينا بعد ذلك أن نتحلى بروح الإيجابية من خلال الإدراك بأن كل تحديد يسبب أزمة، لكنه في الوقت نفسه يمنحك فرصة، ويتيح لأولي العزائم السابقة أن يكتشفوا في أنفسهم والأدوات التي بين أيديهم والظروف الموضوعية من حولهم - إمكانات جديدة للعمل والحركة والنفع والأداء الجيد، وهذا واضح في قوله - سبحانه - : **﴿فَإِنَّ مَعَ الْقُسْرِ يُسْرٌ﴾** **﴿إِنَّ مَعَ الْمُسْرِ يُسْرٌ﴾** ^(١).

ليكن شعارنا دائمًا: (باشر ما هو ممكن الآن). وإذا عملنا بهذا الشعار فسوف نكتشف أن الصعوبات التي نواجهها متربطة، وأن مباشرة الممكن سوف تجعلنا نمسك بطرف الخيط، ونبني رأس جسر للعبور إلى باقيها. إذا فعلنا ما هو ممكن اليوم صار ما هو مستحيل اليوم ممكناً غداً! ولنراقب دائمًا ردود أفعالنا على المشكلات فإنه خلاصة تربيتنا وعلمنا واستيعابنا.

٨ - العمل نعمة وليس مجموعة مشاق:

تداعب خيال الكثيرين منا أمانيات الفراغ والخلو من المسؤوليات، والتحكم المطلق بأوقات النوم والراحة والسفر... وبعض الناس يخطط للوصول إلى هذه الوضعية!

كل الخبرات والدراسات يؤكّد أن العلن بأن الخلو من الأعمال يجعل السعادة هو مجرد وهم؛ فالعمل بالإضافة إلى كونه مصدراً للرزق - يوفر نظاماً لاستخدام الوقت، وقيام اتصالات اجتماعية - من خلال الزماله - خارج نطاق الأسرة، بالإضافة إلى ربط المرأة بأهداف وغایيات محددة، وتوفير مستوى مرتفع من النشاط ^(٢).

(١) سورة الشرح، الآيات: ٥، ٦.

(٢) سيميولوجيا السعادة: ٨٦.

وعلى العكس من هذا فقد أفادت بعض الدراسات أن فقد العمل يؤثر الشعور بالملل والغبب من المجتمع والشعور بالوحدة وقلة الحيلة^(١).

كما وجد أن العاطلين يصبحون أكثر ميلاً إلى إدمان الكحول، كما أن هناك علاقة بين البطالة والاضطراب العقلي^(٢).

ولا ريب أن من الأعمال ما يخلو من كثير من هذه الميزات، فالأعمال الرتيبة والشاقة جداً والأعمال الآمنة والمنخفضة الأجور - كل هذه الأعمال لا توفر البهجة والراحة، وعلى المجتمع أن يتساعد في تحسين ظروف العمال الأسوأ وضعها.

٩ - لنحاول تحسين لغتنا وعباراتنا:

قد يمأوا قالوا: تكلموا ثُرِفوا. وإن كثيراً من الناس نأخذ عنهم انطباعاً أولياً جيداً إلى أن يتحدثوا، فحيثند إما أن يترسخ ذلك الانطباع، وإما أن نلوم أنفسنا عليه!

طيب الكلام وإلاته أدب إسلامي رفيع، فقد قال الله - تعالى -: «وَلَئِنْ كُنْتَ فَنْظًا غَيْطًا لِّلْقَلْبِ لَا تَفْتَأِرُوا مِنْ حَوْلَكُمْ»^(٣). وفي الحديث: «اتقوا النار ولو بشق تمرة؛ فمن لم يجد بكلمة طيبة»^(٤).

كما أن وضوح الكلام وإعادته إذا اقتضى التفهم ذلك أدب من أداب النبوة، وقد قالت عائشة - رضي الله عنها -: «كان كلام رسول الله ﷺ كلاماً فصلاً، يفهمه كل من يسمعه»^(٥).

من الآداب الإسلامية الرفيعة الابتعاد عن الألفاظ التي قد تخدش الذوق

(١) السابق: ٢٧.

(٢) السابق: ٧٤، ٧٨.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٤) أخرجه الشيشخان.

(٥) أخرجه أبو داود؛ وإسناده حسن.

العام التي تجد في السمع نوعاً من النبوة وفي هذا جاء قوله ﷺ: «لا يقول أحدكم: خبثت نفسي، ولكن ليقل لقست نفسي»^(١). فقد حُثَّ على استخدام كلمة (لقست) بدل (خبثت) مع أن معناهما واحد.

وهناك عبارات نستخدمها للدلالة على حالات معينة، وقد تُشعر الآخرين بعجزنا أو تأزمنا أو تهجمنا عليهم، والأفضل أن نعدل عنها إلى غيرها من نحو^(٢):

العبارات الفاضلة	العبارات المفضولة
أنا أريد أن... أنا اختار..	يتحتم علي...
سأنجزها إن شاء الله اليوم أو الآن	سأحاول إنجازها يوماً ما
هذه فرصة	هذه مخاطرة
أعني على الفهم	كلامك غير واضح
أود الحصول على مساعدتك	أشعر بالعجز
ساعدني على الفهم	فهمي
إمكانية للتحسن هي ...	هذا ما أنا عليه
هذا يمثل تحدياً	هذا صعب للغاية

إذا أعجب الواحد منا بشيء فليظهره إعجابه، وإذا ساءه شيء، فلينقده بأدب، ودون تجريح. لنجاول سمع المتحدث، وعدم مقاطعته، وعدم الانشغال عنه، ولنحرص على عدم الاستئثار بالحديث...
لنتذكر دائماً أن كلمة واحدة قد تداوي جراحًا غائرة، وأن أخرى قد تؤدي إلى نشوب حرب! وفي الحديث الشريف: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، لا يلقي لها بالاً، يرفعه بها درجات. وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يلقي لها بالاً، يهوي بها في جهنم»^(٣).

(١) أخرجه البخاري.

(٢) دليل التدريب القيادي: ١٨٧.

(٣) أخرجه البخاري.

١٠ - لنجاول مراجعة معايير النجاح :

إن الانتقال في مجال الأخلاق والسلوك من الموضوعي إلى الذاتي ربما كان أسوأ انتقال في العصر الحديث. وهذا الانتقال حدث في الغرب أولاً، ثم انتقلت عدواه إلينا. فقد كانت الأديبيات السائدة في الولايات المتحدة - مثلاً - قبل خمسين عاماً، ولمدة مئة وخمسين عاماً تركز على ما يمكن أن يسمى (المزايا الأخلاقية) مثل الاستقامة والتواضع والإخلاص والاعتدال والشجاعة والتراهنة والصبر والمواظبة والبساطة ...

وهذه السمات تؤكد جمياً أن هناك مبادئ أساسية للحياة الفاعلة، وأن تحقيق أي نجاح حقيقي متوقف على استيعاب هذه الأخلاق والالتزام بها.

بعد الحرب العالمية الأولى تحولت النظرة الأساسية للنجاح من المزايا الأخلاقية إلى ما يمكن أن يسمى (المزايا الشخصية) حيث صار النجاح مرتبًا بالمواقف والتصرفات والمهارات والتقنيات التي تسهل التعامل بين الناس. والإنسان الناجح شخص له سمات: القدرة على بناء علاقات اجتماعية ناجحة وواسعة، والوضع الذهني الإيجابي.

لقد صار الدافع الأساسي هو فن التأثير السريع، واستراتيجيات القوة، والمهارة في الاتصالات والمواقف الإيجابية^(١).

حين يصبح تعريف الإنسان (الناجح) هو الذي يحوز ثروة أكبر، ويؤثر في الناس أكثر، ويستطيع الفوز في المناقصات بصورة غير عادية، فإنه لا توجد قوة أرضية تمنعه من أن يصبح النموذج الأسوأ في مجتمعه؛ حيث يقترب النجاح من أن يكون نوعاً من اللصوصية والخداع وخيانة الضمير !! .

إن النجاح الدنيوي الذي لا ينسجم مع النجاح الأخرى ليس بنجاح، وإنما هو نوع من البروز الشكلي والموقت؛ والعاقبة للتقوى .

إن سرطان المبدأ في كل خطوة بناء هو الضمان الوحيد لبقاءنا على طريق التقدم الحقيقي ! .

(١) انظر في هذا العادات السبع: ١٠، ١١.

١١ - احرص على كتابة بيان المهام الشخصية:

هناك نوع من (الوصايا الصغرى) التي ينبغي أن تكون ذات حضور دائم في حياتنا اليومية. وتلك الوصايا كثيرة جداً، لكن سنذكر هنا بعض مهام منها؛ لعل ذلك يثير التفكير في تهيئة الوسائل والظروف المساعدة لتجسيدها في السلوك؛ وذلك فيما يلي:

- اسع لمرضاة الله دائماً.
- لا تسماو على مبادئك.
- حاول أن تستحضر النية الصالحة في كل مباح.
- لا تجادل في خصوصياتك.
- النجاح في المنزل أولاً.
- حافظ على لياقتك البدنية، ولا تشرط عادة الرياضة مهما كان الظرف.
- لا تسماو على شرفك وكرامتك.
- استمع للطرفين قبل إصدار الحكم.
- تعود استشارة أهل الخبرة.
- دافع عن الغائبين.
- كن مخلصاً، ومع ذلك حازماً.
- طور مهارة جديدة كل عام.
- خطط اليوم لعمل الغد.
- كن إيجابياً دائماً.
- كن مرتبأ في شخصك وعملك.

- لا تخش الخطأ، واخش الاستمرار عليه.
- راقب ردود أفعالك.
- كن هادئاً.
- كن مبتسمًا.
- سهل نجاح مرؤوسيك.
- أعد نفسك للعمل ضمن فريق.
- استمع ضعف ما تتكلم.
- ليكن لك دائماً أهداف مرحلية قصيرة.
- افتح عينيك على الوقت جيداً، لا يمر دون فائدة.
- حاول دائماً أن تخلص من العادات المسببة للإدمان.
- أحضر دوافعك لمبادئك.
- وفر شيئاً من دخلك للطوارئ وللاستثمار.
- لا تقترض من أجل أشياء استهلاكية.
- حاول أن يتحسن وضع التتفل والتبعد لديك.
- أحضر رغباتك لإمكاناتك المادية^(١).

بإمكان المرء أن يكتب بعض هذه العبارات على لوحات في منزله أو سيارته وأتمنى لو أنه كتب بعضها، ووضع في المساجد والمدارس والجامعات وعلى مفارق الطرق والأماكن العامة؛ لأنها تمثل دستوراً للإنسان المستقيم السباقي.

(١) انظر في بعض ما سبق العادات السبع: ٩٩ - ١٠١.

١٢ - ليس الترفيه أمراً ثانوياً:

يمكن تعريف الترفيه بأنه: ممارسة نشاط مختلف عن النشاط المعتاد، نختاره بحرية - أي بدون احتياج - لكي نحسن من أوضاع النفس والجسد. وإذا وافقنا على هذا التعريف، فهل يكون الترفيه كمالاً^(١).

إن من المؤسف له أن بعض الناس لا يعرف من الترفيه سوى ارتياض أماكن اللهو والفجور، وبعدهم يقف على الطرف المقابل، فينظرون بشيء من الجفاء إلى الأنشطة الترفيهية والكشفية، بالإضافة إلى الضبط الزائد لإيقاع الحركة ضمن مؤسساتهم وأنشطتهم الخاصة..

إن من هديه رسالة أنه كان يتخلو أصحابه بالموعظة، أي يتلمس أوقات نشاطهم، فيحدثهم فيها، ويعرض عن تحديثهم في بعض الأحيان خشية السامة عليهم.

وكان بعض علماء السلف يخرجون إلى البساتين، فيمرحون، ويلعبون ويجددون حيوتهم، ليعودوا بهمة جديدة إلى حياة العلم والتعلم^(٢).

إن من الحيوي جداً أن يكون للمرء سوييعات يقضيها في اللعب مع أولاده، وسويعات يخرج فيها في رحلة قصيرة، وأوقات يقضيها مع إخوانه في ملاطفة ومسامرة فالقلوب إذا كلت عميت، وفقدت الحياة بعض معانيها. إن الأنشطة الحرة تجعل المرء يشعر بالتجدد والاستقلالية والتأنق، وتقوى لديه روح المبادرة الفردية، كما أنها تكسر رتابة الحياة التي تفرضها أجواء العمل.

إن الترفيه حاجة من الحاجات النفسية والعقلية والبدنية، ومن ثم فلا بد من توضيح أطروه وضوابطه الشرعية للناس، بالإضافة إلى إرشادهم إلى

(١) المذكر والثامن: ١٧٠.

(٢) يذكرون في ترجمة ابن مجاهد شيخ قراء بغداد أنه خرج إلى البستان مع بعض كبار علماء بغداد، وصاروا يلعبون بإدارة دولاب كان هناك. فنظر إليهم بعض الناس مستغرباً فقال له ابن مجاهد: التعامل في البستان كاللعب في المساجد!

استثمار أوقات الفراغ على نحو مبدع مفید، وهذه من المسؤوليات الرئيسية لكل الجهات التنفيذية والإعلامية.

١٣ - تَعْوِد تأجيل الرغبات:

ركون النفس إلى الكسل والخمول والهروب من الواجبات وأشواطها إلى العبء من الملدات لا حدود لها. والذي يتبع هواه في إرواء رغباته كالذى يشرب من ماء البحر، كلما شرب ازداد طمأناً.

إن ديننا يعلمنا بناء (العقل) المستقبلي من خلال التضحيه بالحاضر في سبيل القادر، وبالرائل في سبيل الباقي، وهل الالتزام شيء غير هذا؟

كثيرون منا أولئك الذين ينشغلون بالتوافق عن الأعمال الجليلة، وكثير أولئك الذين يقطعون عن (القراءة) لأدنى طارئ، وأولئك الذين يقضون قسطاً كبيراً من أوقاتهم في التسوق وقضاء حاجات ثانوية، يمكن تأجيلها إلى آخر الأسبوع . . .

ليسجل كل واحد منا على نفسه كم مرة في اليوم استطاع تأجيل رغبة ملحّة للقيام بعمل مهم. وكم مرة قطع عمله من أجل خاطر خطر على باله، وهو لا ينطوي على أي شيء مستعجل أو ذي قيمة!

ليحاول كل واحد منا أن يحرز بعض التقدم في هذه السبيل. إننا لو حسبنا الأوقات التي يمكن أن نكتسبها فيما لو سيطرنا على عالمنا الداخلي، لوجدناها أكثر بكثير مما يُظن! إن تأجيل الرغائب دليل واضح على اتزان الشخصية وتماسكها ونضجها، كما أنه دليل على أن للمرء أهدافاً واضحة، ينشد إليها، ولا يمكنه أن يتخلّى عنها بسهولة. ولا يخفى أن بعض النزوات لا يحتاج إلى تأجيل، وإنما إلى شطب كلي؛ لأن الاستجابة لها مدمرة!

١٤ - لا تكون شخصاً عادياً:

لا يكون المتدين الحق إنساناً عادياً؛ إذ إن طبيعة الالتزام الصحيح تقتضي التفوق؛ فالسلوك المستقيم والحرص على الوقت والمنافسة في الخير

والتفكير الدائم.... كل ذلك يُخرج المرء من صفوف العاديين إلى صفوف المتفوقين. وإذا رأينا شخصاً ظاهراً الدين، ثُن رأيناه لا يختلف عن غيره من العامة فلنعلم أن تدينه منقوص، وأن جانباً من جوانب الدين لديه ما زال ضامراً أو مشوّهاً.

لا بد من القول: إن السواد الأعظم من الناس أشخاص عاديون؛ لأن ذلك هو الشيء الذي لا يحتاج إلى أي جهد، والتميز يحتاج دائماً إلى جهود خاصة واستثنائية.

يُمكِّن كل واحد منا أن يكون متميّزاً في جانب من شخصيته أو عمله أو سلوكه.

وعلى كل واحد أن يحاول أن يعرف أوضاع نفسه، وأن يرفع من قدرها بمزيد من التميز والتقدّم والسبق.

كتب أحد الباحثين حول الوضعية العامة للإنسان العادي: «ولد السيد العادي سنة ١٩٠١، وكانت درجاته الدراسية دون المتوسط، وتزوج الآنسة «وسيطة» في سنة ١٩٢٤، ورزق بطفل سماه «العادي الأصغر» وابنة سماها «العادية». قضى أربعين سنة في خدمة لا شأن لها، وشغل عدداً من المراكز التافهة، لم يجرِ أبداً أيه مخاطرة، ولم يغتنم أية فرصة، وتعمد ألا يطرُر مواهبه، ولم يشتراك مع أحد في شيء، كان شعاره المفضل «لا دخل لي في هذا»، «ابتعد عن الشر وغනّ له».

عاش ٦٠ سنة بدون هدف ولا خطة، ولا رغبة ولا ثقة ولا عزم ولا تصميم. كتبوا على قبره.

هنا يرقد

السيد/ العادي.

ولد سنة ١٩٠١، ومات سنة ١٩٢١ ودفن سنة ١٩٦٤
لم يحاول أبداً أن يفعل أي شيء.

طلب من الحياة القليل .
ودفعت الحياة ثمنه ^(١) !! .

١٥ - التدين مصدر هناء :

لا يحتاج الملتم بدينه التزاماً صحيحاً إلى قراءة هذه الفقرة؛ لأنَّه يعيش تحت أفياء هذه النعمة العظمى، وهل يحتاج من يغسل بشلالات الضياء في وهج الظهيرة إلى من يذكره بطلوع الشمس !! .

إنَّ المتدين يتمتع براحة الضمير وتناسق السلوك مع الداخل، كما أنه في حصن من الأضطراب النفسي والعقلي وازدواج الشخصية، حيث ليس له سوى وجه واحد وموقف واحد! . وبنية العقدية تمد خيوط النور في داخله، وتفتح له أبواب الأمل المتجدد، ومن ثم كانت الظاهرة الإسلامية المعروفة: «ال المسلم لا يتحرر» ! .

وقد دلت بعض الدراسات على أنَّ كبار السن أكثر تديناً، وأنَّ هناك علاقات قوية بين التدين والهناء لديهم، فالمتدينون أكثر سعادة. الخوف من الشيوخوخة الذي يسيطر على أعداد كبيرة من الناس ما هو إلا فرع من الخوف من الأمراض المزمنة ومن الموت. وتتحفف قوة العقيدة الدينية من تأثير الخوف من الموت. يفيد التدين الصحة؛ إذ تبين أنَّ لدى المتدينين معدلات أكثر انخفاضاً لعدد من الأمراض، ولا سيما أمراض القلب والرئة وتليف الكبد وبعض أنواع السرطان وبعض أنواع الأمراض الفتاكة، مثل (الإيدز) .

إنَّ التدين مصدر لحالة من سلام النفس وتحقيق التوتر ^(٢) .

إنَّ على أهل الخير أن يعكسوا ما يشعرون به من رفاه وسعادة داخلية على سلوكهم ومظهرهم وعلاقاتهم مع الآخرين حتى يجذبوا المزيد من التحساء إلى واحة التدين الغناء! .

(١) دليل التدريب القيادي : ٢٧٠ .

(٢) سيكولوجية السعادة : ٢١٠ ، ٢٥١ .

يعرف أحد الباحثين الفعالية بأنها: «القدرة على تحقيق أقصى إنتاج ممكن باستخدام الموارد المتاحة أحسن استخدام ممكن»^(١).

يؤكد القانون الثاني لـ(الديناميكية الحرارية) أنه لا يمكنك تحويل الطاقة الحرارية إلى عمل من غير أن تفقد جزءاً من هذه الحرارة. وهذا ينطبق على بني البشر أيضاً^(٢)، فاستثمار الطاقات والإمكانات سيظل ناقصاً ونسبة، وفعالية الناس وبالتالي نسبة. ولا بد للمرء حتى يستثمر إمكاناته والفرص المتاحة له على الوجه الأمثل أن ينتبه إلى عدد من المبادئ والإجراءات والوسائل التي تساعده على ذلك ومنها:

أ - إن ناتج الإنسان على أي صعيد لا يوصف بأي وصف على نحو مطلق، ولكن لا بد من النظر إليه من زاوية الإمكانيات المتاحة لصاحب المنتج، والوقت الذي تم فيه الإنتاج، وحينئذ يمكن الحكم على كفاءة الشخص أو الجهة صاحبة الإنتاج.

وبيما أن المرء تظل أمامه إمكانية لعمل شيء ما مهما تكون الظروف سيئة؛ فإن على الواحد منا أن يتسائل دائماً: ما هو الشيء الذي بإمكاني أن أفعله الآن ثم لا أفعله؟

إنني على يقين أن أكثر من ٣٠٪ من أوقاتنا يشتمل على إمكانات جيدة لأن نفعل بها شيئاً ما، لكن مع الأسف يُنظر إليها على أنها أوقات غير صالحة لأداء أي شيء!! وإذا أصبح هذا السؤال عادة يومية لنا فسوف نتعثر كل يوم على إمكانية جديدة كانت ضائعة، وسوف تتغير حال الواحد منا، وإذا سرت العدوى إلى عدد كبير من الناس، فربما تغيرت حال أمة بأسرها!

ب - لا بد لمن يريد أن يكون فعالاً من أن يتجاوز (العقل المجرد) إلى

(١) القيادة والتغيير: ٢٢٧.

(٢) ثقب في جدار التخلف: ١١٤.

(العقل العملي) أي أن يكون لديه في جوار المبادئ الكبرى عدد من الأفكار الصغرى التي تنقل القضية من حيز التمثيل الذهني إلى حيز الواقع العملي؛ حيث لا تظهر فاعلية المرأة إلا من خلال تجسيد أفكاره في نشاطه العام. وهذا مع الاعتراف بأن دوائر النظر تتطلب أوسع من دوائر الفعل. ونستطيع أن نقول: إنه على مدى التاريخ كانت لدينا أفكار جميلة، لكن لم يكن هناك براماج لتطبيقها. وكانت لدينا مقتراحات وأفكار رائعة لكن لم تفكر كثيراً في توفير الظروف الملائمة لجعلها واقعاً حياً.

ج - لو تأملنا في حياة السلف لوجدنا أن أعظمهم نشاطاً وحركة وعطاء كان يتمتع ببطاقات روحية فذة^(١). وقد شكل هذا في الحقيقة النفس الأولية لثقافة العمل لدى المسلم، ومن ثم فإن تشريع الجانب الروحي لدى المسلم ربما كان شرطاً لتمتعه بكفاءة وفعالية عالية. ويؤسفني في هذا أن كثيراً من كتابنا لم يتبعوا إلى هذا، فراحوا يحاولون تحريك همة المسلم، ودفعه إلى العمل الجاد عن طريق أبيات غريبة عن ثقافته وتكونه العقدي، كتلك التي يتعلّمها موظفو العلاقات العامة ومتذوبو المبيعات!!.

د - حتى يكون المرأة فعالة، فلا بد أن تكون أولوياته واضحة، حيث إن الأشياء التي تحتاج إلى إنجاز كثيرة، وأبواب الخير كثيرة أيضاً. وتحديد الأولى والأحق بالإنجاز منها هو الذي سيجعل نتائج جهود الإنسان مائلة للعيان.

حين يحدد المرأة أولوياته، ويعرض عليه القيام بأعمال أخرى، فإنه يقول (لا) بحزم وإصرار حتى لا تتشتت الجهود. ليحاول الواحد منا أن يركز جهوده في أقل قدر ممكن من الأعمال، فإذا أنجز الأهم انتقل إلى المهم.

(١) الصحابي الذي ألقى التمرات التي كانت في يده، وأواسع إلى ساحات الجهاد كان على درجة عالية من التوتر الروحي. وقد حدث الله - جل وعلا - على الذكر في مواطن لقاء العدو الذي يتطلب قمة العطاء والنشاط ليوفر التموين الروحي والمعنوي لذلك الموقف المهيّب حيث قال سبحانه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتَيْنَا إِذَا لَقَيْتُمْ فَتَةً فَأَثْبِتُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا» سورة الأنفال، آية: ٤٥.

هـ - اغتنام الفرص المتاحة شرط آخر لاتصال المرء بالفعالية، والشخص الفعال هو قناص فرص من الطراز الأول. الفرص تعني دائماً ظروفاً أكثر ملاءمة للقيام بعمل ما، وهذه الظروف لا تتح دائماً، بل إن الفرص الكبرى قد لا تتح لشخص أو أمة إلا مرة واحدة في الحياة. اللقاء بعالم فذ، وتحمل مسؤولية كبيرة، وخلخلة في صفوف العدو، والوقوع على كتاب لكاتب مبدع.... كل هذه فرص؛ والإنسان الفعال هو الذي يعرف أن كل إمكانية وكل طاقة لديه هي شيء مؤقت وزائل^(١). والسعيد من وفق للعمل قبل فوات الأوان.

و - الإنسان الفعال مرهف الحساسية تجاه (الوقت) إذ إنه الوعاء الذي س يتم إنجاز كل شيء فيه، ومن دونه لا نستطيع أن نعمل أي شيء. إن الطريقة التي نقضي بها أوقاتنا هي نتيجة مؤكدة للطريقة التي ننظر بها إلى أوقاتنا. لو تسألهنا: ما هو الشيء الأطول والأقصر في آن واحد، والأسرع والأبطأ في آن واحد معاً، والذي نهمله جميراً، ثم نأسف عليه، ولا شيء يمكن أن يتم بدونه، وهو يتطلع كل صغير وكبير، وينمي كل ما هو عظيم، لكان الجواب: إنه الوقت^(٢)!

إن الأمم المتقدمة تحسب تكلفة السلع من خلال ساعات العمل التي تنفقها فيها، إذ لا تختلف قيمة الوقت عن قيمة المواد الأولية المستخدمة فيها.

الوقت أشبه بـ(الزئبق) يصعب القبض عليه، وأخطر شيء في تفلته منا هو اللحظات القصيرة التي لا نلقي لها بالاً^(٣). إن اغتناص نصف ساعة كل

(١) هذا واضح في الحديث المعروف: «اغتنم خمساً قبل خمس: حياتك قبل موتك...».

(٢) دليل التدريب القيادي: ١٩٣.

(٣) تذكر بعض الإحصاءات أرقاماً طريفة عما تقضيه من أوقات في بعض الأنشطة؛ إذ تشير إلى أن المرء ينام في حياة متوسطة نحواً من ٢٠ عاماً، وفي ضغط أرقام الهاتف شهراً، وفي مشاهدة التلفاز ١٠ سنوات، وفي ربط الأحداث ٨ أيام! السابق: ١٩٦.

يوم للإنجاز عمل سيعود علينا خلال خالل خمس سنوات بنحو (٩٠٠) ساعة عمل . وهي كافية لتأليف كتاب متوسط ، وكافية لأن يصبح المرء مرجعاً في قضية كبيرة ! .

لا بد من تدابير للحفاظ على الوقت إذا ما أراد الواحد منا ألا يذهب عمره باطلاً في غير فائدة . ومن تلك التدابير :

- خطط ليومك كل صباح بكتابة الأشياء التي ستتجزها فيه ، واشطب كل عمل تم إنجازه أثناء اليوم .
- لا تقم على الإطلاق بزيارة صديق دون أن تبلغه بذلك ، أو تحادثه هاتفياً .
- احتفظ دائماً بقلم وورق أو فكرة صغيرة في جيبك لتسجيل الخطط والأفكار خلال أوقات الفراغ .
- استفد من وقت الفراغ في القراءة أو الحفظ أو عمل أي شيء يثناء .
- حينما ترتب موعداً تأكد أن الطرفين يفهمان الوقت والمكان والعنوان بالضبط .
- وفر كل المواد والمراجع الالزمة بين يديك قبل أن تبدأ العمل سواء أكان العمل طهواً أو قراءة كتاب أو إعداد خطبة .
- تجنب الذين يسرقون وقتك بأنانية وحمافة .
- لا ترتب رحلة للإنجاز عمل ما إذا كان بوسعك إنجاز ذلك العمل بخطاب أو محادثة هاتفية^(١) .
- ألزم نفسك بوقت محدد للقراءة يومياً مهما كانت الظروف .

(١) السابق: ١٩٧.

إن المسافة التي تفصل بيننا وبين الأمم الأخرى شاسعة، والهوة تتسع، وإن علينا مضاعفة السير والاستفادة من كل دقيقة إذا ما أردنا للأمة ألا تنحدر نحو الأسوأ! . والله ولينا.

ب - تنمية الشخصية على صعيد العلاقات مع الآخرين :

يظل الإنسان كائناً قابلاً للتعلم، بل الإنسانية كلها تتعلم باستمرار والجزء الأكبر من التعلم يحدث من خلال علاقات الناس بعضهم مع بعض، حيث تعكس عليها مبادئ المجتمع ومقاييسه وتآزماته وهمومه

التكوين الفردي الخاص لكلٍّ منا، وحاجة المرء للنضج يدفعان في اتجاهين مختلفين؛ فالإنسان يريد أن يحتفظ بشخصيته واستقلاليته، إلى جانب حاجته إلى الاندماج في مجتمعه، من أجل تمثيل قيمه والاستفادة من خبراته. هاتان الحاجتان هما مصدر التأثير والتأثر اللذين يسودان كل مجتمع، وهما منبع التوازن الاجتماعي أيضاً.

إن كل كسب أدبي أو مادي يتحققه أي مجتمع، يعود شيء منه - لا على التساوي - إلى كل فرد من أفراده، كما أن كل خسارة تصيب المجتمع تعكس على الأفراد على نحو ما في وقت ما. وهذا كله حافز قوي لنا جميعاً كي نجعل ذواتنا في الموقف الصحيحين، مع الحرص على إرسال رسائل طيبة لكل أولئك الذين تربطهم بنا علاقة حتى تخفف من التوترات التي تنشأ بشكل آلي عن اجتماع الناس بعضهم مع بعض. وهذه بعض الأفكار والخبرات التي نظن أنها تساعد على تنمية العلاقات الشخصية التي نسجها مع الآخرين نوجزها فيما يلي:

١ - علينا قبل أن نحسن علاقاتنا مع الآخرين أن نحسن أنفسنا أولاً:

في داخل كليّ منا قوة دافعة، تدفعه نحو الخارج باستمرار؛ فتحن نطلب من الآخرين أن يفهمونا بشكل جيد، كما نطلب منهم تقدير ظروفنا والإحسان إلينا . . .

وقليل أولئك الذين يطلبون هذا من أنفسهم! وهذا هو السبب في حالات التلاوم الدائمة التي تسود مجتمعاتنا.

مهما حاولنا تحسين العلاقات مع الآخرين، فإن ذلك سيكون محدود الفائدة ما لم نرفع من سوية أنفسنا أولاً؛ لأنه يفقد الأساس الذي ينبغي أن يقوم عليه. إن الأساس العميق للعلاقات الجيدة يتمثل في الجاذبية والإعجاب، وكل علاقة تقوم على غير هذا تكون إما شكلية، وإما مؤقتة.

أساس الجاذبية هو التميز، فالشخص الذي يثير الإعجاب هو شخص اجتمعت فيه صفات لا تجدها في أكثر الناس إلا متفرقة. وهذا هو سر العاطفة الجياشة التي يحملها المسلم أينما كان نحو النبي ﷺ حيث حاز - بأبيه هو أبي - من الكمال والرفعة ما جعله مهوى الأفتدة ومرمى الأبصار.

إن الأب الذي يريد من ابنه أن يكون باراً مطالب بأن يكون أباً عطوفاً أولاً. وعلى الزوجة التي تريد من زوجها أن يكون لها محبأً ومقدراً أن تفعل ذلك معه. وعلى الجار الذي يريد من جيرانه العون أن يبذل العون لهم وهكذا...

على كل منا أن يرفع شعاراً: «البداية من عندي» وسيأتي بعد ذلك خير كثير؛ فقطرة الماء على وهنها حين تستمر تحدث في الحجر الصلب ما يعجز عنه المسamar!.

٢- النضج والتكافؤ أساس العلاقات الاعتمادية:

يشكو السود الأعظم من الناس من أنه يلقى الإهمال من الآخرين - أو من بعضهم على الأقل - وأنه يستحق من التقدير والاهتمام أكثر مما ينال. والحقيقة أن الأصل في العلاقات الاجتماعية أن تقوم على الاعتماد المتبادل، لكن الاعتمادية لا تتم دون نوع من التكافؤ؛ حتى في إطار الجماعة أو القبيلة؛ حيث إن هناك ظروفًا واعتبارات كثيرة خفية تنظم العلاقات بين الناس. ولا ينبغي على هذا أن يتوقع المرء أنه يستطيع بناء علاقات جيدة وعميقة مع جميع أفراد جماعته، ما لم يكن الجميع على مستوى عال من

النضج والاستقلالية. وهذا ما لا يكون موجوداً عادة ولذلك تنشأ بين علاقات الجماعة الواحدة علاقات فرعية، وعلى مستويات مختلفة، وليس هذا أمراً مستغرباً ولا شاذًا.

إن الاستقلالية الشخصية شرط أساسي لإقامة علاقات جيدة مع الناس. وإن مشكلة التمزق التي يعاني منها العرب والمسلمون، وعجزهم عن إقامة أطر وحدوية قوية تعود في جوهرها إلى مشكلة (التبغية)، والتبعية حتمية للتخلُّف الذي يضرب أطناه في عالمنا الإسلامي !.

٣ - أرسل إشارات غير لفظية لأخوانك وأحبابك :

ليس وعي الناس ثابتاً، وليس أحکامهم نهائية. صحيح أن بعض الناس يصدر حكماً طويلاً الأمد على شخص أو شيء أو عمل، لكنهم جميعاً مستعدون في النهاية لتغيير آرائهم إذا تبدلت لهم حقائق جديدة.

الإشارات اللفظية التي نرسلها للآخرين معتبرة، فشكر الناس والدعاء لهم والدفاع عنهم كل ذلك مقدر لديهم، لكن الإشارات غير اللفظية أهم وأبلغ في الدلالة على صدق المودة وإخلاص القصد.

عيادة المريض والسؤال عن الصحة، وإرسال باقة ورد في مناسبة، وتقديم يد العون في أزمة، والصفح عن زلة كل ذلك ذو أثر بالغ في كسب ود الإخوان وإقامة علاقات جيدة معهم. ولهذه الأعمال الطيبة قيمة كبيرة عند الله - جل وعلا - لأنها من أنواع البر والإحسان التي ينبغي أن تشيع في المجتمع المسلم.

بعض الناس لا يحسن شيئاً مما ذكرنا، ومن ثم فإنه بحاجة إلى أن يدرِّب نفسه ويجاهدها حتى يتطبع بأخلاق وعادات جديدة. ولا بأس بأن يقرأ كتاباً في (قواعد الصدقة) إذا كان محدود الخبرة فيها.

٤ - لا بد من أخ نترك بيتنا وبينه مسافة قصيرة :

العلاقات بين المرء والآخرين تتوزع على دوائر عديدة تبعاً لاعتبارات

عديدة. وعلى كل حال فإن المرء - في العادة - لا يستطيع أن يحصل على أصدقاء كثر من الدرجة الأولى. وإذا وجد المرء خمسة من إخوان الصدق والملمات، فهو محظوظ للغاية. والأمر كما قال النبي ﷺ: «الناس كابل مائه، لا تكاد تجد فيها راحلة»^(١).

وحاجة المرء إلى آخر يسقط معه مؤونة التكليف حاجة ماسة. ولا يعيش عنه عند فقده أي شيء^(٢).

وتشير بعض الدراسات إلى أن الأشخاص الذين يفتقدون شخصاً يثقون به، ويكون قريباً منهم - يظلون أكثر عرضة للاكتتاب^(٣).

إذا وجد المرء الأخ الحميم؛ فليحسن عشرته، ولبيّد حقوقه، وعليه أن يقدر مشاعره، ويمد له يد العون...

كثيراً ما يفترق الأصدقاء نتيجة الخلطة الزائدة واقتحام الخصوصيات وسوء التقدير.. لذا فلا بد من ترك مسافة قصيرة بين الإخوة وهامش للتحرك والتصرف الخاص.

٥ - شيء من العزلة ضروري لتجديد شخصية الفرد:

ما من شك في أن الاختلاط بالناس مفید وضروري، وينطوي على اكتساب خبرات وخبرات كثيرة، لكن مع هذا لا بد لكل واحد منا من أن يمتلك طاقةً ما على اعتزال الناس والبعد عنهم، من أجل توليد أفكار جديدة، ومن أجل نوع من استشراف أرض المعركة من خارجها!

إن شدة الاختلاط بالناس تستهلك الشخصية، وتستنفذ الطاقة الفكرية والنفسية لدى المرء، وليس لتجديدها من سبيل سوى شيء من الابتعاد

(١) أخرجه أحمد وغيره.

(٢) يروى عن عبد الملك بن مروان - فيما أظن - أنه قال: ما من لذة من لذات الدنيا إلا ذقتها سوى لذة واحدة. قيل له: وما هي؟ قال: آخر أطرح بيني وبينه مؤونة التكليف.

(٣) سikelogy السعادة: ٢٦٩.

والترفع حتى يচقل الإنسان ذاته، ويستعيد جاذبيته ولمعانه، ويفكر بطريقة أكثر كفاءة في أحوال العالم من حوله.

لافائدة من تلك العزلة إذا لم تكن في عبادة وفكرة وقراءة ومحاكمة عقلية وتخطيط للمستقبل... وإن العزلة قد تكون نوعاً من السلبية والعطالة. وستكون العزلة أكثر ضرراً إذا كان الدافع إليها نوعاً من ازدراء الآخرين والاستخفاف بهم!

٦ - كل منا بحاجة إلى الاعتراف والتقدير^(١):

من الأقوال الرمزية: كل شخص يولد وعلى جبهته علامة تقول: «من فضلك اجعلني أشعر أنني مهم». ويقول هيجل: «يلتقي الإنسان مع الحيوان في الحاجة إلى الأمور الأساسية، كالأكل والشرب والنوم. أما الإنسان فإنه يرغب فوق كل شيء في رغبة الآخرين، أي في أن يريده الآخرون، أو في نيل الاعتراف والتقدير».

كلما وقع اتصال بين الناس، تناقلوا بينهم رسالة صامتة، تقول: «فضلاً زکني»، «لا تمرر بي غير آبه»، «أرجوك اعترف بكيني».

في كل مرة لا ترد على خطاباتهم، أو على رسائلهم الهادفة، فإنك في الحقيقة تسقطهم من الاعتبار، وتقول: «لا وجود لكم»!.

لقد أرشدنا إلى منع التقدير والاعتبار والاهتمام نبينا ﷺ من خلال أقواله ومن خلال هديه وسمته. وقد قال: «الكلمة الطيبة صدقة». وقال: «تبسمك في وجه أخيك صدقة».

وكان ﷺ إذا خاطب شخصاً انفلت إليه بكل جسمه، وكان يسلم على الصبيان إذا لقيهم في الطريق، وربما مازح بعضهم. وكل ذلك من أجل إشعارهم بأهميتهم.

(١) انظر في هذا دليل التدريب القيادي: ١٨٥ ونهاية التاريخ: ١٣٥

وقد أضفى ﷺ على كثير من أصحابه ألقاباً وصفات خاصة، ليعرفوا بها، وليكافهم الناس على تميزهم. من ذلك قوله ﷺ: «سدوا كل خوخة إلا خوخة أبي بكر»^(١). ووصف عمر بالفاروق، وعثمان بالحياء، وأبا عبيدة بأنه أمين هذه الأمة، وأبا ذر بالتميز بالصدق....

إن اكتشاف الميزات لدى الناس يحتاج إلى نوع من الفراسة والإبداع، وقبل ذلك الاهتمام؛ وهو ضروري جداً لتزييت العلاقات الاجتماعية.

٧ - كن على حذر إذا أقمت علاقة مع من يحمل نفسية العبد:

ليس كل العلاقات التي نقيمها علاقات طوعية؛ فمنها ما هو مفروض بحكم القرابة أو الزمالة أو الجوار... هناك أشخاص نشأوا في ظروف سيئة، وأخرون لوت أعناقهم مطامع لا حدود لها، وفريق ثالث يغلب عليه طابع الحذر الشديد.

هؤلاء الفرقاء الثلاثة تغلب عليهم نفسية العبد الذي يكر ولا يفر، والذي لا يقوم بأدنى مخاطرة، ويرضى من كل شيء بأقله، ويختلف من كل شيء... .

هذا الصنف يحس بالنقص في أعماقه، وهو حتى يجعل وضعه يظهر على أنه طبيعي يحاول أن يجعل عدداً من يحيطون به عيدها على شاكته! . وهو يتسلل إلى ذلك بأقوال وأمثال وحكم وبراهم متسلقة منطبقاً، لكنها لا تحمل أية معنى عند من يرى رأس ماله الحقيقي كامناً في كرامته وحريته ومروعتها! .

لا شيء يكسر العبودية مثل الفضاءات التي نمنحها إياها، ونجعلها مصدراً لتنفسها وتغذيتها! ومن تلك الفضاءات مدح العبودية، والاستفادة من بعض منافعها، والركون إلى من يشعرون أنهم يحملونها بين جوانحهم... .

(١) الخوخة باب صغير كالنافذة الكبيرة. وقد كان بعض الصحابة قد أحدثوا خوخات بين بيوتهم والمسجد.

إن العبد ومن يلوذ به تظل شروطه في الحياة دون الحد الأدنى لما تتطلبه الحياة الكريمة، وإن همه دائمًا قريب من هموم السوائب الذليلة! .
وعلى المرء أن يحذر من شرر العبودية، لكي لا يحرق جوهره التفيس .

٨ - ليست المشاعر حتميات يجب أن تخضع لها:

كثيرون أولئك الذين يبدون مشاعر الكراهة وعدم الارتياب تجاه بعض الناس، ولا يتخللهم أنهم يستطيعون التخلص عن تلك المشاعر في يوم من الأيام، إنه - في نظرهم - أشبه بالحتميات التي لا حيلة لهم تجاهها!

الله - جل وعلا - يعلمنا أن المشاعر عبارة عن (ثرمات) وليس أشياء حتمية، علينا أن تخضع لها. وفي هذا يقول - سبحانه - : «وَلَا سَتَوَى
الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ أَذْقَعَ بِإِلَيْهِ أَحَسَنُ فَإِذَا الَّذِي يَتَكَبَّرُ وَيَتَنَاهُ عَذَافَةُ كَافَّةٍ وَلَئِنْ
حَيِّمَ» ^(١) . فمقابلة الإساءة بالإحسان تخلص المرء من بعض مشاعره تجاه الآخرين، لكن ذلك لا يقدر عليه إلا من وفقه الله - تعالى - إليه.

وفي الحديث الصحيح: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحابيتم؟ أنشوا السلام بينكم» ^(٢) .

إن أعمال الإحسان والمعروف والبر هي الأرض التي تنبت فيها المشاعر الجميلة النبيلة، وإن بإمكاننا أن نزرع الكثير منها!

٩ - أهل نفسك للعمل ضمن فريق:

كثير من الأعمال التي تقوم بها يمكن إنجازها على نحو فردي، لكننا نعيش اليوم في عالم يزداد الاعتماد فيه على المجموعات في إنجاز الأعمال؛ حيث إن تشعب التخصصات وتعقد المهام يقتضي أن يقوم بالعمل الواحد

(١) سورة فصلت: آية: ٣٤.

(٢) أخرجه مسلم وغيره.

فريق متناسق ومتفاهم وحتى يتأهل الإنسان للعمل ضمن فريق بشكل بناءً ومنتج، فإن عليه أن يقوم بأشياء عديدة، منها:

- حسن الاستماع والإصغاء لوجهة نظر الآخرين.
- فهم طبيعة العمل بشكل ممتاز، وفهم دوره في ذلك العمل.
- فهم الخلفية النفسية والثقافية للمجموعة التي يعمل معها.
- استشارة أفراد المجموعة في كل جزئية في العمل المشترك، تحتاج إلى قرار أو تصرف غير عادي.
- الاعتراف بالخطأ ومحاولة التعلم منه.
- عدم الإقدام على أي تصرف يجعل إخوانه يسيئون فهمه.
- عدم إفشاء أسرار العمل، والحرص على لا يتحدث عن أشياء ليس من اختصاصه التحدث عنها.
- المبادرة إلى تصحيح أي خطأ يصدر من أي فرد من أفراد الفريق، أو أي انحراف، يصيب العمل، وفق آداب النصيحة وشروطها.
- تحمل ما يحدث من تجاوزات وإساءات من بعض أفراد الفريق، واحتساب ذلك عند الله؛ تعالى.

إذا وجد أن الاستمرار غير ممكن فعلية أن يفارق إخوانه بحسان، وأن يستر ما قد يكون رأه من خلل وهفوات، ويترك مجالاً للتعاون معهم على مستوى معين، أو في مهام أخرى.

١٠ - لا تعامل الناس على أساس الماضي، وامنح الثقة، ثم ارقب:

إن الله - تعالى - الخبير بشؤون عباده، يعرف قصورهم، ولذلك فتح لهم باب التوبة والتغيير كي يتركوا ماضيهم وراءهم، ويستأنفوا وضعياً جديداً متى ما أحسوا بضرورة ذلك، وكثير من الناس يستجيب لهذه الدعوة، ويغير

الكثير من سلوكه في مرحلة النضج والرشد؛ لكن كثيراً منا يأبه أن يستوعب هذه الحقيقة، ويعامل الناس على أساس ما يعرفه عنهم منذ عشرين سنة! والسبب في ذلك هو افتقاد المرونة العقلية الكافية لالتقاط صور جديدة عن حياة الآخرين!

والعجب أن بعض الناس يعرف أن الآخرين تغيروا، لكن تملكه رغبة جامحة في تذكيرهم بماضيهم، كأنه يقول لهم: ما الضمانة ألا تعودوا لما كنتم عليه؟

هذه الوضعيات الخاطئة أثارت كثيراً من الشكوك من غير مسوغ مقبول، وجعلت من يرغب في تأسيس وضع جديد، لا يجد أي حافز لذلك من مجتمعه.

إن علينا أن نتفاعل دائماً، وأن نومن أن الإنسان كلما تقدم في السن اكتسب مزيداً من الرشد، وأن في داخل كل مسلم سائقاً وحادياً نحو الخير والأوبي إلى الحق.

لنحاول منع الثقة لمن يعلن التوبية؛ إذ إن بإمكان الثقة أن تستخرج أفضل ما في نفسية البشر من نوازع الخير؛ فلا ينبغي أن نبخل بمنحها، ولا أن نتوانى في تدريب إخواننا ومن يلوذ بنا على أن يكونوا أهلاً لها.

لا يعني هذا الكلام ترك الحذر، وتصديق كل مدعٍ، فمن حق التائب علينا أن ننظر إليه نظرة جديدة، ومن حقنا أن نراقب مدى صحة وضعنا لتلك النظرة في موضعها الصحيح.

١١ - أعقل الناس أعندهم للناس :

هذه المقولة مروية عن رجل أحسبه أعظم رجال (الاستراتيجية) في الإسلام عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إنها نظرة من خبر الحياة، ورأى الأنماط العديدة التي يفكر وفقها البشر.

إن معرفتنا بالأسباب والجذور التي تأسست عليها تصرفات الناس ستغير

مشاعرنا نحوهم على نحو جذري، ومن ثم فإن التماس الأعذار لهم يجب أن يكون هو الأصل، وقد ورد في الحديث الصحيح: «لا أحد أحب إليه العذر من الله»^(١).

لا يعني هذا إقرار الناس على ما هم عليه، لكنه يعني فهم خصوصيات أحوالهم، وعدم الطلب منهم أن يتطابقوا دائمًا في مواقفهم مع وجهات نظرنا.

إن المصلح سيستفيد فائدة جلى من معرفة الخلفيات الكامنة حول الأوضاع المختلفة - في إيجاد رأس جسر ومدخل للإصلاح.

إن حدود الحق والباطل واضحة - والله الحمد - لكن الأنأة والتراث والتفهّم قبل إصدار الأحكام أدب إسلامي رفيع، لا ينبغي تجاهله. وعلى الله قصد السبيل.

(١) أخرجه البخاري.

الفَصْلُ الْخَامِسُ
فِي
الشُّعْبَةِ الرُّوحِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِيَّةِ

- . (١) أهمية التنمية الروحية والخلقية.
- . (٢) حال الأخلاق اليوم.
- (٣) ما العمل؟

أهمية التنمية الروحية والخلقية

إن أمة كأمة الإسلام لا تحتاج في الأصل إلى من يبرهن لها على ضرورة التمسك بالخلق القويم، ولا إلى من يبرهن لها على أهمية الحيوة الروحية، لكن تهمنش الأنشطة الروحية، والضغط الرهيبة التي تتعرض لها المبادئ الأخلاقية، والصعوبات الحياتية التي تواجه كل من يرفض المساومة على أخلاقه واستقامته، كل ذلك جعل لفت الأنظار إلى (مركزية) الأخلاق في آية تنمية متكاملة - أمراً بالغ الأهمية.

ولعلنا نسلط الضوء على ما يوضح ما نعتقده من إعطاء التنمية الروحية والأخلاقية العناية والاهتمام في الحروف الصغيرة التالية:

١ - بما أن النبي ﷺ هو النموذج الأسماى لاجتماع المبدأ والسلوك فإن أعظم المسلمين شبيهاً به هم أولئك الذين ضاقت الهوة بين سلوكهم وبين مبادئ الإسلام وأدابه وتوجيهاته السامية. وقد عبر عن هذه الحقيقة بشكل جلي قوله ﷺ: «إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً»^(١). وقوله: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم»^(٢).

فالنبي ﷺ هو المقياس التام للخيرية والكمال، وحسن الخلق هو الذي يدنى المسلم من كمال الإيمان و تمام الخير.

إن ظاهرة النفاق التي تحدث عنها القرآن الكريم والسنة النبوية بشكل مطول تعني خللاً في مطابقة الأقوال للمعتقدات، وهذا هو النفاق الاعتقادي

(١) أخرجه الشیخان.

(٢) رواه الترمذی، وقال: حديث حسن صحيح.

الذى يُخرج صاحبه من الملة. أما التباين بين الأقوال والأفعال، فإنه يُعبّر عنه بـ(النفاق العلمي) وهذا يقع في سلوك المسلم. وكلا النوعين مذموم، وفيه خروج ومخالفة للمبدأ أو المعتقد. ومهمة التنمية الأخلاقية تطهير حياة المسلمين من رجس النفاق، وانحطاط الهمجية والانحراف.

٢ - إن أهم مصدر للسعادة والهناء انسجام واقع المرء مع ما يعتقد، حيث يشعر المرء بتناول يجتازه من البهجة والارتياح والأمن كلما تخطى عقبة من العقبات التي تحول بينه وبين (التعاهي) مع مُثله وقيمه العليا.

إن الملذات لا تخترق غشاء القلب، بل ولا تحوم حوله، لكن الذي يسريل كيان المرء كله بالسرور والطمأنينة هو نشوة الانتصار على الأهواء والمغريات وضغوط الشهوات والمصالح.

إن السعادة لا تُجلب أبداً من الخارج، وإنما هي شعاع من نور، يولد، ويكبر في داخل الإنسان، ويضيء جوانب الحياة كلها، ويجعلها أكثر اتساقاً ومنطقية، وأكثر تهيئاً للنمو والتقدم والاستمرار، وكل ذلك مرهون بأوضاع تسود فيها الأحكام الأخلاقية، ويعلو فيها صوت الالتزام والاستقامة، وتترفف في أرجانها إشارات الروح!

٣ - إن القاعدة الروحية الأخلاقية في أي مجتمع هي التي تتحمل الأئصال التي تنتجه عن طبيعة الحياة المادية والاجتماعية، وعن الانتكاسات التي تصيب بها الأمة في ميادين الحياة المختلفة.

إن هذه القاعدة هي التي تمكّن الناس من تحمل لأواء الظروف الصعبة دون أن يتحلّوا أو ينحرفوا؛ فحين يُصاب الناس بضائقة اقتصادية شديدة فإن القاعدة الأخلاقية تدفعهم إلى إغاثة الملهوف وإطعام الجائع، والصبر على المدين المعسر، إلى جانب التعامل الشخصي، وعدم الرضوخ لمقتضيات الظروف الصعبة؛ فتجد المسلم يمتنع عن الرشوة والسرقة والغش وكل أنواع الكسب المحرم مع ما فاقته الشديدة، وذلك اتكاء على ما لديه من قيم ومقاومة روحية لدعائي التحلل!

إن هذه القاعدة هي الرصيد الاحتياطي الفضخم الذي تعتمد عليه الأمم في ترميم العديد من جوانب شخصيتها وحياتها. ومن هنا ندرك حجم الجريمة التي ارتكبت في حق هذه الأمة حين دفعت دفعاً على مستوى التنظير، وعلى مستوى العمل إلى أن تجعل القيم الأخلاقية والروحية في المرتبة الدنيا من اهتماماتها؛ فلما واجه الناس ما واجهوه من ضائقات في العيش، ومن شع في متطلبات الحياة الكريمة لم يجدوا لديهم سندأ خلقياً قوياً يعتمدون عليه في الصمود أمام المغريات ومحفزات الانحدار المختلفة!.

٤ - إن الذين نكّن لهم عظيم الاحترام ليسوا أولئك الذين يملكون الكثير من المال أو الدهاء والمكر أو القوة الجسدية الخارقة، وإنما أولئك الذين يملكون خلق (التسامي) والترفع عن سفاسف الأمور، وأولئك الذين انتصروا على التحديات داخل نفوسهم، وأولئك الذين يملكون قوة الانتظار والتضحية بالعاجل في سبيل الآجل، والإيثار مع مسيس الحاجة... .

إن بالإمكان القول: إن طابع الرقي الحقيقى هو طابع روحي أخلاقي، أكثر من أن يكون طابعاً عمرانياً تنظيمياً، والجاذبية التي تتمتع بها القرون الأولى من تاريخ الإسلام تنبع بشكل أساسى من طابع الاستقامة والنبل والتضحية... وليس من التفوق في الحروب أو العلوم أو العمran.

ولعل الطريق الوحيد إلى كسر أغلال التبعية يكون عن طريق إحداث (انتفاضة) روحية أخلاقية يستعلي بها المسلم على المعطيات المادية للوضع الحضاري الراهن، ويلتفت إلى إثراء حياته بوسائل، لا تحتاج إلى المال.

٥ - إن دراسة الحضارات توقفنا على حقيقة كبرى، وهي أن مصدر الإنسان كان يتوقف دائماً على أمرتين: علاقته بربه، وعلاقته بأخيه الإنسان^(١). وبعد الروحي الأخلاقي هو المركز والمحور في هاتين العلاقتين. وحين ينحط الإنسان يتحول عن عبادته لربه إلى عبادته لذاته وشهواته. وتسود علاقته بالآخرين القوة بدل الرحمة، والتعانف بدل التفاهم،

(١) انظر مختصر دراسة التاريخ: ٤: ١٢٨.

وينصرف عن العناية بالروح إلى العناية بالجسد، وعن الاهتمام بالمبداً إلى الاهتمام بالمصلحة، ويتحول المجتمع كله إلى غابة يحسن كل واحد فيها أن من حقه افتراس الآخرين، كما أنه من الممكن أن يكون فريسة لأي واحد منهم «أكل اليوم وأكول غداً».

والطريق الوحيد للنجاة دون هذه الحالة يكمن في تدعيم الرقابة الذاتية وتعزيز علاقة العبد بربه - جل وعلا - وتحفيز الإرادة الخيرة في الناس. وهذا الحل وإن كان مكلفاً على المدى القريب. فإنه سفينة نوح على المدى البعيد.

لن يكون بإمكان أفضل النظم الاجتماعية، ولا في إمكان أقسى العقوبات الصارمة أن تقوّم الأعوجاج، ولا أن تملأ الفراغ الناشئ من ذبول الروح، وانحطاط القيم؛ فالعقوبات لا تنشيء مجتمعاً لكنها تحمي. والنظام مهما كانت محكمة ومتقدة لن تحول دون تجاوز الإنسان لها، وتؤيلها بما يجهضها، وكل الحضارات المندثرة تركت تنظيماتها وأدوات ضبطها خلفها شاهدة على نفسها بالعقم والعجز!

٦ - لا بد أن تكون على يقين من أن تيار الشهوات والنزوات الجارف لا يمكن أن يقابل إلا بتيار روحي متذبذب من المشاعر والأحساس الإيمانية؛ فوظيفة الفكر الدلالية على الطريق، وعلى الأساليب والأدوات المناسبة للعمل؛ لكن الذي تستمد منه الطاقة على الاندفاع في طريق الخير، والطاقة على كبح جماح الشهوات هو الروح والإيمان العميق ورصيدنا من المشاعر الحميمة.

وإن كثيراً من الشباب الذين جرفهم تيار الجنس والمجون والخلاعة لم يكونوا بحاجة إلى أدلة على فضل العفة والاستقامة، وإنما كانوا بحاجة إلى شيء من المعانى التي تفيض على القلب بسبب تذوق طعم العبودية الحقة والإحساس الصادق بمعية الله - تعالى - لهم واطلاعه عليهم !

٧ - حين يبلغ التقدم التقني أقصى مداه، ويشعر المرء بالتخمة من

أدوات (التحكم عن بعد) وكل ما يجعل الحياة خالية من التحديات - آنذاك تنبئ أشواق قديمة جديدة، هي أشواق الروح وما وراء المادة، عالم العودة إلى التراحم والتعاطف والتضاحية ببعض المكاسب من أجل استمرار حياة الجميع.

إن الأخلاقيين اليوم هم المستقبليون غداً، وهل يعرف فضل الماء إلا عند اشتداد الظما؟!

إن الإسلام يعلمنا أن بالإمكان تصحيح المسار قبل أن نرتطم بقاع الهاوية، كما يعلمنا أنه بإمكاننا أن نتحول من الخسارة إلى الربح قبل أن يصبح رصيدها صفراء؛ وذلك إذا أصغينا إلى نداء الفطرة في أعماقنا، وضغطتنا على بعض حاجات الجسد من أجل إنعاش الروح، وفكّرنا مليأً بما هو آتٍ.

(٢) حال الأخلاق اليوم

لا بد من القول: إن المسألة الحاسمة في مجال الأخلاق هي (إطارها المرجعي) بمعنى المصدر الذي تستمد منه الحكم على حسن الخلق أو قبحه، والجهة التي ستتولى الإثابة أو العقوبة على ذلك الخلق.

في العالم الغربي تحول الإطار المرجعي للأخلاق من (الوحى) إلى (العقل)، ولم يبق أي مجال للفرار من (النسبة الأخلاقية)، حيث أصبح الطريق ممهدًا لتطور الأخلاق الفاضلة، وإمكان تحولها إلى (رذائل في ثوب فضائل).

وسيفرض ذلك التقدم الاقتصادي الذي صار هو الصنم الذي تُقدم له كل القرايين ! .

ولا نستطيع اليوم مهما حاولنا أن ننجو من تأثيرات ذلك التحول الأخلاقي الكبير؛ فالاتصال الكوني الهائل وضع العالم فيما يشبه الخلطة الكبيرة!

لا شك أن لدينا جهوداً ضخمة لإحياء وتوليد أخلاق جديدة تلبي شروط العيش في عصر معقد، و تستند في الوقت نفسه إلى المبادئ الإسلامية، وتتواصل مع أخلاق إسلامنا بصورة من الصور، وقد تحقق لدينا بعض النتائج، إلا أن التقدم الحاسم في المجال الأخلاقي ربما كان بحاجة إلى إحراز تقدم في المجالات السياسية والحضارية، حيث إن (التخلف) نفسه يتحول دون الإبداعات الأخلاقية الأصيلة.

في أواخر عهد الدولة العثمانية وأثناء موجات الاستقلال الوطني التي

أعقبت الحرب العالمية الثانية - اتجهت النخب الثقافية والاجتماعية التي تشربت الإعجاب بالغرب إلى الدعوة إلى تبني القيم الثقافية والسياسية الغربية، وحتى يتم لهم ذلك شنوا حملات إعلامية مكثفة على النظم الثقافية الشعبية والمحلية بحججة أنها استمرار لقرون الظلم، وقد نجحوا في تلك المرحلة في تبديل الكثير من القيم في صفو المثقفين وأرباب المال وذوي المصالح المرتبطة بالغرب. وقد أدركوا ما هدفوا إليه، وبسطوا سلطانهم على رقاب العباد، وتحولوا المجتمعات إلى (لمامة) من الناس!! آنذاك انتقلوا بشكل سريع إلى النكوص عن القيم التي تغنا بها طریلاً من أمثال: الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان والمساواة وتكافؤ الفرص.. وصاروا إلى القول: إن تلك القيم لا تناسبنا، أو إن مجتمعاتنا غير مؤهلة لممارستها!

وهكذا كانت الاستعارة من الخارج عظيمة الفائدة عندما ساعدت النخب على تركيز سلطتها، وأصبحت الآن مُضرّة، لأنها تذكر الجماعة الشعبية بحقوقها المدنية والإنسانية^(١)!!.

وقد كان الموقف الرائد في هذا، يكمن في التوجه إلى النظم الأخلاقية الموجودة، ونرفض ما تراكم عليها من موروث العادات، وتطويرها لتصبح على مستوى المنهج الرياني، ولتلبي متطلبات الحياة المعاصرة... لكن المسألة كانت خدعة ليس أكثر!.

ومما لا يخفى أن الأدبيات العلمانية وكثيراً من الأدبيات القومية أهملت الميدان الأخلاقي إهماً شبه تام، وذلك نتيجة التأثر بفلسفة سوقية وضعية، جعلت (العلم) هدف كل تقدم، وصار العلم علمًا وأخلاقاً وأدباً! وصارت الأخلاق تصور على أنها قيود مفروضة بقوة الجهل وعطاله التقاليد على العقل والجسد والخيال معاً، وأنها سبب فقدان العرب مقدرتهم على استيعاب الحضارة العلمية، ومنشأ روح العبودية فيهم!.

وصارت الأخلاق كما يصورها الفكر الحديث تعني سذاجة الشخص

(١) اغتيال العقل: ١١٣.

ويساطته، وتشير الشك في صدق موقفه، بل ربما دفعت إلى اتهامه
بـ(المحافظة) ومسايرة الأوساط الدينية^(١)!

نتيجة لتهميشه كثیر من كتابنا للقضايا الأخلاقية ونتيجة لسوء التخطيط
وسوء الظروف المعيشية لكثير من الناس - سادت لدينا أمراض أخلاقية عديدة
وخطيرة، نذكر بعضها على سبيل لفت النظر إلى أهمية إحراز تقدم جيد
على الصعيد الأخلاقي :

إن كثيراً من الناس يعيش اليوم دون آية أهداف سامية، فتأمين الحاجات
الضرورية هو شغفهم الشاغل، وامتلاكه بيت يعد نصراً في معركة شرسة!

وقد صار الواحد منهم أشبه بالحيوان البري الذي يقضي حياته في
حديقة حيوانات، فهو ليس معزولاً عن بيته الطبيعية فحسب، بل إنه معزول
عن أعماق ذاته^(٢)!

ويعاني السواد الأعظم من المسلمين من ضعف الإحساس بـ(الواجب)
وهو المبدأ الذي يتجاوز المصلحة المباشرة والفردية؛ ليعكس تسامي
الإنسان، أو قدرته على الالتزام تجاه غيره، والتضحية في سبيله.

وما الشعور بالواجب إلا ثمرة للشعور بشرف الانتماء إلى الجماعة
(الأمة) وبالرغبة في التماهي معها. فإذا عجز الإنسان عن الالتزام الجماعي
أباح لنفسه كل ما استطاع أن يحرمه على غيره^(٣).

وهناك فريق من المسلمين يعاني على الصعيد الحضاري من ذبول روح
المدنية لديه، وهو ينزع باستمرار إلى نوع من الانطواء على الذات والأسرة
والقبيلة والحي والقرية، وهو نزوع ذو أثر سلبي على الإحساس بالمصلحة
الوطنية والمصلحة العامة عموماً.

(١) السابقة: ٢٥٦، ٢٥٨.

(٢) إنسانية الإنسان: ٤٩.

(٣) اغتيال العقل: ٢٥٨.

إلى جانب ذلك هناك عادات سيئة عديدة تتعلق بالعمل والاستهلاك؛ إذ إن كثيراً منا ينظرون نظرة ازدراء للعمل الفني اليدوي، كما أن هناك رغبة قوية في الاكتناز بشراء العقارات وبناء القصور وشراء السيارات الفاخرة والحلبي والإفاق الترفي والبذخي الذي لا تتحمله موارد الأمة^(١).

وهناك أمراض خلقية كثيرة على صعيد العلاقات بين الناس، مثل قطع الرحم والجفاء بين الأهل والجيران، ومثل الحسد والتكبر على الناس وحب الاستئثار والانفراد بالخيرات العامة والمشتركة . . .

وإنني أعتقد أن مشكلات الزحام وشح الموارد وتراجع التربية الخلقية وضعف الإحساس بالأهداف الكبرى . . . سوف تولد المزيد من التأزم الروحي والمزيد من الأمراض الخلقية، وذلك يحتاج إلى تأمل عميق من المصلحين وإلى البحث عن سبل للعلاج والخلاص . . .

(١) التنمية والتخلف في العالم العربي: ١١٩.

(٣) ما العمل؟

لا ينبغي أن يُظن أن تنمية أخلاق مجتمع أمر ميسور، يمكن أن يتم من خلال تحديد بعض المبادئ وبعض الأساليب والأدوات؛ فالمسألة في الحقيقة أعقد من ذلك بكثير.

إن المعالجة لأي جانب إنساني في الحياة هي دائماً معالجة معقدة، وحين تكون المعالجة متعلقة بمجتمع أو أمة فإنها تكون أكثر تعقيداً، وربما كانت بعض جوانب المشكلة غير قابلة للرقابة في بعض الأحيان!

إن المتأمل للتاريخ يجد أن بعض مفردات الأخلاق كان يدخل في دورات أشبه بالدورات الاقتصادية، حيث تتجلى في سلوك الناس بقوة في بعض الحقب، على حين يتفلت منها المجتمع في مدد أخرى. وذلك إن دل على شيء فإنما يدل على أن تجسّد المبادئ الأخلاقية في السلوك يخضع لعوامل خارجة عن جوهر تلك المبادئ، ويعيدة عن ميادينها؛ بل إنني أكاد أجزم أن الرقي الروحي والخلقي ليس سوى ثمار تجنيها الأمم من نجاحات حفقتها على الصعد السياسية والتربوية والاقتصادية... حيث إن الانحدار الأخلاقي كثيراً ما يكون صدى غير واع لتأزمات يمر بها المجتمع؛ فقد تنتشر الجريمة بسبب ضائقة اقتصادية أو كبت شديد، أو وجود نماذج اجتماعية مفرقة في البذخ والترف، أو بسبب كثرة حوادث الطلاق...

وهذا كله يوصلنا إلى فناعة بضرورة عدم عزل معالجة القضايا الأخلاقية عن معالجة جوانب الحياة الأخرى، وهذا ما نغفل عنه في أحيان كثيرة!

أمر آخر جدير بالاهتمام، هو أن البنية الأخلاقية هي في الأصل بنية ثبوطية أقرب إلى الجمود، ولذا فإن عدداً كبيراً من السمات الخلقية، هو عبارة

عن وصايا اصطبغ بها الوعي الإنساني منذ زمن بعيد، واعتادت الأمم تناقلها جيلاً بعد جيل؛ ومن ثم فإن معظم الناس يتلقى بشيء من الإنكار الضمني أي لفظ يدل على التطور أو التجديد الأخلاقي؛ لأن ذلك يعني في حدس كثير من الناس تطوير أشياء لا تقبل التطوير!

لكن لا ينبغي لهذا أن يشتت انتباها عن حقيقة أخرى، تتصل بالمسألة الأخلاقية، وهي أن لكل أمة (سلماً قيمياً) ترتب فيه أخلاقها في ضوء أمرين: مبادئها وحاجاتها؛ فظروف الصحراء والبداوة حملت العرب على وضع الشجاعة والكرم في أعلى السُّلْم القيمي؛ وحين جاء الإسلام لم يُخرج هاتين الخصلتين من سُلْم الفضائل، لكنه غيرَ من موقعها في التشكيل الجديد، حيث صارت (التقوى) معياراً أهم في الدلالة على الفضل والسبق.

وفي المجتمعات الصناعية الحديثة هناك ميل قوي إلى جعل الدقة والفاعلية والإنجاز والمهارة والنجاح - في أعلى السُّلْم القيمي، وهذا... .

والذي نريد أن نقوله أننا بحاجة اليوم إلى إيجاد مدخل جديد للتنمية الأخلاقية، يقوم على منح بعض الثوابت القيمية والأخلاقية معانٍ جديدة أو اهتماماً خاصاً ببعض مدلولاتها، بغية التخفيف من حدة وطأة التخلف الذي يحتاج حياة المسلم، فـ(التقوى) في حياتنا المعاصرة بحاجة إلى إثراء مفرداتها لتناول بعض الفروض الحضارية، مثل الإسراع إلى العمل والمحافظة على الوقت والدقة في تنفيذ الأعمال والالتزام بالمواعيد، وحسن التصرف بالإمكانات المتاحة... .

ويمكن من خلال التربية والموعظة والإلتفاف حول المسلم يشعر بحلوة الإيمان والالتزام من خلال القيام بالأعمال التي ذكرناها، كما يشعر بها عند وضع صدقة في يد فقير، أو التهجد في السحر والناس نيا!

فالتجدد الروحي والأخلاقي ليس عبارة عن نسخ لأخلاق وإحلال لأخلاق أخرى في موضعها، وإنما هو توسيع في مدلولات بعض المفاهيم الأخلاقية، وبلورتها والتربية عليها، ومنحها أهمية أكبر في النسق الأخلاقي العام.

ومع إدراكنا العميق للصعوبات الجمة التي تواجه من يريد إحداث تقدم أخلاقي ممتاز في وسط متازم - فإننا لا نجد بدأً من ذكر بعض المبادئ والشروط والأساليب والوسائل التي نظن أنها ذات تأثير في تحسين المستوى الروحي والخلقي لأمتنا والرقي به؛ وذلك في النقاط الموجزة التالية:

١- الأخلاق الفاضلة تتهمش ما لم تُوظف:

لا توجد أمة ليس لها مبادئ محددة، تعول عليها في الضبط الاجتماعي، وفي ترجيع ممكן على ممكן آخر. كما أنه ليس هناك أمة تخطط لجعل واقعها حرباً على مبادئها، لكن الذي يحدث أن الأمم في غمرة تطلعها إلى تحسين واقعها قد تقف موقف غير متعدمة، تؤدي إلى إهمال بعض أخلاقها، أو تؤدي إلى إيجاد ظروف جديدة، لا يكون لأخلاقها أي تأثير توجيهي فيها. ولا توجد أية ضمانات لتلافي ذلك سوى السعي إلى إيجاد الأطر العملية التي تتيح لأنبناء المجتمع أن يجسدوا أخلاقهم ونوازع الخير فيهم في واقع حياتهم اليومية من خلال أعمال تطوعية ومبادرات فردية ذاتية. وقد ضربت أمة الإسلام أروع الأمثلة في هذه السبيل^(١)، مما ليس له نظير في العالم إلى يوم الناس هذا!

مبدأ (الإحسان) إلى الخلق ونفع الآخرين مبدأ متغلغل في ثقافة كل مسلم، لكنَّ المبادئ لا تعمل في فراغ، ومن ثم فإنَّ مما يساعد على ظهور خلق (الإحسان) وجود جمعيات ومؤسسات ينشط من خلالها الشباب ومحبو الخير كافة في التعبير عن إرادة الخير فيهم؛ فنحن نعلم - مثلاً - أنَّ في كل بلد مسلم ألف الناس الذين يعانون من تعطل الكُلِّ، وهم بحاجة إلى متبرعين، وإلى أموال لزراعتها؛ فماذا لو وجد إطار يعمل من خلاله طلاب المدارس والجامعات في إجازاتهم الدراسية، وفي أوقات الفراغ على جمع الأموال وتحث الناس على التبرع، كما هو مشاهد في كثير من دول العالم؟ إنَّ الأهم ليس النتائج الطيبة التي سنحصل عليها من وراء هذا النشاط، وإنما

(١) انظر ما ذكره الدكتور مصطفى السباعي من ذلك في كتابه «روائع من حضارتنا».

بعث إرادة الخير وتشغيلها وإبقاء المثل والأخلاق الإسلامية حيةً بين الناس.

إكرام الجار والإحسان إليه، وتفقد حاله خلق إنساني رفيع، وحين كان الناس يسكنون في القرى، وفي تجمعات صغيرة كان إمكان تحقيق ذلك المبدأ كبيراً، لكن كيف يمكن تحقيق ذلك اليوم في عمارة مؤلفة من عشرة طوابق، وفي غمرة انشغال الناس بأنفسهم، بل ذهولهم عنها؟!

إنه إذا لم توجد آليات جديدة مثل مجلس أو نادٍ لأهل الحي، يتم من خلاله تعرف الناس بعضهم على بعض ومساعدة من عنده مشكلات منهم... فإن النتيجة ستكون إماتة شبه كاملة لهذا الخلق، كما هو حاصل الآن!.

نحن نعرف أن بعض الناس يستغلون بعض أعمال الخير لتحقيق مصالح شخصية لكن هل يوجد خير لا يخالطه شيء من الشر؟ وهل الحل هو إغلاق فصل دراسي لأن فيه طالباً مشاغباً؟.

تدخل أحد البلدان غير الإسلامية، فتجد فيه الآلاف من المؤسسات والجمعيات ذات النفع العام، مع أنه ليس هناك أي مانع يحول دون استخدامها ضد ما أوجدت له، ولم يجدوا أن الحل يكمن في إغلاقها، ولكن في ترشيدها وتوجيهها ومساعدتها على أداء رسالتها، إن الحل يكمن في تدعيم العناصر الخيرة والممتازة فيها من أجل تهميش العناصر الشريرة.

٢ - الإقلاع الحضاري يحتاج إلى فعالية روحية خاصة:

الطائرات في بداية إقلاعها تحتاج إلى قدر كبير من الوقود، وتأسيس الأعمال التجارية يحتاج إلى قدر كبير من الجهد، وهكذا البدايات تكون دائماً مكلفة ومربكة، ثم تميل الأمور إلى اليسر والسهولة.

وأمة الإسلام اليوم تحاول أن تنطلق نحو آفاق واسعة المدى، تجدد مضامين الانطلاقة الأولى التي أشعل شرارتها النبي ﷺ وأهل القرون الخيرة من بعده. وهذا في الحقيقة يحتاج إلى رواد من نوعية خاصة، ومع أن كثرة عددهم بحيث يشكلون كتلة حرجية - أمر مهم جداً، إلا أن نوعية المواصفات

والأخلاق التي يجب أن يتحلوا بها تظل أهم؛ فالصحابة الكرام الذين تلقوا تربية مكثفة ومتميزة عن النبي ﷺ قد لا يتجاوزون بضعة ألف، ولكن خصوصية سماتهم وأخلاقهم جعلت منهم قاعدة فريدة، أمكنها أن تحمل بناء ضخماً متطاولاً، وما زلتنا إلى اليوم نقبس من رمزية تلك القاعدة و Heidiها.

لا أريد هنا أن أذكر سمات أولئك الرواد الفكرية والثقافية، وإنما أريد أن أشير إلى بعض خصائصهم الروحية والخلقية؛ ومن تلك الخصائص:

أ - صلة قوية بالله - جل وعلا - تغمر كيان المسلم، وتنقل إيمانه من حيز الدائرة العقلية والتصديق القلبي إلى حيز الشعور، والمعبر عنده في حديث مسلم بـ(الإحسان): «أن تعبد الله كأنك تراه». وهذا لن يتأتي إلا من خلال العبادات المكثفة، حيث إن الإيمان أشبه شيء بشجرة وارفة الظلال، وكلما أردنا لهذه الشجرة أن تكبر، وتمد أغصانها في كل اتجاه كان علينا أن نسقيها أكثر؛ وما ذرها هو العبادات والتواfwل والأذكار... .

وهذه السمة كانت واضحة جداً في حياة الصحابة - رضوان الله عليهم - والسلف الصالح عامة، حتى وصل الأمر ببعضهم إلى نوع من العزوف الكلي عن الدنيا والاستغراق في العبادة، مما حدا بالنبي ﷺ إلى تحذيرهم من ذلك، وأمرهم بلزم ستة: «فمن رغب عن ستى فليس مني».

إن الإيمان الحي المتدقق هو الطاقة العظمى التي تحتاجها في مرحلة الإقلاع، وليس ثمة بديل لذلك، ومن ثم فإن الأخذ بأسباب تنميته يعد من الأولويات.

ب - الصبر وطول النفس، حيث إن الواقع الرديء الذي نعيشه ما هو إلا خلاصة لتراكمات أخطاء قرون عديدة؛ وحتى يتحسن ذلك الواقع بصورة جيدة، فإنه يحتاج إلى زمن وجهد. وقد صرخ القرآن الكريم بهذا المعنى حين قال: «وَحَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَنَةً يَهُدُونَ يَا تِرَنَا لَمَّا صَرُّوا»^(١).

(١) سورة السجدة، آية: ٢٤.

أحياناً يسيطر علينا اليأس بسبب طول الطريق ومشاقه، وبسبب شعورنا بأن التحسن ضعيف أو معدوم. أما الرواد فإنهم لا ينظرون أبداً إلى ما قطعوه من الطريق، ولا إلى ما تبقى منه، وإنما يستغفّلُون، وسيطر عليهم الانشغال بواجب الوقت وأدبه، والانشغال بتصحيح المسيرة ومراجعتها، وهم من بعد ذلك يشعرون أنهم لم يقدموا سوى جزء يسير من المطلوب، ولكنه جهدهم وما في وسعهم، وييتظرون من الله - تعالى - أن يتقبله، ويبارك فيه.

ج - الإعراض عن متاع الدنيا وشهواتها؛ ومع أن قدرًا من ذلك مطلوب من كل مسلم، إلا أن للرواد شأنًا آخر، فهم أحق الناس بالقلل - قدر الإمكان - من الفرش والأثاث والرياش وأطابق المأكلات، بما لا يصل إلى حد الحرمان؛ ويظل المهم هو شعور الناس بتميز هذه الفتنة المباركة في أسلوب عيشها، وفي مقاييسها للرقي الاجتماعي.

إن الأمة في هذه المرحلة بحاجة ماسة إلى المال، كي تشييد المرافق العامة والمدارس والجامعات... وهي بحاجة إلى من يوضح لها بطريقة عملية منهجية جديدة في العيش بعيدة عما اعتاده كثير من الناس من البذخ والترف وإنفاق المال بغير حساب، ولا أدنى شعور بالمسؤولية!

د - التضحية والعطاء السخي والكرم الذاتي وروح المجانية سمات مهمة في الرائد، فعلى الرغم من أن هذه المعاني عميقه في ثقافة المسلم ومتجلدة في وجده إلا أن الناس يبحثون دائمًا عن القدوة والنموذج المحسوس. ولو أن المبادئ تغير حياة الناس لما بعث الله - تعالى - الرسل، ولأنزل الكتب والصحف بين ظهراني الناس، لكن مضت سنته بأن لسان الحال أبلغ من لسان المقال، وأن المحسوس أسهل في الإدراك وأعظم في التأثير من المعنوي.

٣ - اللواقعية شرط لتحسين الأخلاق:

لا نقصد بـ(اللواقعية) عدم فهم الواقع، ولا عدم الاعتراف به، وإنما نقصد عدم الرضا به والاطمتنان إليه. وفي هذا السياق نجد أن الناس فرقاء:

فريق لا شغل له سوى الثناء على قبيلته وأوضاعه وإنجازاته، وقد تعود أن يرضي من كل شيء بأقله، وأن يقارن نفسه دائمًا بمن حاليهم أسوأ، فمهما ساءت الأحوال في بلده، فإنها لم تصبح بعد مثل (رواندا) ولا مثل (الصومال)!!

وهناك فريق آخر لا يميز بين الأشياء، وهو يكاد يكون معدوم الحساسية، ولم يتعد أبدًا أن يُحسن حسناً، ولا أن يقبح قبيحاً، فهو دائمًا تبع لغيره مستكين للحالة التي هو فيها.

وفريق ثالث دائم النقد، كثير الشكوى، متبرم من الحالة التي تعيش فيها الأمة...

ونحن نقول: إن التطرف في كل شيء غير حميد، وإن الاعتراف بالإيجابيات وتنميتها شيء مطلوب؛ وكل المصلحين العظام يفعلون ذلك؛ بيد أننا نقول من وجه آخر: إن فقد أية أمة لفضيلة (النقد) والمراجعة والموازنة ليس فقداً لشيء يسير، وإنما هو داهية من الدواهي العظمى؛ وكيف يمكن أنتحقق أي تقدم ما دمنا نعتقد أننا على ما يرام، وهل يذهب من يتمتع بالصحة إلى طيب؟!

إن عدم الرضا عن الواقع - مهما كان حسته - يفتح لنا طريقاً لا يفتحه غيره، وهو إمكان (التفرق على الذات) وضرورة التقدم المستمر.

إن في القرآن الكريم والسنن المطهرة نصوصاً عديدة تتضمن نوعاً من الحث على عدم الرضا عن النفس وتزكيتها؛ لأن ذلك سوف يفتح الطريق أمام الإحساس الداخلي بضرورة التغيير، وقد قال - سبحانه - : ﴿أَتَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَرْجُونَ أَنفُسَهُمْ بِإِلَهٍ مِّنْ أَنْتَ وَلَا يُطَّلَّوْنَ فَيَقُلُّا﴾^(١). وقال سبحانه: ﴿فَلَا تُرِكُوكُمْ أَنفُسُكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَنْتُمْ﴾^(٢).

(١) سورة النساء، آية: ٤٩. اتفق المفسرون على أن المراد بهذه الآية هم اليهود، وإن اختلfovوا في المعنى الذي زكوا أنفسهم به. وقد ذكروا من ذلك ثناء بعضهم على بعض، وقرئهم: لا ذنوب لنا. انظر فتح القدير: ١: ٤٧٧.

(٢) سورة النجم، آية: ٣٢.

وقد كان النبي ﷺ يغير الأسماء التي تشعر بنوع من التزكية لأصحابها، حيث أخرج مسلم وغيره عن زينب بنت أبي سلمة أنها سميت بـ«رَّة»، فقال رسول الله ﷺ: «لَا تزكوا أنفسكم اللَّه أعلم بِأهْل الْبَرِّ مِنْكُمْ، سُمِّوهَا زَيْنَبَ». لو لم يكن لعدم الرضا عن الواقع من فضيلة سوى التنبيه على سوء استخدام الإمكانيات المتاحة، والدلالة على بعض البدائل لأساليب حياتنا، لكان كافياً.

٤ - نحو أخلاق تستهدف الأزمة:

لا أحد اليوم يشكك في أننا نمر بأزمة، وليس ذلك بغرير، ولا بشّر خالص؛ فالإنسان لم يتقدم عبر تاريخه الطويل إلا من خلال الأزمات ولا شك أن الأفراد والأمم ليسوا سواء في امتلاك الموارد الكافية للتغلب على الأزمات وتجاوزها، لكن لا نختلف أيضاً في أن آية درجة من النهوض سوف تخفف من غلواء الأزمة، كما أنها سوف تسهل الحياة الإسلامية.

والعلماء الفاقهون والمفكرون العظام هم عتاد الأمة في تحديد ماهية الأزمة التي تمر بها، وتحديد حدودها ومداخل معالجتها. هذه التحديات هي التي سترشدنا إلى نوعية (الأخلاق) التي يجب أن نؤكد عليها أكثر من غيرها في سبيل مواجهة أفضل للأزمات التي نعاني منها. ولتوسيع ذلك من خلال مثالين :

أ - حين نشعر أن كثيراً من المسلمين يميل إلى نوع من التراخي والتلقاض عن بذل الجهد الكافي في عمارة الأرض وامتلاك ناصية الحياة، وذلك ليس عن زهادة، وإنما نتيجة ضعف الحواس الحضارية لديهم، وعدم تقدير واجبات الوقت. في هذه الحالة فإن علينا أن نضغط باتجاه أخلاق محددة تستهدف الخلاص من هذه المشكلة، مثل الحفاظ على الوقت والدقة والإتقان والتوفير وحسن التدبير... وليس الناس آنذاك بحاجة في هذه المرحلة إلى من ينصحهم بأخذ إجازات أكثر - كما هو الشأن في اليابان - كما أنهم ليسوا بحاجة إلى من يلقنهم دروساً في الترويح عن النفس، وفي الرفاهية وفنون الاستماع...

ب - حين يغيم جمود الفكر على مجتمع من المجتمعات، ويشيع فيه التقليد، وتموت روح الاجتهد والإبداع والاستنباط، فإنه لا يكون آنذاك حاجة إلى من يبين له مخاطر عدم الانضباط في الفتوى وأخطار خروج آراء جديدة غير مؤصلة؛ لأن ذلك يعني نوعاً من تكريس الأزمة والتأصيل لها، لكن الحاجة تكون مائة إلى من يدفع طلاب العلم إلى الاجتهد والانعتاق من ريبة التقليد، والتحلي بالشجاعة الأدبية، والعودة إلى الأدلة ومحاولة الخروج ببرؤى وأحكام جديدة؛ حتى إذا رأينا أن الأمر تجاوز حدوده، واقترب من التفلت والفوضى صرنا آنذاك إلى التشديد في شروط الاجتهد حتى لا يتجرأ عليه غير أهله.

لا يعني هذا أن أقطار العالم الإسلامي تمر بمرحلة واحدة فيما ذكرناه؛ فأوضاعها لا شك متفاوتة، ومن ثم فإن مفكري كل بلد يقومون بتحفيز الناس على تبني الآراء والأخلاق التي تساعدهم على تجاوز أزماتهم الأكثر أهمية وإلحااحاً.

٥ - علينا أن نبني خطوطاً أخلاقية أولية للحيلة دون الاحترب الداخلي :
يعاني العالم الإسلامي بطوله وعرضه من موجات من الاحترب الداخلي، وتعالي روح القسوة، واللجوء إلى التعانف في إدارة دفة الحياة، وفي حل المشكلات والوصول إلى الحقوق، والخلاص من الظلم والجور . . .

هذه الحالة البائسة جعلت الناس لدينا يشعرون باضطراب الوعي والحيرة في اختيار الوسائل المناسبة للخلاص من الأزمات الراهنة !

أما صورتنا في الخارج المنطبعة في أذهان الشعوب الأخرى، فهي صورة في غاية البشاعة والتشره؛ فالمسلم متوهش دموي عدواني فوضوي شهوازي، فهو في أدنى سُلْم الرقي البشري !!

هذه الصورة القاتمة شكلها الإعلام الصهيوني والإعلام المتعاطف معه في الغرب؛ وقمنا نحن بتقديم المادة الأولية التي سوف يستخدمها ذلك

الإعلام، ويستغلها أسوأ استغلالاً، وهذا التشويه يستهدف صد الناس عن الدخول في الإسلام، وتسهيل ضرب مصالح العالم الإسلامي والاعتداء عليه. مهما حاولنا تحسين الصورة الشائعة عنا فإننا لن نستفيد شيئاً ما لم نغير نحن، ونُرسِي قواعد حضارية في تعامل بعضنا مع بعض.

ولا ريب أن الأشياء التي يجب أن نفعلها كثيرة جداً، بل إن الأسلوب المتحضر لأية أمة من الأمم هو ثمرة نجاحاتها في أصعدة مختلفة. وإن الإسلام باعتباره بنية تحضيرية قد وضع لنا كثيراً مما ينبغي أن نقوم به في هذا الصدد. إن علينا أن نبني من خلال التثقيف المستمر خطوط دفاع أولية ومتقدمة، تحول دون مقاتلة المسلم مهما كانت الظروف والمسوغات. نحن بحاجة ماسة لحماية أنفسنا، وهذه الحماية، تمثل في تربية الناشئة على الإحساس بالطبيعة والتعاطف معها، ومع الحيوان والشجر والنبات والماء، وتنمية كل ذلك والمحافظة عليه، واستخدام الألفاظ التي تشجع الحب والألفة... .

إن المسلم الذي يتحرّج من إيذاء هرّة أو قطع شجرة من غير حاجة سوف يتحرّج كثيراً من إيذاء مسلم أو غير مسلم؛ لأن بنية الثقافية والنفسية العميقه بُنية خيرة، تبني ولا تهدم، وترحم ولا تشمّت، وتعطي أكثر مما تأخذ!

إن حمايتنا للطبيعة هي في جوهرها أكثر من أن تكون محافظة على وسط صالح للاستمرار، إنها نوع من التطوير للصفات الإنسانية التي تحتاجها في حماية حياتنا الإنسانية من الوحش الكاسر الكامن من نفوس كثير منا.

إن لدينا فيضاً من النصوص والأداب والتعليمات التي تساعدننا على بناء ما نحتاجه من الخطوط الدفاعية التي أشرنا إليها، لكننا بسبب البعد عن جماليات هذا الدين، وبسبب قسوة الحياة المعاصرة نسيينا كنزنا، وأخذنا نتخبط !!.

وستذكر هنا بعضاً من النصوص التي تؤكد على حرمة المسلم وصيانته

دمه، وبعضاً آخر من النصوص التي تبني التعاطف مع الحيوان والطبيعة على النحو التالي:

أ - بإمكان الباحث أن يقف على قدر كبير من النصوص التي تؤسس العلاقات الإنسانية القائمة على المودة والرحمة والاحترام، والمحذرة من المسارعة إلى التسفيه أو التكفير أو إيذاء المسلم بأية صورة من الصور. ومن تلك النصوص ما يلي:

- قال الله - سبحانه - : « ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَجَلَّتُمُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَتُم مِّنَ الظَّبَابَاتِ وَفَضَّلْنَتُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ خَلْقِنَا تَقْضِيَلًا ﴾ (١) ». وعنه ﷺ: « لأن يجلس أحدكم على جمرة، فتحرق ثيابه، فتخلص إلى جده خير له من أن يجلس على قبر» (٢). وفي الحديث: «إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر، فقد باه بها أحدهما، فإن كان كما قال، وإن رجعت عليه» (٣).

وفي الحديث أيضاً: «عن المسلم كقتله» (٤).

ومما يبني الاحتياط والدقة في استخدام السلاح قوله ﷺ: «لا يشر أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدرى لعل الشيطان ينزع في يده، فيقع في حفرة من النار» (٥).

ب - في دائرة التعاطف مع الحيوان ورحمته وعدم إيذائه نجد أيضاً نصوصاً كثيرة، منها قوله ﷺ: «بينما رجل يمشي، فاشتد عليه العطش، فنزل بشراً، فشرب منها، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثلُ الذي بلغ بي. فملا حقه، ثم أمسكه بفيه، ثم رقي، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له، قالوا: يا رسول الله وإن لنا في

(١) سورة الإسراء، آية ٧٠.

(٢) رواه مسلم.

(٣) أخرجه الشیخان.

(٤) أخرجه الشیخان.

(٥) أخرجه الشیخان.

البهائم أجرأ؟ قال: في كل كبد رطبة أجر»^(١).

وعن ابن عمر - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «عذبت امرأة في هرّة سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقتها إذ جبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»^(٢).

وروي أن النبي ﷺ مرّ عليه حمار قد وُسم في وجهه، فقال: «لعن الله الذي وسمه»^(٣).

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حمّرة معها فرخان فأخذنا فريخيها، فجاءت الحمّرة، فجعلت تعرِّش (ترفرف) فجاء النبي ﷺ فقال: «من نفع هذه بولدها؟ ردوا ولدتها إليها» ورأى قرية نمل قد حرقتها، فقال: من حرّق هذه؟ قلنا: نحن. قال: «لا ينفي أن يعذب بالنار إلا ربُّ النار»^(٤).

ج - ويتجاوز هدي الإسلام التعاطف والتواصل مع الإنسان والحيوان إلى التعاطف مع الطبيعة والجمادات التي لا تملك أي إحساس بنا، ولكن القصد - كما قلنا - هو أن يسمو الإنسان، وتنمو فيه عاطفة الخير والإحسان والمسالمة، ونجد في هذه الدائرة أيضاً عدداً من النصوص الهدية الجميلة، منها نهيه ﷺ رجلاً يسرف في استعمال الماء لوضوئه، فقال الرجل متعجبًا: أفي الوضوء إسراف؟ فقال النبي: «نعم وإن كنت على نهر جار»^(٥). وروي عنه ﷺ أنه قال: «ما من مسلم غرس غرساً، فأكل منه إنسان أو دابة إلا كان

(١) أخرجه البخاري. ومن المعروف أن أرض (معرض دمشق الدولي) كانت تسمى (المرج الأخضر) وقد كانت هذه الأرض الرحبة مخصصة لرعاية الدواب العاجزة. كما أنه كان في دمشق دار لرعاية (القطط العميماء) ومثل هذه الشواهد الإنسانية كثيرة في حضارتنا الزاهية.

(٢) أخرجه الشيشان.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه أبو داود بإسناد صحيح.

(٥) أخرجه أحمد وابن ماجه.

له صدقة^(١). وثبت عنه ﷺ نهيه عن سب (الحمى) وعن سب الرياح، كما ثبت نهيه عن البول والتغوط في الماء الراكد وفي طريق الناس وأماكن استظللاً لهم^(٢).

إن علينا إشاعة هذه الآداب في المجتمع المسلم وربطها بإطارها التوجيهي العام، ليشيع فينا خلق الرفق والرحمة واحترام الموارد والمحافظة عليها وتنميتها، وكل ذلك في سبيل إحساس أقوى بكرامة المسلم ومعرفة حرمه حقوقه والكف عن أذاته. وعلينا أن نستخدم كل الوسائل المتاحة لجعل هذه المعانى حاضرة في ثقافتنا وفي حسّ أبنائنا، لعل الله - تعالى - يسعفنا بالحماية من نزوات الهمجية ونوازع الجاهلية!

٦ - علينا أن نتربع الفرصة لتدعم الوعي الداخلي :

كل من يعيش في مجتمع يقف موقفين متضادين من ذلك المجتمع، فهو حتى يتواصل مع الجماعة، يحاول أن يشعرها بتماثله معها، لكنه في الوقت نفسه يخاف من الذوبان في الجماعة، ويحاول أن تكون له ذاته وخصوصياته؛ وهكذا فنحن في حياتنا الاجتماعية في توتر دائم بين شد وجذب وانقياد وتمرد.

في طبقة (اللاوعي) من الشعور الجماعي نزوع قوي نحو الاستحواذ والسيطرة على كل فرد في الجماعة؛ ليكون عنصراً مساعدأً في زيادة تماسكها، لكن علينا أن نكون على حذر ونحو نعطي التماثل الاجتماعي أهمية كبيرة؛ إذ إن التماثل الشديد ربما كان مصدراً للتحلل الذاتي. وعلى العكس من ذلك فإن السماح للتفتح الأخلاقي الخاص، ومخالفته المجتمع ونقده قد يكون من أكبر عوامل تجديد المجتمع، كما يعد عاملاً مهماً في وعيه بذاته وحله لمشكلاته.

(١) أخرجه البخاري.

(٢) كما في حديثين أخرجهما مسلم.

إن في داخل كل منا ملكرة للإقرار والاستهجان والشعور بالمبادئ والتمييز شبه الفطري بين الخير والشر؛ وإن مسؤولية المجتمع تكمن في ترقية هذه الملكة وتدربيها ومدتها بالخبرة والثقافة التي تساعدها على الصدور عن رؤية راشدة. إن هذه الملكة أشبه شيء بالـ(العقلة) نموها في استخدامها، وإن الرقابة الحرافية والتأنيب الشديد مما يسبب ضمور هذه الملكة، ويجعل الفرد إلى إمّعة، وقد دلتنا التجربة أن عدم إفساح المجتمع للفرد باتخاذ قراراته قد يدفعه إلى نوع من التماهي الشكلي، فيظهر الفرد أمام الناس في مظاهر المواطن المثالي، لكنه في خلواته يفعل كل المحرمات وكل ما يضاد قيم المجتمع الذي يعيش فيه. وهذا يعني نوعاً من الانهيار الداخلي غير المنظور، والذي يتضرر الفرصة ليُعبر عن نفسه في صورة انهيار كلي !.

وبالطبع فإنه لا ينبغي أن نفهم من هذا الدعوة إلى تساهل اجتماعي تجاه المنكرات والمحرمات، فهذا من عوامل التخريب الكبرى، لكن المقصود أمران :

الأول: عدم ملاحة المجتمع لأفراده في أمور يتحملها التنوع الثقافي، كما في بعض أشكال الملابس وبعض عادات المشي والأكل والشرب والضيافة والزيارات... وما شاكل ذلك مما تواضع عليه الناس دون أن يكون فيه حكم شرعى محدد. وقد رأينا مجتمعات عديدة أفضى بها التشدد حيال بعض العادات إلى أن تفرط بأوامر ونواء شرعية كثيرة في سبيل المحافظة على تقاليد وأوضاع رسمتها لنفسها!

الثاني: تدعيم التربية المترتبة والفردية التي تجعل المرء ينزع إلى الخير، ويبتعد عن الشر في خلواته حيث يكون بعيداً عن أعين الناس. ولا يخفى أن شعيرة الصيام تهدف إلى هذا النوع من التربية الوجدانية.

إن المجتمع الذي يضغط على أفراده من غير عناء بال التربية مجتمع يشوه النفاق العملي، وهو مجتمع ظاهره خير من باطنها، حيث تكثر عاداته وتتضاءل عباداته!

إن لغة التنبية والتوجيه التربوي ينبغي أن تعلم الطفل المعايير الأخلاقية الذاتية المستقلة، وليس (النominative)، فإذا ما وقع في خطأً ما وجب أن نقول له: هذا حرام، أو هذا خطأ، أو هذا ضار... هذه اللغة تؤسس في العقلية والنفسية خطأ الأشياء في ذاتها، ووجوب الامتناع عنها في السر والعلن.

كثير من الناس يستخدم لغة أخرى، فيقولون لأطفالهم: هذا عيب، وهذا منتقد من الناس، وماذا سيقول عننا الناس إذا علموا به...

وهذه اللغة توحى إلى جانب الحث على الكف بشيء ملائم، هو: إن استطعت أن تنجو من لوم الناس فافعل، أي: ليكن موقفك في السر غير موقفك في العلن !!

إن تكوين خلق (الشعور بالمسؤولية) لا يمكن أن يتم إلا من خلال إتاحة قسط من الحرية، وجعل المرء يتمتع بلذة الموقف الأخلاقي الذي اختاره، واندفع إليه. وإن الإكثار من الأوامر والتواهي ومحددات الحركة يحول المرء إلى آلة. والأسوأ من ذلك أن تُستخدم القسوة والشدة في التربية؛ حتى يفقد الطفل أو الشبل الإحساس بالكرامة، فلا تنفع فيه الموعظة، وتشتد فيه نوازع الانتقام !.

وأصلح إلى لغة النبي ﷺ في خطابه لابن عباس - رضي الله عنهما - لترى كيف يؤسس خطابه عقلية الارتباط بالله - جل وعلا - ومحاكمة الأمور إلى ثوابت قطعية خارجة عن مراقبة الناس؛ فقد أخرج الترمذى عن ابن عباس أنه قال: «كنت خلف النبي ﷺ فقال لي: يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأله، وإذا استعن فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله - تعالى - لك. وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله - تعالى - عليك. رفعت الأقلام وجفت الصحف».

٧ - نحو أخلاق جميلة:

إن الجمال هو الحيوية التي لها إمكان دخول المجالات كلها، مادية كانت أم معنوية. وهو الذي يسهم في كمال الأشياء ظاهراً وباطناً^(١).

مهما قيل في تعريف (الجمال) ومهما تحدث الناس في حقيقته فإنه يظل مقياساً من أهم المقاييس الحضارية، وهو مصدر من مصادر فرح الخاطر وابتهاج النفس. إنه الظل الذي يأوي إليه المكدوّد في وقت الظهيرة، و قطرة الماء التي ترطب جوف اللاهث الظمآن، إنه المسحة على رأس اليتيم ولمسة الوفاء لمن أسدى إلينا معرفة، إنه قبل ذلك وبعده ضرب من ضروب الإحسان والإتقان والكمال والتناسق والسمو. إنه الأشياء والأحوال والسمات في قمة نضجها بعد أن تخلصت من الضرورات والتواقص والعيوب...

إن إضفاء المسحة الجمالية على سلوكنا وأعمالنا وتعاملنا ومظهرنا ليس أمراً ثانوياً، ولا مختصاً بقوم دون قوم، ولا فرد دون فرد. إنه مطلب عام على كل مسلم أن يلبيه، وفي كل موقف، وذلك دليل إيمانه وحسن إسلامه.

ليس أدل على حاجتنا إلى زرع أهمية صنع الجمال والإحساس به من أن الله - جلا وعلا - أرشدنا إلى تجميل أعمال وأمور ذات طبيعة خشنة وقاسية، ربما ظن بعض الناس أن الإيتان بها على أي وجه من الوجه يعده أمراً طيباً؛ فالصبر أمر شاق على النفس، فكيف إذا كان على فقد عزيز، ومع هذا فإذا صبرت فليكن صبراً جميلاً، وفي هذا القول - سبحانه - على لسان يعقوب: «فَالْمُؤْمِنُ أَكْفَافُهُ مُسْكُنٌ لَّهُمْ أَفَقْسَمُكُمْ أَتَرَا فَصَبْرًا جَيِّلًا»^(٢).

وفي الحديث: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلت مفاحسنتها القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنتوا الذبحة، وليجدد أحدكم شرفته، وليرغذ بيحته»^(٣).

(١) الظاهرة الجمالية في الإسلام: ٢٤.

(٢) سورة يوسف، آية: ١٨.

(٣) رواه مسلم.

إن ذبح الشاة موقف أبعد ما يكون عن الجمال، ومع ذلك فعلينا أن نجعله جميلاً، وذلك بالإحسان إلى الذبيحة بإحداد الشفرة، وعدم جعلها ترى شاة تذبح أمامها، وبالإسراع في الذبح، وعدم قوتها بعنتف.

إن الحرص على أن يكون الشيء جميلاً يعني قبل ذلك أن يكون تماماً، إذ الجمال صفة زائدة على صفة الوجود، وكأن الجمال في الأشياء يشير إلى تجاوزها حدود الكفاية والضرورة إلى حدود الرفاه والتألق، وشيء من هذا مطلوب في أمة تسعى إلى أن تكون نموذجاً يحتذى في الخير والحق والجمال.

إن نصيحة المسلم مطلوبة، وبإمكاننا أن نكسوها حلل الجمال، إذا جعلناها سراً، وبأسلوب لطيف، ومن غير استعلاء، وفي وقت نلمس فيه الاستجابة لها.

من حقنا أن نستخدم منبه السيارة عند خشيتنا إلحاق الأذى بأحد المارة. ولكن لنستخدم هذا الحق مع الحد الأدنى من الإزعاج لمن نريد تنبئه.

لنجعل وجودنا كله شيئاً جميلاً، فنلبس الثياب ذات الألوان المتناسقة، ولنجعل مجالسنا عامرة بالحكمة واللطف والألفاظ الجميلة، ولنشرع من نسلٍ عليه بالاهتمام وحرارة اللقاء. لنجعل كل ما يتصل بنا نظيفاً ومنظماً ومنسقاً يوحى بالعناية الخاصة.

لنجعل مسحة الجمال على كل تعبير من تعابيرنا: من الأحسن أن تقول كذا، ومن الأفضل أن تفعل كذا، والأحسن ألا تلتقي بفلان، وقد أخالفك فيما تقول، وأعتقد أن هذا غير مناسب... وما شابه ذلك من تعابيرات تحمل طابع الإحساس المرهف!

قد يكون (الجمال) في الشكل، وقد يكون في المضمون، فلنحاول أن نزيد الجمال جمالاً بمقابلة الشكل للمضمون؛ لأن ذلك هو الكمال، والكمال جمال.

لنجاول صنع الجمال حتى فيما لا شأن له، كالمشي والعطاس والنداء
والاستفهام حتى تصبح حياة أمّة الإسلام طرية ندية زكية.

إن المعاصي بأنواعها لا يمكن أن تكون إلا شكلاً من أشكال القبح،
لأنها قبل كل شيءٍ تعبير عن الفوضى، وتعبير عن انعدام التنسق بين
المعتقدات والأقوال والأفعال، وهي بعد ذلك تعبير عن العجز والنقص.
وكيف يمكن إضفاء الجمال على الأشياء الناقصة؟

٨ - لا حدود لفضل الإرادة الخيرة:

أكثر الأخلاق لها حدود شرعية أو عرفية، إذا تجاوزتها انقلب من
فضائل إلى ما يشبه الرذائل، أو ما يعد منافيًّا للحكمة؛ فالشجاعة إذا زادت
عن حدود معينة صارت تهوراً، والكرم يصبح تبذيراً، والحلم قد يصبح نوعاً
من الذل.

أما إرادة الخير والتوايا الحسنة التي تتجه إلى عمل الصالحات، ونفع
الخلق، والكف عن الشر، فيبدو أنه لا حدود لفضليها، فكلما كانت نية المرء
ومقاصده ثرية بالتعلّم إلى أعمال الخير كان صاحبها أُنبل، وكان أجره
عند الله - جل وعلا - أعظم.

صحيح أن التوايا الطيبة قد تجلب لأصحابها بعض المتابع في بعض
الأحيان إلا أنها في جوهرها تظل توجهاً أخلاقياً كريماً، يُحمد صاحبه عليه.

إن التوايا الحسنة ثمرة من ثمار استقامة الفكر ونضج الوعي وصفاء
القلب، وهي في الحقيقة لون من ألوان الإحساس بالواجب والتطلع إلى ما
ينبغي إنجازه، ومن ثم فإنه ليس في وسع كل أحد أن ينوي عمل الخير،
وكيف يداوم على نية الاستيقاظ قبل الفجر للتهدج من لا يعرف شيئاً اسمه
الصلة، وكيف يداوم على نية النصح للمسلمين من هو غارق في المعاصي
إلى أذنيه؟!

ومع هذا فإننا نعتقد أن غرس التوجّه إلى الخير وملازمة نية فعل

المعروف يظل مطلوبًا؛ حيث يبدو أن هناك علاقة جدلية بين النية والعمل؛ فالنوايا الخيرة تجد فرصةً لتحقيقها في أحيان كثيرة، وكأنها تدفع المرء إلى الاستجابة لها، وتجسيدها في سلوكه. وفي المقابل فإن انحراف المسلم في الأعمال الطيبة المباركة يولد المزيد من حب الخير، والأمل في الإكثار منه. وإن أفضل النيات الصالحة موجود في الحقيقة عند أولئك الخيرين الذين استقام سلوكهم، وحسن أفعالهم.

إن الشريعة السمحاء حرفيًّا كل الحرمن على ترسيخ التوجه نحو الخير في نفوس المسلمين؛ لأن ذلك هو المقدمة لاصطياغ سلوكهم به؛ ونجد في ذلك نصوصاً كثيرة، منها: قوله ﷺ إذا كان في غزوة مع أصحابه: «إن بالمدينة رجالاً، ما سرتهم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم جسمهم المرض» وفي رواية «شركوكم في الأجر»^(١).

وقال ﷺ: «إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة، فلم ي عملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها، فعملها كتبها عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة»^(٢).

لنجاول أن نعقد نياتنا دائمًا على الخير، ولنجاول جعل (أمانينا) دائمًا في أعمال البر، ولنجاول أن نجمع في العمل الواحد عدداً من النيات الطيبة، كأن ينوي المرء إذا ذهب تاجراً إلى بلدة أن يزور بعض الصالحين، أو ينوي إصلاح خلل أو خدمة آخر ...

٩ - أخلاقية الشعور بالواجب:

الشعور بالواجب عصب مهم في الأخلاق، بل هو العنصر النموي الذي يدور حوله النظام الأخلاقي كله؛ إذ ما فائدة الأخلاق لدى شخص، لا يشعر بأي التزام نحوها؟

(١) أخرجه مسلم وغيره.

(٢) أخرجه الشيخان.

إن الواجب التزام، تشعر به ذات حَرَّة، وهذا يعني أن الشعور بالحرية يكاد يكون شرطاً للشعور بالواجب، وتحمل المسؤولية.

صحيح أن الالتزام يحدّ من مجال الاختيار، وأحياناً يُلغِيه، لكن الشعور بالالتزام، يصدر عن إرادة حرة تُلزم نفسها بنفسها^(١).

طلبت مسألة الشعور بالواجب من أخطر المشكلات الأخلاقية التي عانت منها الأمم على مدار التاريخ، ويسبب فقد هذا الشعور دخُلَ كثير من المجتمعات أنفاق التفكك والفوضى واللامبالاة، وبالتالي (التخلف)!

وليس لدى المسلم مشكلة في تحديد الجهة الملزمة بالواجبات والمسؤوليات، إذ إنه مستسلم لأمر الله في المنضبط والمكره، وإنما تكمن المشكلة الأساسية لدينا في صعيد المعرفة والشعور، ثم في صعيد الالتزام؛ إذ من السهل على المرء أن يتناهى بعض الواجبات، أو يتواهُل بها في زحام المسؤوليات والواجبات، واشتباكها مع الحقوق، وتوقف بعضها على بعض. ومن السهل عليه أن يعلل عدم التزامه بها...

وقد حدثنا القرآن الكريم عن أولئك الذين يذعنون للحق عندما يكون لهم فيه مصلحة، وعن أولئك الذين يكيلون بمكيالين، وأولئك الذين يتزمرون بالأمر الرباني في أوقات الرخاء، ويتقاусون عنه في أوقات الشدة^(٢).

الأمم العلمانية التي استبدلت الوحي نقلت مصدر (الالتزام) من الشرائع السماوية إلى العقل والعرف والقانون، وما تحدده الثقافة. وقد تم ذلك في ظروف مواطية وأحياناً مثالية، ولا ريب أن كثيراً من المواطنين الغربيين

(١) الأدلة النظرية: ١٢٧.

(٢) نجد كل ما سبق في نحو قوله تعالى: «إِنَّمَا دُعَا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيُحَكَمْ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرَضُونَ وَإِنْ يَكُنْ لَّهُمْ الْحَقُّ يَأْتِوَهُ إِلَيْهِ مَذْعُونُينَ» سورة النور، الآيات: ٤٨، ٤٩.

وفي قوله سبحانه: «وَيُولِّ لِلْمُطَفَّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفِنُونَ وَإِذَا كَالَّوْهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يَخْسِرُونَ» سورة المطففين، الآيات: ١ - ٣. وقال سبحانه: «وَقَالَ لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرَقِ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُ حَرَّاً» سورة التوبية، آية ٨١.

يشعرون بشيء من الخضوع للقانون، ويقومون بالمحافظة عليه؛ لكن لا توجد أية ضمانة للاستمرار على ذلك، بل إن وثيره عصيان القانون والتحايل عليه آخذة في الاشتداد ونعتقد أن ساعة الامتحان لم تدق بعد. وحين تلتف حبال الضائقات الاقتصادية حول الأعناق سيشعر الغرب بفداحة الخطأ (الاستراتيجي) الذي وقع فيه حين حول مصدر الإلزام من الوحي إلى العقل!

وتبدل الآن في العالم الإسلامي جهود تجريبية هائلة، تستهدف نقل المجتمعات الإسلامية إلى عين الزاوية الحرجية التي وضع الغرب نفسه فيها؛ وقد حققت تلك الجهود نجاحات غير قليلة. ويتم الحديث الآن عن المواطن الصالح والإنسان المتحضر والتاجع والمحب لوطنه والشريف...

وواضح تماماً أن هذه الألفاظ لم ولن تحرك في أية حماسة للقيام بأي عمل نبيل!

هل نستطيع القول: إن كثيراً من أبناء المسلمين صار كالمرأة المعلقة، - كما يقول الفقهاء - لا هي مزوجة ولا هي مطلقة؛ فلا بنية إيمانية وشرعية يستمدون منها الشعور بالواجب، ولا بنية حضارية عرفية تعوض عن تلك البنية - ولو جزئياً - ومن ثم فإن هناك أزمة عميقة وحيرة واضطراباً تنتجه عنها رؤية أخلاقية غائمة!

ونود أن نقول باختصار: إن من العسير الحصول في بلاد الإسلام على أشخاص كثيرين، يتحملون المسؤوليات، ويشعرون بالواجبات، و يؤرّقهم الوفاء بالالتزام - ما لم يكن أولئك الأشخاص صالحين بالمقاييس الشرعية. وحتى نحصل على التزام بأداء الحقوق والواجبات، فينبغي أن تنتهي تلك الواجبات إلى نوع من الوجوب الشرعي، أو تكون دائرة في فلكه على الأقل.

إن كل الثقافات القومية والوطنية المنتشرة في ديار المسلمين كانت قد أفرغت كل ما لديها من طاقات التحرير والكبح في الثقافة الإسلامية، وإن أية ثقافة تخاطب عقل المسلم ووجوده، لا تستند إلى الثقافة الشرعية بصورة

من الصور، لا تستطيع أن تبعث فيه روح التضحية، ولا روح الانضباط، ولا طاقة إلجام التزوات.

من أجل أن يعود إلى الإنسان المسلم ما كان لدى أسلافنا من الإحساس بالمسؤولية الشرعية والأخلاقية يجب أن تشيع في مجتمعاتنا أمور عديدة، منها:

أ - تعميق مفاهيم الواجبات الشرعية لدى المسلم على الصعيد الفردي والأسري والاجتماعي، وهذه المفاهيم منها ما هو مباشر، ومنها ما قد يحتاج إلى شرح وتوضيح، وإن القرآن الكريم ينبهنا إلى مسؤولية المرء عن أعماله، وعن الآثار السيئة التي تركتها في نفوس الآخرين، وسلوكيهم، كما قال - سبحانه - : «**إِنَّمَا أَوْزَارُهُمْ كَامِلَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِي
يُضْلِلُهُمْ»^(١).

وفي الحديث: «ومن سئ في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء»، ومن سئ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»^(٢).

إن النصوص الكثيرة في هذا الشأن توسيع دوائر المسؤولية، وتحفز المسلم على أن يقيم رقياً من ذاته على ذاته، حتى لا يعمل أ عملاً، تجلب له السيئات وهو في قبره!

ب - الوعي بالواجبات الحضارية التي يقوم عليها تقدم الأمة اليوم، وهذه الواجبات تحتل دوائر أوسع من دوائر الواجبات الشرعية؛ فتعقد الحياة وكثرة متطلباتها جعلت ما هو مطلوب منا من علم وثقافة وجهد أعلى بكثير مما كان مطلوباً من أسلافنا؛ وعلى سبيل المثال فإن درجة الدقة المطلوبة منا في لغتنا ومواعيدنا وألوان إنتاجنا أعلى بكثير مما كان مطلوباً من السابقين،

(١) سورة التحل، آية: ٢٥.

(٢) رواه مسلم.

وإن ما هو مطلوب معرفته من قبل (المفتى) اليوم أكثر بكثير مما كان مطلوباً في وقت سابق، حيث إن عليه أن يكون على دراية جيدة بالواقع الذي يعيش فيه، كما أن عليه أن يكون شديد الحذر حتى لا تستخدم فتواه في العداوان على بريء، أو قطع السبيل على أعمال خيرة.

إن المشكلة في موضوع الوعي بالفروض الحضارية أنه يحتاج إلى رؤية كلية لجميع أجزاء الصورة، كما أنه يحتاج إلى فهم طبيعة الآثار والتداعيات الخطيرة التي تترتب على التقصير في القيام بتلك الفروض.

ج - القدوatas والنماذج ذات أثر بالغ في إشعارنا بواجباتنا. والحقيقة أن الإحساس بالمسؤولية كثيراً ما يكون هبة المجتمع المتقدم لأبنائه البررة؛ فالإرادة الصلبة والعزمية الماضية والإصرار على الوفاء بالالتزامات، كل ذلك يخضع بصورة أساسية للموقف الاجتماعي العام؛ فهو الذي يحدد سقف هذه الأمور، كما أنه هو الذي يصدر معايير القبول والرفض للأحكام الأخلاقية.

وهنا يبرز أثر الرواد والعظماء الذين ينورون للأمة طريق الالتزام والإحساس بالواجب من خلال أنوار الهدایة الساطعة في منطقتهم، وقبل ذلك في سماتهم وهديهم وسلوكهم؛ فهم الذين يكسرن المعادلات الاجتماعية الصعبة.

د - إن علينا أن نتعلم، ونعلم كل رجل وكل امرأة القيام بتحديد نصف ساعة لأداء واجب معين، يخدم المصلحة العامة على الصعيد الاجتماعي أو الدعوي أو الاقتصادي أو الخدمي؛ حيث إن الالتزام بتنفيذ شيء من الواجبات على الأرض على نحو مستمر هو أكبر برهان على استيعابنا لما يجب علينا إنجازه تجاه الأمة.

هـ - التقوى عنصر مهم في الالتزام، وإلا فمن أين ستملك الطاقة والحيوية الكافية لجعل سلوكنا يتطابق مع عقائدها وقناعاتها، وسوف نتكلم عن هذا الموضوع باستفاضة بعد قليل.

وأخيراً فإن المبادرة إلى تحمل المسؤوليات والقيام بالفرائض المختلفة

هو المقياس الدقيق لتقدم الأمة، فعلى مقدار ما يتحرك الفكر، وتعمل اليد في دروب الخير تكون حيويتها ورقها، وعلى مقدار ما يكثر الهروب من أداء الواجبات، ويكثر الطلب على الحقوق، ويسود الجمود والتقاعس يكون التخلف والانحسار!

١٠ - انتصار الروح:

ظللت مسألة الموازنة بين الروح والجسد، والشكل والمضمون، والظاهر والباطن مضطرباً واسعاً للخلل وسوء التقدير، ولو نظرنا في أحوالنا لوجدنا نوعاً من الانحياز غير المسوغ إلى جانب الجسد على حساب الروح، والشكل على حساب المضمون، ويبدو أن هذا هو الطبيعي؛ حيث إن حاجات الجسد أكثر إلحاحاً - مع أنه ليس كل ملحّ مهمّاً - وحيث إن لمس المحسوس والمجسّد أسهل من لمس الروحي والمعنوي.

إن إدراك حاجات الروح يحتاج إلى شيء من التسامي والشفافية والوعي، وقد أضعفـت الحياة المادية الكثيفة التي نعيشها كل هذه المعاني؛ وقد صار من الواجب تجديدها وإحياؤها مهما كلف ذلك من ثمن!

إنني أعتقد أن تحسين البنية الأخلاقية في أمة الإسلام يحتاج إلى نوع من التوثب الروحي الذي يقوم أساساً على حب الله ورسوله ﷺ وعلى التذكر والارتباط الجيد بما يؤول إليه مصيرنا في الآخرة، إلى جانب مراقبة دقيقة للجوارح، والقيام بالمزيد من التوافل.

وسوف نذكر في المفردات التالية ما نظن أنه يساعدنا على مزيد من الانتصار للروح وعلى مزيد من إطلاق طاقتها الهائلة:

أ - إن علينا أن نتذكر دائمًا الهدف الأسماى الذي نعيش من أجله، إذ إن كثرة المشاغل قد تُنسينا المهم، وتجعلنا ننهمك في تلبية الحاجات المؤقتة والتافهة. والهدف الأسماى لنا هو نيل رضوان الله - تعالى - وإن كل تحركاتنا وأهدافنا المرحلية والصغرى يجب أن تصبّ فيه، وتكون في خدمته، وأنذاك فقط سوف نشعر أن حياتنا قيمة ومعنى، كما أن طاقات إضافية سوف تتفجر في أعماقنا مع الأمل ببلوغ النهاية بأمن وسلام!

ب - إذا ما أردنا الانتصار للروح وإيقاظها من سباتها، فإن علينا أن نشجع كل ما يؤدي إلى الشراء الذاتي، وذلك من خلال تشغيل أحجزتنا الفكرية والنفسية والجسمية، وأن يزداد التعبير عما نفعله، لا عما نملكه؛ في حالة الإفلاس الشخصي يميل الميزان إلى صالح الامتلاك والاستهلاك، ويكثر المرء من قول: أنا أكلت، وأنا اشتريت، وأنا لبست...
أما في حالة الثراء، فلغة المرء تتحمّر حول: أنا أقول كذا، وأنا أحب كذا، وأنا فعلت وفكرت... .

لن نصبح أثرياء إلا إذا أصبحنا عاملين نشطين، لكن ينبغي أن تكون أعمالنا دائمًا على صلة بأرواحنا وأهدافنا ودواخلنا، فهي أنشطة هادفة ووعائية وحミمة!

ج - إن عدو الأرواح قريبة من عدو الأجسام، وحتى نرفع من معنوياتنا، ونطلق طاقتنا المعطلة والكامنة؛ فإن علينا أن نختار جلساتنا كما نختار ثيابنا، وكما نختار تخصيصاتنا؛ فالعلاقات الاجتماعية مصدر كبير للثراء أو الشقاء. وإن أكثر مجالس الناس وأحاديثهم واهتماماتهم أقرب ما تكون إلى أن تكون تافهة، وإن كثرة غشيانها ستكون عاملاً مهمًا في شعورنا بالضائقة والانحسار؛ ولذا فإن قراءة كتاب كثيراً ما تكون أجدى من صرف الأوقات في اللقاء بالناس، ولنركز في هذا المقام على قراءة سير العظماء من رجال هذه الأمة، ولنحاول الانفعال بأخبارهم وموافقهم والتأنسي بهم.

د - لا شيء يُنعش الروح، وينمي مشاعر الخير والحب كالأنشطة التعبدية، كما أنه لا شيء يقوى الجسد، وينمي، عضلاته كالأنشطة الرياضية. وليس ما سنذكره من تلك الأنشطة يستهدف تدعيم الحالة الروحية فحسب، وإنما يستهدف في الحقيقة تدعيم كياننا كله؛ فالصلة بالله - تعالى - لا تصقل الأرواح وحدها، وإنما تثير لنا طريق الهدایة أيضًا.

إن كل ألوان التعبد خير وإحسان، ولا سرف في الخير، لكننا نشرط فيها جميعاً أن تكون منضبطة بهدى النبي ﷺ وسنته، إذ إن من طبيعة الأنشطة الروحية أنها تُغري أصحابها بنوع من الاندفاع والحماسة التي قد تخرجها عن سنتها، وتُدخلها في باب الابتداع، وأحياناً فيما هو أسوأ.

وسنعدد في السطور التالية بعض النوافل والأعمال التي يمكن من خلالها تدعيم الحالة الوجданية للمسلم، ومن تلك النوافل:

- الاستيقاظ في السحر والناس نیام شعار الصالحين، ونعمه خاصة يصطفى بها الله - تعالى - من شاء من عباده المتقين، وقد وصف الله تلك الصفة بقوله: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ الْأَيَّلِ مَا يَهْجِمُونَ ﴾١٧﴾ وَالْأَتَّارُ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾١٨﴾ .
وحين رأى عبد الله بن عمر رؤيا قضتها على أخيه حفصة - رضي الله عنها -، وقضتها هي على النبي ﷺ فقال: «نعم الرجل عبد الله لو كان يصلى من الليل» فكان عبد الله لا ينام من الليل إلا قليلاً^(٢).

هذا الوقت من الزمان ذو مزية ظاهرة، وفرصة ذهبية لمن أراد الاغتنام، فقد ورد في الحديث: «ينزل ربنا - تبارك وتعالى - كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له»^(٣).

إذا لم يستطيع أحدهنا الاستيقاظ كل سحر، فلا يفته ذلك كله أسبوع مرة، وإذا استطاع أن يوقظ أهله فليفعل، فعلل الله - تعالى - ينظر إلى أهل ذلك البيت نظر رحمة، فيفوزوا بسعادة الأبد!

- الإكثار من الاستغفار والتحميد والتسبيح والتهليل والصلوة على النبي ﷺ فإن آثار ذلك في جلاء القلوب وإطلاق الروح عظيمة جداً؛ وقد كان الحسن البصري يقول: «تفقدوا الحلاوة في ثلاثة: في الصلاة والذكر وقراءة القرآن». وقد فتح الباري - جلا وعلا - أبواب خير للذاكرين، لا حدود لها ترغيباً في الإكثار من ذكره، على نحو ما ورد في الحديث: «خرج رسول الله ﷺ من عند جويرية بيكرةً حين صلى الصبح وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحي وهي جالسة، فقال: «ما زلت على الحال التي فارقتك عليهما؟ قالت: نعم، فقال النبي ﷺ: «لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث

(١) سورة النازيات، الآيات: ١٧ ، ١٨.

(٢) أخرجه البخاري. وانظر فتح الباري: ٣: ٦ ، ٧.

(٣) أخرجه الشیخان.

مرات، ولو وزنت بما قلتِ منذ اليوم لوزنّتهنَّ: سبحانه الله وبحمده عدَّ خلقه، ورضاء نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته^(١).

- الإكثار من الدعاء والانكسار لله - تعالى - وطلب كل شيء منه، فإنه - سبحانه - لا يزداد على كثرة السؤال والإلحاح إلا كرماً وجوداً. ولما حاول الواحد منا أن يدعى بالدعوات المأثورة فإن ذلك أرجى للقبول، وهناك ألفاظ جامعة لأبواب كثيرة من الخير، يستحسن للمرء أن يدعى بها؛ وقد ورد أن رجلاً سأله النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله كيف أقول حين أسأله ربِّي؟ فقال: «قل: اللهم اغفر لي وارحمني واعفني وارزقني، فإن هؤلاء تجمع لك دنياك وأخرتك»^(٢).

وليكثر المرء من الدعاء لوالديه وإخوانه في ظهر الغيب، فإن ذلك قمن بالإجابة، فقد ورد في الحديث: «ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظاهر الغيب إلا قال الملك: ولك بمثل»^(٣).

وهناك أبواب أخرى كثيرة لتنشيط الحالة الروحية، مثل الصدقية والاعتكاف في المسجد ومواصلة الإخوان في الله... ولا نريد أن نطيل في ذكر هذه الأمور، لكنني أود أن أقول: ليجعل المرء لنفسه برامج ودورات روحية مركزة، يكثر فيها مما ذكرناه من أشكال التبعد، فقد يخصص المرء أسبوعاً أو يوماً يركز فيه على قراءة القرآن أو الذكر أو الدعاء... وقد يرتب الإنسان لنفسه أوراداً من الذكر المأثور المشروع... والمهم هو الانتظام وشعور المرء أنه لا يشكو من جفاف روحي، ولا من بُعد عن خالقه.

إن من واجب الجماعات والمجموعات أن تولي هذا الجانب الحي من شخصية المسلم الاهتمام، وأن تساعد أفرادها بكل وسيلة على صقله وتنميته حتى يجدوا موارد من الطاقة والعزمية لأداء الواجبات والكف عن المحارم والنشاط في أعمال الخير والبناء؛ وعلى الله قصد السبيل.

(١) رواه مسلم. والمداد من المدد، وهو ما كثُرت به الشيء. وهذا مجاز عن المعبالغة في الكثرة، وإن فكلمات الله لا تُحصى عدداً.

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) أخرجه مسلم.

الفَصْلُ السَّادسُ

فِي

التَّنْمِيَةِ الْإِجْتِمَاعِيَّةِ

- (١) مدخل إلى التنمية الاجتماعية.
- (٢) مبادئ وشروط في تنمية المجتمع.
- (٣) سمات المجتمع الإسلامي المنشود.
- (٤) أساليب وأدوات في تنمية المجتمع.

(١) مدخل إلى التنمية الاجتماعية

ضعف إحساس الناس بفضل مجتمعاتهم عليهم، وضعف معرفتهم بمدى النفع الذي يعود عليهم من وراء رقي مجتمعاتهم، سببان رئيسان في زهادتهم بالشأن العام، بل إنهم قد يتهمون ذوي النشاط الاجتماعي بالرياء ومحاولتهم استغلال المجتمع لمصالح شخصية!

ومن الواضح أن الحياة الاجتماعية كلها عبارة عن استجابات حية للحاجات الإنسانية، والنظام الاجتماعي هو الشكل الذي ينظم الحياة الاجتماعية وفقاً لتلك الحاجات^(١).

تقدّم مجتمعاتنا وتحضرها هو تحضر لكل فرد منها؛ حيث إن التعامل الدولي والشعبي في العالم لا يتم اليوم على أساس الفرد، وإنما على أساس المجموع؛ فحين تكون في أحد المطارات الدولية لا تعامل على أساس شخصك، وإنما على أساس ما هو مكتوب في جواز سفرك، وعلى أساس الجنسية التي تحملها، وهكذا السلع والمنتجات المختلفة كثيراً ما ينظر إلى بلد المنشأ أكثر من النظر إلى خصائصها الذاتية؛ فالسلع الألمانية تستقبل بالثقة والارتياح، ويدفع الناس فيها غالباً الأثمان، مع أنه لا توجد أية ضرورة تجعل تخمين الناس وقدرتهم دائماً في محله.

إن تنمية مجتمعاتنا وإصلاحها ودعمها والدفاع عنها، هو مطلب شرعي أولاً، وهو استثمار طويل الأجل ثانياً حيث يتوفّر المناخ الآمن الصالح للعيش الكريم وتفتح الشخصية ونموها.

(١) اقتصادنا: ٢٩٨.

إن هناك مفاهيم عديدة تتعلق بالمجتمع والتنمية، لا بد من توضيحها بغية استيعاب ما سنذكره بعدُ من جوانب (هذا الموضوع). ومن تلك المفاهيم:

١ - إن المجتمع في جوهره تعبير إنساني عن مجمل العقائد والمفاهيم والأعراف وال العلاقات والمصالح التي تسود رقعة مكانية معينة، وتخضع لها مجموعة بشرية محددة.

وعلى هذا فإن تعريف المجتمع على أنه: الفرد المتكرر يعد تعريفاً قاصراً؛ لأن وجود أعداد كثيفة من البشر في أرض واحدة، لا يشكل بمفرده مجتمعًا ما لم يخضع هؤلاء جميعاً لمعايير واحدة، وإنما هو حشد أجساد، أضفت عليه عبقرية المكان شيئاً من التعاقد والتفاهم الشكلي!

٢ - إن للعقيدة دوراً مهماً في تحديد ماهية الفعل الاجتماعي، إذ إنها تحدد اتجاهه، كما أنها تفسره، وتطهر مسوغاته، وتكشف عن منطقته، كما أنها تحدد أهدافه، وترشد إلى كثير من نظمه ووسائله^(١).

وإن كثيراً من التمزق والتيه الذي أصاب مجتمعات المسلمين، هو بعض نتائج ضمور عقيدة (التوحيد) على مستوى تمثيلها وفهمها، وعلى مستوى فاعليتها في حياة الناس.

والسبب في هذا الضمور يعود في تقديرنا إلى أن أكثر الدول الإسلامية لم تهتمّ، ولم تتعـد ما يكفي من التثقيف والتعريف بالإسلام عقيدة وشريعة وما هو موجود في مناهج الدراسة مشوئ أو قاصر في أكثر الأحيان!.

ومع أن جهوداً شعبية كثيرة تبذل لتلافي النقص، إلا أن الصحيح أن (الثقافة) التي لا تبنيها دولة تنهى؛ حيث إنها الأقدر على القيام بهذه المهمة.

٣ - يتميز (علم الاجتماع) عن علوم أخرى كثيرة بأنه: العلم الذي

(١) انظر علم اجتماع المعرفة: ٩٥.

يبحث عن نفسه. ومع اكتشاف عدد كبير من المقولات والتواهيس التي تحكم الظواهر النفسية الاجتماعية، إلا أن هناك الكثير الكثير مما ينبغي عمله بغية فهم أفضل لواقع مجتمعاتنا. ومهمة عالم الاجتماع أن يدرك الظواهر التي تتكرر في حياتنا، ثم القيام بشرح تلك الظواهر وتحليلها ضمن قوانين عامة^(١).

إن كثيرةً من الدراسات التي حاولت الكشف عن السلوك الاجتماعي تمت في الغرب، وعلى أساس وأصول، وفي إطار مفاهيم وافتراضات غربية ولذا فإن تلك الدراسات والكشفات قد تفيد المجتمعات الغربية، لأنها خرجت من رحم ثقافتها. أما نحن فإن الدراسات النفسية الاجتماعية لدينا محدودة جداً، وما يتم منها يُجرى على أساس علمية أجنبية عن ثقافتنا؛ مما يجعل استيعابها لواقع المجتمعات الإسلامية قاصرأً، كما أن قدرتها على توجيه سلوك المسلم أيضاً ضعيفة.

إن فهم واقعنا على نحو جيد يتطلب معايشة ممتازة له، من خلال دراسات وتقنيات خاصة وكثيفة، وفي إطار مفاهيم ومعطيات إسلامية ومحلية.

ولا بد إلى جانب هذا أن نكون قادرين على التحرر من كثير من العادات والتقاليد والتراثات التي شكلت روينا للحياة بعيداً عن المنهج الرباني.

ولا بد من هذا وذاك من التمتع بخيال خصب يخترق حواجز المحسوس، ويساعد على رؤية الأشياء من وجهات نظر عديدة. وستظل النتائج - مهما كنا حريصين على القراءة الدقيقة - ظنية وقاصرة عن احتمال تعميمات واسعة؛ وذلك بسبب الطبيعة الرخوة والمرنة لكل ما يتصل بالإنسان من أحوال وشؤون.

(١) انظر المجتمع الصناعي: ٩، ١٣.

٤ - لل الفكر دور مهم في بناء المجتمعات، وفي تغييرها، فعن طريق المفاهيم والقضايا المنطقية يمكن تقديم تفسير واضح للفعل الاجتماعي إذا ما تم ربطها بقيم المجتمع ومصالحه وخبراته الإنسانية، كما أن الفكر هو الذي يتبع دراسة المجتمع وتقدمه؛ حيث يوفر لنا الأدوات التي تمكننا من استيعاب الواقع الاجتماعي؛ حيث يستحبيل التعامل مع أي واقع اجتماعي إلا من خلال تكوين صورة ذهنية عنه، والفكر هو الذي يشكل هذه الصورة.

وعلى الرغم من هذه الوظائف المهمة؛ فإن علينا ألا ننخدع، وألا نعطي الفكر أكثر من حقه؛ حتى لا نصاب بالإحباط، وحتى لا نسحب الثقة من العلم والفكر جمياً في نهاية الأمر！

إن المجتمع بطبيعته يميل إلى الجمود؛ وذلك لأسباب جوهرية، إذ إن الحالة الاجتماعية ما هي إلا تعبير عن قوة التوازنات الثقافية والفكرية والاقتصادية والسياسية السائدة في ذلك المجتمع؛ ومن ثم فإنه لا يتغير إلا إذا حدث تغير ملموس في هذه التوازنات.

إن الأفكار تتغلب محدودة القيمة على الصعيد الاجتماعي العملي ما لم تحدث تغييراً في مؤسسات المجتمع ونظامه. وعلى سبيل المثال، فإن إدا ساد المجتمع نوع من الخوف من المستقبل وعدم الاطمئنان إليه، فإن الحل لا يمكن في دعوة الناس إلى الاطمئنان، وإنما في إنشاء أوضاع اجتماعية يشعر بها الناس بالأمن عن طريق تقوية الإيمان بالله ورحمته بخلقه، وعن طريق تدعيم العلاقات الاجتماعية والقرابة وإنشاء بيوت لرعاية كبار السن، وتケفل الدولة بضمان الحد الأدنى من العيش الكريم لكل مواطن.

إن قيمة (الحقيقة) في الفلسفة والعلوم شيء، وفي علم الاجتماع شيء آخر؛ فقيمتها في الفلسفة والعلوم تنتهي من كونها حقيقة أو باطلة، أما في علم الاجتماع فتنبع قيمتها الأساسية من قوة تأثيرها في تحريك الواقع الاجتماعي الساكن، وذلك لا يكون إلا إذا توفرت للفكرة أو الحقيقة ملاءمة زمانية وبيئية وظرفية^(١). وإنما إذا كان الناس يتطلعون إلى التغيير والخلاص مما هم فيه.

(١) انظر التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي: ٣١٢.

وعلى هذا فقرة الظروف هي التي تغير الحالة الاجتماعية الراهنة، وليس قوة الأفكار.

وفي النهاية فإن الفكر لا يملك أية ضمانة للمحافظة على نفسه وطروحاته في مجتمع مفكك منهار؛ إذ من الممكن لمجتمع مدبر أن يتبع أفكاراً تدميرية تزيد في مأساه ومشكلاته، وأن يطمس الأفكار التي تساعده على بلوغ الأمان.

ونستطيع أن نقول بعد كل ذلك: إن مأساة كثير من دعاتنا ومفكرينا تكمن على مدى حقب متطاولة في الانكال على صحة الأفكار، والتقاعس عن توظيفها، وإيجاد الظروف المناسبة لعملها. إن ما نعاني منه من المفارقة بين صحة الأفكار وجودتها عملها يمثل موضوعاً محزناً للقراءة !! .

٥ - إن بين علماء الاجتماع اتفاقاً تاماً على أن الفرد بدون عضويته في الجماعات المختلفة لا يستطيع أن يتجاوز المستوى (الحيواني) بل يظل عند أصله (البيولوجي)، كما هو الشأن في الطفل المتواحش الذي ماتت أمه، وأرضعته غزالة في غابة، فإن ما يملكه من رصيد إنساني لا ينمو بل يتدهور وعلى هذا فإن الراهب والأنطروائي والمنعزل والذي يخاف من إقامة علاقات سوية مع الناس، هم بمعنى من المعاني أدنى من مستوى إنسان، لأن نمو ذواتهم لا يأخذ كل أبعاده، ولأن خبراتهم تظل جزئية وناقصة.

ويمكن أن نصور الوظائف الأساسية للمجتمع في النقاط التالية:

أ - تأمين الشروط الأساسية للحياة المادية؛ فمن حق كل من يعيش في مجتمع أن يلقى من الرعاية والحماية والتكافل ما يمكنه من الاستمرار في الحياة. والإسلام أول دين شرع القتال من أجل الفقير، وأخذ حقه من الغني! وعلى الدولة أن تضع نصب عينيها تحقيق الكفاية من ضرورات الحياة، ومن التعليم والتدريب والصحة وإيجاد فرص العمل لمواطنيها، واتخاذ كل التدابير لتأمين ذلك، وعلى كل القادرين في المجتمع أن يساعدوها في تحقيق هذه الأهداف. وإن المجتمع الذي لا يقوم بالحد الأدنى من حاجات أفراده، هو مجتمع مريض.

ب - توفير شروط الحياة المعنوية والروحية، إذ من حق المسلم على مجتمعه أن يجد فيه الحرية والحفاظ على الحقوق ودفع الظلم وتكافؤ الفرص والنصح والتوجيه، وتأمين كل ما يحفظه، ويساعده على القيام بأمر الله - جل وعلا . . .

ج - تنظيم الطاقة الحيوية للفرد من خلال وسائله في ضبط أفراده ورقبته عليهم، بمعنى أن يحول المجتمع الفرد من شخص غرائز يجري خلف شهواته ومصالحه إلى شخص مكيف يمارس حرياته، ويصرف طاقاته وينؤمن مصالحه ضمن القواعد التشريعية والأخلاقية والسلوكية التي يحددها مجتمعه.

د - إدارة التكامل، وحل التوترات التي تحدث بين المكونات المختلفة للحياة الاجتماعية؛ حيث إن حياتنا تخضع لنظم عقائدية وتربيوية وتعلمية وأقتصادية متعددة؛ ومن ثم فإن المتوقع حدوث نوع من الخلل والتصادم في علاقة هذه الأنساق بعضها ببعض، مما يؤدي إلى تشويه الشخصية الاجتماعية وقدها للتوازن. وهناك توترات تنشأ بسبب البغي والنهي إلى المكاسب غير المشروعة، ويسبب شح الموارد واشتداد الطلب عليها؛ ومن واجب المجتمع إدارة تلك التوترات، والتخفيض منها بقدر الاستطاعة. ولا يستطيع مجتمع أن يفعل شيئاً ذا قيمة من كل ما سبق ما لم يعتمد في تعامله أسلوب المفاتحة والنقد والمراجعة، وقبل ذلك الشفافية والرحمة وتطبيق العدالة المطلقة.

٦ - إن من المهام الأساسية للتنمية الاجتماعية دعم العلاقات الاجتماعية: علاقات الأخوة والقرابة والجوار والزمالة والضيافة، وتنمية مفاهيم التقدير والتسامح والفهم المتبادل . . .

كل التعاليم والأداب الإسلامية تهدف إلى تقريب الناس بعضهم من بعض، ومن ثم فإن هذه المسألة يمكن أن تكون معياراً مهماً لمدى التقدم الذي يحدثه أي مجتمع مسلم. وعلينا في هذا السياق أن نلاحظ أمرين:

الأول: هو كيفية ترجمة المكاسب الاقتصادية التي حصلت عليها شرائح

عديدة في مجتمعاتنا إلى مكاسب اجتماعية واضحة؛ إذ من الممكن أن تكون تلك المكاسب عامل تخريب اجتماعي، حيث يستخدم المال لاستفزاز القراء، وإشاعة نفسية التسلق الاجتماعي، إلى جانب الحسد والحقن والكبر وتبييد الثروات... وهذا كلّه سوف يحدث إذا لم نملك من الحنكة والنباهة ما يمكننا من تحويل التقدّم الاقتصادي إلى تقدّم أخلاقي واجتماعي من خلال بث روح تحمل المسؤولية والرقابة الداخلية، والتوجه إلى نفع الناس، وإيجاد آليات جديدة في التواصل والترابط والتعاون...

الثاني: هو تلطيف الشمن الاجتماعي الذي ستدفعه نتيجة اتساع المدن وترابع الحياة الريفية^(١)، ودخول التقنيات الحديثة في حياتنا، ومن الواضح أن المجتمع لا يستقبل آلات وتقنيات فحسب؛ وإنما يستقبل معها أيضاً أساليب معيشية وعلاقات جديدة؛ وهذه كلّها تولد لدى المجتمعات المحلية نوعاً من التقليد الطائش للبلدان المنتجة للسلع الترفيهية؛ وهذا كلّه يؤدي إلى تفكك عرى التضامن، ويضرب الوحدة العميقه للمجتمع^(٢).

إن كثيراً من دول العالم الإسلامي يشهد نزوحًا هائلاً من الريف إلى المدن؛ مما أدى إلى نشوء أحزمة من السكن العشوائي المتّخّم بالفقر والفوضى؛ وقد تم بذلك قلع أعداد ضخمة من البشر من جذورها، وإبعادها عن بيئتها الطبيعية! وكل هذا بسبب تمركز الوظائف والأعمال الصناعية والخدمية في المدن، وبسبب تدهور الحياة الريفية والزراعية.

ولذا فلا بد من حلول لمعالجة الهجرة المتزايدة، ولإعادة إعمار الريف وإنعاشه، إذا أردنا للمسألة أن تقف عند حد معين!

(١) انظر التربية والتقدّم: ١٠٤.

(٢) انظر فلسفة لتنمية جديدة: ١٩١.

(٢) مبادئ وشروط في تنمية المجتمع

الله - جل وعلا - ستن تحكم حياة الفرد، وسفن تحكم حيوانات الأفراد مجتمعين؛ وفي إطار هذه وتلك جاء التكليف الرباني للعباد، وابتلاوه لهم. السفن التي تحكم حياة الفرد غير السفن التي تحكم حياة الجماعة، وهذا يعني أن مصالح الفرد، قد لا تتطابق دائمًا من مصالح الجماعة؛ وهنا يمكن جوهر الابتلاء في الحياة الاجتماعية.

إن مما لا ينبغي أن يغيب عن أذهاننا أن المبادئ لا تعمل في فراغ، وإنما تحتاج كيما تصوغ حياتنا، وتكون حاضرة فيها - إلى شروط موضوعية وفنية، علينا أن نعمل على توفيرها، وهي شروط تخضع في مجملها للنماذج الاجتماعية.

و سنذكر هنا بعض المبادئ والشروط والتوصيات التي نرى أن استيعابها ضروري لتنمية حياتنا الاجتماعية؛ وذلك في المفردات التالية:

١- الاستقامة شرط لوجود الفائض الاجتماعي:

يمكن القول: إن أحد أهم مقاييس استحقاق حشد من الناس اسم (مجتمع) هو ما فيه من أفراد ومجموعات تُعنى بالشأن العام، وتنتجاوز حركتها اليومية دوائر مصالحها الخاصة إلى الانشغال بمصالح الجماعة. وبما أن كل مجتمع لا يخلو من هذه الشريحة؛ فإن المهم هو الحجم الذي تمثله في مجتمعها، وأدوات التأثير التي تملكها.

ويعتبر كفايتها هو الوضعية الاجتماعية العامة؛ فإذا وجدنا الأمور المشتركة بين الناس مخدومة بعنابة، وإذا وجدنا الخطأ والانحراف محاصرين

على نحو جيد، فإن هذا يعني أن ما هو مطلوب موجود ومناسب وإذا وجدنا أن المظلوم لا يجد ناصراً، والضعيف لا يجد معيناً، والمفسد لا يجد رادعاً؛ فإن هذا يعني أن كتلة أهل الخير غير كافية، ولا فعالة؛ ومن ثم فإن ما نسميه مجتمعاً هو مجتمع ناقص ومهدد، وهو أقرب إلى أن يكون تجمعاً.

وجود هذه الشريحة المباركة هو التعبير الحي عن وجود فائض اجتماعي، حيث توفرت طاقات زائدة على ما تتطلبها الحياة الفردية لبعض الناس. والسؤال الدائم والملح؛ كيف يمكن إيجاد هذه الطائفة؟

في قوله - جل وعلا -: **﴿وَالَّذِينَ يُمْسِكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَهُمْ بِأَجْرِ الْمُصْلِحِينَ﴾**^(١) إشارة إلى أن الذين يتمسكون بالكتاب هم الصالحون؛ فالإصلاح يتاتي من وراء الالتزام بمضمون الكتاب وهذا ما تشهد به وقائع الحياة الملمسة؛ فالذين يتبرعون، ويبنون الجمعيات الخيرية والمسافى المجانية وملاجئ الأيتام، هم في غالب الأمر من الملزمين بالنهج الإسلامي القوي.

وهذا يعيدنا إلى حقيقة مسلمة، هي أن الفرد هو جوهر المجتمع؛ ولا نستطيع أن نحافظ على ترابط مجتمعاتنا ونقاها بغير إشاعة الالتزام بين الأفراد، وتکثير سوادهم، وما قل الملزمون الصالحون في مجتمع إلا ضرب فيه النهب والفساد والانحلال الخلقي أطباه. وما أجمل قول الله - تعالى -: **﴿وَأَلَّمْ أَسْتَقْدِمُوا عَلَى الظَّرِيقَةِ لَأَسْفِيَتُهُمْ مَأْذَنًا﴾**^(٢). فالاستقامة شرط لاستفاضة الخير وتماسك المجتمع.

٢ - يستمد العامل الإصلاحي قوته من الظروف المحيطة به:
حين تنسد الآفاق أمام الناس، فإنهم يبحثون عن مخرج، ويغلب عليهم

(١) سورة الأعراف، آية: ١٧٠. وسنة العرب في كلامها تقضي بأن يقال: (أجرهم) لكن كلمة (المصلحين) جاءت لإفاده هذا المعنى الكريم من الشهادة لهم بالإصلاح، ولو لاها لما فهم ذلك.

(٢) سورة الجن، آية: ١٦.

الإدراك الأحادي للحلول؛ لأن تركيبتهم العقلية تميل إلى أن تكون بسيطة؛ ومن ثم فإن منهم من يعتقد أن شح المال وقلة الموارد يمثل رأس المشكلة، فإذا ما توفر المال حلت المشكلة، ومنهم من يرى أن فقد القيادات السياسية والإصلاحية الفذة هو أساس المشكلة؛ ولذا فإن الخلاص منوط بوجود شخصية سياسية مثل شخصية عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أو قائد عسكري بارع مثل صلاح الدين أو مصلح كبير مثل ابن تيمية أو العز بن عبد السلام.

ومنهم ومنهم... وهذا كله وهم، وهو إلى جانب ذلك نوع من أنواع الهروب من المسؤولية، ومظهر من مظاهر العجز!

ونحن لا ننكر - بدأهـة - الأثر الذي قد يحدثه الفرد الفذ المتميز، والفرصة العالمية النادرة، والثروة المالية الطائلة... من آثار وتغييرات في حياة الأمم والشعوب، لكن الوضعية العامة للأمة تظل أهم بكثير؛ فإذا كانت مقبولة، ومنطوية على إمكانات إيجابية، فإن أضعف العوامل شأنـاً يمكنه أن يدفعها إلى الأمام، وإذا كانت على خلاف ذلك، فإن أقوى العوامل تأثيراً يفقد فاعليته، ويتبلاشـى تأثيره^(١).

هناك أحداث تعد تافهة جداً في الأحوال العادية، تكتسب أهمية استثنائية عند التلقائـها ببعض الظروف والأوضاع. إن زلة لسان، أو كبـوة فرس، أو تأخر قائد في النوم، أو مرض عالم، إن هذه الأشياء الصغيرة قد تسبب نكبة لمجتمع، لا يستطيع الخلاص منها عبر عقود عديدة!!.

إن الذي أريده من وراء هذا الكلام هو أن نزيـع عن طرق تفكيرنا العامل الوحيد والسبب الوحيد والطريقة الوحيدة، وأن ننزع من نفوسنا الرغبة الجامحة في الحلول الآتية الجزئية والسرعـة، ونصير عوضـاً عن ذلك إلى تشغيل كل فرد من أفراد الأمة بشـيء نافـع، ولو كان صغيرـاً، فذاك هو الطريق

(١) يرىـ أن عمر - رضي الله عنه - سمع يدعو في آخر حـجة له بهذه الكلمات: اللهم لقد اتسـعت رعيـتي * ووهـنت قوتـي فاقـبضـني إلـيـكـ غير مـفرـطـاً.

الأقصر إلى تحسين الوضعية العامة للأمة، وذاك هو الذي يمنح التقدم شيئاً من الاستقرار والثبات والتراكم؛ وأنذاك تحول كل العوامل والمؤثرات المحدودة إلى عناصر إيجابية بناة.

٣ - عند انتشار الظلم لا يبقى شيء مقدس:

قد تعودنا أن ننظر بعين الاستغراب والاستهجان إلى تقاتل شقيقين على منصب، أو مبارزة ابن لأبيه على مغنم، أو استعداء بعض الناس لقبيلة أخرى على قبيلتهم لأي سبب كان؛ فهذا كله ليس مقبولاً ولا مسُوغاً تحت أي ظرف من الظروف.

أما اليوم فقد تغيرت أشياء كثيرة حيث حلَّ في موضع مفاهيم التاريخ القديم تاريخ كوني عام، وقيم ومطالب كونية، وثقافة جديدة سائدة، وأصبح من السهل تغيير اللغة، وتغيير الأحلاف والولايات، والالتزامات إذا تبدلت المصالح. ولم تعد تجد هذه الفتنة أو تلك أي حرج في التعامل مع فريق أجنبي لضمان المصالح المادية^(١).

ويسهل مرة أخرى تجاوز كل تقاليد الاحترام والتفاهم والولاء حين يشعر المرء بغيرن فادح، حيث يصبح على استعداد لعمل أي شيء؛ إذ لم يبق هناك تصرفات لا تقبل التعليل والتسويغ، وعلى هذا فإن المجتمعات التي لا تستطيع إيقاف المتنفذين والمتحللين، وأرباب الشهوات والمطامع عند حدودهم، مجتمعات تضع مصيرها في مهب الريح؛ فالوازع الداخلي لدى أكثر الناس قد ضعف، وصار معقد الانتماء والولاء للجماعة يرتكز على مدى تأمينها لحقوق أفرادها، وعلى مدى حمايتها لهم؛ فإذا لم تستطع ذلك، فإنه لا معنى للحفاظ عليها، والدفاع عنها. وهذا هو العامل الحاسم في مظاهر التوحش والهمجية التي نجدها اليوم لدى كثير من المجتمعات.

إن المنطق السائد والقناعات الراسخة اليوم تبيح لمن وقع عليه الحيف

(١) اعتيال العقل: ١٧١.

دون مناصرة المجتمع له أن يفعل ما يستطيعه لدفع ذلك الحيف، ولو كان التآمر، والتهديد للكيان كله! إن الظلم ظلمات في الدنيا ويوم القيمة، وعلى الذين لا يفكرون إلا في أنفسهم أن يستعدوا لدفع أفحى الأثمان!!.

٤ - التوازن الاجتماعي رهن بالتبادل:

كل من يعيش في مجتمع يطمح إلى أن تكون علاقته مع أفراد مجتمعه علاقة (تبادلية) ذات اتجاهين. والواقع الاجتماعي، هو دائماً واقع تبادلي على مستوى السلع وال الحاجات، ويرغب الناس على نحو مستمر في تعميم هذا الواقع على الحياة المعنوية بكل صورها، إنهم يرغبون في أن يأخذوا ويعطوا، ويتأنروا، ويتؤثروا، ويتعلموا ويعلموا^(١)...

والحقيقة أن هذه هي الطريقة الوحيدة لحفظ توازن المجتمع، وصونه من السقوط.

وحين يُوقف هذا التبادل، وتتكلس الوضعيات المختلفة، يتباطأ تقدم المجتمع، وتتفاقم مشكلاته، وتكثر انقساماته، ويصبح الناس ما بين متصرف غال، وما بين إمعنة مقلد، وما بين متكبر متجر، وما بين مستضعف مطموس الشخصية والحقوق. ويصبح من المألوف أن ترى أقواماً لا يحسنون إلا الكلام، وأخرين لا يتاح لهم إلا الاستماع، وأقواماً خلقوا للثراء والوجاهة، وأخرين خلقوا ليكونوا في السوق، وعلى حواشى الحياة، دون أية فرصة للتحسين والترقى!

في هذه الحالة يصبح كل شيء شكلياً، وتصبح الكلمات لا معنى لها، وتفقد الحياة طعمها؛ وعلى كل واحد أن يبحث عن مصيره بشكل منفرد... !!

في ظل المدن الكبرى والمجتمعات الواسعة ما عاد مجدياً ترك التبادل

(١) هذا كله في حالة السواء الاجتماعي، أما في حالات انتشار الأمراض الاجتماعية من الاستبداد والظلم والتقطاع فإن ذلك ينحصر، ويقتصر.

الاجتماعي يجري على نحو عفوی من غير قصد، ولا تنظیم، كما كان عليه الحال في الماضي، بل لا بد من بناء مؤسسات وأطر شوریة وبحثیة وثقافیة، يتم من خلالها التفاهم والتبادل بين الناس بطريقه حضاریة وسلمیة، حتى لا تترك الساحة الاجتماعیة لقوى الشر، وأصحاب التزوات، يحرکونها لحساب مصالحهم الشخصية!

لا بد أن تظل آفاق الصعود والترقی الاجتماعیة مفتوحة للأفضل والأعلم والأفعى، حتى يستمتع الناس بشار جهودهم وملكاتهم، وإلا فليس أمانا إلا الخمول والموت البطيء، أو التحلل والانفجار الداخلي!

إن النظم الاجتماعیة تعمل بطريقه قریبة من عمل النظم الطبيعیة، فالقضاء على العصافیر - مثلاً - قد يؤدي إلى زيادة الديدان، وإن تکاثر الديدان قد يقضی على المحاصیل؛ وإن الحل يمكن في ترك التوازن البيئي والاجتماعی يخضع لسنة المدافعة: «وَلَوْلَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بِعَصْمَهُ يَعْصِي لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ»^(١).

٥ - تنحط النخبة حين تخلى عن واجبها تجاه مجتمعاتها:

مهما ترقى المجتمع، وتعاظمت خبراته، فإنه سيظل ينقسم إلى خاصة وعامة، وتابعین ومتبوعین. وهذا التنوع ضرب من ضروب التوازن والتکامل الاجتماعي، كما أنه مظهر من مظاهر الابلاء. العامة وأشباههم قاصرون عن إدراك الواقع وتشابکاته وتداعياته، ومن ثم فإنهم يعتمدون على الصفة في اختيار الموقف الملائم، ورد الفعل المناسب . . .

إن الله - تبارك وتعالى - يسأل على مقدار ما يعطي، وميزات الصفة ليست مداخل للوجاهة والمنافع المادية فحسب، وإنما هي مناط للمسؤوليات الشرعية والأدبية والأخلاقية أيضاً.

ومعالم تلك المسؤوليات عديدة، منها: توجیه الناس وإرشادهم

(١) سورة البقرة، آیة: ٢٥١.

وتعليمهم وتبين مراشد الحق ومناهج الهدى لهم، حتى يحيا من حي عن
بينة، وبذلك من هلك عن بينة؛ وفي هذه المسؤولية عهد وميثاق الله - جل
وعلا -:

﴿وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيقَاتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتَبَيَّنَتْ لِلَّاتِيْنَ وَلَا تَكُونُونَ فَتَبَدُّؤُهُ
وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَقُوا بِهِ مُنَّا قَلِيلًا فَيَسْرُ مَا يَشْرُونَ﴾^(١).

ومنها: تكوين عقلية الناس تكويناً متوازناً بيسط كل جوانب الصورة،
وذكر الإيجابيات والسلبيات لكل قضية كبرى تمس حياة الأمة ومستقبلها.

وهذه القضية من أخطر مسوّليات الصفة، حيث إن القيام بها قد يجر
عليهم بعض المتابع، وقد يفوت عليهم بعض الغنائم، ولكن لا خيار لهم
في ذلك. وإذا لم يستطع الواحد منهم أن يفعل ذلك، فليت الله - تعالى -
وليلزم الصمت، فإنه لا يُناسب إلى ساكت قول. والخلل في القيام بهذه
المهمة هو الذي أفقد مجتمعتنا توازنها وحدسها أمام مختلف القضايا،
والأحداث الكبرى، وهو الذي شوّه رؤيتها للوضعية المثلثة التي ينبغي أن
تكون عليها^(٢)!

إنني أقول بكل صدق: إن الأمة الفقيرة ليست هي التي لا تملك المال
أو الموارد الكافية، وإنما هي الأمة التي تخلفت في أيام شدتتها وحيرتها، فلا
ترى عندها مفكرين عظاماً أمناء ينصحون لها، ويدلونها على طريق الخلاص
وينمون خبراتها النقدية.

إن أول شرط ينبغي توفره في أولئك المفكرين هو أن يتمتعوا بالحد
الأدنى من صفات (الرجلة^(٣)) وإلا فما أسهل أن يصبحوا تجاراً بمستقبل
الأمة وأمنها وكرامتها وحقوقها، وأنذاك فإنهم لا يستحقون اسم صفة أو
نخبة؛ لأن الصفة التي لا تدافع عن مبادئ الأمة وحقوقها ليست صفة،

(١) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

(٢) بسطنا هذه القضية في كتابنا: (أصول في التفكير الموضوعي).

(٣) قال أحدهم: إن الذكور كثیر، والرجال قلیل!!

وإنما هي شريحة اجتماعية منحطة بائسها، اختارت لنفسها التجارة بالممنوعات والمحرمات، فما أخسرها من تجارة؟!

إن أعلى نقطة في قمة الجبل هي أدنى نقطة إلى التدهور نحو القاع، وإن زلة العالم زلة العالم، لكن يبدو أن غلبة الأهواء، والانجداب نحو المصالح الخاصة قد أفقد الكثيرين الحساسية تجاه كل شيء!!.

٦ - لتعلم من عالم (الحشرات) شيئاً من التقاني في خدمة مجتمعاتنا:

في القرآن الكريم سورتان، سميتا باسمي نوعين من الحيوان، هما النمل والنحل، ومجتمعا هذين النوعين من أرقى مجتمعات الحيوان تنظيمياً وتعاوناً وتفاهما، والله - جل وعلا - وضع فيهما من الغرائز ما جعلهما يعملان في حياتهما الأسرية والاجتماعية أعمالاً سامية، يعجز عنها الإنسان، وعلى الواحد منا أن يتعلم منهما كيفية الامتثال لمبادئه، وأن يتعلم روح التضحية في سبيل الجماعة.

وظيفة الملكة في مجتمع النحل وضع البيض، ومصدر غذائها تفرزه لها النحلات العاملات من عدد خاصة في رأسها! وللجماعة الواحدة ملكة واحدة؛ فهي لا تشكو من مشكلة انقسام القيادات!

أما النحلات العاملات فهن عمدة الخلية، وهن يقمن بمعظم العمل؛ فعلى الرغم من كونهن (عاقرات) إلا أنهن يتولين تربية الصغار وإطعامها وتنظيف المستعمرة وتهويتها... إن الجهود الهائلة التي يبذلها تجعل أجسامهن لا تقوى على الاستمرار في الحياة؛ ولذا فإن متوسط عمر الواحدة منها قرابة ستة أسابيع فقط!!

والذكر مع أنها تموت بعد عملية التلقيح مباشرة، إلا أنها تقدم عليه، وكأنها تفدي النوع بحياتها!!

إن شعار النحل والنمل المرفوع دائماً: لا قيمة لحياتي عند تعرض سلامـة الجمـاعة للخطر، وهذا هو شـعار الشـهداء في أمة الإـسلام!

إن هذه الحشرات تتصرف بغير إرادة دون استخدام للتفكير، وكان الله - تعالى - بث فيها تلك الغرائز ليرشدنا إلى العمل الجماعي الأمثل في حياتنا؛ حيث التعاون والتفاهم وتقسيم العمل والتضييق والإيثار!

٧- وضوح أهداف المجتمع شرط لحفظه:

في دوامة التخلف والمشكلات المتلاحقة لا يدرى المصلحون ماذا يعملون؟ ولا بأيها يبدؤون؟ ومن ثم فإنه لا بد من إيجاد نوع من الإجماع الشعبي على الأهداف الاجتماعية التي ينبغي تحقيقها خلال عشر سنوات أو عشرين سنة - مثلاً - وتحديد الزمن يساعد على تحديد البرامج والآليات التي ينبغي وضعها واستخدامها.

لكل دولة، ولكل جماعة أهداف معينة، تسعى إلى تحقيقها، لكن المشكلة الأساسية أن تلك الأهداف تكون واضحة لدى شريحة ضيقة جداً، قد لا تتجاوز القيادة، وبعض المخططين!

إذن تكون البداية بوضع خطة حضارية اجتماعية، تتضمن أبرز الأهداف الاجتماعية وأكثرها إلحاحاً.

كل أشكال القصور والانحراف موجودة في كل مجتمع على وجه الأرض، لكن بعضها لا يشكل في بعض المجتمعات مشكلة ملحة، أو ظاهرة عامة، أو وضعاً استثنائياً؛ فعلى حين يعاني مجتمع من ارتفاع نسبة المدخنين، يعاني مجتمع آخر من انتشار البطالة أو الرشوة . . .

وهناك أهداف اجتماعية ثابتة لكل الأمم، والكمال فيها دائماً نسبي؛ لذا فإنها تحتاج إلى نوع من المجاهدة المتصلة، وذلك من نحو: توسيع قاعدة المشاركة الشعبية في تسخير دفة الأمور العامة، وتوسيع نطاق الاستفادة من خدمات التعليم والتدريب والصحة والرعاية الاجتماعية، والافتتاح، وحل المشكلات عن طريق التفاهم، وتدعم التواصل الاجتماعي . . .

بعد تحديد الأهداف بدقة، ووضعها في سلم التنفيذ بحسب أهميتها

والإحاجها تأتي مرحلة نقل تلك الأهداف إلى الثقافة الشعبية، حيث تتحقق كثير من الدول في تعريف مواطنها بما يجب أن يعرفه من قضايا ومشكلات.

ولن يتحقق تثقيف الناس بدون تكافف كل وسائل التثقيف الاجتماعي؛ حيث يُحاصر الفرد من قبل المسجد والمنهج الدراسي والصحيفة والتلفاز والإذاعة واللوحات المبئثة في نواصي الشوارع، والشعارات المثبتة على السيارات والجمل القصيرة المكتوبة على إوصلات الماء والهاتف والكهرباء، وحيث تُعقد الندوات والمحاضرات.

ويضاف إلى هذا تشجيع الناس على نقد السلوكيات الخاطئة، والتصيرات غير اللائقة...

لا ريب في أن تحقيق حملات التوعية والتثقيف لغاياتها سيكون مرتکزاً على درجة الوعي التي بلغها المجتمع، وقبل ذلك على درجة رضا الفرد عن مجتمعه، ومدى اعتزازه بالانساب إليه.

إن هذا الذي ذكرناه من توعية الأمة بأهدافها - ربما كان الفرصة الوحيدة لتحقيق تقدم، طال انتظاره! .

٨- الأسر المحظمة تُبْطِّل الهمة، وتفسد الحُلُقَ :

مهما كانت إرادة الفرد صلبة ومهما كانت إمكاناته الفطرية ممتازة، فإن للظروف السيئة أثراً بالغاً في إفساده وإرباكه، وإجهاض إمكاناته...

والظروف الحسنة المواتية هي التي تخفف من محدودية الإنسان، وهي التي تمكنه من توظيف جيد لإمكاناته ومواهبه.

مدن (الصحيح) في عالمنا الإسلامي آخذة في الانتشار عاماً بعد عام، وفي تلك المدن ترى العجب العجاب، حيث الزحام، والحرمان من الماء النقى والكهرباء والصرف الصحي، فضلاً عن الطبابة والدواء.

في تلك المدن يتوفّر شيء واحد هو البيئة المثالبة للتحلل الأخلاقي

والفساد السلوكى، وإدمان المخدرات والنزاع والشجار... إنها أفضل بيئة لقتل الهمة، حيث المحيط ذو سوية منخفضة، وطمومات محدودة.

في هذا الوسط البائس ينشط أهل الخير لترقيع ما أفسده الوضع الصعب، لكن حملات الإنقاذ التي يقومون بها لا تؤتي إلا أقل القليل من الثمار لأنها تعالج الآثار، وتهمل الجذور والأسباب التي تقف وراء تلك الحياة المهينة! ولضربة واحدة على الجذور أنفع من ألف ضربة على الأغصان!

وهكذا فالخلاص من المشكلات الأخلاقية قد لا يكون في بعض الأحيان عن طريق معالجات تربوية، وإنما بأدوات اقتصادية وعمرانية ومعيشية.

٩ - حاجة المجتمع إلى الإجماع حيوية:

لا يستطيع الناس التعايش من غير معايير يتعاملون على أساسها^(١)، ولا بد لهذه المعايير أن تكون مرتكزة على معتقداتهم ورؤيتهم للحق والباطل، والصواب والخطأ.

وكم هو الشأن في كل العلوم، وكل المجالات العملية هناك أصول وفروع، وقطعيات وظنيات. وكما أنه لا ينبغي الاختلاف في الأصول، كذلك لا ينبغي السعي إلى تحصيل الإجماع على الفروع؛ فذلك غير ممكن، وغير مفيد أيضاً. وطالما حاول بعض الدعاة والمصلحين قطع دابر الخلاف في مسائل استمر خلاف الأمة فيها قروناً، ولم يحصلوا على أية نتيجة؛ لأن ذلك مخالف للسنن الربانية، ومخالف لطبعات الأشياء أيضاً. ولو أن الداعية أو طالب العلم امتلك القدر الكافي من البصيرة ووضوح الرؤية لما ضيئ الممكן في طلب المستحيل!

(١) لو أن مجموعة من الصبية الصغار اشتراكوا في لعبة من الألعاب، فإنهم سيكتشفون بعد قليل أنهم لا يستطيعون المضي فيها دون وضع بعض القواعد التي سيلعبون على أساسها.

إن التربية الاجتماعية يجب أن تتمحور حول توحيد الناس على الأصول والكلمات، التي تمثل المقاصد الكلية للشريعة، من مثل حفظ الدين والنفس والمال والعرض^(١)، وما يستتبع هذه الضروريات من أدبيات وأخلاقيات وسائل تكميلية.

يجب علينا أن نركز في تربيتنا الاجتماعية على المتفق عليه، ونجعل ذلك شغلنا الشاغل؛ فإذا ما امتنى الناس لما هو موضع إجماع، لم يضرهم الجنوح إلى قول إمام من أئمة الهدى في مسألة من المسائل، ولو كان في قوله شيء من التساهل والترخيص؛ إذ إن الالتزام الصارم بالأصول، وبالاتفاق عليه يكسو صاحبه حلية التقوى، ويصبح سلوكه بصياغ عام خير لا يؤثر فيه ما يقع من تباين نتيجة التقليد للأراء المختلفة. وفي واقعنا وتاريخنا الإسلامي أشكال من الشجار والقطيعة والتداير بسبب سنة من السنن أو هيئة من الهيئات، وقد حصل بسبب ذلك انشغال هائل عن قضايا كبرى، وأدواء دوية، تنخر في جسم الأمة؛ وذلك كله من قلة الفقه وغبış الرؤية!

١٠ - ليس انخفاض الكفاءة الاجتماعية داء لا دواء له :

إن الدعم الذي يتلقاه الفرد من مجتمعه يخفف من ضغوط المشكلات والظروف المعيشية الصعبة، وإن مما يخفف الشعور بالغرابة والخوف من المستقبل ما يوجه إليه الإسلام من تضامن أسري، وترتبط قرابي، وتعاون أخي.

ولا يخفى أن ما يأمله المسلم اليوم من دعم اجتماعي آخر في التراجع، نظراً لتعقد أنماط الحياة، وكثرة مطالبتها ونظرأً لما هيّ علينا من رياح الغرب الذي فقد نظام القرابة فيه أكثر المعاني الإيجابية.

وعلى كل حال، فلا ينبغي أن نظن أن مجرد العيش في مجتمع يجعل

(١) نظمها بعضهم بقوله:

وحفظ دين ثم نفس مال نسب ومثلها عقل وعرض قد وجـب

المرء يستحق المساعدة؛ فذاك كرم قد انتهى، وحل محله ما نسميه بـ (المقايضة الاجتماعية) فليس من حق الذي لا يصل رحمه، ولا يعاون جاره ولا يزور زميله أن يتوقع اليوم معاملة أفضل؛ وهذا يعني أن شرط نيل الدعم الاجتماعي هو التمتع بكافأة اجتماعية عالية؛ مما يولّد تبادلاً وتواصلاً وتعاوناً أكبر.

إذا ما نظرنا إلى نشاط المسلم في الحياة العامة، وجدناه أقرب - على نحو عام - إلى السلبية والخمول والانكفاء على الذات. وهذا ليس صدى لعقيدة المسلم، ولا للمبادئ التي يؤمن بها، وإنما هو رد فعل فطري، واستجابة غير واعية للظروف الصعبة التي يعيش فيها، إنه ينكحش ويتكتس، كما تكتس بعض البذور عند وجودها في ظروف غير ملائمة للإنبات! إن جانبًا من عدم اندماج الإنسان المسلم في الحياة العامة يعود إلى نوع من اليأس من جدوى المشاركة، ومن شعوره بعقم فاعليته، واعتقاده بأنه ليس هناك أية ضمانات للحصول على ثمار جهوده. وهذا ما نشاهده واضحًا من إعراض أكثر الناس عن المشاركة في (الانتخابات) حيث يعتقد أن النتائج معروفة سلفًا، وأن مشاركته، ومشاركة غيره لن تغير من حقيقة الأمر شيئاً! وهذا موقف منطقي وطبيعي.

إن تداعيات الواقع وإيحاءاته ومتطلباته هي مصدر تجديد الوعي، وإذا كان الواقع سيئاً فإنه لن يكون قادرًا على الارتقاء بوعي الفرد إلى الآفاق المأمولة، بل يدفعه إلى التقمّز والإحباط.

إن إلحاحنا الدائم على الناس بأن يكونوا رجال واجبات، لا رجال حقوق، وأن يتتجاوزوا السقف الحضاري لمجتمعاتهم سيظل محدود التأثير والثمار ما لم تحل مشكلة النظام الاجتماعي اقتصاديًا وتربويًا وسياسيًا؛ فهذا هو المحور الذي يجب أن تتركز حوله كل الجهود.

على سبيل المثال إذا كان نظام تأجير المساكن ظالماً، ومثالاً لمصلحة المستأجر - كما هو الشأن في عدد من الدول^(١) - فإن الظلم سوف يتشرّد مع

(١) في بعض الدول الإسلامية يدفع المستأجرون أجراً لمساكنهم لا تختلف عما كانت عليه =

علم المستأجر أنه جائز في موقفه، لكن ما دام القانون يجيز ذلك، فإن الظلم سيقع، وإن الذين سيمعنهم الخوف من الله - تعالى - من الاتكاء على القانون الجائز - سيكونون قلة قليلة!

إن فوائد كل الأفكار الإصلاحية، ستكون محدودة جداً إذا كانت الفكرة لا تجد المجال الذي يجعلها تبلغ منتهاها، ويضعها على المحك النهائي؛ حيث يتم قبول الفكرة ورفضها لذاتها، لا لأي اعتبار آخر، وحيث يمكن ل أصحابها أن يدعموها، ويدافعوا عنها بالطريقة التي يرونها مناسبة.

إن فقد المناخ الصالح للتجديد والتغيير وتلاقي الأفكار جعل صنيع كثير من الدعاة والمصلحين أشبه بصنيع الطائر الذي يبكي في غير عشه!!

الأجر من ثلاثة سنة، حيث لا تساوي أجرة السكن في الشهر أكثر من ثمن رطل من السكر !! =

(٣) سمات المجتمع الإسلامي المنشود

النظرة الإسلامية التي تنظم العلاقة بين الفرد والمجتمع تقوم على أساس عبادية قبل كل شيء؛ فالMuslim يتقرب إلى الله - تعالى - بخدمة الجماعة - المجتمع - والدفاع عنها، والجماعة بمؤسساتها المختلفة، وجهودها الفردية - تسعى إلى توفير الشروط الموضوعية والنفسية التي تتبع لملكات الفرد أن تفتح ولطاقاته أن توظف، وتستثمر؛ وهي تستحضر في ذلك المسؤولية الشرعية، وتستهدف نيل رضوان الله، تعالى.

هذا التعاقد لا يقوم على الاتفاق، كما أنه لا يقبل التضليل، وإنما هو ثمرة الإيمان بالله - تعالى - والخضوع لشريعته، وثمرة العيش في كنف الجماعة المسلمة.

إن كل مجتمع يدرك السمات التي ينبغي أن يتحلى بها من خلال عقائده وأدبياته وأهدافه ومشكلاته، ومن خلال الأوضاع الاجتماعية السائدة لدى المجتمعات الأخرى.

وسنحاول نحن من خلال كل هذا استجلاء أهم السمات التي ينبغي توفيرها في المجتمع المسلم، وذلك في النقاط التالية:

١ - الالتزام بالمنهج الرباني هو الصفة التي ينبغي أن تكون غالبة:

حين ينقسم المجتمع على نفسه يفقد السمات المشتركة التي يتطبع بها كل فرد من أفراده، فلا تستطيع أن تقول: إنه مجتمع متدين، ولا متحلل، كما أنك لا تستطيع أن تقول: إنه مجتمع غني أو فقير...؛ فهو عبارة عن جزر معزولة، وبؤر مشتتة. ولا يحصل مثل هذا إلا عندما يفقد المجتمع أهدافه، وتصاب معابر التبادل فيه بالتكلّس.

إن المجتمع الذي يفقد التجانس على مستوى المبادئ والأفكار والأهداف، يستهلك طاقاته في التناحر الداخلي، حيث يسوده نوع من العنف والصراع الصامت؛ إذ لا يمكن أن تتجاوز المتناقضات الصارخة في أي مجتمع دون أن يشغل في هدم كياناته وإنجازاته، والأرضيات المشتركة التي يقف عليها.

إن آلية محاولة سنتقوم بها لإنقاذ أي مجتمع، ينبغي أن تنطوي على تأكيد الصفة الغالبة عليه إن كانت موجودة، وتكونها إن كانت معدومة^(١). ولو تساءلنا عن ماهية (الصياغ) الذي ينبغي أن نصبح به أي مجتمع إسلامي، لوجدنا أن الصياغات اللغوية والعرقية والإقليمية والوطنية والقومية والمصلحية - غير صالحة جميعاً لأن تكون محاور للتربية الاجتماعية، أو لتكون قواسم مشتركة بين أبناء المجتمع المسلم، إذ إن بعضها عامل تفتت وشذوذ، نظراً لكون المجتمع المسلم الواحد مؤلفاً من أعراق وأجناس مختلفة، كما أن بعضها مثل الوطنية لا يلامس البنية العميقة لثقافة المسلم، ومن ثم فإنه عاجز عن أن يكون طاقة اجتماعية، محركة. وقد جربت بعض الدول الإسلامية أن تجعل من القومية والوطنية منبع إلهام وإبداع اجتماعي، فرجمت بخفى حنين، وظل التزوع لدى رعاياها قوياً نحو المضامين التي تحملها الثقافة الإسلامية، وهي مضامين عالمية، غير محلية ولا قطرية!

إن السمة الوحيدة القابلة للتدعم والتعميم في أي مجتمع إسلامي، هي سمة (الالتزام) إذ يمكن لإعلان التمسك المطلق بالمنهج الإسلامي روحأً ونصباً أن يقود الخطى نحو (أسلامة) المجتمع على كل المستويات، وأن يساعد على تجاوز كل عوامل التشتت والتمايز الاجتماعي.

وإنني لا أشك في أن كل جهود تبذل لإصلاح حال مجتمعاتنا، لا تقوم على أساس تعميم صفة (الالتزام) المطلق العام - سُرْوَدِ ميّة؛ لأن لدى المجتمعات المسلمة مناعة داخلية قوية ضد آلية تغييرات، تشوش اتجاهها العام، أو تبعدها عن مبادئها ومقاصدها الكبرى!

(١) انظر المذكر والغامض: ٢٢٤.

٢ - العقيدة والمفاهيم والعواطف تشكل أرضية المجتمع الإسلامي :

إن العقيدة هي القاعدة المركزية في حياة المسلمين، وهي التي تمنح الأفكار والمفاهيم قوامها وفضاءاتها، وتحدد وجهتها؛ وهذا يعني أن صفاء العقيدة ووضوحها شرط أساسي لصفاء الأفكار واستقامتها.

لا يكفي أن يكون دور العقيدة هو رسم الفضاء النظري للمسلم، وإنما يجب أن تتجاوزه إلى أن تكون عاملًا في توجيه السلوك، ومصدر دفع إلى العطاء والتضحية؛ فالعقيدة جسم وروح، وإن روحها كامن في حيويتها وفاعليتها، بل إنني أقول: إن العقيدة لا تستطيع أن تحافظ على صفائها ما لم تكن حية، وقدرة على الحث والكف. العقيدة واحدة، لكن تجلياتها متعددة، وحيويتها وحدها هي التي تجعلها تتجلى في كل زمان وفي كل مكان، في صور توحيد للمجتمع، وتوجيه لفاعلياته الكبرى، وتمييز له عن غيره من مجتمعات الأرض.

الاتساق الاجتماعي ينشأ من خلال تطابق المفهومات والمبادئ المشتركة، أو تقاربها، وهذه المبادئ حتى تكون عامل توحيد لا بد أن ترتكز على عقيدة واحدة، وإلا كانت مظاهر تشتت وانقسام بدل أن تكون مظاهر تنوع وثراء!

حين تشكل العقيدة القاعدة الأساسية للحياة الفكرية، تتوحد نظرية الناس إلى قضايا عديدة، مثل الحلال والحرام والموت والجزاء والمال والجهاد والنجاة، وأسس التفاضل والنجاج، وقطعيات الخطأ والصواب... . وهم بحاجة إلى جانب ذلك إلى نوع من التطابق المنطقي، أي أسلوب النظر إلى الأشياء، وأسلوب المحاكمة العقلية.

وحدة العقيدة، ووحدة المفاهيم تولدان اتجاهًا موحدًا للعواطف، وتحددان معانٍ التراحم والتقدير والاحترام والتواصل الاجتماعي.

بناء أرضية المجتمع الإسلامي تحتاج إلى جهود حثيثة على صعيد أضلاع هذا المثلث: العقيدة، والمبادئ، والعواطف من خلال المناهج

ووسائل التثقيف المختلفة. وتجب مقاومة كل الأفكار والتصرفات التي تُحدث الفوضى والتشويش في آلية تأثير هذا النسق في سلوك الناس وعلاقتهم.

٣ - الانضباط والدقة فيصل ما بين التمدن والتوحش :

لا يعني بالانضباط أن يسير أبناء المجتمع الواحد وفق منهج متطابق بصورة تامة، فذاك غير ممكن، ولا صحيح، لكننا نريد بالانضباط هنا خصوص أبناء المجتمع للأحكام الصارمة، والتحرك ضمن الأطر المباحة، واحترام النظم الحضارية السائدة، ولو استلزم ذلك شيئاً من التضحيات. ليس في المجتمع المتوجه والبدائي أطر واضحة، ولا أحكام تجريدية مستقرة وليس فيه أشخاص مستعدون للتضحية في سبيل انتظام مصالح المجتمع أو الرقي العام.

يحدث الانضباط في المجتمع نتيجة امتزاج عدد من العوامل، مثل رقي الفرد، والتزامه، ومثل وجود رقابة اجتماعية جيدة، وبلغ المجتمع درجة من التنظيم، يجعل فوضوية الفرد منبوذة، وعالية التكلفة.

كلما سار المجتمع في طريق التحضر شعر أن حاجته إلى الانضباط والتقييد بالتوجهات الاجتماعية - العامة - صارت أشد، وأكثر إلحاحاً. ويظل الوازع الداخلي هو أساس الانضباط الحقيقي، وهذا ما نجده واضحاً في مجتمع الصحابة - رضوان الله عليهم - حيث امتنل المجتمع جميعه لنهاي النبي ﷺ عن تكليم ثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، ولم تسجل حادثة خرق واحدة لذلك^(١)!

وقد ضبط الصحابة الكرام إيقاع حركتهم في قضايا ذات طابع شخصي، وذلك خوفاً من الواقع في محظوظ يخدش صراحة الإيمان، ونقاء الالتزام، فقد ورد في الحديث أن أم أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهما - قدمت المدينة وهي مشركة، فاستأذنت أسماء النبي ﷺ في صلة أمها وإكرامها، فأذن

(١) قصة الثلاثة الذين خلفوا واردة في حديث أخرجه الشیخان.

لها^(١). إن هذا من الانضباط العجيب الغريب حيث دفع ب المسلم للاستئذان في بسمة أو كلمة بر توجهها لأمها!!.

كل صور الدقة والانضباط كانت في الحقيقة استجابة لتوجيه القرآن الكريم لهم، وتنظيمه لشؤونهم وأحوالهم في القضايا المهمة، وفيما يظنه الناس مما لا شأن له. وهذا هو القرآن الكريم ينظم لهم دخول ماليكهم وأطفالهم عليهم، حيث قال: «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِسْتَغْنُوكُمُ اللَّذِينَ مَلَكُتُ أَيْنَكُمْ وَالَّذِينَ لَرَبِّ يَنْلُوُ الْحَلْمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّةٍ مِنْ قَبْلِ سَلَوةِ النَّفَرِ وَبَعْدَ تَضَعُونَ شَيَّابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَوةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثَ عَوَرَتِ لَكُمْ»^(٢).

وقال سبحانه واصفاً ما يليق بال المسلمين من عدم ترك مجلس النبي ﷺ ومشاهده العامة من غير استئذان: «إِنَّا أَنْهَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا بِإِلَهٍ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُمْ عَلَى أَمْرٍ جَاءُوكُمْ لَرَبِّ يَدْهَبُوا حَقَّ يَسْتَغْنُونَ»^(٣).

إن الوتيرة العالية للإيمان المتاجع، والحرص التام على الالتزام المطلق أوجدا لدى السلف الصالح درجة عالية من الدقة والانضباط المتناهي، على الرغم من أن التطور الصناعي، والأوضاع الحضارية العامة لا تتطلب ذلك، بل لا تساعد عليه!.

واليوم على الرغم من التقدم المذهل في التنظيم والدقة في مجتمعات الأرض من حولنا فإن الفوضى ضاربة أطنابها في ديار المسلمين، وهي أشكال وألوان حيث التوتر الروحي في أدنى درجاته، والاستفادة من أشكال الانضباط السائدة لدى الأمم الأخرى شبه معودة وصريحة - كما يقال - كالغراب الذي أراد أن يتعلم مشية الحمام، ف nisi مشيته، ولم يتعلم مشيتها!.

(١) أخرجه البخاري.

(٢) سورة التور، آية: ٥٨.

(٣) سورة التور، آية: ٦٢.

٤ - مجتمع التراحم والإحساس المشترك :

قدرات الناس وظروفهم متفاوتة، وكل واحد منهم يقُول وضعيته الخاصة من خلال إدراكه لأوضاع الآخرين. السعادة تتبّع من الداخل، أما الشعور بالرضا، فينبئ من خلال مقارنة المرء لأوضاعه مع أوضاع الآخرين، وعلى هذا فإن بإمكان كل واحد منا أن يكون مصدر إسعاد لآخرين، ومصدر معاونة على مكافحة لأوّل الحيات، كما أن بإمكانه أن يكون مصدر شقاء وتعاسة لهم. إن على كل واحد منا في البداية أن يساعد نفسه، وذلك بأن يقوم بالمقارنة الصحيحة، ومن ثم ورد التوجيه النبوى بأن ننظر في أمور الدنيا إلى من هو دوننا، حتى نشكر الله - تعالى - ولا نزدرى نعمه، وأن ننظر في أمور الآخرة إلى من هو فوقنا؛ حتى تستقلّ ما نقدمه، ونحاول زيادة الجهد والعطاء. وعلى الناس بعد ذلك أن يقدر بعضهم ظروف بعض، ويحاول كل منهم التخفيف من معاناة أخيه ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

إن المجتمع يكون مجتمعاً عن جدارة بمقدار ما يحسّ أفراده ببعضهم، وعلى مقدار ما يجري فيه من أنواع المراعة والمساعدة، وعلى مقدار ما يسوده من التعاطف والحب والشفقة. إن في توجيهات النبي ﷺ وسلوكه ما يدلّ على أن التفكير في راحة الآخرين وسعادتهم ينبغي أن يحتلّ جزءاً رئيساً من اهتمامات المسلم ووقته وجهده.

لقد كان من شأنه - تغديه نفسي - أن يخفف الصلاة حين يسمع بكاء صبي خلفه؛ حتى لا تُفتن أمة في صلاتها^(١). وكان يوصي الأئمة بأن يخففوا الصلاة؛ لأن فِيمَنْ خلُفُهُمُ الْمُسْكِنُ الضَّعِيفُ وَالْكَبِيرُ وَذَا الْحَاجَةِ^(٢). وكان يوجههم إلى كل ما من شأنه بث الشعور والأحساس المشتركة، كما ورد من توجيهه فيما يرويه البراء بن عازب، قال: «أمرنا رسول الله ﷺ بسبع، ونهانا عن سبع: أمرنا بعيادة المريض، واتباع الجنائز، وتشمير العاطس، وإبرار

(١) روى ذلك الشيخان.

(٢) كما عند البخاري.

المقسم، ونصر المظلوم، وإجابة الداعي، وإفشاء السلام...^(١).

إن في المسلمين اليوم من يستخدم نعم الله - تعالى - لإيذاء مشاعر المسلمين واستفزازهم، من خلال الحفلات الفاخرة، والولائم العاشرة، والبيوت والمساكن الشامخة، مما يفيض عن الحاجة، ويتجاوز كل حدود! .
ويبدو أن تبلد الإحساس كالحماقة داء لا دواء له! .

٥ - مجتمع الكفاية والحماية:

من حق الأفراد الذين يعيشون في المجتمع الإسلامي - سواء أكانوا مسلمين أم لا - أن يحصلوا على الحاجات الضرورية التي تكفل وجوههم عن المسألة، وتؤمن لهم الحد الأدنى من الشروط والمقومات التي تتبع له حياة مطمئنة متجة.

إن هناك نصوصاً كثيرة تحت الفرد المسلم على بذل المعروف لأخيه المسلم، وهذا موجود لدى كل الأمم، أما المدهش حقاً فهو وجود سوابق تاريخية، تشير إلى التزام الدولة المسلمة بضمان المعيشة الكريمة لرعاياها؛ مما يعد فتحاً حضارياً لا سابقة له! ومن تلك السوابق:

أ - روى أبو يوسف أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - مر على شيخ يهودي، يسأل، فذهب به عمر إلى منزله، فأعطيه، ثم أمر خازن بيت المال أن يجري عليه من الصدقة، وأمر بوضع الجزية عنه، وقال له: ما أصنفك: أخذنا منك الجزية وأنت شاب مقتدر على العمل، ثم نهملك عند العجز والكهولة!

فقد اعتبر عمر بيت المال مسؤولاً عن كفالة ذلك الذمي وكفایته^(٢).

ب - كتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن - وهو

(١) متفق عليه.

(٢) أثر تطبيق النظام الاقتصادي الإسلامي: ٣١٨.

بالعراق - أن أخرج للناس أعطياتهم . فكتب إليه عبد الحميد: إني قد أخرجت للناس أعطياتهم ، وبقي في بيته المال مال . فكتب إليه: أن انظر كل من استدان مالاً في غير سفه ولا سرف ، فاقض عنه . فكتب إليه: إني قد قضيت عنهم ، وبقي في بيته مال المسلمين مال . فكتب إليه: أن انظر كل بكر - الفتى الذي لم يتزوج - ليس له مال ، فشاء أن تزوجه ، فزوجه ، واصدق عنه - ادفع المهر عنه . فكتب إليه: زوجت كل من وجدت ، وقد بقي في بيته مال المسلمين مال . فكتب إليه: أن انظر من كانت عليه جزية ، فضعف عن أرضه ، فأسفله - أعطه سلفة - ما يقوى به على عمل أرضه؛ فإنما لا نريد لهم لعام أم عامين^(١) . وهذا النص لا يحتاج إلى تعليق!

وفي مجتمعات المسلمين اليوم من صور كسب الرزق ما يندى له الجبين ، فالرشوة والتسلو والسطو واللصوصية والنهب والخداع والاحتيال ، كل ذلك قنوات واسعة للحصول على المال لعدد كبير من الناس! ولا يمكن قطع دابر ذلك إلا من خلال عدد من الحلول المركبة ، وإلا من خلال خطط حكومية بعيدة المدى ، تأخذ بعين الاعتبار الأسباب الجوهرية التي دفعت أعداداً كثيرة من المسلمين إلى سلوك تلك الدروب المظلمة!

٦ - مجتمع ، حدود المباح والممنوع فيه واضحة:

للMuslimين أن يفارقوا أمم الأرض بالصرح الفقهي الشامخ الذي شيده فقهاء المسلمين؟ حيث إنه قد غطى على نحو مدهش كل ما يحتاجه الفرد المسلم في جميع جوانب حياته من الولادة حتى الممات!

أما ما ينظم أوضاع المجتمع والدولة ، ويوضح حدود العلاقة بينهما؛ فإن ما أنسجه الفقه الإسلامي من ذلك أقل مما ينبغي أن يكون لأمة حكمت رقعة واسعة من الأرض على مدى قرون عديدة.

إن منطقة (العفو) أو ما يسمى بالفراغ القانوني واسعة جداً في كل ما

(١) كتاب الأموال: ٢٨٤

يتصل بالحياة الاجتماعية والسياسية؛ مما يتيح لذوي التفوذ في المجتمع ساحة فسيحة لممارسة نفوذهم؛ وللحق نقول: إن القوانين مهما كانت مفصلة وواضحة فإنها لا تستطيع أن تغطي المجالات التي تستخدم فيها الأحكام والتصيرات المرتكزة على المصالح المرسلة، والسياسة الشرعية والموازنات بين المصالح والمقاصد.

إن من معايير المجتمع المتحضر درجة وضوح الحدود الفاصلة بين المباح والممنوع، فالفرد فيه يظل حرّاً في الحركة والتصرف حتى يقيد حركته ناءً شرعياً أو قانوني مبني على مصلحة عامة راجحة وواضحة.

إن الفرد في المجتمع المتحضر يتمتع ببرؤية واضحة لحقوقه وواجباته؛ فإذا قيل له: لا تفعل كذا، قال: ولماذا لا أفعله؟ هل هو حرام أو محظوظ؟ ويكون الجواب: نعم أو لا.

في المجتمع المتخلّف لا يعرف الفرد التصرّف الذي سيجر عليه الويلات، وهو يسمع دائماً كلاماً ملفوفاً.

إذا قيل له: لا تفعل كذا، قال: ولم لا أفعله، هل هو ممنوع؟ لا يكون الجواب نعم أو لا، وإنما يقال له: من مصلحتك ألا تفعله. وإذا فعلته جر عليك المتاعب!!.

هذه الوضعية البائسة جعلت الخوف يعيش في نفوس الناس، وصاروا يصطنعون البلاهة والغباء والجهل مع أنهم ليسوا كذلك!.

إن علينا أن نرسّخ قياماً وقواعد وأعرافاً اجتماعية، تُحترم وإن لم تكن مكتوبة، وهي جمِيعاً تؤكد ضرورة حفظ حقوق الناس وإعطائهم الفرصة للبحث عن مصالحهم والدفاع عنها، وتمكينهم من الحوار والمناقشة الحرة والمفتوحة، في كل ما يتصل بتلك الحقوق والمصالح.

ويجب أن يتساوّق مع ذلك بناء فقه سياسي اجتماعي، يبنّيه كبار الفقهاء ذوي الثقافة العالمية الراقية، من أجل توظيف المبادئ الإسلامية، وتقنيتها على نحو يضيق إلى أبعد الحدود من منطقة الفراغ الفقهي» ويضع النقاط

على الحروف في قضايا لم تزل إلى يوم الناس هذا سوى الإهمال! .

٧ - مجتمع يحل مشكلاته عن طريق التفاهم :

كان الناس في الجاهلية يعدون (القوة) أقرب الوسائل تناولاً لحل مشكلاتهم، وربما لم يكتشفوا وسيلة أخرى للوصول إلى الحقوق أو دفع المظالم، ومن ثم فما أسهل أن تقوم الحرب بينهم من أجل (نعجة) أو كلمة نهاية!! .

حين جاء الإسلام اختلف كل شيء إذ لم يعد المهم لدى المسلم تحقيق مصالحه أو سلامته الشخصية، وإنما سيطر عليه هم براءة ذمته من دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم؛ حيث غرس الإسلام في نفوسهم الخوف الشديد من جرم العدوان على الآخرين. وهذا هو القرآن يعلی من شأن حرمة النفس الإنسانية، وعظم إزهاقها بغير حق، حيث يقول: ﴿إِنَّ أَجْلَ ذَلِكَ كَتَبَنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّمَا مِنْ قَتْلَ قَسْلًا يُغَيِّرُ نَفْسَيْنِ أَوْ فَسَادًا فِي الْأَرْضِ فَكَانُوا قَاتِلَ أَنَاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَانَهَا أَخْيَا أَنَاسًا جَمِيعًا﴾^(١) .

صار الناس يتوقفون من أخذ (درهم) من مال غيرهم، كما صاروا يتوقفون من قول كلمة تُحسب عليهم غيبة أو نميمة أو تحقيراً لمسلم، وصار التفاهم والتفاوض هو السبيل الأوحد لنيل الحقوق وحل المشكلات.

إن الجهاد الذي تمت ممارسته على نطاق واسع داخل الجزيرة العربية لم يؤد إلى إزهاق أرواح كثيرة؛ إذ تذكر بعض الإحصاءات أن قتلى المسلمين والمشركيين في زمان النبي ﷺ لم يتجاوزوا ألفاً ومتتي شخص! وهذا رقم متواضع جداً في عمل ضخم أدى إلى إخضاع ما يشبه القارة لسلطان حكومة واحدة، ولا سيما أن ذلك تم في بيته شرعاً القتال وسفك الدماء.

إن خير أيام المسلمين تحضرأً ورقياً وإنسانية، تلك الأيام التي عاشها الناس في عهد النبي ﷺ وصحابيه من بعده، حيث القاعدة الملزمة بواجباتها

(١) سورة المائدة، آية: ٣٢.

المسامحة ببعض حقوقها، وحيث القيادة المتحرية للحق، الراضخة له، والباحثة عن العدل، والناثرة له. وبعد ذلك بدأ التراجع حيث ارتبك الوعي المسلم، ولم يستطع ابتداع تنظيمات جديدة تعالج مشكلة انخفاض مستوى القاعدة والقيادة، ولا هو استطاع تأسيس مفهومات وتقاليد قائمة على السلم والحوار والمجادلة بالتي هي أحسن؛ ومن ثم انفجر العنف في المجتمع الإسلامي، وبدأت سلسلة من الثورات المتلاحقة!!.

إن العنف هو القوة الكامنة في نفوس أضعف خلق الله، كما أنها كذلك في نفوس أقواهم وأعتاهم، وإن القصور الثقافي والاجتماعي، وانتشار الظلم وانعدام أعراف التفاهم، إن كل ذلك يفتح الباب على مصراعيه لكل الاحتمالات.

إن الفائض الثقافي والاجتماعي والسياسي هو الذي يؤسس فقه العلاقات البادلية، وفقه المصالح المشتركة، لكن يجب أن نكون على حذر؛ فحين يُدفع الناس إلى الزاوية الحرجة، وتتسدّد أمامهم آفاق الإصلاح، وتحسين الأحوال، ودفع المظالم؛ فإنهم يفقدون الحدس الشرعي والتاريخي والاجتماعي، ويدفعون بـ(الوحش) الكامن في أعماقهم؛ ليصبح المسيطر على كل مفاصل الحياة الاجتماعية!!.

إن أصحاب الموقف المتطابق مع الحق والعدل يجدون في الحوار والتفاهم والحلول السلمية السلاح الأمضى والأقوى لتدعم موقفهم، وعلى مقدار بُعد الدول والجماعات والأفراد عن الحق يكون احتياجها لاستخدام القوة والبطش والانغلاق. إن القوة هي التي تملأ الفجوة بين الناس والحق، ومن خلال هذا الميزان، يستطيع أن يعرف المرء أهل الحق وأهل الباطل، كما يستطيع أن يميز بين المجتمع المتحضر والمجتمع المتواхش!

٨ - مجتمع يشارك في بنائه الجميع :

في المجتمع الإسلامي المنشود يشعر كل واحد أنه مسؤول عن كل شيء، كما يشعر أن له الحق عن السؤال عن كل شيء، وفهم كل شيء.

وليس المقصود إلغاء الاختصاصات، أو كشف أسرار الدولة، وإنما المقصود أن يكون هناك يقطة عامة، تجعل كل واحد حريراً على إكمال النقص، وسد الثغرات، وإبداء المقترنات، ومعالجة الأخطاء، وتحمل جزء من تكاليف تشييد المرافق العامة، والمحافظة عليها... .

قالوا: إن الاقتصاد أكبر من أن يترك للأقتصاديين. والحقيقة أن كل شيء هو أكبر من أن يترك للمختصين؛ فليس من مصلحة أية جهة مختصة أن تشعر أنها معزولة عن باقي الجهات فيما تتصرف فيه؛ فانغلاق ذوي الاختصاص بالشأن التربوي والتعليمي - مثلاً - عن الجمهور، أو عن قطاعات التنمية الأخرى - سيؤدي إلى ضمور العملية التعليمية كلها، بسبب حرمانها من روافد اجتماعية مهمة؛ بل ربما أدى الانغلاق إلى الانحراف؛ وعلى مدار التاريخ كانت الجماعات ومنسوبي المذاهب المنحرفة أميل إلى العزلة والانغلاق، وأبعد عن المفاتحة والحوار... .

بمجرد أن تنغلق جهة على نفسها، فإنها تغرى الجهات الأخرى بأن تسلك المسلك نفسه.

وقد كان من سنة النبي ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين - بث روح المشاركة، وتعويد الناس إليها؛ وطالما كان المنادي ينادي: الصلاة جامعة، فيجتمع الناس في المسجد، ويستشارون في الأمور المختلفة، ولا سيما مسائل الحرب والسلم.

بل قد بلغ الأمر بالنبي ﷺ أن يستشير أصحابه في بعض أمره الخاصة، فحين تحدث الناس في واقعة الإفك عقب غزوة بنى المصطلق قام ﷺ خطيباً على المنبر، وقال: «يا معاشر المسلمين من يعذرني من رجل بلغني أذاء في أهلي، والله ما علمت على أهلي إلا خيراً. ولقد ذكروا رجالاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما يدخل على أهلي إلا معي»^(١).

(١) فتح الباري: ٧: ٤٣٣.

إن مما يُؤسف له أن مجتمعات المسلمين تقف اليوم من قضاياها الكبرى مواقف سلبية مخجلة، فحين وقعت أحداث (صبرا وشاتيلا) في لبنان، حيث ذُبح الألوف ضجت عواصم العالم، وقام الناس فيها، ولم يقدروا، أما في السواد الأعظم من المجتمعات الإسلامية، فقد كان موقف الناس أشبه شيء ب موقف شياه استسلمت للذبح !!

إن إحجام الناس عن المشاركة في الحياة العامة، لا يعود إلى قصور بنوي في العقيدة أو المبادئ، وإنما يعود إلى نقص مرير في النضج السياسي والاجتماعي، وفي آليات تنظيم المجتمع وأطره.

ويمكن القول أيضاً: إن ضعف التقاليد الشورية في أكثر البلدان الإسلامية بسبب رئيسي في إحجام الناس، ومع أن بعض المجتمعات الإسلامية قامت فيها صيغة للمشاركة في صناعة القرار، وصار فيها انتخابات شاركت فيها الجماهير، إلا أن أكثر ذلك، يدعو للسخرية، حيث إن جوهر المشاركة الشعبية، يتمثل في الحيلولة دون تكسل السلطة، وهذا لم يحدث في الأعم الأغلب. إن الأسماء في الأنظمة ليست بذات أهمية، فدول أوروبا الشرقية في الحقبة الماضية - كانت تصف نفسها بأنها (ديمقراطية) وهي قلاع للاستبداد والظلم وسلب الحقوق ...

وهناك بلاد أنظمتها (ملكية) لكن فيها افتتاح على الناس أفضل مما هو موجود في بعض الأنظمة (الجمهورية). المهم دائماً هو الجوهر، وهو يتمثل في مشاركة الأمة في صناعة القرار من خلال وضع مؤسسي ملزم.

يجب أن نقول: إنه لا مشاركة للناس في بناء مجتمعهم وتنميته إلا إذا وجدت آلية وثقافة واضحة لمشاركتهم في صنع قراراته. وفي الشعوب الإسلامية حب للخير، وحب للأوطان، وتقدير عظيم للدين، وتشوف قوي إلى مستقبل زاهر، لكن ذلك سيقى أشياء تتجلج في الصدور، ما لم تفتح الأبواب على مصراعيها لمشاركتهم في الحياة العامة.

إن التنтир لهذه القضايا ما زال ضعيفاً في صفوف الصحوة، وهذا سبب من أسباب بطء التقدم فيها.

(٤) أساليب ووسائل في التنمية الاجتماعية

ليست المدنية سوى البحث عن حلول للمشكلات العمرانية والاجتماعية المختلفة. وليس التخلف شيئاً سوى الرضا بالأمر الواقع، أو اليأس من إمكان تحسن الأحوال، والاستسلام بالتالي، وإلغاء أسلحة التغيير، والتفرغ لمراقبة السفينة وهي غوص نحو الأعماق! .

إن كفاءة أية وسيلة لا تنبع من ذاتها، بمقدار ما تنبع من الأسلوب الذي سيتم استخدامها فيه. وإن كفاءة أي أسلوب إنما تظهر من خلال (الخطة) الجيدة، وإن كفاءة الخطة تعود إلى مدى اتساق (الرؤى الشاملة) للإصلاح. والرؤية هي الوعي الجيد بمتطلبات الحاضر والمستقبل، والوعي بالإمكانات المتاحة، والعقبات المترقبة.

إن علينا أن نكون على وعي بأن كل الآراء والمقترحات والتوصيات والخبرات الجزئية - لا يمكنها أن تُوجَد بنفسها الشروط الموضوعية والمناخات الملائمة لعملها، وتحقيق ذاتها، وإنما الذي يوجدها هو الرؤية الإصلاحية الشاملة، والمحكّات النهائية التي يحدّدها الإصلاحيون في كل المسائل الكبرى موضع الجدل والحوار.

ومن هذا المنطلق يجب النظر إلى ما سنتذكره من أساليب ووسائل للرقي ببيئتنا الاجتماعية. وسوف نوجز ما نراه من ذلك في النقاط التالية:

١ - مسح القيادات المحلية لمشكلات مجتمعهم:

من الواضح أن الناس يحبون التعرف على مشكلاتهم بأنفسهم، ويُظهرون نوعاً من الشك أو اللامبالاة حين يعرفهم بها باحثون أو ناقدون

آخرون؛ ومن ثم فإن من الأصلح أن يقوم المختصون والوجهاء في كل منطقة بدراسات مسحية استقصائية للمشكلات الاجتماعية السائدة في منطقتهم.

ضرورة مثل هذه الدراسات، تبع من اعتبارات عديدة، منها:

- أن لكل منطقة مشكلاتها الخاصة التي يعدها الناس أكثر إلحاحاً، أو ذات أهمية خاصة؛ فعلى حين تعاني منطقة من نقص المياه، تعاني منطقة أخرى من نقص المساجد، أو ضعف الالتزام، أو انتشار التدخين... ومن طبيعة المشكلات أنها تفرز ثقافة خاصة بها، تكشف عن جذورها وبعض إمكانات حلها، والذين يعرفون ذلك أكثر من غيرهم هم أبناء المنطقة المحليون.

- ومنها زيادة وعي الناس بالمشكلات التي يعانون منها والحلولة دون تكيفهم معها بصورة سلبية^(١)، وذلك من خلال النقد، وعرض النماذج والمقارنة.

- ومنها التخفيف من حدة مقاومة التغيير لدى السكان المحليين، والمعروف أن المناطق الأكثر تخلفاً تكون في العادة أكثر إصراراً على بقاء كل شيء على ما هو عليه، وأكثر نفوراً من الجديد، ولا سيما إذا فرض عليهم فرضاً.

في عالمنا الإسلامي غموض مقصود حول كل شيء، وهذا الغموض جعل إحساس الناس ضعيفاً بحجم المعاناة التي يرثضون تحت لأوائلها، والدراسات المسحية الإحصائية المحلية المكثفة - قد تكون هي السبيل المثلث للفهم والمعرفة والإحساس.

٢ - تغيير نظرة الناس للعمل اليدوي والخدمة الذاتية:

لا تكون مبالغين إذا قلنا: إن العربي في الجاهلية كان يبطن نوعاً من

(١) ظلت المرأة تعاني معاناة صامتة قروناً عديدة من (المكتسة) حيث يقتضي العمل بها إحناء الظهر، إلى أن جاء من وضع للمكتسة عصا، وصار الكنس بها يتم والكانس معتملاً القامة!

العداء للصناعات، ولكل الأعمال الخدمية التي يباشرها المرء بنفسه. وقد حاول النبي ﷺ اقتلاع هذه العادة السيئة من المجتمع الإسلامي، ومن خلال وسائل عديدة، منها:

سلوكه الشخصي، فقد سئلت عائشة - رضي الله عنها - عن أحواله في بيته، فقالت: «كان في مهنة أهله - خدمتهم - وكان يخطي ثوبه، ويخصف نعله، ويرقع دلوه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه»^(١).

وقد أثر ذلك عند كبار الصحابة المتأثرين بالهدي النبوى، فهذا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يشاهده الناس، يقوم بمداواة إيل الصدقة بنفسه بالقطران، وهو خليفة، لكن ذلك لم يصبح ظاهرة عامة، فما لبث احتقار المهن أن عاد إلى المجتمع العربي عند انخفاض الوعي الإيمانية لدى الأجيال اللاحقة؛ ولعل هذا من أهم أسباب تخلف جميع الدول العربية في المجال الصناعي على نحو خاص!

إن كثيراً من طلب العلم والدراسة في الجامعات لا يقصد منه في كثير من بلاد المسلمين سوى نيل بعض الوجاهة والهروب من الأعمال المهنية!

وقد تسأله أحد المفكرين قائلاً: لماذا نجد رئيس جامعة في أمريكا - مثلاً - يقوم بإصلاح سيارته في ورشته ودهان سور منزله وتنسيق حدائقه، بينما يأنف أصغر موظف في مجتمع العرب من القيام بأبسط الأعمال اليدوية؟

ثم قال: سؤال ساذج؛ لأن الإل姣ابة عليه تكمن في الفروق والفجوات الحضارية بين المجتمع الأمريكي والمجتمع العربي^(٢)!

إن برامج التنمية الاجتماعية يجب أن تشتمل على تعليم أولاد المدارس تنظيف مدارسهم وفصولهم، وذهن الأرصفة، وغرس الأشجار... . ويجب أن تنشأ مراكز لتعليم الناس - مهما كان تخصص الواحد منهم - حرفة صغيرة،

(١) انظر فتح الباري: ٤٦١/١٠.

(٢) ثقب في جدار التخلف: ٤٧.

كصيانت الأجهزة الكهربائية في المنزل، أو زراعة حديقة المنزل، وما شابه ذلك. وعلينا أن نتخلص من مظاهر (الرقى الشكلي) الذي لا يُخفى وراءه إلا شخصية هزلية عاطلة عن أي منفعة! .

٣ - الاتجاه نحو (اللامركزية):

النظام الإداري هو الفضاء الذي تتنفس فيه النظم التربوية والاقتصادية والاجتماعية؛ وقد دلت تجارب عديدة أن تفويض القضايا التنموية للولايات والمناطق أنساب من جعلها تابعة لإدارة مركزية بعيدة عن ساحة التنفيذ؛ لما يحدث ذلك من المنافسة الطيبة بين الولايات، ولما في ذلك من إحساس أهل كل ولاية بأن جهودهم تصب في ولائهم، حيث يلمسون التقدم الناتج عن اجتهادهم وبذلهم. ولو أنتا نظرنا إلى نظم الحكم الإسلامية عبر التاريخ لوجدنا أنها كانت تمثل إلى انتهاج هذا الأسلوب.

إن عملية إدارة التنمية تكون مع النظام (اللامركزي) أكثر سلاسة، كما أن إمكانات المراقبة والمحاسبة والمناقشة تكون أفضل.

ويضاف إلى ذلك إتاحة الفرصة لأهل كل منطقة أن ينموا منطقتهم وفق الخصائص والتقاليد التراثية والرموزية الموجودة فيها. ويمكن إقامة بعض الأطر التي تُذكي روح التنافس في الخير والبناء والعطاء بين مناطق الدولة الواحدة، مثل المعارض والمسابقات والمؤتمرات والندوات، وما شاكل ذلك.

٤ - توفير أطر محلية لتنمية الحياة الاجتماعية:

هذه قضية على درجة عالية من الأهمية؛ إذ إن الراغبين في الخدمة العامة كثُر، ولكن مشكلتهم تمثل دائمًا في فقد الإطار الذي يعلمهم الطريقة المثلث لاستخدام طاقتهم وأوقاتهم، وينظم لهم مجال الخدمة التطوعية، ويساندهم في أدائها. ولست مبالغًا إذا قلت: إن غنى المجتمع بالجمعيات والروابط والمؤسسات الوسيطة والأئدية والجماعات التي تخدم جوانب الحياة المختلفة - هو أهم مؤشر على تقدمه، كما أن الفقر الاجتماعي الحقيقي

يتجلّى في تضاؤل مثل هذه الأطّر. وإنني أعتقد أن كل جانب من حياتنا يحتاج إلى متطوعين من الشباب والشيخ والنساء؛ فذلك هو التعبير الصحيح عن وحدة المجتمع وكون أبنائه بمنزلة الجسد الواحد.

على سبيل المثال ينذر مجّموعة من الناس أنفسهم ضمن جمعية أو رابطة أو مؤسسة للاهتمام بحماية البيئة من التلوث، ومجموعة أخرى لمحاربة الغلاء، وثالثة تهتم بإشاعة القراءة واقتناء الكتاب، ورابعة تُعنى ببناء المساجد، وخامسة لتأمين نفقات التعليم لأبناء الفقراء، أو تعليمهم حرف، وسادسة للمحافظة على المرافق العامة... .

إن مثل هذا الشمول في اكتئاف الأعمال الخدمية التطوعية كافٍ لتشغيل كل الطاقات المتوفّرة، وكافٍ لتحويل مجتمعاتنا إلى مجتمعات حية متعاونة متراحمّة نظيفة... .

ولا شك أن في كل بلد إسلامي أنواعاً من هذه الأطّر، لكن المطلوب أكثر من ذلك بكثير، كما أن الريف شبه محروم منها. إن مما يساعد على تعميم هذه الأنشطة أن ينشأ في كل ولاية أو محافظة هيئة عليا شعبية، تهتم بإنشاء الخدمات الطوعية، وتنسيطها وتوجيهها.

٥ - إشاعة روح التعاون الشعبي :

ورثت المجتمعات الإسلامية عادات جميلة في التعاون، ولا سيما في الريف، حيث كان من المتعارف عليه أن يدعى الرجل جيرانه، وأهل حيه أو بعضاً من قرياته إلى مساعدته في أعمال زراعة أو حصاد، أو تشييد منزل، أو شق ترعة، ويقوم هو بتقديم وجة خفيفة لهم؛ ويكون هو مستعداً لتقديم مثل تلك المعاونة عند الحاجة.

من المؤسف أن مثل هذه التقاليد الحميدة، قد أخذت تتلاشى بفعل التأثير بالحياة الغربية، القائمة على الاستقلالية المبالغ فيها، وبسبب هيمنة أسلوب العيش في المدن الكبيرة على الحياة الاجتماعية عامة! .

بالمكان استعادة كل ذلك، وإضافة أشكال تعاونية أخرى جديدة، تناسب مع الحياة الجديدة، مثل اشتراك مجموعة من الزملاء أو الأقرباء أو الأصدقاء بجزء من الدخل في صندوق التوفير من أجل مساعدة أعضاء الصندوق في بناء مسكن، أو القيام برحلة إلى الحج، أو إقامة مشروع تجاري، أو افتتاح ورشة... وسيكون في ذلك إغناه لقسم كبير من الناس عن الاقتراض من البنوك الربوية.

ويمكن لجماعة المسجد في كل حي أن يكون لها دور بارز في تنظيم هذه الأعمال الخيرة وهكذا حيث توجد مصالح يمكن للتعاون الشعبي أن ينشط، علينا أن نبحث عن تلك المصالح، ونحاول تحقيقها بكل أسلوب ممكن.

٦ - إحياء (الوقف^(١)) الإسلامي وتطوير وظائفه:

ما عرفت أمة بالعناية بتأمين موارد ثابتة للإنفاق في وجوه الخير - كما عرفت هذه الأمة، وقد تألفت في ذلك، فجعلته أشكالاً وألواناً، لنفع الذراري والفقراء والمنقطعين من أبناء السبيل وطلاب العلم والمرضى والمرابطين في سبيل الله؛ حتى البهائم نالها من ذلك نصيب^(٢).

شاعت ظاهرة الوقف بين الصحابة - رضي الله عنهم - في زمان النبي ﷺ، حتى قال جابر: «ما بقي أحد من أصحاب رسول الله، له مقدرة إلا وقف»^(٣). وقد كان الإمام النووي لا يأكل من فاكهة الشام وحضارها؛

(١) المراد بالوقف: تحبيس الأصل، وإتاحة منافعه لارتفاع الناس بها. فإذا وقف مسلم أرضاً فإن ما تنتجه من ثمار وزروع، يُوزع بحسب شرط الوقف. أما الأرض فلا تبع، ولا تقسم بين الورثة ولا تذهب، وتظل تستغل تحت إشراف قائم إلى أن يشاء الله.

(٢) وقف أم المؤمنين حفصة - رضي الله عنها - حلباً، قيمته عشرون ألفاً على نساء آل الخطاب، وكانت لا تؤدي زكاته. وكان بعض المسلمين يقف القديم والفالس والكتب وألات القتال، وأشياء كثيرة، تفوق الحصر.

(٣) الفقه الإسلامي وأدلته: ١٥٨: ٨.

لأنه يرى أن أكثر أراضي الشام كان في الأصل وقفاً، ثم استولى عليه الناس!

وقد كان ذلك كله استجابة لحصن النبي ﷺ على الوقف ولما ذكره من الثواب العظيم لهذا النوع من أعمال البر. وقد قال ﷺ: «من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً واحتسباً، فإن شيعته ورثته وبوله في ميزان حسناته»^(١).

لقد سدت الأوقاف من الثغرات والخلال، ودفعت بالمستوى الحضاري للأمة أشواطاً بعيدة، هي أكبر مما نظن؛ وكان لذلك أطيب الأثر في التضامن والتكافل بين أبناء المجتمع الواحد.

وقد تراجعت هذه الظاهرة المباركة تراجعاً مريعاً في عالمنا الإسلامي، ولا تكاد تلمس بشكل واضح إلا في بناء المساجد وفرشها!

ولهذا التراجع أسباب الجوهرية؛ وربما كان أبرزها (السلبية) التي صبغت الموقف العام لمسلم اليوم، بالإضافة إلى عدم وجود ضمادات كافية لاستمرار الوقف، واستخدام ريعه في عين ما حدده الواقف من وجوه الخير.

إن كثيراً من أعمال الخير لا يستمر في زماننا هذا، ولا يمكن توسيعه؛ بسبب عدم وجود روافد ثابتة، كما أن كثيراً من الناس يملك فوائض مالية، تصرف في غير وجهها، ولذا فإن هناك ضرورة حيوية لبعث الاهتمام بهذه المسألة، وجعلها في مقدمة ما يجب إصلاحه وإحياؤه في المجتمعات الإسلامية.

وفي تصوري أنه يجب القيام بأمور عديدة في سبيل ذلك، منها:

- ١ - التركيز على أهمية الوقف وضرورة مشاركة كل مسلم فيه^(٢) وإشاعة ذلك في جميع الوسائل التثقيفية، كالمناهج المدرسية، وخطب الجمعة، والدروس المسجدية، وسائر الوسائل الإعلامية...

(١) رواه البخاري.

(٢) بإمكان المسلم أن يقف كتاباً واحداً في مكتبة مسجد أو جامعة، ويإمكانه أن يقف مروحة في مسجد، أو سجادة في رباط للفقراء، أو يحرف بثراً، يشرب منها الناس.

ب - إيجاد أطر عملية كثيرة لاستيعاب ذلك، حتى يجد الراغب في وقف شيء المجال الذي يرغب فيه، والجهة التي تقوم بتحقيق تلك الرغبة، وجعلها شيئاً واقعاً ملمساً. وفي طول العالم الإسلامي وعرضه لجان لبناء المساجد، ونحن بحاجة إلى لجان كثيرة على نمطها لتشجيع ألوان جديدة من الوقف، والقيام على رعيتها.

ج - يجب أن تساهم الحكومات في ذلك بخصم الضرائب عما ينفقه المسلم على الوقف - إن كان هناك ضرائب - وتشجيع كبار الواقفين بإطلاق أسمائهم على المدارس والشوارع والأحياء والمتدينيات ...

د - وضع ميثاق شرف إسلامي على أعلى المستويات، يتضمن المحافظة على الأوقاف وضرورة تنفيذ شروط الواقفين - ما دامت راشدة ومشروعة - وتشكيل مكاتب ولجان مختلفة من جهات حكومية وشعبية للإشراف على مراعاتها، ولحماية الأوقاف من العدوان عليها، واستخدامها في غير وضعيتها الأصلية.

ه - إيجاد برامج متنوعة طويلة الأمد، يساهم من خلالها المسلمين في إعادة ظاهرة الوقف الإسلامي، وتعزيزها، كأن يشتراك الفرد بمبلغ رمزي شهرياً، على أمل أن يكون لديه قبل وفاته مبلغ يبيّن له به مسجد أو مدرسة، أو تنشأ له مكتبة، أو ورشة لتدريب الشباب على حرفة أو

إنني أعتقد أن بإمكان المسلمين أن يجعلوا ظاهرة (الوقف) الظاهرة الأكثر إشراقاً في حياتهم، والأكثر دفناً وفعلاً وإشاعة للخير، والأكثر دلالة على الارتقاء الحضاري، لو توفر لديهم ما يكفي من العزيمة والوعي !

الفَصْلُ السَّابِعُ
فِي
التَّنْبِيَةِ لِلْاِقْتَصَادِيَّةِ

- (١) توطئة.
- (٢) أسس ومحكّات في التنمية الاقتصادية.
- (٣) طرق وخبرات في التنمية الاقتصادية.

(١) توطنة

لا يجادل أحد في أن (المال^(١)) هو المحور الرئيس في حياتنا المعاصرة.

ومشكلة التعامل مع أي محور أنه يتحكم في كل الأطراف، وأن عليك أن ترجع إليه في كل تغيير تريده إحداثه في دائرته و مجالاته.

إذا قررنا - مثلاً - تهميش أثر الثروة والمال في حياتنا الاجتماعية، فإن علينا أن نقوم بإعلاء شأن بعض القيم والمثل، من نحو الزهد في الدنيا، والإقبال على الآخرة، والاندفاع نحو المتعة الفكرية، وإغناء العلاقات الإنسانية... .

وحتى تستطيع تغيير النسق القيمي لدى الناس فإنك بحاجة إلى (المال) الذي ستحتاجه البرامج والمؤسسات والهيئات التي ستقوم بهذا العمل الضخم. وهذا يعني أن عليك أن توفر المزيد من المال من أجل تزهيد الناس في المال !! .

وهكذا فالحال كما قال الشاعر :

فيك الخصم وأنت الخصم والحكم

.....

الوضع الاقتصادي لأكثر الدول الإسلامية غير مريح، فهناك نسب عالية في زيادة السكان، ولا يقابلها تنمية جيدة، ومن ثم فإن لدينا المزيد من

(١) تحدثنا في الفصل الأول من هذا الكتاب عن شيء من أهمية المال؛ فارجع إليه إن شئت.

العاطلين عن العمل، إلى جانب المزيد من الذين يتوجهون إلى الأعمال التافهة التي لا تؤمن دخلاً يناسب أدنى مستوى من الحياة الكريمة. ويتم كل هذا في أجواء تزداد فيها كلفة المعيشة، كما تزيد نفقات الصحة والتعليم والتدريب . . .

أما الحالة التصنيعية لمعظم الدول الإسلامية، فإن هناك عدداً من المؤشرات التي تؤكد أن البلدان العربية - وليس هي الأسوأ في العالم الإسلامي - في سنة (١٩٧٠) مشابهة لما كانت عليه بريطانيا في مرحلة ما قبل التصنيع عام (١٨٠٠) ولما كانت عليه فرنسا عام (١٨٤٠)^(١).

وتذكر بعض الدراسات أن نصيب الفرد من الدخل القومي لدى شعوب (العالم الرابع) لا يزال أقل من نظيره في أمريكا وبريطانيا عام (١٧٧٦)^(٢).

لا أريد هنا أن أذكر الأرقام التي تشير إلى تفاقم أزمة الغذاء والماء في كثير من الدول الإسلامية والعربية منها خاصة؛ فذاك شيء تكتب فيه الصحف اليومية في كل البلاد، وهو معروف مشهور. وإنما أريد أن أشير إلى أن الجهود التنمية التي تبذل الآن ما زالت غير كافية للوفاء بالاحتياجات المتزايدة للأجيال الجديدة؛ وقد آن وقت الفزع والقلق على المستقبل القريب الذي يتظرها!

الظروف الاقتصادية العالمية الحاضرة:

إن من المهم أن ندرك أن جهود التنمية الاقتصادية المطلوب بذلها لن تتم في ظروف مواتية من الرخاء والانفراج الدولي، وإنما في ظل مازق عالمية متشابكة، ومتفاقمة. وهذه الظروف ستلقي بكل ثقلها على الحلقات الأضعف في هذا الكون وهي الدول النامية الغارقة في مشكلاتها المتنوعة.

(١) التطورات الاقتصادية: ١٧٩. ولا يعني هذا بالطبع أن العرب يحتاجون إلى قرنين من أجل سد الفجوة.

(٢) فقر الشعوب: ٦٢.

إن الأزمات الاقتصادية كانت تقع في الماضي بسبب قلة العرض وعدم كفاية الإنتاج. أما اليوم فإن المشكلة الرئيسة، تمثل في نقص الطلب الكلي عن العرض، بمعنى حصول فائض بالنسبة للطلب الفعال قادر على الدفع والشراء.

بدأت الأزمة الاقتصادية الحديثة في مطلع السبعينيات، وما زالت مستمرة إلى يوم الناس هذا. وتتسم هذه الأزمة بخصائص عديدة، أهمها:

أ - على خلاف الأزمات الاقتصادية التي حدثت بعد الحرب الكونية الراهنة، تتميز هذه الأزمة بأنها عامة في الدول الرأسمالية جميعها تقريباً - مما أدى إلى تفاقم مشكلة الخروج من الأزمة، ومما أضعف من أهمية قنوات التجارة الخارجية في موازنة الأزمات الدورية بين دول العالم الرأسمالي.

ب - فقد آلية الأسعار لفعاليتها في مواجهة الأزمة، حيث كانت الأسعار فيما مضى تتجه نحو الانخفاض وقت الأزمة؛ مما كان يساعد على التخلص من المخزونات السلعية الراكدة، فكانت آلية الأسعار تسهم بهذا الشكل في مواجهة التناقض القائم بين الإنتاج والأسواق إلى أن يتجاوز الطلب العرض بعد وصوله إلى نقطة معينة، فتعود الأسعار إلى الارتفاع، وتجر معها حركة انتعاش جديدة.

أما الآن ففي ظل الكساد تتجه الأسعار نحو الارتفاع، وهذا ما يسمى اليوم بـ(التضخم الركودي).

ج - أزمة الديون الخارجية المستحقة على مجموعة الدول المتخلفة وصلت إلى مستويات خطيرة^(١)؛ حيث عجز كثير منها عن سداد (فوائد) القروض. وقد كانت هذه الدول تنمو في الماضي على نحو سريع ومطرد مما مكّنها من تسديد بعض ديونها، واستقدام استثمارات جديدة. وقد حرمت هذه الوضعية الجديدة الرأسمالية من أحد منافذ الخروج من أزماتها الاقتصادية.

(١) كانت ديون الدول الفقيرة عام ١٩٧١ في حدود ٨٦ مليار دولار وقفزت إلى ١١١٩٤ مليار دولار عام ١٩٨٤.

د - النهب المستمر، المباشر، وغير المباشر استنزف الفائض الاقتصادي في البلدان الفقيرة. وقد كان ذلك الفائض يساهم فيما مضى في التخفيف من اختناق الدول المتقدمة. أما في هذه الأزمة فالأمر مختلف؛ حيث إن الجهود الإنمائية قد وصلت في أكثر الدولة المتخلفة إلى طريق مسدود، وهذا يعني أن الأزمة الرأسمالية الحالية مرشحة للاستمرار أكثر فأكثر^(١).

فقد ذبح الاستعمار الرأسمالي البقرة الحلوة التي كان يعتصرها^(٢)،
وعليه الآن أن يتذمر أمره!

هذه الوضعية العالمية السيئة أربكت الفكر الرأسمالي الغربي، وأدت إلى نضوب احتياطات النظرية الرأسمالية، كما أنها أدت إلى زيادة الضغط على الدول النامية من أجل أن تخرج ما تبقى في جعبتها من مال، وما في أراضيها من ثروات؛ لتبيّعه بأبخس الأنمان. والغرب لا يتصور كيفية التنازل عن المرفهات التي تعودتها شعوبه، ومن ثم فإنه يصطنع لنا الحروب والأزمات، ويفتح شهية شعوبنا لاستهلاك ما لا تحتاجه، ويرسل السمسارة لتسويق تقنيات عالية الكلفة معقدة التشغيل ابتعاداً التخفيف من أزمته الطاحنة.

وريما كان مستعداً يوماً ما لخوض غمار حروب طاحنة إذا اقتضت الحاجة.

هذا كله يقتضي منا حشد الذات والإمكانات، إلى جانب البراعة في حسن التدبير حتى نستطيع تجاوز دوائر الخطر.

تعريف التنمية الاقتصادية:

لكرة احتفاء كثيرين من كتابنا بتحسين الاقتصاد والحياة المادية - صار الذي يتبارى إلى الأذهان من كلمة (تنمية) هو التنمية الاقتصادية دون غيرها؛

(١) انظر هذه الشخصيات وغيرها في: الأزمة الاقتصادية العالمية الراهنة: ٢٨ وما بعدها.

(٢) يقدر بعض الاقتصاديين أن ما تم نبهه في الخمسينيات والستينيات من قبل الدول الرأسمالية يبلغ نحو ٢٠٠ مليار دولار سنوياً! انظر السابق: ٧٠.

وقد كان ذلك في الحقيقة نوعاً من التأثير بأفكار سوقية، تختصر كل أشكال التقدم في التقدم الاقتصادي البحث؛ ومن ثم فإن كثيراً من التعريفات التي يذكرونها للتنمية الاقتصادية، لا يختلف أبداً بين كاتب ينتمي إلى أمّة الإسلام، وكاتب ينتمي إلى أمّة أخرى !!

ونحن نعتقد أنه لا بد من صبغ تعريف التنمية الاقتصادية بالنظرة الإسلامية لها، وهي نظرة معيارية مقتنة، لا ترى في كل نمو نمواً، ولا في كل رفاه خيراً.

ويمكن أن نعرف التنمية الاقتصادية من منظور إسلامي بأنها: «مجموعة الأنشطة التي تستهدف تحقيق قدر من الرخاء المادي المناسب لفتح جوانب الشخصية الإنسانية، بما يؤهلها للقيام بحق الاستخلاف في الأرض».

إن وجود الوفرة المادية في حوزة الأفراد والمجتمعات ليس مطلباً شرعاً مطلقاً من كل قيد، كما أن تحسين الحياة المعيشية ينبغي أن يكون جزءاً من تحسين الحياة الإنسانية عامة، وليس كلاً قائماً بذاته.

إن حديث: «نعم المال الصالح للرجل الصالح»^(١). يبعث لنا إشارات واضحة حول النظرة الإسلامية للمال والوفرة؛ فالمال الحالك الكثير ممدوح حين يقع في يد رجل صالح، ينمّي به صلاح نفسه، وينفعه في وجوه الخير، وينمي به صلاح الآخرين، ويؤدي به خلاتهم. وهذا مال يجعل التنمية الاقتصادية في الرؤية الإسلامية جزءاً من «تنمية متكاملة» تنسجم جميع جوانبها، ويعزز كل جانب منها باقي الجوانب، ويتعزز به، ويحكمه كما يُحكم به.

التنمية الفكرية الصحيحة هي التي تساعد على إيجاد وضع اجتماعي وأخلاقي واقتصادي يجعل المجتمع أقرب إلى الالتزام، وتحقيق أهدافه الكبرى في هذه الحياة.

(١) أخرجة أحمد في مستنه.

ويقال مثل هذا في التنمية الاقتصادية والاجتماعية...، وإدراك قوانين
هذا التكامل وحدوده - لا يستقيم للبشر ذوي الرؤية القاصرة والمعرفة
الجزئية، وإنما نستقيه من المنهج الرياني المعصوم المعبر عن المعرفة الكلية
المطلقة لـ «اللَّهُ أَعْطَنِي كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ثُمَّ هَدَى» والذى «يَعْلَمُ أَتْيَرَ وَأَخْفَى».

(٢) أسس ومحاذات في التنمية الاقتصادية

لا يختلف فقهاؤنا واقتصاديونا في أن للإسلام رؤيته الخاصة في التنمية الاقتصادية على مستوى العقيدة والفلسفة، وعلى مستوى الوسائل والإجراءات والتدابير. وككل منهجية شاملة هناك عناصر وأفكار جزئية، هي محل اختلاف واجتهاد، وهناك عناصر، هي محل اتفاق واجتهاد؛ لأنها تمثل صلب المنهجية وعُمدها. ونواجه دائمًا بعض المشكلات في التعامل مع قضايا ومسائل، هي بطبعها حائرة بين الأصول والفروع، والقضايا المفوضة إلى (الدولة) حيث يتركها بعضهم لما تملية السياسة الشرعية والمصالح المرسلة، على حين يضع بعضهم عليها بعض القيود.

ولدينا مشكلات أخرى في مجال معالجة قضايا التنمية والاقتصاد الإسلامي - عامة - ومنها:

- أن كثيراً من الباحثين يقفون في معالجة مشكلات التنمية عند الأسس والمنظلمات العامة، دون أن يتساءلوا عن كيفية تطبيقها، وجعلها واقعاً حياً، وقليل منهم أولئك الذين يتساءلون: لماذا نملك أفضل نظرية تنمية، ونعيش في أسوأ واقع مادي؟!

كثيرون يقولون: يجب على الدولة أن تومن الحاجات الأساسية للناس، ولا يتساءلون من أين تأتي الدولة بالأموال في بلد شحيح الموارد، كثير السكان؟ كما أنهم لا يتساءلون عن الآلية التي تمكّن من تصحيح القرارات الحكومية التي تنافي النظرية الاقتصادية الإسلامية، أو مصلحة الفقراء والمستضعفين...

يقول بعضهم: الندرة ليست مشكلة، مع أنها أم المشاكل، ويقول

آخرون: الإسلام لا يعترف بالفقير، وأكثر أبناء العالم الإسلامي من الفقراء المعوزين !!

إن النزعة المثالية، تسيطر على كثير من كتابنا، وهذا مفهوم لنا بشكل جيد، حيث إن عهود الانحطاط التي مَرَ بها المسلمون جبست آفاق النظرية التنموية عند حدود ممارسة السلف؛ وحين صحا المسلمون في العقود الأخيرة على واقعهم، وجدوا أنفسهم في وضع حضاري لا يساعد على التنظير الصحيح، كما لا يساعد على تجديد الوعي التنموي !

- ومنها أن لدينا نقصاً مريعاً في القدرة على استخدام نظام الإحالة الذهنية والشعورية المختلفة، بغية الوصول إلى محكّمات واتفاقات نهائية؛ فنحن إذ نتحاور يُخيّل إلى السامع أننا عاجزون عن الاتفاق على أي شيء، وطالما انفضّ السامر عن مثل ما اجتمعوا عليه من وجهات نظر مختلفة، وإطلاقات عامة كبيرة . . .

إن مهمة (المحكّمات النهائية) أن تخلصنا من مجموع القضايا والأفكار الثانوية والجانبية والآنية؛ لتصعننا عند طرق ما يجب الابتداء به، أو الوصول إليه، أو ما لا يتم الأمر إلا به . . . ولنذكر مثالاً على ذلك: إذا انتهى بنا النقاش إلى أن لدينا تخلفاً صناعياً، وانتهينا إلى ضرورة الخلاص من هذه الحالة، وجب القول: من أين تكون البداية؟ قد يقول قائل: البداية تكون في توسيع التعليم المهني، وإقامة مراكز البحث العلمي الرائدة؛ من أجل نشر الصناعات المتقدمة، وتحسين مستواها، وخفض تكلفتها. وإذا سلمنا بصحة هذه البداية وجب القول: إن ذلك يحتاج إلى أموال، فمن أين تأتي الأموال؟ قد يقول قائل: تأتي الأموال من الضرائب ومن استثمارات الدولة. لكن المتوفر لدى الدولة من أموال يُنفق في افتتاح مدارس ابتدائية، ومعونات غذائية وصحية، وعلى الدفاع والأمن، وهذا قد تكون له أولوية. ثم إن الضرائب التي ستحصل عليها الدولة ستكون ضئيلة ما لم يكن الناتج الوطني وفيراً. ثم إن التوسيع في فرض الضرائب سوف يصد الأموال الداخلية والخارجية عن الانخراط في دورة الإنتاج. ويقال أيضاً: إن الفساد الإداري

جعل الضرائب لا تصل إلى خزائن الدولة، وإنما إلى جيوب محصلتها؛ وهكذا فالفائدة من زيادة الضرائب شبه معدومة!

ويأتي من يقول لك: إن تدبير المال اللازم لمراكز البحث العلمي والتأهيل المهني يتم عن طريق تخفيض الاستهلاك وفرض قيود على السلع الاستهلاكية إلى أن يتكون رأس مال وطني مناسب. وهنا يمكن أن يقال: إن كبار الموظفين يجب أن يقتنعوا بهذا، ويجب أن يبدوا بأنفسهم، ويقوموا بتخفيض مرتباتهم، ثم يقوموا بإقناع الناس بضرورة الالتزام بهذه الإجراءات . . .

وهكذا ننتهي إلى أن تحسين الوضع الصناعي قد يتوقف على تغيير الإنسان، لدينا من خلال تغيير النسق القيمي لديه، ومن خلال إثراء الوعي بالمستقبل ومطالبه ومخاطره^(١) . . .

لا يشترط أن يكون مضمون الإحالات السابقة صحيحاً، إنما هي إحالات منطقية، والمنطق يؤكّد دائماً على الصدق الشكلي دون النظر إلى صدق المضامين.

في إطار هذه المقدمة سنقدم بعض الأسس والمحکات التي ينبغي أن تكون على وعي بها، ونحن نقوم بتنمية الاقتصاد في بلادنا، مع الاعتراف بأنني لا أستطيع أن أصنع أكثر من وضع بعض اللوحات الإرشادية، إلى جانب إزاحة بعض الحجارة وقلع بعض الأشواك من طريق صعب وطويل.

١ - معالم المذهبية الإسلامية في تنمية الاقتصاد:

إن كثيراً من الأنشطة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية - محكوم بتنوع من الأحكام: أحکام جزئية خاصة ومناسبة لطبيعته، وأحكام عامة نابعة من العقيدة الشاملة والرؤى الكلية للحياة. إن الربا والرشوة والاحتكار ليست

(١) من مقال لنا نشر في العدد ٢٣٠ من مجلة الفيصل تحت عنوان: أسس في منهجية التفكير.

أنشطة اقتصادية فاسدة وسيئة في حد ذاتها فحسب، وإنما هي سبعة أيضاً في نظر البنية العقدية والأخلاقية لدى المسلم. وممارسة هذه الأنشطة - لا تؤدي إلى تلوث المجال التجاري وحده، وإنما يتمدد تأثيرها السبيء إلى صفاء العقيدة، وإلى علاقات المسلم الاجتماعية وسمعته بين الناس . . .

وخطورة الأحكام الكلية أنها تعمل بطريقة خفية ومؤثرة، حيث إنها تعكّر المزاج العام كله، وربما خربت البنية العميقه لإحساس المسلم بالخير والشر، ولمعاييره العامة في تقويم أحداث الحياة.

لهذه الأسباب يُعد النقل الشامل لآية تجربة اقتصادية من الغرب أو الشرق أمراً غير منطقي وغير مفيد.

لم يكن الغرب يملك رؤية شاملة (لا تاريخية) للحياة، ومن ثم فإنه كان مستعداً لدفع ثمن النمو في هيئة تغيير هيكل الحياة الغربية كلها، كما أنه كان مستعداً للاقتناع بأي تفسير جديد لأنشطة الحياتية، يتطلب النمو السريع وتراكim رأس المال^(١).

وال المسلم ليس كذلك؛ فهو يحيا، وينمي البيئة من حوله من خلال منهجية عامة، تبسيط سلطانها على كل شؤونه.

المذهبية فلسفة تجحب على: لماذا أعيش باعتباري فرداً، ولماذا نعيش باعتبارنا مجتمعاً، وكيف نعيش؟

وهي عقيدة تتضمن الغيبات وما وراء الطبيعة، كما تتضمن الواقع المادي والسلوك البشري.

إن المذهبية ذات شقين:

شق مثالي، يرسم أطر الحياة العامة، ويعن التصورات، ويبعث المشاعر العميقه، ويشير في الناس غرائز الحب والانتقام والإيثار، والانصياع

(١) انظر الغرب وأسباب ثراه: ٣٩٩ وما بعدها.

لكل ما تقرره التصورات من حقوق وواجبات. إنه يمنع المعايير التي تحكم تصرفات الأفراد مستقلين ومجتمعين.

والشق الثاني يتمثل في مجموعة القواعد العامة والقوانين والنظم التي تجسّد التصورات المجردة في سلوكيات وأنشطة محسوسة، والتي تساعد على تحقيق الأهداف والمثل التي ترمي النظرية التنموية إلى تحقيقها^(١).

ولأنني أؤثر أن يتخلل الحديث عن (المذهبية الإسلامية) في الاقتصاد أجزاء الموضوع كلها، وإذا كان لا بد من كلمة فإني أقول: إنها تقوم على أن الخلق جمِيعاً عباد الله، كما أن الكون بما فيه ملك الله - تعالى - والإمكانات المتاحة بين يدي الناس ملك أيضاً الله - تعالى - . وهم موكلون بالتصريف فيها، وعليهم أن يتقدموها بتعليمات المستخلف. والغاية من حياة البشر هي عبادة الله؛ وكسب الطيبات من عبادة الله. ويجب أن تسعى التنمية إلى استغناه كل فرد في المجتمع عن الحاجة إلى الآخرين. كما تحت المذهبية الإسلامية على أن يسعى كل فرد في المجتمع إلى نفع إخوانه وجلب الخير لهم^(٢).

وعلى مستوى الإجراءات هناك عدد من المفردات، مثل: - ضرورة تقييد الإنتاج بالطيبات والمباحات؛ وتحث المسلم على كسب قوته، والقيام بحق من يعوله من ولد وغيره؛ وتحريم إيقاع الضرر بالآخرين من خلال عملية الإنتاج والتسويق مثل تخفيض الأسعار لخارج بعض المنتجين من السوق. ومثل ضمان الدولة للحد الأدنى من العيش الكريم لأبنائهما، وقيامها بتحقيق عدالة التوزيع بين أبنائهما بحسب استطاعتها، وجواز تدخل الدولة لإحداث التوازن الاقتصادي بين طبقات المجتمع المختلفة، إلى ما هنالك من تعليمات . . .

ويبقى السؤال الملحق: كيف يمكن جعل المذهبية الإسلامية في التنمية

(١) انظر أثر تطبيق النظام الاقتصادي الإسلامي: ٣٧٠ وما بعدهما.

(٢) السابق: ٣٨٣.

الاقتصادية حقيقة واقعة، تؤمن المطلوب منها مع المحافظة على جوهرها ونقاءها؟ .

٢ - التنمية قرارات كبرى :

إن حالة التخلف التي تصيب حياتنا في الأصعدة المختلفة، ليست وليدة يوم وليلة، وإنما هي تراكمات تقصير قرون عديدة، خلت.

ومهما كانت الظروف صعبة، ومهما كانت الإمكانيات محدودة فإنه يظل أمام القيادات السياسية خيارات عديدة تجاه الأسلوب الذي سنتمي به البلاد والعباد. ويجب أن نعرف أن الزمن ليس مفتوحاً أمامنا؛ لتنهي مشكلاتنا في الوقت الذي يروق لنا، فما يمكن إنجازه اليوم قد لا يمكن إنجازه غداً؛ وكثير من المشكلات له خاصية التفاعل، والاتجاه نحو التضخم إلى أن يخرج عن السيطرة ! .

إن التنمية الجيدة تحتاج إلى مجموعة من القرارات الصعبة والتغييرات الجذرية. ومن طبيعة الناس إلف القديم، والخروف من الجديد، والاستخفاف به إلى أن يثبت نفعه وجدارته. والأهم من كل هذا أن في كل زمان وكل مكان مستفيدين من الأوضاع السائدة - مهما كانت سيئة - وهم لا المستفيدون سوف يستخدمون كل ما يملكون من قوة في سبيلبقاء كل شيء على حاله! حين تقرر دولة وضع قيود على التجارة، والاتجاه نحو الصناعة، أو تقرر تخفيض المرتبات الكبيرة، أو تقرر تغيير الاتجاه الإعلامي من الثناء على الذات إلى نقدتها... فإن عليها أن تواجه كل المتضررين من هذه التغييرات.

ليست هذه هي المشكلة الوحيدة، وإنما هناك مشكلات عديدة أخرى، منها: أن القرارات الكبرى لا تخلو من نوع من المخاطرة، فهي أشبه بقفزة في الهواء، لا يدرى ماذا بعدها؟ ثم إننا في زمان لا يمكنك أن تتملك فيه شيئاً بدون ثمن، وثمن التقدم الاقتصادي، قد يكون تفككاً اجتماعياً، وقد يكون تفلتاً في السلوك، وقد يكون... ومن ثم فإن من الواجب تحسين الآثار السلبية المترتبة على القرارات الكبرى للتخفيف منها قدر الإمكان. إن

الناس سوف يستوعبون مغزى القرارات الكبرى إذا استثثروا فيها، وإذا شعروا أنها تصب في المصلحة العامة، ومصلحة الناس الأكثر حاجة.

إن الدولة حين تعامل مع الناس بشفافية، وتكون أوضاعها العامة شفافة - تستطيع أن تقنع الناس بجدوى قراراتها التنموية الصعبة، وسوف تلقي المواردة من شريحة عريضة منهم.

٣ - تنمية التفوق أم تنمية البقاء؟

إن الناظر في جملة تعاليم الإسلام يجد أن المسلمين إذا كانوا في الوضعية الصحيحة - كما يريد الله لهم - فإن نوعاً من الوفرة سيتحقق لدى أكثرهم؛ حيث إن الإسلام يحث المسلم على العمل واستثمار الوقت، كما يحثه على حسن التدبير والاقتصاد في الإنفاق، والبعد عن إنفاق المال في المحرمات - وهي تستهلك أموالاً طائلة في العادة - ويضاف إلى هذا ما يتمتع به المسلم الملتزم من الغنى الداخلي؛ مما يخفف من شهيته للاستهلاك وجمع الطعام.

وحتى تكتمل الصورة، فإن قدرة الأمة على المحافظة على عقائدها ومبادئها، وقدرتها على نشر تلك المبادئ والدعوة إليها، وقدرتها على مد نفوذها خارج حدودها. إن كل ذلك يتطلب قدرأً من القوة المادية والوفرة المالية.

وعلى هذا فإن على المسلم أن يقتدي بالنبي ﷺ في مسلكه، حيث كان ينام على الحصير، ويلبس المرقع، ويمضي عليه أيام عديدة دون أن يذوق اللحم أو الفاكهة، لكنه مع ذلك كان يعطي لتأليف القلوب على الإسلام عطاء من لا يخشى الفقر، وكان ينفق على تجهيزات الجيوش كل ما يتوفّر لديه، ويتطلبه الانتصار في المعركة. إنه التقشف الشديد في الحياة الخاصة والإتفاق السخي على الحياة العامة! .

إن المذهب الرأسمالي يرى أن المحرك الأساسي للإنتاج هو الطلب، ومن ثم فإن الإعلانات التجارية، تقوم بفتح شهية المواطن للاستهلاك، وتلقي

في روعه أنه إذا لم يستهلك السلم المعلن عنها، فسيكون غير سعيد، وغير فعال، وسيظهر بمظهر غير لائق... وهذا كله جعل مجتمعاتنا تلهم خلف سلع كمالية، وتبكي عليها، كما يبكي المولود في طلب الرضاعة!.

إن المنهج الإسلامي معاكس للمذهب الرأسمالي، وهو يقوم على فلسفة: «استغناواك عن الشيء» خير من استغنايتك به» فاستغنائي عن السيارة مثلاً خير من أن أحتج إلى السيارة، وأن أسعى لامتلاكها، وأن أمتلكها في النهاية.

إن الحضارة لدينا ليست بإيجاد الحاجات، ثم السعي إلى تحقيقها، وإنما بتقليل الحاجات قدر الإمكان؛ حتى لا يستعبد المسلم لأي شيء كانأ ما كان.

ومن وجه آخر، فقد ورثنا أدبيات من عصور التدهور والانحطاط، تدعو المسلم إلى أن يكسب الكفاف، وما يقيم الأود، بمعنى أن يقوم بالحد الأدنى من النشاط، بما يوفر له ما يبقيه على قيد الحياة^(١)؛ مما جعل مجتمعاتنا نماذج حية للكسل والبطالة والتسيب والجلوس في العقابي، وعلى آلات اللهو، وعلى أبواب المنازل... وربما زادت ساعات البطالة على الساعات التي يقضيها الناس في المدرسة أو المصانع أو الحقل!!

قد آن الأوان لإبداع حلول غير تقليدية لهذا الأمر، والعودة إلى فلسفتنا ومنهجيتنا في إيجاد الحاجات وإشباعها، وفي الاقتصاد تقني التفقات الخاصة والساخنة فيما يعود على المصالح العامة بالخير والنفع، وإن الأ أيام القادمة ستكون محملة بكل المزعجات، ومن كافة الأصناف!

٤ - تنمية من أجل الأشد بؤساً:

إن تحسين حال الفقراء والوقوف إلى جانبهم، ليس مسألة اجتماعية،

(١) يقول الغزالى: «إن الاقتصار على قدر الحاجة فقط يؤدي إلى سقوط الحج والعزامة والكافارات المالية، وكل عبادة نيطرت بالغنى. وإذا أصبح الناس لا يملكون إلا قدر حاجتهم، فذلك في غاية القبح...» الإسلام والتنمية الاقتصادية: ١٠٢.

وإنما هو مسألة مبدأ في المقام الأول. وإن الزكاة حق الله في المال، وهي لا تصرف في بناء المساجد، ولا المرافق العامة - كما هو رأي الجمهور - لأنها لتحقيق نوع من الكفاية للفقراء. وإذا امتنع بلد عن أداتها؛ فإن الدولة المسلمة تدخل حرباً شاملة من أجلها؛ وبهذا تكون دولة الإسلام أول دولة وأخر دولة في التاريخ مستعدة لخوض حرب من أجل الفقراء!!.

وإذا لم تقم الزكاة بحاجة الفقراء؛ فإن الشرع أعطى الحق للحاكم المسلم بتتأمين ما يغطي حاجاتهم عن طريق فرض الفرائض المباشرة وغير المباشرة؛ والنصوص والأقوال في ذلك كثيرة^(١).

ولدينا نقاط عديدة تتعلق بهذه القضية، منها:

أ - لا يمكن أن يشكل الفقر ظاهرة ممدودة، ما دام الإسلام قد وضع تدابير للخلاص منه. والله - جل وعلا - جعل الفقر عقوبة لبعض الأمم، كما قال سبحانه: ﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مُتَلْأَ قَرِيرَةً كَانَتْ أَمْنَةً مُلْمِسَةً يَأْتِيهَا رَعَادًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْشَئَ اللَّهُ فَإِذْهَا اللَّهُ لِيَسَ الْجُوعُ وَالْحَوْفُ إِمَّا كَانُوا يَعْصِمُونَ﴾^(٢). وجعل - سبحانه - اليسار والخير بمنزلة المكافأة على الاستقامة والأوبة إليه حين قال على لسان نوح: ﴿فَنَفَّتْ أَسْتَغْفِرُوا رَبِّكُمْ إِنَّهُ كَانَ عَفَّارًا﴾^(٣) مُرسِلَ السَّمَاءَ عَيْكُرْ يَمْرَازًا^(٤) وَيَتَدَدَّكُرْ يَأْتُوكُرْ وَيَبِينْ وَيَعْمَلْ لَكُرْ جَتَّتْ وَيَجْعَلْ لَكُرْ أَهْرَارًا^(٥). وكيف يكون الفقر أمراً مطلوباً، وهو من العوامل المهمة في شيوع الرشوة، وتحطيم النظم الإدارية، كما أن بيته الفقر تعج بالمفاسد الخلقية والعادات السيئة، من نحو البغاء والتشرد والسرقة وتناول المخدرات^(٦).

(١) انظر: فقه السنة: ١: ٤١٦ وما بعدها.

(٢) سورة النحل، آية: ١١٢.

(٣) سورة نوح، الآيات: ١٠ - ١٢.

(٤) أوضحت بعض الدراسات الاجتماعية أن ٢٥٪ من أطفال المناطق الفقيرة - يجنحون إلى الجريمة، على حين لا تتجاوز النسبة المتطرفة في المناطق المتقدمة على ١٪ فقط. وتبيّن من بحث اجتماعي أجري في كلكتا في بنغلاديش أن ٤ و ١٠٪ من الإناث يحصلن على دخول مستقرة من البغاء (!!).

إن الفقر ليس عيباً، فـأكثـر مجـتمـعـات الـأـرـض تعـانـي مـنـهـ، وـهـوـ ظـاهـرـة طـبـيعـيـة؛ لـكـنـ المـشـكـلـةـ فـيـ الأـدـبـيـاتـ التـيـ تـشـجـعـ عـلـيـهـ، وـفـيـ هـدـرـ الـإـمـكـانـاتـ وـالـطـاقـاتـ التـيـ تـمـكـنـ مـنـ معـالـجـتـهـ!

ب - علينا أن ندرك بوعي تام أن المحك النهائي لنجاح خطط التنمية هو التقدم في تحقيق الهبوط بخط الفقر، وذلك بأن تنخفض تكاليف المعيشة اللائقة بكرامة الإنسان مقارنة مع الدخل المتاح.

إن زيادة الرواتب والأجور تظل محدودة الفائدة، ما دامت أسعار السلع والخدمات ترتفع باستمرار بأسرع من ارتفاع دخول الفقراء والمحرومين.

إن أفضل خدمة تُقدم للفقراء هي استشارتهم في تحديد احتياجاتهم الأصلية والمثلّحة؛ فهم أدرى بمصادر معاناتهم، وتحديد أولوياتهم، وما يصلح لهم.

إن من المهم أن نوّن أن أي تغييرات أو مكتسبات سياسية أو اقتصادية لا ينفع بها السواد الأعظم من الناس، هي مكتسبات مؤقتة وغير نهائية، بل ربما أدت إلى تكوين بؤر من الصراع الاجتماعي وإشاعة الإحن والأحقاد!

ج - إن من أخطر مشكلات الفقراء في عالمنا الإسلامي اليوم الهجرة من الريف إلى المدينة، حيث يُقتلع المرء من جذوره، ليذهب ويشكّل جزءاً من حزام الفقر إلى المدينة؛ وإن الدولة تملك إمكانات كبيرة للحد من هذه المشكلة؛ إذ من المعروف أن توفير أسباب الرزق في الريف أيسر بكثير من توفيرها في المدينة. ومن ثم فينبغي أن يكون من أولويات أية حكومة بقاء قراها عامرة بالناس؛ فمن خلال توفير رأس مال صغير، يمكن تأمين مصدر

وحول علاقة الفقر بتعاطي المخدرات أوضحت بعض الدراسات أن أكثر الفئات تعاطياً للمخدرات هم الفقراء ومتواسطو الدخل. وتشير بعض الدراسات أن استهلاك المخدرات في باكستان قد وصل إلى نحو ٣٤ طن متري في العام. وفي أفغانستان وصل إلى ٤٠ طن متري.

انظر: فقر الشعوب: ٢٠٨ - ٢١٠.

رزق لأسرة صغيرة، وذلك مثل شراء (بقرة) أو بناء بحيرة صغيرة لتربيه الأسماك، أو شراء (ماكينة) خياطة، ويمكن من خلال بعض القوانين تمكين الناس الأشد فقرًا من الرعي أو الزراعة في أراضي الدولة، كما يمكن تأجيرهم إياها بأجرة رمزية . . .

سوف نستطيع أن نعمل الكثير حين يصبح هم الفقراء والمشردين همًا عاماً للمجتمع الإسلامي. وعلى مقدار ما ننجذه في خدمة الضعفاء والمساكين سنكون أقرب إلى التدين الصحيح، وستكون مجتمعاتنا أكثر رقياً وتحضراً!

٥ - الندرة أكبر تحدي في وجه التنمية:

يعرف علم الاقتصاد بأنه علم إسداء السلع النادرة^(١). وقد هيأ الله - سبحانه وتعالى - للإنسان سبل العيش، ووضع بين يديه الكثير من الإمكانيات والثروات، وطلب منه أن يتدبّر أمره. وبما أن من سمات الإنسان الأساسية سمة (الاستهلاك) فإن الموارد مهما كانت كبيرة؛ فإن الإنسان سيظل يشعر بنوع من الندرة النسبية في الموارد المتاحة؛ مما يؤدي إلى الشعور بندرة السلع أيضًا.

لولا الندرة ما كان لدينا علم اقتصاد، ولما كانت هناك حاجة إلى خطط تنمية، ما دامت الشعوب تجد كل ما تحتاجه.

والذي دفعني إلى قولي هذا اتجاه كثير من الكتاب المسلمين إلى القول: إنه لا توجد لدينا مشكلة ندرة، وإن المشكلة الأساسية هي مشكلة الإنسان نفسه، وليس مشكلة موارد ولا مشكلة سوء التوزيع^(٢).

نحن لا نجادل في أن هناك سوء تصرف وهدراً كثيراً، كما نعتقد أن التخلص من الإسراف في الاستهلاك ممكن دائمًا، كما أن تشغيل الإنسان، ورفع وتيرة أدائه أيضاً ممكن. لكن لا ينبغي أن يظن أننا إذا فعلنا ذلك،

(١) فلسفة لتنمية جديدة: ٢٩.

(٢) اقتصادنا: ٣٠٦.

فسوف تسيل الأرض عسلاً ولبناً، فالدنيا دار تكليف وابتلاء ومحن وشدائد؛ مما يعني أن الفقر سيظل موجوداً؛ وإن الناس سيتوسعون في الاستهلاك عند أول شعورهم بالثراء^(١) واليسار، بل إنهم لا يرون أي معنى للوفرة إذا لم يصحبها رفاهية أكثر، وتمتع بالكماليات أوسع؛ وهذا بطبيعته سيؤدي إلى ندرة السلع.

إن الحقبة الذهبية في حياة المسلمين هي الحقبة التي بدأت بتأسيس دولة الإسلام في المدينة، واستمرت إلى آخر عهد الخلفاء الراشدين - على مستوى رقي الإنسان - ومما لا شك فيه أنه كان فيها فقراء ومحاجون، وظلت ندرة السلع والأشياء موجودة، ولو كان الخلاص من الندرة العامة ممكناً لحصل في تلك الحقبة المباركة.

وما تذكره بعض الروايات من أن الخير فاض في عهد عمر بن عبد العزيز، حتى إنهم لم يجدوا من يقبل الزكاة؛ فإن ذلك - إن صح - فإنه كان في قطر من الأقطار، ولم يكن عاماً في كل أقطار الإسلام؛ وكتب التاريخ والتراجم متوافطة على ذلك.

ثم إنه ليس من مصلحة الأمة الإلقاء في روع أبنائها أن لديها من الموارد والثروات الكثير؛ لأن هذا سوف يولد شعوراً بالاتكال، وتقاعساً عن ضرورة التغيير، وتنشئة إنسان جديد.

لا ينبغي أن نظن أنه يمكن التعامل مع الإنسان، كما يتم التعامل مع الآلة، حيث يمكن بضيغطة زر تحويل الناس إلى خلق جديد، متلزم ومنتج ونشيط منضبط . . .

إن تمنع الإنسان بالإرادة الحرة والعنصر الروحي يجعل نقله من حال إلى حال لا يتم إلا في شروط موضوعية معقدة؛ فهو حتى يستغل الثروات

(١) أشار القرآن الكريم إلى طبيعة البشر في تجاوز حدود القصد والاعتلال عند الشعور بالوفرة، حيث قال: ﴿كُلُّا إِنَّ الْإِنْسَنَ لَيَطْلَعُنَّ أَنْ رَءَاهُ أَشْفَقَنَ﴾. وقال سبحانه: ﴿وَأَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَتَفَوَّأُ فِي الْأَرْضِ﴾.

يحتاج إلى إرادة حضارية، وإدارة عالية الكفاءة، ويحتاج إلى تعليم وتدريب، وأموال طائلة، تستثمر في الصناعة والزراعة والبحث العلمي... ولا أظن أن لدينا من ذلك الكثير! .

إن العلاقة بين الثروات والإمكانات المتوفرة وبين (الوفرة) ليست طردية، فهناك دول لديها ثروات، لكن ليس لديها إمكانات فنية وعلمية واقتصادية لاستخراجها واستغلالها، فيصبح حالها الحال من ليس عنده شيء سواء.

وهناك أمم فقيرة في الموارد الطبيعية، لكن تتمتع بموقع جغرافي متميز، أو بخبرات علمية وتقنية عالية، ومن ثم فإنها أحسن حالاً من أصحاب الثروات الطائلة. إن دخل الفرد في السويد والترويج والدنمارك واليابان أفضل من دخل الفرد في كندا وأستراليا^(١)، مع اتساع مساحات هاتين الدولتين، وعزم ثرواتهما! إن مساحة اليابان لا تساوي أكثر من $\frac{1}{60}$ من مساحة الاتحاد السوفيتي السابق، إلا أن دخل الفرد في اليابان يزيد أكثر من عشرين ضعفاً على دخل الفرد في الاتحاد السوفيتي^(٢).

إن التقدم العلمي الهائل قلل من أهمية كل ما هو فطري وطبيعي، وأعطى قيمة استثنائية لكل ما هو صناعي، ومكتسب، وإن الاستفادة من الثروات تحتاج إلى وقت وجهد ومال وسياسات رشيدة، وقبل ذلك إلى مسلم جديداً!! .

٦ - التنمية التي تتجاهل البيئة ليست بتنمية:

في النصف الثاني من هذا القرن رأى الإنسان كوكب الأرض من الفضاء الخارجي لأول مرة. وقد بات الإنسان بفضل التقدم العلمي الهائل يفهم الأنظمة الطبيعية على نحو أفضل، وإن كان هناك الكثير من العلاقات الجدلية

(١) انظر اليابان اليوم: ٤١.

(٢) نصر بلا حرب: ٤٧.

والخطية الغامضة بين عناصر النظام البيئي؛ لكن ليست هذه المشكلة الأساسية، إنما المشكلة تكمن في أن الإنسان الذي يثبت في كل يوم تقدم عقله وعلمه، يثبت أيضاً ضعف إرادته واستسلامه لشهواته؛ فهو عاجز عن إيجاد التلاقي بين الأفعال البشرية وبين الطبيعة ومكوناتها المختلفة.

لماذا القلق؟

إن البيئة العالمية واحدة، وتدهور أي عنصر في أي جزء منها سوف يمس باقي العناصر في باقي العالم على نحو ما؛ لكن الجهات التي تدير العيش على الكره الأرضية ليست واحدة، كما أن مصالحها ليست مترافقاً، ومن ثم فإن البيئة العالمية مهملة، ولا تلقى الاهتمام الذي يناسب قدر حاجة الأحياء والحياة لها.

إن هناك فترة سماحات طويلة، بين الأسباب التدميرية للبيئة وبين ظهور النتائج، وهذه الآثار قد لا تظهر أحياناً في أقل من عشرين سنة^(١)، وهذا كاف لجعل مشاعرنا ترهل حيال نتائج سلوكتنا، وأسلوب عيشنا، كما ترهل مشاعر مرتکب الذنوب تجاه العقاب الأخروي! وهذا مظهر آخر من مظاهر مشكلة تدمير البيئة.

أما المشكلة البيئية على المستوى المادي الملحوظ، فإن هناك معطيات عديدة تشير إلى جوانب عديدة من المشكلة، منها:

- تشير التقديرات إلى أن العالم قد خسر خلال نصف قرن مضى فقط خمس التربة السطحية من الأرض الصالحة للزراعة، وخمس غابات المطر الاستوائية، ونحوأ من عشرة آلاف نوع من الأجناس النباتية والحيوانية^(٢).

- انتشرت المواد الكيميائية في الأسواق الصناعية على نحو مذهل،

(١) البشرية في مفترق الطرق: ٦١.

(٢) الاستعداد للقرن الحادي والعشرين: ١٣٦. هذا ويجب ألا ننسى أن هناك هوماش واسعة للخطأ والاختلاف حول كل التقديرات المتعلقة بالبيئة.

ويوجد الآن في الأسواق ما بين ٧٠ إلى ٨٠ ألف مادة كيميائية، ويدخل السوق كل سنة ما بين ألف وألفين من المواد الكيميائية الجديدة. ويدخل الكثير منها دون أي اختبار سابق كاف، ودون تقويم جيد لآثارها!!.

- يؤدي تجمع الأبخرة والغازات والعادم إلى ارتفاع درجة حرارة المحيط الجوي للكرة الأرضية، وقد ترتب على ارتفاع درجة حرارة ذلك المحيط في العقدين: الثامن والتاسع من القرن العشرين عن معدله المعتمد ظواهر خطيرة عده من نحو:

أ - زيادة حدة الأعاصير التي اجتاحت الولايات المتحدة الأمريكية، حتى بلغت سرعتها في الساعة ٢٠٠ ميل في الساعة، وقد سببت دماراً ماضعاً عما كانت تحدثه في السابق، حيث كانت سرعتها لا تزيد على ٦٠ ميلاً.

ب - حدوث العديد من حالات الجفاف وندرة الأمطار في أمريكا وأفريقيا، على حين زادت حدة الفيضانات في جنوب آسيا مثل باكستان وأندونيسيا وبنغلاديش، فهدمت السدود، وشردت الآلوف!

ج - الأثر الأخطر لارتفاع حرارة الأرض، هو ازدياد حركة المد على السواحل بسبب ارتفاع درجة الحرارة في المحيط المتجمد الجنوبي بمقدار ربع درجة (فهرنهait) ففي جزر المالديف مثلًا زادت حركة المد نحوً من سبعة أقدام عن معدلها العادي. وإذا استمرت حرارة الأرض في الارتفاع، فقد تفقد الأرض دولاً ومدنًا على شواطئ البحار والمحيطات^(١)!!

لا أريد الاسترسال في الحديث عن الغازات السامة ونشرها أمراضًا خطيرة، ولا عن تلوث المياه ونضوبها، ولا عن التصحر وقطع الغابات، فهي جميعاً تمثل موضوعات محزنة للقراءة!.

(١) من كتاب: (أرضنا الغاضبة) انظر عرضاً عنه في مجلة الفيصل العدد ٢٣٥ ص: ٩٢ في محرم ١٤١٧.

إن عدو البيئة الأول هو الدول الصناعية الكبرى، فهي المصدر الأول لتلوث البيئة، حيث إنها تنتج ٩٠٪ من نفايات العالم الخطرة! وفي أمريكا وحدها ٥٪ من التلوث العالمي، وهي تنتج أكبر قدر من ثاني أكسيد الكربون، كما أنها تنتج أكبر كمية من الغازات المدمرة لطبقة الأوزون؛ فهي بحق أكبر عبء على البيئة في العالم! .

وخلاصة القول أن العالم لن يستطيع مواصلة السحب من المحيط الحيوي دون أن ينتهي به الأمر إلى استنفاد رأس المال، وفناء التوازن البيئي إلى غير رجعة! .

ما العمل؟

إن أولى الناس بالمحافظة على البيئة هم المسلمين، حيث إن في ديننا أحكاماً وأداباً إسلامية كثيرة، لا يؤدي الالتزام والاهتمام بها إلا إلى حفظ الموارد، والمحافظة على البيئة، والعمل على تنظيفها؛ فقد أرشدنا الإسلام إلى غرس الأشجار، والاقتصاد في الأكل والشرب واستخدام الماء، كما أرشدنا إلى النظافة في البدن والثوب والمسكن، وحث على إماتة الأذى عن الطريق، وحرّم على الرجال لبس الذهب والحرير، واستخدام أواني الذهب والفضة، كما حرم الإسراف وكل المظاهر التي تولد الكبر والخيالء - وهي دائماً مظاهر استهلاكية - وأمر بالرفق في الأمر كله... وهذا كله سيؤدي إلى تدعيم التوازن البيئي من خلال المحافظة على الموارد، وتقليل التلوث إلى أبعد حد ممكن^(١). لكن المؤسف أن كثيراً من المسلمين محصور بين هوتين، هوة تفصلهم عن الانتفاع بمبادئهم على الوجه المطلوب، وهو تفصيلهم عن عيش عصرهم بكفاءة وفاعلية، وهذا أحد مفرزات التخلف! .

إن المطلوب عمله لحفظ ما تبقى من طاقة الحياة على هذا الكوكب كثير وكثير جداً، لكن أشق الأعمال هي تلك التي تتطلب تغيير الإنسان،

(١) انظر: الإسلام كبديل: ١٦٢.

ومواجهته لنفسه؛ فقد يملك المرء من العزيمة ما يواجه به جيشاً، لكنه يقف عاجزاً أمام تغيير عادة من عاداته السيئة! ومن المؤسف حقاً أن تغيير سلوك الإنسان هو أكثر المطالب إلحاحاً في المحافظة على البيئة؛ وقد حرضت الثقافة الغربية شهية الاستهلاك في العالم، وهي لا تتسع أبداً إلا على حساب الرصيد الحيوي للأرض.

هناك تدابير ملحة يجب القيام بها إذا ما أردنا للتنمية أن تستمر، ومنها:

أ - تخفيف شهية الاستهلاك لدى الإنسان من خلال تدعيم الإيمان باليوم الآخر، وإثراء الحياة بالمعرفة والمعنويات العقلية، وزيادة الحراك الاجتماعي، وتقوية الروابط الأسرية... وكل ذلك في سبيل لا يتحول الإنسان إلى سجين، لا يجد شيئاً يمارس حريته نحوه إلا الطعام!

ب - يجب تشجيع المؤسسات على الاستثمار في إجراءات وقائية أو ترميمية أو تعويضية، تساعد على التخفيف من الأضرار البيئية؛ فيما أن ذلك مكلف، ويرفع أسعار السلع، فيتمكن للدولة أن تقوم بدفع جزء من تكلفة السلعة، من أجل المحافظة على البيئة. ومن المهم أن تتركز البحوث العلمية في إيجاد تطبيقات وتقنيات جديدة، تساعد على تقليل الهدر، وتسمح بإعادة تدوير المواد الأولية، مثل الحديد والورق وغيرهما^(١)...

إن النفايات هي في الحقيقة نوع من الهدر، ونوع من ضعف الكفاءة الصناعية، وإذا انطلقتنا من هذه الرؤية أمكننا أن نفعل الكثير.

ج - إن كثيراً من الأضرار البيئية ينبع من استهلاك الطاقة الحرارية المتولدة من الفحم والنفط، وبما أنها مصدران غير متتجدين فإن من الواجب البحث عن مصادر بديلة، متقدمة ونظيفة في آن واحد، وذلك مثل الطاقة الشمسية، وطاقة الأمواج، واستغلال طاقة الرياح والشلالات في إنتاج الطاقة المحركة، والاستفادة من فضلات الأبقار وغيرها في توليد غاز

(١) مستقبلنا المشترك: ٣١٨، ٣١٩.

(الميئتين). وقد قامت الصين بتشغيل ٤٠ مليون وحدة لتوليد هذا الغاز من أجل الاستخدام المنزلي!

٥ - وسائل النقل مثل الطائرات والسفن والسيارات والقطارات من أخطر مصادر تلوث البيئة، وأعظمها ضرراً عليها، ومن ثم فإن جعلها اقتصادية، أو جعلها تعمل بوقود آخر يعدّ ذا أهمية قصوى. منذ عام ١٩٥٠ وأعداد السيارات تتضاعف كل عشر سنوات، وهذا يعني مزيداً من الإجهاد لبيئة مريضة!.

هناك تطويرات كثيرة الآن، مثل استخدام الطاقة الشمسية، واستخدام خزان للهواء المضغوط يدفع بالسيارة مسافة لا يأس بها. ويمكن وضع قيود على إنتاج السيارات الكبيرة التي تستهلك كميات كبيرة من الوقود، كما يمكن وضع قيود على سرعة السيارات، بحيث لا تتجاوز السرعة المثلية لاستهلاك الوقود. وما يمكن عمله أيضاً من السيارات من دخول المناطق المزدحمة في المدن، والاعتماد على وسائل النقل العام، كما تفعل اليونان. ويعتمد كثير من الدول الاسكندنافية وهولندا على الدراجات الهوائية في التنقلات. وقد أخذت الصين ودول في جنوب شرق آسيا تحذو حذوها^(١).

إن علينا أن ندرك أن أيام الرخاء والعيش السهل قد انتهت، وعلينا أن نتعامل مع هذه الحقيقة بجدية تامة، وإن فإن النهاية قد تأخذ شكل الكارثة!

سنفعل الكثير لكونينا إذا تعاملنا معه كما نتعامل مع مكتباتنا الخاصة، فنحن نغنيها بالجديد والمفيد دائماً، ونفتني بالقراءة فيها ونتركها لانتفاع الأجيال القادمة وهي في قمة اكمالها وتراثها!.

٧ - التحرر من التبعية هدف التنمية الجيدة:

تعني السيادة نوعاً من التحكم النسبي للجماعة بمصيرها، وقدراً من

(١) من كتاب: أرضنا الغاضبة.

الحرية في علاقاتها. في هذا الزمان لا توجد خيارات كثيرة أمام الفقراء والضعفاء؛ فالتواصل الكوني وضع الأمم بعضها في مواجهة بعض، وكشف الجميع للكل، وصارت العزلة غير ممكنة، وإنما هناك علاقات متكافئة، وعلاقات جائزة، تعمل لصالح طرف على حساب طرف آخر.

وعلى هذا فلا ينبغي أن يُظن أن التبعية تكون دائمًا تعبيرًا عن خيانة عظمى، أو تأمر على شعب بأكمله؛ فأكثر صور التبعية شيوعاً هي تلك التي تنشأ بسبب القصور الذاتي لدى الأمم، وعجزها عن إدارة شؤونها، والدفاع عن مصالحها أمام الأمم الطامعة فيها. وحين ندرك التبعية على هذا النحو، يشعر كل واحد منا بأنه مسؤول عن قدر من التبعية التي تعاني منها الأمة، كما أنه يشعر أن باستطاعته أن يفعل شيئاً ما حيالها.

إن التبعية قبل كل شيء هي نوع من الاستخذاء، والشعور بالضعف، حيث يشعر التابع بالدونية، وال الحاجة إلى المتبوع، حتى إنه يرى نفسه، ويقومها من خلال مقولات المتبوع عنها، ومن خلال معاييره، وهذا وحده كاف لتعطيل آلية التفكير لدى التابع، وجعله يشعر بالنقص في استقلاليته وكرامته! .

إن الحرية هي القدرة على الاختيار، ولا اختيار إلا عند وجود بدائل. أما التبعية فإنها مناقضة للحرية؛ لأنها في جوهرها تعبير عن ضعف القدرة على الاختيار، بسبب قلة البديل. ولا ينعدم - بالطبع - بعض الحواشي للمناورة مهما كانت الظروف سيئة، لكن كلما كنت أقوى كان لديك مجال لتأسيس علاقات متكافئة أكثر، فإذا كنت لا أجد الشوب إلا عندك، ولا تجد الطعام إلا عندي أمكن لكل منا أن يتعامل مع الآخر على نحو متكافئ، لكن إذا كنت أجد كل حاجاتي لديك، ولا تشعر في المقابل أن لدى شيئاً، يمكن أن تحتاجه، فكيف ستنشأ بيننا علاقات متكافئة، وعلى أي أساس؟! .

وهذه هي مشكلة العالم الإسلامي مع الغرب، ولا يحتاج المرء إلى

براهين كي يدلل على نقاط الضعف التي لدينا على مستوى الالتزام والاقتصاد والمعرفة والتنظيم^(١).

طريق الخلاص :

الشكوى من التبعية، ومن ظلم القوى العظمى قديمة؛ وقد عُقدت عشرات الندوات والمؤتمرات في كل أنحاء العالم من أجل تقويم المشكلة، وإيجاد الحلول لها^(٢)؛ لكن النتائج ليست مشجعة؛ فمن الصعب على القط أن يقاوم إغراء قطعة الجبن، كما أن من الصعب تعليمه العفة أو الشفقة!

لعل من مصلحتنا جميعاً أن نطوي صفحة الحديث عن التبعية بالانتهاء إلى أن التبعية هي بنت الضعف، ولن يولد الاستقلال إلا من رحم القوة، والاستغناء المتكافئ عن الآخرين. وأعتقد أن هذا الكتاب موضوع في جملته لبيان بعض طرق الخلاص مما نحن فيه.

ولا ينبغي لنا أن ننسى أن التبعية لم تتوطن في بلاد المسلمين في يوم وليلة، وإنما تراكمت عبر قرون، حيث كانت دائمًا التعبير الملموس عن التخلف والضعف، ومن ثم فإن الخلاص منها يحتاج إلى وقت، ربما امتد إلى نصف قرن.

إن البداية في حركة التحرر تمثل في أن نشق بما لدينا من مبادئ ومنظارات ملوكنا إليها المنهج الرباني الذي نعتز بحمله، وأن نتيقن أنها مهما خسرنا من معارك تنمية وعسكرية، فإننا سنظل نملك - بحول الله - الاتجاه الرشيد، والانشداد نحو الأهداف الكبرى، لكن ذلك وحده لا يكفي؛ إذ لا بد من القيام بواجبنا من التفكير وبذل الجهد.

إن درجة من العزلة عما يدور في العالم من حولنا ضرورية لنا، وإن

(١) كنا قد خصصنا الجزء الأول من هذه السلسلة لإلقاء الضوء على واقع العالم الإسلامي.

(٢) انظر: من أجل مفهوم أفضل للتنمية: ٣٤٢.

التقشف وتقليل الاستهلاك، واعتماد التطوير للمحليات، وعدم المساومة على المبادئ، وحل مشكلاتنا عن طريق التفاهم والتفاوض - إن كل ذلك ضروري لبداية جيدة في بناء أمة قوية قادرة على الدفاع عن حقوقها ومصالحها.

في زمان التكتلات الكبرى يصعب على الدول الصغيرة والمحدودة الموارد أن تستقل، وتطور ذاتها بشكل جيد، ومن ثم فإن التحرر من التبعية بالنسبة لدول العالم الإسلامي سيظل مرهوناً بمدى قدرتها على إحداث نوع من التوحيد والتنسيق بينها، وتوسيع علاقاتها البنية على المستوى السياسي والثقافي والاقتصادي؛ والله غالب على أمره.

(٣) طرق وخبرات في التنمية الاقتصادية

قصة البشرية هي قصة المعاناة في توفير الحاجات الضرورية من أجل البقاء على قيد الحياة. وإن تنوع البيئات والموارد والظروف والتقاليد والأفكار - أوجد، تنوعاً هائلاً في الأساليب والأدوات التي يستخدمها الناس في تدبير شؤون معاشهم.

ويمكن القول: إن الشعوب لم يستفاد بعضها من خبرات بعض في الماضي . - ولا سيما على المستوى الشعبي - بسبب ضعف الاهتمام وصعوبة الاتصال؛ بالإضافة إلى أن الناس الأكثر حاجة إلى خبرات غيرهم يكونون في العادة في وضع لا يمكنهم من البحث عن الجديد واستيعابه والانتفاع به، حيث تسيطر عليهم الأمية، والانشغال بقوتهم يومهم عن أي شيء آخر، والشعور بالضعف والاغتراب عن العصر، والعجز عن مقاومة الوطن للإطلاع على الأشياء الجديدة. . . .

إن الذين بإمكانهم أن يستفيدوا من خبرات غيرهم على نحو جيد هم أولئك الذين يشعرون بشعور الفقراء، وأولئك الذين يغادرون على كرامة هذه الأمة، ومستقبل أجيالها، بالإضافة إلى الذين يشغلون بعض المناصب التنفيذية، ويؤمنون بضرورة الإصلاح والتغيير من أجل موقع أفضل بين شعوب الأرض.

إن فائدة ما سنذكره من خبرات ومناهج في التنمية الاقتصادية - لا تكمن في حرفيته وصورته، وإنما فيما يوحيه، ويفتن الذهن عنه، وفيما يشيره من مشاعر الحماسة للإبداع والتجديد والتغيير.

والحقيقة أن ما يمكن قوله في هذا الباب كثير جداً، لكن سنتصر على الأفكار والخبرات الرئيسة من خلال المفردات التالية:

١ - الاعتماد على الذات :

يحرص الإسلام في توجيهاته وأدبياته على غرس الشعور بالمسؤولية الفردية في كل صعيد، فالمسلم مسؤول عن توظيف طاقاته، وحفظ جوارحه، ورعاية عياله، والإحسان إلى جيرانه، ومحاولة حل مشكلاته... وهو يلقي في روح المسلم أن عليه قبل أن يطلب مساعدة الآخرين أن يستنفذ طاقته في نفع نفسه، وعليه قبل أن يحاسب الآخرين أن يحاسب نفسه، وقبل أن يقرأ تاريخ الأمم الأخرى أن يقرأ تاريخ أمته....

وقد شُكّلت هذه التوجيهات البنية العميقة لثقافة المسلم؛ مما ساعد في انطلاق حضارة إسلامية، لحمتها وسداها ذاتي وم المحلي، مع الانفتاح على الأمم الأخرى، ومحاولة الاستفادة منها.

إن الاعتماد على الذات هو وليد رؤية شاملة، تقوم على أسس عديدة، أهمها الثقة في القدرات الذاتية للأمة، ورفض استجداء الحلول الجاهزة. إنها تتناقض على نحو تام مع تنمية التبعية التي تزدري النفس، وتهروء نحو الأجنبي من أجل حل المشكلات الوطنية. إنها تنمية تستلهم التراث الحضاري للأمة، وتحترمه، وتسعى إلى أن تبدع فيه، وتخترع في إطار الإمكانيات المتاحة، ولصالح القطاع الأوسع من أبناء الأمة.

ما يؤسف له أنه على حين يقوم كثير من كتابنا بتأسيس تنمية تابعة للشرق أو الغرب - يقوم كتاب غربيون في نصيحة الأمم الضعيفة باتباع طرق خاصة بها في التنمية، والاعتماد على نفسها، لكن بعد سقوط التجربة الشيوعية التي أطلواها التغنى بامجادها، وبعد أن كفَّ الغرب عن تقديم المساعدات - بدأ بعضهم يصحو على هول الصدمة، وبدأ رحلة العودة!

إن تنمية الاعتماد على الذات تقوم على مقوله: «جودة الشوب من مناسبتة للابسه، وليس من جودة قماشه». فالتنمية الجيدة هي تنمية قابلة للاستمرار، وتنمية يستفيد منها أكبر عدد ممكن من الناس؛ ولذا فإن تشغيل عدد كبير من الناس بدخول قليلة خير من تشغيل القلة بأجور مرتفعة، وإبقاء

الكثيرين يتسلكون في الشوارع. وإنما سلع أقل جودة بخبرات وموارد أولية محلية خير من إنتاج أو استيراد سلع ممتازة، لكن بخبرة ومواد أجنبية، وأبناء البلد عاجزون عن المشاركة؛ لأنهم لم يتلقوا التدريب الكافي.

أسس وصور في الاعتماد على الذات:

أ - إذا كان المقصود من الاعتماد على الذات التقليل من الاعتماد على الدول الأجنبية، وحفظ رأس المال الوطني من التسرب إلى الدول الصناعية، وإنما أكثراً عدد ممكّن من الناس من براثن العوز وال الحاجة - فإن علينا أن نعتمد أسلوباً في التنمية يتبع للناس البقاء في قراهم، ويساعدهم على الاستفادة من العناصر المحلية الموجودة في بيئتهم، فقد ثبت أن كثيراً من العنااء والتحلل الأخلاقي وانقسام الوعي - ينبع من افتلاء الناس من أرضهم وأرض آجدادهم، ليستوطنوا حواشى المدن، ويتسولوا فيها لقمة العيش بطرق شتى. وقد قامت دول عديدة بأعمال مختلفة لتفادي ذلك، ونقتصر على نموذجين منها:

- من أكثر برامج التصنيع الريفي كفاءة للفقراء شبكة مجالس تطوير الأحياء في (سيرلانكا) التي غطت البلاد كلها عام ١٩٧٢. ويقوم البرنامج بتنفيذ حشد من المشروعات الصغيرة لتنمية الزراعة والصناعة بمساعدات مالية من الحكومة. ويعتمد هذا البرنامج على المشاركة الشعبية الفعالة. ويضم كل مجلس ممثلي عن الجماعات التعاونية والتنمية الريفية. ولكل فرد أن يقترح مشروعه، ثم يتم اختيار أكثر المشروعات المقترحة قدرة على تحقيق أكبر قدر ممكن من الاستفادة من الموارد المحلية المتاحة، وإيجاد أكبر عدد من الوظائف بأقل مبلغ من المال.

ثم تُنفذ المشروعات تعاونياً مع العمال الذين يملكون وسائل الإنتاج. ويتم تقاسم الأرباح، كما أن للعمال الحق في اختيار المديرين وخلال أربع سنوات من بداية البرنامج كان هناك ١٨٨٢ مشروعأً تحت التنفيذ في كافة أنحاء (سيرلانكا) نصفها تقريباً مشروعات صناعية؛ تتراوح ما بين إنتاج

الطوب الأحمر والنشاء والمنسوجات وقوارب الصيد، وقطع غيار المحركات، والجرارات ذات العجلتين... .

ونشأ عن ذلك نحو من ٤٠ ألف وظيفة، ويبلغ متوسط المبلغ المستثمر في كل وظيفة ما يعادل ١٠٠ دولار (!) وهذا يقل عن متوسط تكلفة الوظيفة في مشروع صناعي كبير، تقيمه الدولة بنحو ثلاثة مرات! والمدهش أن المبلغ المستثمر في هذه المشروعات الصغيرة، حقق عائدًا يعادل أربعة أمثال متوسط الإنفاق الحكومي^(١)!

- قامت الهند بتنظيم أكبر برنامج عالمي لمساعدة الصناعة الريفية القائمة في الأكواخ. وأكبر صناعة ريفية بالهند، وأهمها هو الغزل بالنول اليدوي.

وقد تلقت المغازل اليدوية ضربة قاصمة في الماضي على يد الأنواك الكهربائية ومصانع النسيج، حيث ينبع العامل في مصنع النسيج عشرة أمثال ما ينتجه العامل على النول اليدوي. وقد قررت الهند أن تتبع في تشغيل قطاع النول اليدوي بنسبة ٦٠٪ عام ١٩٨٣ مع عدم السماح مستقبلاً بزيادة سعة الأنواك الكهربائية أو مصانع النسيج. وقامت الحكومة الوطنية، وحكومات الولايات بوظائف التاجر الوسيط، فوفرت المواد الخام، وأعطت القروض الميسّرة. وأنشأت الحكومة كذلك جماعات تعاونية للنساجين على نطاق واسع، كما قامت الدولة بإنشاء إدارة للتصميمات المطورة؛ بما يحقق أذواق السوق، وتقوم بتقديمها للنساجين بسعر رمزي، كما تؤجر لهم مخازن الجمعيات التعاونية^(٢).

إنها صورة رائعة لما يمكن أن تساهم به الحكومات في دعم الحرف التقليدية الوطنية، وفي مساعدة الناس الأكثر حاجة، وإنها صورة حية لما يمكن أن توجده روح المشاركة من أعمال جليلة!

(١) العالم الثالث غداً: ١٤٧.

(٢) السابق: ١٤٨.

ب - إن أسلوب التنمية المعتمدة على الذات والإمكانات المتوفرة هو في الأصل خيار سياسي، فالدولة هي صاحبة القرار في اختيار النمط التنموي المناسب.

والمطلوب عند اختيار هذا النمط هو تدخل الدولة على نحو جزئي، يكون أكثر ما يكون خدمياً وإرشادياً وتنظيمياً مع ترك مساحات واسعة للمشاركة الجماهيرية.

إن المنتجات المحلية ستواجه منافسة شرسة من المنتجات المستوردة، وإن الدولة هي التي تجعل الميزان يميل لصالح المحلية. وأتصور أن بإمكان الدولة أن تقوم بأعمال مهمة جداً في هذه السبيل، منها:

- إنشاء مراكز معلومات، تتخذ من الأرياف مقراً لها، وتقوم بعمليات مسح شاملة للقوى البشرية الموجودة، وللموارد المحلية المتاحة، وتقدم الخبرات العلمية والتقنية في مجال الزراعة والصناعة الريفية، كما تقوم بإنشاء أجهزة شعبية حكومية، تتولى تطوير آلات وتقنيات ملائمة للموارد البشرية والمواد الخام في آن واحد.

- تمويل المشروعات الصغيرة، بفرض ميسّرة، أو عن طريق المضاربة بعيداً عن الربا والفائدة. وإن بإمكان أجهزة الحكم المحلي أن ترعى وتحمي أطراً لشركات المضاربة والمساهمة المحدودة من أجل توظيف كل رؤوس الأموال المتاحة، مهما كانت صغيرة بشرط أن تظل الهيئة للمساهمين.

- شراء منتجات المزارع والمشروعات الصناعية الصغيرة من قبل الدولة والجمعيات والهيئات الخيرية والإغاثية عامل مهم في دفعها إلى الأمام. ويمكن للدولة أن تنشر ثقافة شعبية تحبذ استهلاك المنتجات المحلية، وتدعهم على منافع ذلك، كما يمكنها أن تفرض على كل المستوررات التي لها نظائر محلية رسوماً مناسبة، تحول إلى دعم مشروعات التنمية المحلية، والمشروعات الصغيرة بشكل خاص.

ويظل دور الدولة حيوياً في مراقبة الجودة؛ حتى لا يتكل الناس على

حماية الدولة، وتتدحرج المواقف القياسية. والمتغيرات الرديئة لا تقنع أحداً بالإقبال عليها، كما أنها تشكل مظهراً من مظاهر الهدر والتخلف.

جـ - الهم الأكبر في مجال التنمية يتمثل لدى الشعوب المسلمة في (الأجيال الجديدة) التي تحتاج إلى تعليم وتدريب وفرص عمل، ويمكن للدولة أن تساعدتهم عن طريق منحهم قطعاً من الأرض المملوكة لها من أجل زراعتها أو إقامة مشاريع عليها؛ وتشرط بقاءها في أيديهم باحياتها والاستفادة منها. ويمكن للدولة أن تضع الأراضي المملوكة لها تحت إشراف مجلس محلي أو هيئة مشتركة لضمان حسن توزيعها.

وال المشكلة الأكبر التي تواجه الشباب اليوم هي مشكلة إيجاد مسكن ملائم لبناء أسرة؛ ويمكن التخفيف من غلواء هذه المشكلة عن طريق تجهيز الدولة لقطع من الأرض بالخدمات الأساسية، وتقسيط ثمنها على أقساط مرحلة، ومن غير فائدة. كما أن المطلوب من المهندسين أن يدعوا في إيجاد مساكن رخيصة، وضمن مجمعات سكنية منتظمة. وقد كان الآباء يبنون أكثر بيوتهم من الطين، والطين هو المادة الوحيدة التي يمكن الحصول عليها مجاناً. وفي (فولتا العليا) قد تم إدخال بعض التحسينات على قوالب الطين من خلال مزجه بكمية من الإسمنت بنسبة ^٥٪ إلى ^{١٠}٪. وقد تضاعف بذلك العمر الافتراضي للبناء. وفي (دكا) عاصمة (بنغلادش) صُمم منزل مقاوم للمطر والرياح بحوائط يتكون الواحد منها من حصیرین من الخیزان، بينهما مادة (البولیثین) السوداء الشديدة التحمل. وبهذا أمكن تشييد منزل خلال أربعة أيام^(١)! وهذا في الحقيقة هو الإبداع، والإبداع لا يتجلّى في تقليد الآخرين، وإنما في توليد الكثير من القليل، وفي حل المشكلات التي تشقّل كاهل الناس.

وعلينا أن ننسى أن تبني سياسة (الاعتماد على الذات) سوف يوجد نوعاً من التكافؤ بيننا وبين الغرب، وسوف يحسن من شروط التبادل؛ فالإعراض

(١) العالم الثالث غالباً: ٩٦، ٩٧.

عن شراء متوجهاته سوف يضطره إلى تخفيض أسعارها، كما أن ذلك سيمكّنا من تكوين رأس مال وطني، نستخدمه في تطوير قدراتنا الذاتية.

٢ - التصنيع عصب التنمية الحدية:

ليس في العالم اليوم شعب لا يتطلع إلى التصنيع، وليس في العالم شعب دخله مرتفع جداً، وهو مع ذلك بعيد عن التصنيع، والشذوذات في هذا المجال نادرة، وهي تؤكّد القاعدة، ولا تخربها.

يحمل التصنيع اليوم رموزاً ودلالات حساسة؛ فالشعوب غير الصناعية تشعر بالضّالة، ونوع من اتهام النفس بالعجز والاعتماد على الآخرين.

وينطوي التصنيع بالنسبة للمسلم على بعد أكثر حساسية، وهو بعد العزة والأمن والجهاد؛ فأمة الإسلام هي أمّة الرّايات والفتورات؛ وتختلفها الصناعيّة جعلها تعتمد في حفظ أمنها الخاص على عدوها؛ وقد صار من غير المنطقى أن نقاتل الأعداء بأسلحتهم أو بأسلحة حلفائهم ! .

ومن جهة أخرى فإن تعريض النقص في الموارد الناجم عن ضغوط زيادة السكان لا يمكن أن يأتي من خلال (الأرض) والزراعة، بل من خلال (التقنية) التي جسّدت قدرة العقل البشري على إيجاد طرائق جديدة للأداء، واحتراز وسائل حديثة، وتنظيم الإنتاج في صيغ أكثر تطوراً، والسعى الحثيث للتعجيل في نقل البضائع والأفكار من مكان إلى آخر، والبحث على استنباط حلول جديدة لمشاكلات قديمة^(١). وهذه التدابير كلها لصيقة بالصناعة، أو تعتمد عليها، أو هي أسس ومقدمات لها.

ولا أريد أن أستطرد في ذكر فضائل الصناعة الكثيرة؛ فالحالات المادية الممتازة للدول المتقدمة صناعياً أوضح من أن تحتاج لمزيد من الشرح . . .

وتتبّوأ الصناعات المعدنية اليوم قمة الهرم بين الصناعات المختلفة، وتُعدُّ مقياساً رئيساً للتقدّم الاقتصادي والصناعي لدى الدول. وقد أثبتت بعض

(١) الاستعداد للقرن الحادي والعشرين: ٢٣، ٢٤.

الدراسات المسحية التي قامت بها بعض المعاهد المتخصصة أن كل مكان عمل في صناعة الحديد والصلب والمعادن غير الحديدية - يوفر ثمانية أماكن عمل جديدة في صناعات لم تكن لتوجد لولا أن هذه الصناعة تمدها باحتياجاتها من المعادن^(١).

ما التقنية التي تناسبنا؟

هذا سؤال كبير، علينا جميعاً أن نجيب عليه، إذ إن (التنمية المتكاملة) تُعني بتناسب موازين الحساب لكل شيء؛ فالصناعة ليست أسلوبًا للإنتاج، وإنما هي أسلوب حياة. حين تختار أمة أسلوبًا صناعيًّا معيناً؛ فإن عليها أن تتحقق مدى انسجامه مع مبادئها وقيمها ونظامها الرمزي؛ فعدالة التوزيع لدينا مبدأ مهم، والعمل قيمة عليا بقطع النظر عما يتربّط عليه من إنتاج ومنافع، والحفاظ على الترابط الاجتماعي هدف، وقدرة أي نشاط اقتصادي على الإيحاء الروحي سمة يصعب التفريط بها

مراجعة هذه المسائل، وما شابهها، ليست مطلباً في النشاط الصناعي فحسب، وإنما في كل نشاط حضاري؛ وإهمال مثل هذه القضايا يجعل الحديث عن الخصوصية والاعتزاز بالتقاليد، والعنابة بال محليات - غير ذي معنى !.

لو نظرنا في الأوضاع العامة للعالم الإسلامي لوجدنا أن أكثر شعوبه لديها كثافة سكانية وبطالة عالية، ورؤوس أموال قليلة. وهناك شعوب قليلة، لديها مساحات كبيرة من الأرض، ورأس مال وطني جيد، لكن ليس لديها الأعداد الكافية من التقنيين والعمال المهرة. وعلى هذا فإن الأسلوب الصناعي والتكنولوجيا المناسب للسود الأعظم من الشعوب الإسلامية ليس هو الأسلوب الغربي الذي يقوم على تقنية عالية، واستخدام كثيف لرأس المال. وذلك ينسجم مع ضعف التطور السكاني لديهم، ومع رؤوس الأموال المتوفرة على نحو كبير.

(١) أهمية التصنيع: ٢٥

التقنية المناسبة ليست مجرد تجميع خاص لآلية يشير شكلها الضاحك، ولا هي شكل خاص لآلية ما؛ فربما تكون المصنوع الكبيرة مناسبة في المفهوم الصحيح، كمعامل تكرير النفط وإنتاج الأسمدة غير المعبأة، إما لأنها الوسيلة الوحيدة الممكنة لتحقيق المطلوب، وإما لأنها أكثر اقتصاداً في استثمار رأس المال.

مصطلح التقنية المناسبة يعني كل تقنية تستفيد إلى أقصى درجة من الموارد الطبيعية المتاحة، ومن الحجم المناسب من رأس المال والعمال والمهارات، والتي تعزز الأهداف العليا والوطنية للأمة^(١).

ويرى بعض الباحثين أن التقنية المناسبة أو (المتوسطة) هي التي تتطلب رأس مال عن كل منفذ جديد للعمل، يساوي تقريراً الدخل السنوي لكل مشتغل^(٢).

أي أنه إذا كان الدخل السنوي للعامل عشرة آلاف، وجب أن تكون تكلفة التجهيزات والمعدات الازمة لتهيئة فرصة عمل له في حدود ذلك الأجر.

سمات التقنية المناسبة:

أ - التقنية المناسبة مظهر من مظاهر إرادة الدولة المستقلة التي تتحسن مشكلات القاعدة العريضة من شعبها، كما تدرك بدقة قيمة المعطيات والإمكانات والطاقات المحلية، وتسعى إلى توظيفها بشكل جيد في تلبية الحاجات للأكثرية العظمى من الناس. وفي هذا السياق فإن (المعونات الخارجية) الأجنبية هي العدو الألد للتقنية المناسبة، ففي سنة ١٩٧٧ ارتبط أكثر من نصف المعونة الغربية كلياً أو جزئياً بشراء سلع ومعدات من الدول المانحة، ولا أظن أن الأمر قد تحسن اليوم. وذلك يؤدي إلى استمرار

(١) العالم الثالث غداً: ١٢٠.

(٢) البشرية في مفترق الطرق: ١١٧.

خطوط التبعية والجبلولة دون تطوير تقنيات محلية مناسبة؛ فالحاجة أم الاختراع، وكيف سنخترع معدات متخلفة، وأمامنا معدات جاهزة وراقية وشبه مجانية؟!

ب - إن التقنية المناسبة هي تلك التي تشغل أكبر عدد ممكّن من الأيدي العاملة، وتتوفر بذلك الستر والأمان وأسباببقاء لأسر كثيرة محرومة بسبب عدم تمكن أصحابها من العمل الشريف المنتج.

وقد دلت بعض الدراسات على أن هناك علاقة عكسية بين درجة تطور المعدات، وبين مدى استيعابها للأيدي العاملة؛ فكلما كانت الآلات المستخدمة في المصانع أكثر تقدماً و (آتمة) كانت حاجتها إلى الأيدي العاملة أقل.

كما وجدت إحدى دراسات مكتب العمل الدولي أن الصناعة نصف الآلية للمعجلات في (تايلند) كان إنتاجها من العلب أرخص بنسبة الثلث من الصناعة الآلية ذات الإنتاج السريع، وزادت في الوقت نفسه في فرص العمل إلى خمسة أمثال، بالنسبة لوحدة رأس المال^(١).

ج - ذكرنا أن رؤوس الأموال المتوفّرة لدى معظم الشعوب الإسلامية ليست كبيرة^(٢)، ومن ثم فإن التقنية المناسبة هي التي لا تحتاج إلى رؤوس أموال كبيرة؛ ولا يمكن لذلك أن يتم دون ثمن، فقد يقتضي ذلك شراء

(١) العالم الثالث غداً: ١٢٦. كما طور معهد أبحاث التخطيط في (لاكتو) مصانع السكر البليوري حيث تنتج المصانع الكبيرة أكثر من ١٢٠٠٠ طن سكر سنويًا، وقد أنشأ المعهد مصانع صغيرة ينتج الواحد منه ٦٤٠ طنًا من السكر في السنة. وبقيمة المصانع الكبير الذي يوظف ٩٠٠ عامل يمكن بناء ٤٧ مصنعاً صغيراً، تتيح ١٠,٠٠٠ فرصة عمل، وكان سعر الكيلو أرخص في المصانع الصغيرة بحوالي ١٤ روبيه من المصانع الكبيرة، وقد انتشرت تلك المصانع في الهند، وصار منها في منتصف السبعينيات أكثر من ١٢٠٠ مصنع، تشغّل قرابة ١٠٠٠٠ عامل! . السابق ١٢٧.

(٢) الحديث في الغرب عن ثراء العرب مضحك، ويقصد منه إعطاء المسوغات للنهاية والضغط، وإنما في أمريكا وألمانيا واليابان شركات عملاقة، يزيد رأس مال الواحدة منها على ميزانيات خمس أو عشر من البلدان العربية!!.

واستيراد معدات مستعملة، والقيام على صيانتها، وقد يتضمن ضغطاً كبيراً للإنفاق على أشكال المباني وأثاثها والسيارات المستخدمة، وجعلها أقل تكلفة وأناقة. وقد يتضمن ذلك إنتاج سلع غير ذات جودة عالية؛ لأن الجودة العالية تحتاج إلى مال أكثر وتقنية أعلى. وقد يتضمن ذلك قدرًا من التدني في الأجور... إن كل هذا قد يكون جزءاً من الشمن الذي يجب دفعه، إذا ما أردنا استخدام تقنية مناسبة، تلبي الحاجات الحقيقة لمعظم الناس. وكل هذا يجب تحمله عن طيب خاطر، ما دام يساعد على توفير فرص عمل لأكبر عدد ممكن من الناس، ويحمي أجيالاً من التشرد والتسلول والانحراف وسوء التغذية...

وهذا يتضمن مما أن ننسى - إلى أجل - كلمات مثل: موافق لأرقى المواصفات العالمية، ومجهز بأحدث الآلات، وفيه سكن فاخر ومريح للعاملين...

إن طبيعة تعاليم الإسلام تقضي بنشر الخير، ولو كان قليلاً على أكبر عدد ممكن من الناس، وهذا يتطلب شيئاً من التضحية، واللجوء إلى بعض الخيارات الصعبة التي لا ترتاح إليها النفس البشرية.

د- التقنية المناسبة، تقنية تعتمد على استثمار المعطيات المحلية، وتوظيف الخبرات والطاقات المتوفرة، وتراعي التقاليد والعادات السائدة، مما هو من قبل المعروف.

ويمكن للسياسات الحكومية في مجالات التصنيع والتشييد أن ترجع كفاءة استخدام المواد المحلية من خلال إجراءات عديدة، منها:

- أسلوب فك الحزمة التقنية من خلال تحليل المشاريع التي يتم التعاقد من أجلها مع شركات أجنبية إلى عناصرها ومكوناتها الأساسية، وقيام الشركات الوطنية بتنفيذ أجزاء من تلك المشروعات، وتصنيع بعض معداتها، وتنظيم بعض جوانبها. وهذا قد يؤدي إلى بطء تنفيذ المشروعات، لكنه على المدى البعيد قد يكون الأسلوب الأمثل لامتلاك التقنية العالمية، وتأسيس

الاعتماد على الذات^(١). إن هذا الأسلوب يتبع للأفراد الوطنيين فرص العمل، ويخفف من مقدار العمالة الصعبة التي تدفع للشركات الأجنبية. وهناك دول عديدة سلكت هذا المسلك، منها الأرجنتين التي أنشأت عام ١٩٧٤ السجل الوطني للعقود وفرضت الحكومة تسجيل كل عقد قبل سداد حوالات الدفع للخارج، وهي ترفض اعتماد أية عقود إذا تضمنت صفات شاملة، أو استخدمت تقنية يمكن توفيرها محلياً^(٢).

- المشاريع الصغيرة تستخدم رؤوس أموال قليلة، وتعتمد آلات غير معقدة، ومن ثم فإن على الدول حمايتها من التهاب المشروعات الكبرى. وقد انتهت دول عديدة طرقاً متعددة للحماية؛ فاليابان - مثلاً أكثرت من التعاقد بالباطن بين الصناعة الكبيرة والصناعة الصغيرة. والهند منعت الشركات الكبرى من إقامة مشروعاتها في الحضر والمدن المكتظة، كما منعها من إنتاج ٥٠٤ سلع مخصصة للمشاريع الصغيرة وورش الأكواخ؛ كما ألزمت الدوائر والمؤسسات الصغيرة بشراء ٢٤١ سلعة من المشاريع الصغيرة فقط. وقامت الحكومة إلى جانب ذلك بتأسيس معهد للرقي بالصناعات الصغيرة، وتعليم الصناع المحليين الفقراء صناعة أحذية جيدة بأسعار زهيدة^(٣).

هـ - التقنية المناسبة لا بد أن تكون في البداية تقنية بسيطة، وبعيدة عن التعقيد. وستظل التقنية الغربية قليلة الفائدة بالنسبة لنا، مما لم نختبر منها ما يلامس آفاق التقنية المحلية المتوفرة^(٤).

كلما أمكن للصناعة أن تستخدم آلات وطرقًا مبسطة أمكن نشرها بطريقة أسرع، وأمكن لأعداد كبيرة من الناس استيعابها على نحو أفضل. وينبغي أن

(١) انظر: التنمية التكنولوجية: ٥٥.

(٢) العالم الثالث غداً: ١٣١.

(٣) السابق: ١١٥، ١٤٠، ١٤١.

(٤) يشبه الاستفادة من التقنية تعلم اللغة فإذا سمعنا كلاماً أعمجياً متصلأً صعب فهم شيء منه. ولا بد من سماعه بشكل مفرق كلمة كلمة مع شيء من الشرح والربط بأحداث وإشارات معينة إذا ما أردنا الفهم.

تقلل تلك الصناعات قدر الإمكان من استخدام الكهرباء والوقود، وتتجأ إلى طاقة الرياح والطاقة الشمسية؛ من أجل الحفاظ على الموارد، ومن أجل المحافظة على البيئة. وإن التقنية المناسبة ليست فرصة للتوفير فقط، وإنما هي فرصة للإبداع أيضاً؛ حيث إن الاستيعاب الجيد هو عتبة الإبداع.

يمكن إنتاج سيارات بسيطة ذات سرعات محدودة وتكلفة محدودة واقتصادية، تساعد الناس على الانتقال ضمن المدن، أو بين السكن والحقول.

وهناك دعوة لاستخدام الآلات المستعملة، وإدخال التعديلات عليها. وقد أجريت دراسة في (البرازيل) حول هذا الموضوع، وقد كشفت النقاب عن أن الآلات المستعملة مناسبة جداً لإنتاج المواد الملائمة للسوق المحلي، غير أنها لا تناسب الإنتاج بقصد التصدير. وفي اليابان لا تزال الآلات المستعملة ذات أهمية عالية بالنسبة للمصانع الصغيرة. وقد تبين أن الاستخدام الفعال لها من الأسباب الرئيسية التي مكنت المشاريع الصغيرة في اليابان من مواكبة المشاريع الكبيرة.

إن الآلات المستعملة هي أقل تطوراً، فتشغيلها واستيعابها يكون أسهل في بلادنا وهي أرخص ثمناً، فيمكن بشمن الآلة الجديدة شراء عدد من الآلات القديمة. والأهم من ذلك أن الآلات المستعملة تتطلب صيانة، وهي تتطلب إنشاء ورش محلية، وإيجاد أنشطة تعليمية، وإنعاش مهارات تقليدية؛ كما أنها تحت على إنتاج قطع الغيار وجعلها من الصناعات المزدهرة. ويعزف الناس عادة عن الآلات المستخدمة بسبب نقص المعلومات، وعدم توفر صيانة محلية جيدة؛ وأحياناً يكون الإحجام لأسباب اجتماعية. وهنا يبرز دور الدولة، ومجالس تطوير الصناعة حيث إن بإمكانها توفير معلومات جيدة عن نواعيـات المعدـات المستـعملـة، وعن صـيـانتـها، وـالـبـلـادـ التيـ يمكنـ استـيرـادـ أـصـنـافـ مـعـيـنةـ منهاـ. وـيمـكـنـ لـالـدـوـلـةـ كـذـلـكـ أـنـ تـجـعـلـ سـوـقـ الـآـلـاتـ المستـعملـةـ أـكـثـرـ حـيـوـيـةـ وـتـنظـيـمـاـ⁽¹⁾.

(1) التنمية التكنولوجية: ٦٣ - ٦٥.

إنه لا بد من اعتماد عقلية (البداية المتواضعة) ثم التطوير المستمر والجاد من أجل توطين التقنية. وكل الدول الصناعية والدول التي تسير في طريق النمو الصناعي بدأت بدايات متواضعة، ثم تحسن مستواها شيئاً فشيئاً، والأمثلة في هذا أكثر من أن تُحصى.

إن التقنية لا تكون مناسبة عن طريق المصادفة أو العشوائية، وإنما يجب أن تعتمد على دراسات وبحوث مكثفة إلى جانب وجود ورش ومؤسسات عديدة متخصصة في اختيار المناسب من الأساليب الصناعية، وإبداع ما تمله الحاجة والبيئة والموارد المتاحة...

وإذا لم تتخذ قرارات حاسمة بتخصيص ٢٪ من الدخل الوطني على الأقل لأغراض البحث العلمي وتوطين التقنية وتطوريها؛ فإن الحديث عن التقنية المناسبة لا يعدو أن يكون نوعاً من اللغو والتسلية!

لقد استمر استيراد التقنيات الجاهزة، وأنفقنا عليها أرقاماً فلكية، ولو أن جزءاً يسيراً مما أنفق على استيراد (الصناديق المقلدة) أنفق على البحث العلمي والفنون التطبيقية، لكان لنا اليوم شأن آخر.

وبعد كل ما سبق، فإن عكوفنا على تطوير مستلزمات حياتنا بطريقة خاصة، لن يتم إلا إذا أعطينا الأولوية للإحساس بـ (الكرامة) ونشر العدالة على الإحساس بالسعادة والرفاهية والمظهرية!

٣ - الحد من الهدر والاستهلاك:

مشكلة الهدر والإسراف من المشكلات التي تعاني منها مجتمعات كثيرة؛ فالبسط في الرزق يدفع المرء إلى التوسيع في الإنفاق. وقد وضع القرآن الكريم أن المسرفين لا ينالون مرضاة الله - تعالى - وحبه: «وَلَا شُرِفُوا إِكْثَرٌ لَا يُحِبُّ الْمُتَّقِرِفِينَ»^(١) ووصف المبذرين بأشنع الأوصاف حين قرنه

(١) سورة الأنعام، آية ١٤١.

بالشياطين: «إِنَّ الْمُبَرِّئَنَ كَانُوا لِغَوَّةَ الشَّيَاطِينِ»^(١).

إن مما ينشر عادة الإسراف نظرة الناس إليه على أنه نسيبي، ومن ثم فإن من السهل أن يقول بعض الأثرياء: إن فلاناً ينفق في الشهر كذا، ونحن أحسن حالاً منه؛ فمن حقنا أن ننفق أكثر مما ينفق. ويقول آخرون: نحن نتحدث بنعم الله - تعالى - علينا، وما ننفقه بالنسبة لما نملك ليس كثيراً... ولذا فإن مفاهيم الهدر والإسراف والتبذير، لم تجد تجسيدات واضحة، وحدوداً فاصلة، وتترك ذلك للعرف.

مظاهر الإسراف والتبذير في حياتنا المعاصرة عديدة؛ فهناك أموال طائلة، تُنفق على شرب القات والدخان، وأخرى تنفق على الآثار والرياش والتحف، وبناء مساكن واستراحات فائضة عن الحاجة، وهناك المبالغ الهائلة التي تُنفق على السياحة والسفر إلى غير بلاد المسلمين. وهناك الأطعمة الكثيرة التي تُطبخ، ولا تُؤكل، لتلقي في القمامات. وهناك شباب يشترون بالتقسيط، ويستدينون بالربا من أجل شراء سيارة فاخرة أو فرش وأثاث وغيرها !!

إن انتشار هذه الظاهرة في المجتمعات الإسلامية يعود إلى عدد من الأسباب، نذكر منها:

أ - ضعف الشعور الديني لدى المسلم، أوجد لديه نوعاً من الحرمان، وجعل استسلامه لأهوائه وشهواته أيسر وأسهل.

ب - فقر الحياة الثقافية والاجتماعية وجمودها، جعل مجال التفاضل الوحيد هو كسب المال، والتباهي بإنفاقه وهدره.

ج - ضعف الوعي بقيمة المال وحاجة الأمة إليه، جعل الشعور بالمسؤولية حيال تعميره والحفاظ عليه ضعيفاً.

(١) سورة الإسراء، آية ٢٧. هنا وكثيراً ما يطلق الإسراف والتبذير على معنى واحد، لكن بعض العلماء يجعلون التبذير خاصاً بإنفاق المال في غير وجهه، ويجعلون الإسراف عبارة عن تجاوز للمعتاد في الإنفاق.

د - الافتتان بالنموذج الغربي، والأمريكي خاصة، ومحاولة تقليل القوم، والظن أن الإسراف مظهر من مظاهر التحضر والتقدم. وإن عادات الاستهلاك السيئ تنتشر، كما ينتشر الوباء الفتاك، على حين أن العلم والخبرة والحكمة تحتاج إلى تعلم بطيء.

هـ - الدخول الكبيرة الفائضة عن الحاجة تدفع أصحابها إلى التوسع في الإنفاق، وقد تُوجَد عندهم نوعاً من الترهل والانصراف عن الإبداع والجدية اتكالاً على ما في أيديهم^(١). وهم ينشرون بسلوكهم الاستهلاكي نماذج سيئة في المجتمع، سيعاول كثيرون تقليلها.

و - تكديس الأشكال الكثيرة من البضائع في الأسواق إلى جانب الإعلانات والدعایات التجارية - يوجد لدى الناس نوعاً من الاحتياج المصطنع، ويدفعهم دفعاً إلى مزيد من الاستهلاك!

كيف نحدِّ من الاستهلاك؟

ليس من السهل تغيير العادات النفسية والسلوكية للناس في ظل الضغوط الهائلة التي يمارسها الغرب في سبيل تعميم نموذج حياته المصرفية والصاخبة، وفي ظل استعمار العقول الذي غسل الأدمغة، وغير القيم، وقلب المعايير ومنهجيتي الثابتة في معالجة المشكلات هي اللجوء إلى (الحلول المركبة) التي تجمع بين استخدام التربية والإقناع والفكر والتنظيم، وتغيير الظروف. ومن ثم فإنني أرى أن هناك وسائل وأساليب عديدة للحد من ظاهرة الاستهلاك الترفى، غير المسؤول، ومن تلك التدابير ما يلي:

(١) يذكر أحد الباحثين أن حالة الوفرة قد تكون عامل انحطاط للشعوب أيضاً، ويقول: إن إسبانيا كانت في القرن الخامس عشر أكثر بلاد أوروبا الغربية تقدماً في فنون الإنتاج والعلوم والقدرة على القتال والقدرة على التنظيم؛ لكنها خلال أقل من قرن تخلت عن هذا الموقع لهولندا، ومن بعدها إنجلترا، وفرنسا. ويجمع المؤرخون أن أهم أسباب هذا التدهور هو الكنوز الهائلة من الذهب والفضة التي سلبتها إسبانيا من فتوحاتها الجديدة في الأمريكتين، واستعاضتها بها عن تطوير قدراتها الإنتاجية. المأذق العربي:

أ - نحن بحاجة إلى حملات توعية مستمرة بضرورة الاقتصاد والحفظ على الثروات وترشيد الإنفاق. وهذه الحملات تظهر بمظاهر شتى، من نحو: تقرير مناهج مدرسية، تحت على الاعتدال في الإنفاق، وتبني على صور الهدر الموجودة، ومن نحو تأليف كتيبات توزع على رباث البيوت لإرشادهن إلى كيفية الطهي والخياطة والتأثيث الذي يجمع بين الجودة والبساطة والجمال ورخص الشمن، ومثل القيام بحملات صحفية وإذاعية وتلفازية، ووضع لوحات في الشوارع، وإنشاء الجمعيات والمؤسسات التي تنشر الفكر والثقافة الاقتصادية في الاستهلاك، وتحارب عادات الترف والتبذير والهدر، وتكون على مقربة من الناس لتوسيعهم وإرشادهم.

ب - إن الناس يحتاجون دائمًا إلى نماذج ورموز يقتدون بها، ولا يمكن للمرء أن يكون قدوة لغيره من غير تضحيه؛ وهذا يوجب على أهل العلم والخير والجاه والنفوذ أن يتحسّسو المسؤولية الملقاة عليهم في هذا الصدد؛ فالناس يتلقفون منهم من غير وعي مشروعية أنماطهم السلوكية، ويقتلون أثراً لهم بسبب تمييزهم الديني أو الديني. ونحن إلى اليوم ننفعل بسلوك النبي ﷺ المعيشي وسلوك أصحابه وبقية السلف؛ والله وحده يعلم ماذا ستكون أحوالنا لو أنه انطبع في أذهاننا صورة غير الصورة التي نعرفها عنهم !

ج - إن من الملاحظ أن عدم وجود مشاريع اقتصادية ناجحة يدفع برؤوس الأموال إلى الخروج من السوق، وحين تتكدس الأموال في الأرصدة يندفع الناس إلى استخدامها في شراء سلع، ليسوا بحاجة إليها، أو يندفعون إلى إنفاقها في السياحة والسفر، وما شاكل ذلك. ومن هنا فإن شركات المساعدة والمشاريع الصغيرة يمكنها أن تمتلك كثيراً من الأموال الفائضة إذا توفر لها الإرشاد والرعاية والحماية .

د - إن من حق الدولة أن تضع سياسات للأجور، تجمع بين الحفز على التعليم والإبداع والارتقاء الوظيفي، وبين تحقيق التقارب في مستوى المعيشة بين الناس. والمسألة في الحقيقة حساسة ودقيقة؛ فجعل الأجور

متقاربة إلى حد بعيد يجعل اندفاع الناس إلى ترقية مهاراتهم، وتدريب أنفسهم معدوماً الحواجز. وقد اتبعت بعض الدول العربية هذه السياسة، وكانت عواقبها سيئة!

وجعل مسافات بعيدة بين الحد الأدنى للأجور والحد الأعلى، يدفع ذوي الدخول الكبيرة إلى التوسع في الإنفاق الترفي، ولهذا أيضاً أضرار بعيدة المدى على الثروة الوطنية، وعلى البنية الاجتماعية، كما أنه يؤدي إلى ارتفاع الأسعار على نحو مبالغ فيه؛ مما يؤدي ذوي الدخول المنخفضة. وهذا بالإضافة إلى أن ذلك يوجد بور نفوذ وهيمنة، تساعده على الخروج على القانون، وتساعد على تحلل النظم الإدارية.

وأنصור أن الحد الأدنى للأجور يجب أن يكون كافياً لتحقيق شروط الحد الأدنى من العيش الكريم. أما الحد الأعلى فينبغي ألا يتجاوز ستة أمثال الحد الأدنى، مع الاستمرار في المراجعة والرقابة، من أجل المحافظة على نوع من الازان المعيشي.

هـ - إن شعار! «مارس حريتك وادفع الثمن» يمكن تطبيقه في تدابير الحد من الاستهلاك؛ فإذا رغب بعض الناس في أن يتمتع بالمرفهات الزائدة على الحد المألف المعتمل في المسكن والمركب والملبس والمأكل، فإن عليه أن يدفع ثمن ذلك للمجتمع الذي يعيش فيه، باعتباره جزءاً من التضامن الاجتماعي.

إن ضرورة تصاعدية تتناسب مع ارتفاع درجة كون السلعة كمالية وترفيهية، سوف تساعد كثيراً في الحد من الترف وتبديد رأس المال الوطني. وإن بإمكان الدولة أن تحظر إنتاج بعض السلع التي يؤدي استهلاكها إلى نوع من الاستفزاز الاجتماعي، كما أن لها أن تحظر استيرادها.

إن علينا أن نومن أن الأفكار مهما تكن قوية، وأن الوعي النقدي مهما يكن عظيماً؛ فإن سلوك الناس لن يتغير بالقدر الكافي ما لم توجد ظروف اجتماعية جديدة، تحمل الناس حملاً على اتباع أسلوب جديد في العيش. وإن الأفكار التي طرحتناها، ربما ساعدت على ذلك.

٤ - الادخار من أجل الاستثمار:

الخلل الكبير الذي يجتاحت حياة كثير من الشعوب الإسلامية، سببه الرئيس، هو أخذها بعض الكتاب، وإعراضها عن بعضه الآخر؛ فحرموا من بركة تكامل المنهج الرباني، وقدرته على الإصلاح الشامل المتزن. السوداد الأعظم أخذ بحديث «تناكحوا تکاثروا...» على أنه مبدأ، لكن الذين أخذوا بتوجيهات الإسلام في الكدح والعمل الجاد وحسن التدبير، والإعراض عن زينة الدنيا... قليلون، فوقعنا في مأزق أخذناه في التفاصيم يوماً بعد يوم !!.

إن السكان يتضاعفون في بعض الدول الإسلامية كل خمس عشرة سنة، وفي بعضها كل عشرين سنة، وفي بعضها كل خمس وعشرين سنة؛ وهذا يعني أنه يجب حتى تحافظ على المستوى الحالي من العيش أن تضاعف السكن والخدمات والتعليم والصحة والغذاء مرة كل جيل على الأقل، وإلا وفدت أجيال لا تجد سكناً، ولا عملاً؛ فتجتاحها آفات البطالة والفاقة والتشريد والانحراف... .

إن الاستثمار هو تشغيل المال في الأطر الإنتاجية المختلفة؛ والمال يأتي من خلال التوفيرات التي يقتطعها الناس من دخلهم السنوي. فالمدخلات هي الفوارق بين الدخل والاستهلاك؛ فلا بد حتى تكون هناك استثمارات جديدة من أن يكون ما ينتجه الناس أكثر مما ينفقونه، وإلا فمن أين يأتي المال؟

إن فرض الإسلام للزكاة على الأموال القابلة للنماء، سواء أنها أهلها أم لا - يُعد حافزاً على دفعها إلى دخول دورة الإنتاج، حتى لا تأتي عليها الصدقة.

وقد ورد في الحديث: «خير المال مهرة مأمورة، وسكة مأبورة» ..
والسكة المأبورة هي صفة التخلل الملحق، والمهرة المأمورة: الكثيرة النسل
والنتائج^(١) ومعنى النماء والاستثمار في هذين النوعين الخيرين ظاهر للعيان.

وروي أن عمر - رضي الله عنه - سأله أفراد رعيته عن حال الناس في الإقليم الذي جاء منه، فحذّره عن جزالة عطاء الوالي لهم، حتى إن الواحد من الناس يصرف المال فيما ينبغي، وفيما لا ينبغي. وكان توجيهه عمر لهم: «فلو أنه إذا خرج عطاء أحد هؤلاء، ابتاع منه غنماً، فجعلها بسوادهم؛ فإذا خرج عطاوه الثانية ابتاع الرأس والرأسين، فجعلها فيه، فإني أخاف عليكم أن يليكم بعد ولادة، لا يُعد العطاء في زمانهم مالاً. فإن بقي أحد منهم، أو أحد من ولده كان لهم شيء، قد اعتقاده، فيتكلّمون عليه، فإن نصيحتي لك وأنت عندى جالس، كنصيحتي لمن هو بأقصى ثغر من ثغور المسلمين»^(٢)!

الحلقة المفرغة :

أسوأ ما في التخلف أنه في كثير من الأحيان، يجعل المبتلين به في حلقة مفرغة، يدورون فيها، دون أن يجدوا سبيلاً للخروج؛ إذ من الواضح أن الاستثمارات الجديدة تتطلب فائضاً اقتصادياً، والقوانين هي الفوارق بين مجمل الناتج ومجمل المستهلك؛ فإذا لم تكن هناك فوائض جيدة زائدة على الاستهلاك، فإن المشروعات والاستثمارات الجديدة ستكون ضعيفة ومحدودة؛ وهكذا فأكثر الشعوب الإسلامية، دخلها منخفض؛ لأن الإنتاج منخفض. والإنتاج منخفض؛ لأن رأس المال المستثمر منخفض. وانخفاض رأس المال بسبب انخفاض الأدخار. انخفاض الأدخار يؤدي في النهاية إلى دخل منخفض^(٣). وهكذا تكتمل الحلقة، ويحكم إغلاقها!

ولا بد لكل دولة، ولكل شعب، بل لكل فرد من البحث عن نقطة

(١) النهاية في غريب الحديث: ٦٥، ١٣:١.

(٢) الإسلام والتنمية الاقتصادية: ٢٠٩.

(٣) قضايا التخلف: ١٣٦.

ضعف في حلقة الخاصة؛ حتى يتم كسرها، ويتمكن من الخروج منها.

تدل الإحصاءات المتوفرة على أنه للحصول على تنمية للدخل الوطني بنسبة ١٪ يجب أن تستثمر ٣٪^(١) من هذا الدخل في مشاريع إئمائية؛ وذلك على نحو عام وهذا يعني أنه للحصول على تنمية اقتصادية بمعدل ٥٪ سنوياً - مثلاً - يجب أن توظف ما لا يقل عن ١٥٪ من الدخل الوطني في مشاريع إئمائية كل عام.

ما العمل؟

إنني على ثقة كاملة أن الله - جلا وعلا - ما أنزل من داء إلا أنزل له دواء، وأن الإمكانيات الكامنة والطاقات المعطلة هي أكثر بكثير مما نظن! والمعاناة الأساسية، تكمن في ضعف الالتزام والوعي، وقصور النظم السياسية والاجتماعية. وهذا يعني أن هناك مجالاً رحباً للتقدم، إذا امتلكنا من العزيمة والحكمة والبصيرة ما يؤهلهنا لاستحقاقه.

إن تكوين رأس مال وطني جيد، وتوفير الأموال للاستثمار يحتاج إلى القيام بإجراءات عديدة منها:

أ - تعود كثير من الناس اختزان أموالهم في الذهب والمجوهرات والمساكن والعقارات. وهذا في الحقيقة حرم سوق العمل من أموال هائلة، كان بإمكانها أن توفر ملابس فرص العمل، وأن تدفع مسيرة التنمية خطوات فساحاً إلى الأمام. والذي يدفع كثيراً من الناس إلى ذلك الخوف من أن يذهب التضخم بقيمة أموالهم، إلى جانب المشكلات التي يواجهونها في الاستثمار مع أصحاب المشروعات الوهمية.

إنه لا بد من التوعية الشاملة بأهمية دخول المال دورة الإنتاج، كما أنه لا بد من توفير الظروف التي تجعل النزول إلى السوق آمناً قدر الإمكان.

(١) نسبة الأدخار في ماليزيا: ٨/٣٧، وفي أندونيسيا: ١/٢٧، وفي تايوان: ٨/٣٨ وفي اليابان ٣٪. أما الدول الفقيرة فإن نسبة الأدخار لديها لا تتجاوز ١٪.

ويمكن للدول أن تضع بعض القيود على المضاربات بالعقارات؛ مما يخفف من لجوء الناس إلى اختزان الأموال فيها.

إن من الغريب أن المرأة الغربية تميل إلى البساطة في مظهرها وحليلها وثيابها، على حين أن المرأة المسلمة تنفق الأموال الطائلة على ذلك، مع أن المسلمة أولى بذلك، ولكن . . .

ب - إن هناك كميات هائلة من الأموال التي تم تهريبها إلى خارج البلاد الإسلامية، وبعضها يخرج على نحو مشروع؛ ليعمل في بلاد الغرب. وتفيد بعض التقديرات أن الأموال العربية وحدها الموجودة في الدول الغربية، تتجاوز ستمائة مليار دولار! وهذا الرقم وحده كاف إذا استخدم استخداماً رشيداً لتأسيس نهضات اقتصادية عديدة!!

ولا يجوز أن نتجاهل أن بعض الحكومات شنت حرباً شعواء على أصحاب رؤوس الأموال؛ حتى اضطربت بهم إلى الهجرة بأموالهم، كما لا ينبغي أن ننسى أن ضعف الأطر التنموية إلى جانب المركزية في التخطيط والإدارة وضعف المشاركة والتفاهم السائد في أكثر بلاد المسلمين بين الحكومات والشعوب - أن كل ذلك يعد أسباباً جوهرية لهجرة الأموال إلى الخارج.

وهكذا فإن الانتعاش الاقتصادي كثيراً ما يتوقف على نوع من التقدم السياسي والاجتماعي؛ ومن العسير أن نتهم من أخرج ماله من وطنه بضعف الولاء أو ضعف الشعور بالمسؤولية؛ فهناك من الأسباب ما يحرض على ذلك! .

إن تفكيرنا في تحسين ظروف الاستثمار لن يعود بأي نفع ما لم نحرز تقدماً ملمساً على صعيد العلاقات الاجتماعية، وعلى صعيد العدل والمشاركة والتفاهم الوطني.

ج - إن ما يمكن أن يدفعه الفقير للدولة محدود جداً؛ لأن دخله محدود. وفي كثير من الدول الإسلامية تحمل في النظم الإدارية؛ ومن ثم فإن جبة الضرائب وكثيراً من الموظفين يجبون الأموال لخزائنهم الخاصة، وليس لخزينة الدولة.

وكثير من أصحاب الثروات، لا يدفعون ما يجب عليهم؛ ولذا فإن من الملاحظ أن هناك بعض التجار إمكاناتهم مثل إمكانات دولة أو دول !!
والواجب اختيار أهل الدين والعفاف - وهم كثيرون بحمد الله - لتولي
شؤون المال والمشاركة في حمل الأمانة الكبرى التي تتحملها الدولة
الإسلامية .

د - لا بد من تدابير عديدة لجعل (الطلب الداخلي) يتعاظم ، بمعنى أن الأموال يتم إنفاقها على شراء سلع داخلية ، وضمن خطة تقشفية . وهذا ما فعلته دول عديدة في جنوب شرق آسيا في أول نهضتها الصناعية ، حيث وضعت بعض الضرائب والقيود على استيراد الكماليات والبضائع الأجنبية الفاخرة ، وقيدت الاستهلاك الشخصي ، كما وضعت قيوداً على خروج الأموال إلى الخارج ، ووجهت الأموال إلى الاستثمار في المجالات الصناعية... وقد أدى كل ذلك إلى زيادة الصادرات ، وزيادة الربح والادخار؛ مما شجع على تشطيط الطلب الداخلي^(١) .

ه - ضغط قطاع الخدمات والتوزيع والتشييد لصالح الاستثمار في الأدوات الإنتاجية ، أمر ضروري في البداية . وهو جزء من حملة تقشف علينا أن نتحملها إلى أمد ، ليس بالطويل ، بإذن الله تعالى . وقد ذكرت بعض الدراسات أن قطاع الخدمات ارتفع في بعض الدول العربية عام ١٩٨٥ بنسبة ٥٥٪^(٢) وهذه الزيادة كبيرة جداً بالنسبة لدولة نامية ، تحتاج إلى الكثير من المال للإنفاق على الأساسية ، وتحسين أحوال التنمية!

و - لكسر الحلقة المفرغة يجب الضغط والتركيز على بعض القطاعات الإنتاجية ، كالزراعة أو الصناعات الخفيفة من أجل توفير الأموال لاستثمارها في قطاعات أخرى . وتختلف الخيارات من دولة إلى أخرى؛ فبلد مثل السودان قد تكون الزراعة هي خياره الأنسب ، حيث التربة الخصبة والمياه الوفيرة .

(١) الاستعداد للقرن الحادي والعشرين : ٢٥٤.

(٢) قضايا التنمية في الوطن العربي ١٧.

وحيث تتوفر المعادن أو النفط الخام قد يكون الضغط على قطاع الصناعة هو الخيار الأفضل... وهكذا فالهم هو استفاد كل الإمكانيات في البحث عن البداية الصحيحة.

ز - هناك أموال طائلة تنفق على شراء السلاح^(١). وكل من الشرق والغرب يغالي في ثمن أسلحته، ويضع قيوداً ثقيلة على استخدامها؛ مما يجعل فائدتها في أحيان كثيرة شبه معدومة! وفي تصوري أنه يجب صرف النظر عن اقتناء السلاح المتتطور إلى حين، وتوجيه الأموال التي تصرف عليه إلى إنشاء صناعات عسكرية محلية؛ حيث يتم بذلك توفير فرص عمل للناس، وإنتاج سلاح وطني غير مثقل بشروط الاستعمال، وتكون صيانته وتأمين قطع الغيار له في طاقة الدولة.

والأهم من ذلك توطين الخبرات العسكرية وتنميتها محلياً.

٥ - الزراعة ومستقبل المستضعفين:

النشاط الزراعي هو النشاط الفطري الذي مارسه الإنسان منذ أزمنة سحيقة. وتقدير الناس للأرض، وحبهم لها ربما كان بسبب الشبوذية التي تتمتع بها بنيتها، حيث يجد الناس فيها الأمان والأمان. وربما كان بسبب إحساسهم أنها مصدر للنماء والرزق المتجدد.

كانت الزراعة في يوم من الأيام كل شيء، وصار الاشتغال الزائد بها اليوم دليلاً على الفقر والتخلف، حيث زاحمتها قطاعات عديدة. و يبدو أن الأمر ليس جديداً، فقد ذكر ابن خلدون في مقدمته أن الفلاحة معاش المستضعفين وأهل العافية من البدو^(٢).

وتذكر بعض الدراسات أن الدولة التي يشتغل أكثر من ١٠٪ من سكانها

(١) منذ عام ١٩٦٠ والعالم الثالث ينفق على السلاح نحو ١٧٠ بليون دولار سنوياً. وفي عام ١٩٨٥ أنفق العالم على الأغراض العسكرية أكثر من ٩٠٠ مليار دولار. انظر مستقبلنا المشترك: ٤٢٩ الفقر والبيئة: ٤٤.

(٢) المقدمة ٢: ٢٩٦.

بالزراعة تعد متخلفة^(١). ولا شك في هذا، حيث إن توفير الغذاء يقصد منه البقاء على قيد الحياة؛ فإذا كان أكثر السكان يعملون في الزراعة، فمعنى ذلك أنهم يكافحون من أجل البقاء، ليس أكثر. والفقراة ينفقون ما بين ٥٠ إلى ٧٠٪ من دخلهم على الغذاء، على حين أن هذه النسبة تقل كثيراً لدى الأغنياء، حيث تكون متطلبات الرقي أكثر، وتستلزم إنفاقاً أكبر.

إن حصة الفرد من الأرض الزراعية تبلغ اليوم نحوأ من ٢٨٠٠ متر. وبسبب النمو السكاني العالمي فإن هذه الحصة تنخفض إلى ١٧٠٠ متر حتى عام ٢٠٢٥، وسوف تنحصر حصة الفرد الآسيوي إلى نحو ٩٠٠ متر فقط^(٢).

وتذكر بعض الدراسات التقديرية أن في العالم الإسلامي أكثر من أربعمائة مليون فدان مزروعة في مناطق مناخية مختلفة. وتشكل هذه المساحة نحوأ من ١١٪ من مساحة الأرض المزروعة في العالم. كما أن في العالم الإسلامي نحوأ من ٣٩٤ مليون هكتار من الغابات. وهي تشكل ٩٪ من مساحات الغابات في العالم. وهناك أراضٍ كثيرة صالحة للزراعة في دول مثل باكستان والسودان والعراق وأندونيسيا^(٣).

إن الزراعة بالنسبة للعالم الإسلامي تمثل قضية هامة جداً؛ إذ إن الزيادة السكانية فيه تتزايد بنسب عالية جداً؛ إذا قيست بباقي دول العالم، ومن ثم فإن عدم تحقيق الكفاية الغذائية سيجعل الشعوب المسلمة تخضع للابتزاز والاستغلال من قبل الدول التي تصدر الغذاء، والتي أخذت تلوح به باعتباره أداة استعمارية جديدة!

إن الناس يزيدون، لكن الأرض لا تزيد، ومن ثم فإن تحقيق الاكتفاء الغذائي، سيعتمد من الآن فصاعداً على التقدم العلمي في مجال الهندسة

(١) فقر الشعوب: ٤٢. وفي فتح الباري: ٤: باب: ما يحذر من عواقب الاشتغال بألة الزرع، أو مجاوزة الحد الذي أمر به.

(٢) الاستعداد للقرن الحادي والعشرين: ٩٧.

(٣) قضية التخلف العلمي والتكنولوجي: ١٣٣.

الوراثية، وتحلية المياه، وصناعة المبيدات والأسمدة، وتحسين نظم الري والتغليف والتبريد والتخزين وهذا يعني أن الدول الصناعية أكبر قدرة على تحقيق التقدم في مجال الزراعة. وإذا أراد المسلمون أن يؤمنوا لأطفالهم الحاجات الأساسية من الغذاء، فإن عليهم أن يكتفوا من الدراسات والبحوث والتجارب المتعلقة بتحسين الزراعة، وإلا فإن المستقبل يدعو إلى القلق!

آفاق المستقبل:

لا شك أن أفضل الأراضي في العالم الإسلامي قد تمت زراعتها. والمتبقي منها إما يحتاج إلى مياه للسقي، وإنما يحتاج إلى استصلاح وبعضاً لا يشكو من أي هاتين المشكلتين، لكنه أهمل نظراً لعدم الحاجة إلى متوجهاته، أو عدم القدرة على نقلها وتسويقها^(١).

ومن هنا فإن التقدم الربح في الزراعة سيظل رأسياً، ومعتمداً على التقدم في المجالات الأخرى الصناعية والتسويقية، بل والسياسية والاجتماعية؛ مما يصح معه القول: إن التقدم الزراعي يمكن أن يكون مرآة صادقة للتحضر العام لأية أمة من الأمم!

إن الأزمات الغذائية الآخنة في التفاهم، قد تمنحنا فرصاً جديدة لإعادة التفكير في القطاع الزراعي، وتدعيمه، وإعادة تنظيمه. وفي هذا السياق يمكن أن نقول:

- إن حب الناس لأرضهم شيء فطري، لكن في زماننا هذا حدث تغيرات هائلة حيال كثير من المقدسات، وصار مركز حب الأشياء العقل لا القلب!

ومن هنا فإن الناس لن يزرعوا أرضهم، ولن يسكنوها ما لم يشعروا أن الزراعة تؤمن لهم الحد الأدنى من شروط العيش الكريم؛ وهذا يتطلب في

(١) تختلف الكثافة السكانية من دولة إسلامية إلى أخرى اختلافاً كبيراً. ونظراً لضعف التنسيق بين البلاد الإسلامية فإنه لا تم استفادة الشعوب بعضها من أراضي بعض.

الحقيقة أن تقوم الدولة بمساعدتهم، بتأمين البذور الجيدة، وإرشادهم إلى الطرق الجديدة في الزراعة، وحماية منتجاتهم من أن تتدحرج أسعارها؛ وذلك بتغطية الفارق بين سعر السوق والسعر المجزي الذي يُنصح بهم.

ولا بد من تمكين المزارعين من تنظيم أنفسهم وإتاحة الفرصة لهم للدفاع عن حقوقهم، كما هو الشأن في كثير من بلدان العالم.

- يجب أن تقوم الصناعة بخدمة الزراعة؛ إذ إن كثيراً من وسائل الري والحراثة والقطاف والمحاصيل والتخزين يتم بطرق بدائية جداً؛ مما يتربّط عليه قلة في المحاصيل، وهدر في كثير منها. في بعض الدول المياه متوفّرة، لكن لا توجد طاقة لرفعها، ومن السهل إنشاء مصنع بسيط لدواليب الهواء، من أجل رفع الماء - مثلاً -، وفي أماكن أخرى المياه شحّيحة، وأساليب الري بدائية؛ فيمكن إعانته المزارعين بمدّهم بأجهزة رى عن طريق الرش أو التنسف، أو صب طبقة من (البلاستيك) تحت التربة، حتى لا يصل الماء إلى الأرض السابعة (!) دون أن يستفاد منه.

ويعلّم الناس في أكثر البلدان الإسلامية من هبوط أسعار منتجاتهم وقت الموسم، ولا سيما الخضار والفاكهـة. والحل هو مصانع التعلـيب وإنـشاء الثلاجـات لحفظـ ما يمكن حفظه؛ لبيعـ في أوقـات أخـرى. والمزارـع الفقيرـ الأمـي لا يستطـيع أن يقوم بشـيء من ذـلك؛ فهو بحاجـة إلى مـساعدةـ الدولةـ. والأولـى أن يتمـ إنشـاء جـمعـيات مـسـاـهمـةـ، ويـمـكـنـ للـدـوـلـةـ أن تـقـدـمـ لهاـ الدـعـمـ والمـشـورـةـ. وهـكـذاـ فالـقـطـاعـ الزـرـاعـيـ عـاجـزـ عـنـ الـارتـقاءـ بـنـفـسـهـ ماـ لـمـ تـمـ لهـ يـدـ العـونـ منـ القـطـاعـ الصـنـاعـيـ وـالـتـجـارـيـ.

- إن الزراعة أكبر من أن تترك للمزارعين، وإن بإمكان أعداد كبيرة من الناس أن يزرعوا في الشرفات وعلى سطح المنازل، وفي الأراضي الفضاء في المدن، وفي الدور وفي القرى. وإن الحياة الحضرية لدينا غدت جراء مشوهة، حيث تحولت المدن إلى غابات من الإسمنت المسلح، وقد فقدت كل معاني الحياة!.

- لا بد من العودة - قدر الإمكان - إلى التقاليد القديمة، حيث كان المزارع يؤمن كفايته من اللحوم والخضروات والفاكهة والبيض والصفوف ومشتقات الألبان، ولا يحتاج إلا إلى شراء أشياء قليلة جداً. وإن تقدم أساليب الزراعة يمكن الناس من سد حاجاتهم اليومية من الخضار من مساحة قد لا تزيد على مئة متر^(١). ولذلك فوائد كثيرة جداً. ويمتلك العالم اليوم خبرات كثيرة في هذا المجال.

- الهندسة الجينية قد تكون شرآً مستطيراً، إذا ما تم التمادي في بحوثها وتطبيقاتها على الإنسان، لكنها تُعد بأعظم النتائج في المجال الزراعي. ومن حسن الفأل أن هناك اليوم فرعين من فروع المعرفة، لا يحتاجان إلى العتاد، بمقدار حاجتهما إلى العنصر البشري، وهما (المعلوماتية) و (الهندسة الجينية) وفي إمكان الدولة الإسلامية أن تجعل من أكاداس الباحثين والخريجين جيشاً تبحث في هذين الفرعين الخطيرين، ولكن بشرط أن تبصر طريقها، وتعي الفرص المتاحة أمامها^(٢).

وقد قامت المجموعة الاستشارية للبحث الزراعي الدولي بتأسيس عشرة مراكز، يركز كل مركز منها على نوع من المحاصيل. والمركز (سيات) في كولومبيا مخصص للزراعة المدارية. وبهدف هذا المركز إلى الكشف عن نوع رخيص من التقنية التي تحتاج إلى كثافة عمالية، وتناسب الظروف الاقتصادية للمزارع الصغيرة وإنجازات هذا المركز كثيرة جداً، ومتعددة، منها أنه استنبت نوعاً من البذور التي تصلح للتربة القلوية، بدل تغيير قلويتها بكيماويات كثيرة، كما نجح في تحقيق هدفه في إيجاد (بروتين) رخيص من البقول، كاللوبيا والفاصوليا والفول، وسرعات حرارية رخيصة من الكسافا. وقد أصبح

(١) بإمكان بذرة واحدة مهجنة من بذور الخيار أن تعطي ٢٥ كغ من الخيار. ويإمكان بذرة واحدة من بذور الطماطم أن تعطي ٢٠٠ كغ منها!!.

(٢) عرف اليهود الغاصبون ندرة الثروات الطبيعية في فلسطين المحتلة، فاتجهوا إلى تكيف العمل في هذين الفرعين اللذين يعتمدان - كما قلنا - على العنصر البشري، وهم يحتلون الآن مواقع عالمية فيها!!.

لدى المركز بنك للجينات فيه ١٢٠٠٠ نوع من البقوليات، من أجل تهجين صفات أخرى حسب الطلب.

وابتكر المعهد الدولي لبحوث (الأرز) في الفلبين سلالات تحمل الجفاف، وأخرى تحمل تربة المستنقعات المالحة، وتحمل نظم الري في مناطق الجفاف.

واكتشف المعهد الدولي للبطاطس في (ليما) أنواعاً من البطاطس تنضج في مائة يوم؛ بما يقل عن المدة العادبة بخمسين إلى ثمانين يوماً. كما اكتشف أنواعاً أخرى يمكن أن تنمو في الأراضي المنخفضة المدارية في ستين يوماً^(١).

إن حمل الناس على الاستفادة من الإمكانيات الزراعية المتاحة لا يتم بسهولة، كما أن تشغيل الباحثين يحتاج إلى الأطر التي تسهل لهم سبل البحث، وتضع لهم البرامج، وإن تعاوناً حكومياً شعبياً مكثفاً، يمكنه أن يفعل الكثير!

- قد لا يتبه كثير من الناس إلى أن الأرض تفتت باستمرار؛ فإذا كان زيد من الناس يملك اليوم عشرة أفدنة، ورزق خمسة من الولد؛ فإنه بعد ثلاثين سنة سيكون على هذه الأفدنـة أن تعول ست عوائل، وكل فرد من هذه العوائل إذا أحياه الله - تعالى - سيكون عائلاً بعد ثلاثين سنة أخرى وهكذا.....

وهذا يعني أنه مهما حدث من تقدم في الزراعة، فإن الناس في الريف بحاجة إلى مصادر أخرى للرزق، وما لم تتوفر لهم، فإنهم لا يستطيعون الاستمرار في العيش فيه. ولذا فلا بد للمزارعين من مشاريع صغيرة مساندة، تمتض الأيدي العاملة الجديدة، وتمتص البطالة الموسمية التي قد تصل إلى ١٨٠ يوماً في السنة!

(١) انظر: تفصيلات أكثر في: العالم الثالث غداً: ٨١ وما بعدها.

إن المشروبات الريفية يجب أن تتمحور حول المواد الأولية الموجودة في الريف، وحول ما يمكن تربيته فيه من نحو مزارع الأسماك وخلايا النحل ومعاصر الزيتون، ومصانع لتجفيف الفاكهة، ومصانع للألبان والأجبان واللحوم، وتعليق الفاكهة والخضار، ومصانع صغيرة لإنتاج الأحذية والصوف، ومصانع لإنتاج الآلات الزراعية البسيطة.

وإن على الدولة أن تقدم القروض الميسرة السداد، من أجل دعم تلك المشاريع، ولو حسبت كل دولة ما تكلفتها الهجرة من الريف إلى المدينة، وما تسببه من خسارة مادية وعطالة وتفكك اجتماعي، لوجدت أن ما تنفقه لدعم بقاء الناس في قراها أقل بكثير مما تنفقه لتلافي آثار الهجرة العشوائية المقيدة!

٦ - لا مكان للصغر في عصر الكبار:

الاقتصاد هو ما تبقى من السياسة اليوم؛ والدول التي لم تنجح في إقامة علاقات اقتصادية جيدة فيما بينها، لا تستطيع إقامة علاقات سياسية فاعلة؛ لأن الاقتصاد والتجارة والمال والتنافس على الأسواق الدولية، والمواد الأولية الرخيصة هي الصخرة التي يمكن أن تحطم عليها كل التقارب والسياسات، وكل أشكال التنسيق في المحافل الإقليمية والدولية. فالمحك النهائي للتعاون والتنافر في هذه الأيام، محك اقتصادي قبل أي شيء آخر.

إن المنطق السليم يقرر أن التحديات الكونية يجب أن تواجه بجهود كونية، وتعاون المسلمين مع بعضهم هو من هذا القبيل؛ فالعالم الغربي المتريض بالشعوب المستضعفة، ينظر إلى العالم الإسلامي على أنه بنية ثقافية واحدة، ومن ثم فإن المعايير التي تم إرساؤها للتعامل مع دوله هي معايير متقاربة. وما اختلفت دولة إسلامية مع دولة غير إسلامية إلا وقف الغرب إلى جانب الدولة غير المسلمة.

إن العالم الإسلامي حين يكون متفرقاً في عالم مجزاً، فإن الأضرار التي تعود عليه من وراء ذلك تكون أخف وطأة، لكن حين يتمزق في وقت

يجري فيه السعي الحثيث إلى تكتلات تجمع الدول القوية^(١)؛ فإن الأخطار التي تهدد مصالح المسلمين ستكون آنذاك جسيمة!

من الواضح أن بإمكان التجمعات الكبرى - كالسوق الأوربية المشتركة - أن تمارس ضغوطاً هائلة على العالم الإسلامي في مجالات كثيرة، مثل أسعار المواد الخام، وأسعار الآلات والمصنوعات التي نشتريها منهم؛ كما أن بإمكانها أن تضع القيود التي تناسبها على تدفق العمالة المسلمة...

لقد بات من المؤكد اليوم أن من العسير على الدول الصغرى أن تهيمن على شؤونها الخاصة، حيث حواشي المناورة أمامها دائماً محدودة، وأسواقها الداخلية أيضاً محدودة. وهي لا تستطيع أن تفتح أسواقاً عالمية لمنتجاتها بسبب ضآلة تلك المنتجات، ولا تستطيع تطويرها بالصورة المناسبة؛ لأن ذلك يتطلب إنفاقاً مكثفاً على البحث العلمي... وهذا كله لا يتأتى للدول الصغرى. وليس من الشاذ ألا نرى اليوم أية دولة عظمى يقل عدد سكانها عن خمسين مليون نسمة، ومع هذا فالدول العظمى كلها داخلة في أحلاف وتجمعات فعالة، تزيدها قوة إلى قوتها!

إن كل نوع من المشاريع له طاقة إنتاجية مثالية، فإذا قل عنها كانت منتجاته أكثر كلفة. وعلى سبيل المثال فإن مجمعاً حديثاً للتعدين، وذا دورة إنتاجية كاملة، تكون الصورة المثالية لطاقة الإنتاجية هي أربعة ملايين طن من الحديد الزهر، وخمسة ملايين طن صلب في السنة. وبالنسبة لمصنع إسمنت حديث فإن الطاقة الإنتاجية المناسبة له هي مليون طن سنوياً. وفي إنتاج سيارات الركوب ٦٠٠ ألف وحدة. وبالنسبة لسيارات الشحن والجرارات في حدود ١٠٠ ألف وحدة^(٢).

إذا كانت السوق الداخلية محدودة، ولم تكن هذه الصناعات عالية

(١) فصلنا في كتاب (نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي) القول عن بعض تلك التكتلات انظر: ص ١٧٧ منه.

(٢) انظر وتفاصيل أخرى في أهمية التصنيع: ٩١

الجودة ورخصة التكلفة، فإن إنتاجها سيتکبد خسائر، لا يقوى معها على الاستمرار!

إن التفاوت الذي نلمسه بين دولة إسلامية وأخرى كان لدى الولايات كثيرة في العالم، ثم استطاعت أن تشكل فيما بعد دولاً كاملة، فقد كانت الدوليات الألمانية كذلك، وكانت الولايات المتحدة الأمريكية كذلك، ثم زالت الفوارق والمعوقات^(١). شيء من التضحيات مطلوب على المدى القريب من أجل الوحدة، لكن الشمار اليانعة سوف يقطفها الجميع فيما بعد. والمسألة من قبل هذا، ومن بعده مسألة مبدأ. والحسابات النفعية لا تُعطي أهمية كبرى في مجال المبادئ، وإنما يجري التحايل عليها، وتأويلها في سبيل الامتثال لما يجب أن يكون!

حدود التعاون الممكن:

إن من غير الممكن الآن تشكيل تحالف اقتصادي إسلامي على مستوى العالم؛ لأسباب كثيرة، لا داعي لتعريدها. وفي كثير من الأحيان يجد المرء نفسه عاجزاً حيال قضايا كثيرة؛ لكنه إذا قال: ماذا يمكن أن أعمل حيال المشكلات والصعوبات الكثيرة خلال عشرين عاماً، لوجد أنه يستطيع عمل أشياء كثيرة جداً!

وأود أن أؤكد أنه من الصعب إنجاز أشياء كثيرة في تحقيق التعاون الإسلامي بعيداً عن الشعوب الإسلامية؛ فالحمل الذي يتم خارج رحم الأمة هو حمل كاذب!

إن علينا أن نعرف أننا لم نقم بواجبنا - ولا على مستوى من المستويات - تجاه تأسيس ثقافة تفضل السياحة في ديار المسلمين، والتعرف عليهما. كما أننا لم نفعل شيئاً ذا قيمة تجاه تفضيل استهلاك المنتجات

(١) أنفقت ألمانيا الغربية نحو ٤٠٠ مليار مارك على عمليات التوحيد بين شطري ألمانيا. وهذا نموذج لما يمكن أن يفعل من أجل المبدأ والتاريخ والقرابة واللغة!

الإسلامية، وإن كانت أقل جودة من غيرها؛ وما ذلك إلا لأننا لا نمتلك الوعي المناسب بخطورة نظام التجارة، وقدرته على اكتساح كل النظم! وأيضاً فإن جاذبية الغرب للصوفة فيما أقوى بكثير من جاذبية البلدان الإسلامية؛ ومن ثم فإن الولاء للمسلمين لم يتشخص في أي تحرّكات عملية وتبادلية، بل ظل عبارة عن مقولات ومشاعر!!.

إن هناك إمكانات هائلة للتعاون بين المسلمين حكومات وشعوبًا، بشرط أن ينظر إلى القضية على أنها قضية مبدأ ومصير في آن واحد. ومن تلك الإمكانيات:

أ - هناك جهل عريض لدى المسلم بأحوال إخوانه المسلمين^(١)، وجهل بالمميزات والفرص والإمكانيات الاقتصادية المتوفرة في بلاد الإسلام. وإن بإمكان الجامعات والغرف التجارية والصناعية والاتحادات المهنية أن تقوم بالدراسات والبحوث والمسوحات التي تكشف عن الإمكانيات والمميزات في كل بلد إسلامي سواء أكانت صناعية أم تجارية أم خدمية، وأن تعمم نوعاً من الثقافة الاقتصادية.

كما أن بإمكان تلك المؤسسات إلى جانب الجمعيات والجماعات والأندية أن تنظم رحلات استكشافية وسياحية، الغرض منها التعارف وبناء الجسور بين رجالات الأعمال المسلمين.

إن أمّة الإسلام لن تتجزّ الكثیر، مالم يشعر كل مسلم أن بإمكانه أن يصنع شيئاً ولو كان استهلاكاً لسلعة صُنعت في بلد إسلامي، أو نشر معلومة تتعلق به، أو لفت الأنّظار إلى مشكلة يواجهها....

ب - إن العالم الإسلامي متّنوع الإمكانيات والمميزات والمناخات؛ وإن لكثيرون من البلدان الإسلامية ميزات ظاهرة، تشبه التخصص، ويمكن لها من

(١) يمثل الغرب قلب العالم، وتمثل الدول الفقيرة والنامية أطرافه وحواشيه وإن كل الأطراف مشدودة إلى القلب في كل شيء أما علاقات الأطراف بعضها مع بعض فهي معروفة أو شكلية أو ضعيفة!

خلال التعاون مع البلدان الإسلامية أن تسد حاجات كثيرة، وأن تسهم في النهضة الاقتصادية الإسلامية الشاملة.

إن أندونيسيا ومالزيا من الدول التي تستطيع تنمية صناعات مهمة، مثل صناعة الورق والإلكترونيات والطائرات إذا وجدتا التعاون من قبل الدول الإسلامية بالإقبال على شراء مصنوعاتهما، وتمويل بعض المشروعات فيما.

وإن من الممكن جعل السودان مصدراً للغذاء لدول أخرى عديدة، لكنه ي حاجة إلى المعونة الفنية والمالية لاستثمار الإمكانيات الهائلة التي لديه.

وإن بإمكان دول الخليج أن تقدم خبرات ممتازة، وتقدّم مشاريع عملاقة في مجال صناعة النفط وتسويقه، كما أنه يمكن لبعضها أن يساهم في تمويل مشروعات إنمائية في دول إسلامية أخرى.

ومن غير التكافف لتوسيع السوق الإسلامية وتعاونها لا يمكن لخيرات الأمة أن تُثْمِي، ويستفاد منها على الوجه المطلوب.

جـ - إن أسرار التقنية عند مستوياتها العليا لا تباع ولا تشرى؛ لأن الوصول إليها مكلف للغاية. وإن كثيراً من الدول الإسلامية مشغول بصرف ما لديه من إمكانات على التوسيع في التعليم ومحو الأمية لمواجهة الزيادة السكانية. وهي لا تملك الأموال الكافية للإنفاق على البحث العلمي^(١). ونحن نعتقد أن البطالة سوف تزداد، والأزمات ستتفاقم، ما لم يتم القيام بخطوات جريئة، أهمها زيادة الإنفاق على البحث العلمي، من أجل فتح الأبواب والمسارات أمام التقدم الصناعي. ومن هنا فإن بإمكان المسلمين أن يأسوا مراكز أبحاث ضخمة متخصصة، تساهم فيها الدول الإسلامية مجتمعة أو متفرقة، ثم توزع نتائجها على الدول جميعها بأسعار تشجيعية ويحسب درجة المشاركة فيها.

(١) إن اكتشاف علاج وتصنيع دواء قد يكلف مليار دولار؛ وهذا يساوي ميزانية دولة صغيرة لمدة عام.

وإن من أهم مراكز الأبحاث التي تحتاجها مركزاً للبحث في تقنيات تحلية مياه البحر، وأآخر للاستفادة من مصادر الطاقة المتتجددة، مثل الطاقة الشمسية، وطاقة الرياح.... ومركزأً للبحث في (الهندسة الجينية) واستنبات وتهجين بذور جديدة تلائم الظروف المناخية الصعبة، ومركزأً للمعلومات والبرمجة، ومركزأً للمواد الجديدة، وأآخر للتحكم عن بعد والأشعة....

وأعتقد أن هذه القضية باللغة الخطورة والأهمية، وهي لا تحتاج إلى تكاليف كثيرة إذا ما اشتركت في إقامتها عدد من الدول. إنما الذي تحتاجه دائماً في مثل هذا الوعي والاهتمام والعزمـة!

د - لا بد لتحسين التعاون الإسلامي في إيجاد ظروف جديدة، تجعل الناس يندفعون إلى التعاون بصورة آلية؛ فحين تمنح دولة أخرى سمة (الدولة الأولى بالرعاية) كما تفعل أمريكا مع الصين مثلاً؛ فإن ذلك يدفع الناس في الدولتين إلى التعامل والتبادل من أجل جنـي الشعار التي تعود عليهم. وحين تقام منطقة حرة على الحدود بين دولتين، أو تزال الحواجز الجمركية، أو توحد التعرفة الجمركية، فإن ذلك كلـه يدفع الحركة التجارية والصناعية والخدمية إلى الأمام دون الحاجة إلى تذكير الناس بأهمية التعاون؛ حيث المادي أسهل في اللمس من المعنى !.

إن هناك الكثير من الاقتراحات التي يمكن أن تقال في هذا الصدد، وقد قيل من قبل الكثير. وهناك أمل كبير في أن تتحسن الأحوال في المستقبل، ويكتشف المسلمون أن العون الصادق لن يتلقاه المسلم إلا من المسلم. والله حسبنا.

خاتمة

تحدثنا في هذا الكتاب عن ستة أنواع من التنمية، وهذا ليس مألوفاً في أسلوب البحث والتأليف؛ لكن الذي دفعنا إلى هذا هو إيماننا العميق بأن الناس اليوم بحاجة إلى قاعدة من المعلومات والمفاهيم والأفكار التي تمكّنهم من رؤية جيدة، وشاملة لمجمل الواقع المحلي والعالمي، وتمكنهم من العثور على بعض الطرق والآليات التي تساعدهم على الدفع بأحوالهم العامة خطوة إلى الأمام.

إن العصر الذي نعيش فيه عصر معقد إلى أبعد الحدود، وإن الطر宦ات التي ينبغي أن تعالج مشكلاته، لا بد أن تشمل على حلول مركبة من عناصر مختلفة، وفي اعتقادي أن هذا الكتاب جهد متواضع في إيجاد بنية ثقافية عميقة، تسمح برؤية متعددة الأبعاد، وتنطلق نحو استخدام واسع المدى لإمكانات وأدوات منوعة توسيعاً كثيراً.

إن هناك أشياء كثيرة يجب أن تقال، لكن لأسباب عديدة لم أذكرها وأأمل أن يتتجاوز القارئ الطاقة اللغوية لهذه الحروف الصغيرة نحو الظلال والإيحاءات، وما بين السطور.

إن الموضوعات التي عالجتها ضخمة ومتعددة، ومن ثم فإن إمكانات الخطأ والوهم وسوء التقدير ستظل واردة. وأسأل الله - جل وعلا - المثلية على الصواب والتتجاوز عن الخطأ والقصور؛ إنه المؤمّل والمرتجم؛ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين؛ والحمد لله رب العالمين.

الفهرس

- ١ - فهرس المراجع .
- ٢ - فهرس الأفكار والمقولات العامة .
- ٣ - فهرس الموضوعات .

جريدة المراجع

- ١ - اتجاهات معاصرة في التربية الأخلاقية تأليف د. ماجد الكيلاني. عمان - دار البشير ط أولى ١٩٩٢.
- ٢ - أثر تطبيق النظام الاقتصادي الإسلامي في المجتمع - مجموعة بحوث قدمت إلى مؤتمر الفقه الإسلامي الأول في الرياض. نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - إرادة الثقافة والنشر.
- ٣ - أثر تقنيات التعلم على الذكاء. تأليف د. فائز الحاج. الرياض - دار الهدى ط أولى عام ١٩٩٥.
- ٤ - الأخلاق النظرية تأليف د. عبد الرحمن بدوي. الكويت - وكالة المطبوعات ط ثانية عام ١٩٧٦.
- ٥ - الأخلاق والحياة الاقتصادية تأليف (فرانسوا سلي) ترجمة د. عادل العوا. بيروت - باريس - منشورات عويدات ط ثانية عام ١٤٠٩.
- ٦ - إدارة التنمية تأليف (جورج ف جانت) ترجمة منير موسى. القاهرة - دار المعارف.
- ٧ - الأزمة الاقتصادية العالمية الراهنة تأليف. د. رمزي زكي. بيروت - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ط أولى ١٤٠٦.
- ٨ - الاستعداد للقرن الحادي والعشرين تأليف (بول كينيدي) ترجمة محمد عبد القادر وغازي مسعود. عمان - دار الشرق عام ١٩٩٣.
- ٩ - أسس لإعادة البناء الاجتماعي تأليف (برتراند راسل) ترجمة د. إبراهيم النجار. بيروت المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ط أولى عام ١٤٠٧.
- ١٠ - الإسلام كبديل تأليف د. (مراد هوفمان) نشر مجلة النور الكويتية ومؤسسة ياقاريا عام ١٩٩٣.
- ١١ - الإسلام والتنمية الاقتصادية تأليف د. شوقي دنيا. القاهرة - دار الفكر العربي ط أولى ١٩٧٩.
- ١٢ - أضواء على الاقتصاديات العربية تأليف عدنان بسيسو. القاهرة - دار العرب ط أولى عام ١٩٩٢.

١٣ - اغتيال العقل تأليف د. برهان غليون. بيروت - دار التنوير ط ثانية عام ١٩٨٧.

١٤ - اقتصادنا تأليف محمد باقر الصدر. بيروت - دار الكتاب اللبناني ط عام ١٣٩٨.

١٥ - اقرأ وربك الأكرم تأليف جودت سعيد. دمشق ط أولى عام ١٤٠٨.

١٦ - الأموال للقاسم بن سلام. تحقيق محمد خليل هراس. قطر - إدارة إحياء التراث الإسلامي.

١٧ - الإنسان ذلك المجهول تأليف (الكسيس كاريل). ترجمة شفيق فريد. بيروت - مكتبة المعارف ط ثلاثة عام ١٩٨٠.

١٨ - إنسانية الإنسان تأليف (رينيه دوبو) ترجمة د نبيل الطويل. بيروت - مؤسسة الرسالة ط ثانية عام ١٤٠٤.

١٩ - أهمية التصنيع لعملية التنمية العربية تأليف د. عبد الهاادي يموت. بيروت - معهد الإنماء العربي ط أولى عام ١٩٨٤.

٢٠ - البشرية في مفترق الطرق تأليف (إدوارد بستيل) وزميله ترجمة د حسين عمر وزميله. جدة - عكاظ للنشر عام ١٤٠٣.

٢١ - بنية التخلف تأليف إبراهيم البليهي. الرياض سلسلة كتاب الرياض - العدد السادس عام ١٩٩٥.

٢٢ - تحسين التفكير بطريقة القبّعات الست تأليف (إدوارد دوبونو) ترجمة د. عبد الطيف الخياط. مكة المكرمة - المكتبة المكية. ط أولى عام ١٤١٤.

٢٣ - تحضير الطفل العربي لعام ألفين. تأليف د. محمد عماد زكي. القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٩٠.

٢٤ - التدريس من أجل تنمية التفكير. حرره (جيمس كيف وهربرت ويلبرج) ترجمة د. عبد العزيز البابطين. الرياض - مكتب التربية للدول الخليج عام ١٤١٦.

٢٥ - التربية والتقدم الاجتماعي والاقتصادي للدول النامية تأليف (جون و. هاتسون) ترجمة محمد لييب التجيحي. القاهرة - دار نهضة مصر. عام ١٩٧٦.

٢٦ - التطورات الاقتصادية والسياسية في الوطن العربي تأليف إلياس توما. ترجمة عبد الوهاب الأمين. الكويت - مؤسسة الكويت للتقدم العلمي ط أولى عام ١٤٠٧.

٢٧ - التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي. تأليف د. علي القرشي - القاهرة - الزهراء للإعلام العربي. ط أولى عام ١٤٠٩.

٢٨ - تعليم التفكير تأليف. د. (إدوارد دوبونو) ترجمة د. عادل ياسين وزميله. الكويت مؤسسة الكويت للتقدم العلمي ط أولى ١٩٨٩.

٢٩ - تكوين العقل العربي تأليف د. محمد عابد الجابري. بيروت - دار الطليعة ط أولى.

٣٠ - تنمية الإبداع تأليف د. زين العابدين درويش. القاهرة - دار المعارف أولى عام ١٩٨٣.

٣١ - التنمية التكنولوجية: مفهومها ومتطلباتها. د. يعقوب العبيد. الكويت - الدار الدولية للنشر ط أولى ١٩٨٩.

٣٢ - التنمية الثقافية تأليف لغيف من خبراء اليونسكو. ترجمة سليم مكسور. بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر. ط أولى عام ١٩٨٣.

٣٣ - التنمية والتخلف في العالم العربي. د. فؤاد حيدر. بيروت - دار الفكر العربي ط أولى عام ١٩٩٠.

٣٤ - ثقب في جدار التخلف تأليف د. محمود سفر. الرياض - دار الصافي للثقافة والنشر. ط أولى عام ١٤١٠.

٣٥ - حاجات الإنسان الأساسية في الوطن العربي. بقلم مجموعة من الخبراء. ترجمة د. عبد السلام رضوان. الكويت سلسلة عالم المعرفة - العدد ١٥٠ عام ١٤١٠.

٣٦ - حركة النفس الزكية. تأليف محمد العبدة. الكويت - دار الأرقام ط ثانية عام ١٤٠٦.

٣٧ - الحرمان والتخلف في ديار المسلمين تأليف د. نبيل الطويل. قطر - سلسلة كتاب الأمة ط أولى عام ١٤٠٤.

٣٨ - حول الخيار الديمقراطي. بقلم مجموعة من الباحثين. بيروت - مركز دراسات الوحدة العربية ط أولى عام ١٩٩٤.

٣٩ - دراسات في المجتمع والثقافة والشخصية. تأليف د. علي جلبي. بيروت - دار النهضة العربية عام ١٤٠٤.

٤٠ - دليل التدريب القيادي تأليف د. هشام الطالب. المعهد العالمي للفكر الإسلامي عام ١٤١٤.

٤١ - سيكلوجية السعادة تأليف (مايكيل أرجايل) ترجمة فيصل يونس. الكويت - سلسلة عالم المعرفة - العدد ١٧٥ عام ١٤١٤.

٤٢ - الشفاهية والكتابية. تأليف (والتر ج. أونج) ترجمة د. حسن عز الدين الكويت - سلسلة عالم المعرفة - العدد ١٨٢ عام ١٤١٤.

٤٣ - الطريق إلى المعجزة الاقتصادية. تأليف د. أحمد علي دغيم. القاهرة - الشركة العربية للنشر عام ١٩٩٤.

٤٤ - الظاهرة الجمالية في الإسلام. تأليف صالح أحمد الشامي. بيروت - المكتب الإسلامي ط أولى عام ١٤٠٧.

٤٥ - العادات السبع للقيادة الإداريين. تأليف (ستيفن كوفي) ترجمة هشام عبد الله. بيروت - المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط أولى عام ١٩٩٥.

٤٦ - العالم الثالث غداً تأليف (بول هاريسون) ترجمة مصطفى عبد الرازق. الهيئة المصرية للكتاب عام ١٩٩٢.

٤٧ - العبرية والإبداع والقيادة. تأليف (دين كيث سايمون) ترجمة د. شاكر عبد الحميد. الكويت - سلسلة عالم المعرفة - العدد ١٧٦ عام ١٤١٤.

٤٨ - علم اجتماع التنمية - دراسة في اجتماعيات العالم الثالث. تأليف د. نبيل السمالوطى. بيروت - دار النهضة العربية ط ثانية عام ١٩٨١.

٤٩ - علم اجتماع المعرفة. تأليف د. نبيل رمزي. الإسكندرية - دار الفكر الجامعي ط أولى.

٥٠ - عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة. تأليف (جان ماري بيلت) ترجمة السيد محمد عثمان. الكويت - سلسلة عالم المعرفة - العدد ١٨٩ عام ١٤١٥.

٥١ - الغذاء والدواء في عالم المسلمين الفقراء. تأليف د. نبيل الطويل. مؤسسة الرسالة.

٥٢ - الغرب وأسباب ثراه تأليف (ناثان روز نيرج) وزميله. ترجمة صليب بطرس. القاهرة - دار الفكر العربي.

٥٣ - فتح الباري لابن حجر العسقلاني. القاهرة - المطبعة السلفية.

٥٤ - فتح القدير للشوكاني. بيروت - دار المعرفة.

٥٥ - الفروق الفردية. تأليف كمال سيسالم. القاهرة - مكتبة الصفحات الذهبية. ط أولى ١٤٠٨.

٥٦ - فقر الشعوب بين الاقتصاد الوضعي والاقتصاد الإسلامي. تأليف د. حمدي عبد العظيم عام ١٤١٥.

٥٧ - الفقر والبيئة تأليف (ألن ب ونج). ترجمة د. محمد صابر القاهرة - الدار الدولية للنشر عام ١٩٩١.

٥٨ - الفقه الإسلامي وأدلته. تأليف د. وهبة الزحيلي دمشق - دار الفكر ط ثانية عام ١٤٠٥.

٥٩ - فقه الدعوة - حوارات مع عدد من المفكرين تحرير عمر عبيد حسنة. قطر. سلسلة كتاب الأمة. ط أولى ١٤٠٨.

٦٠ - فقه السنة. تأليف سيد سابق. بيروت - دار الكتاب العربي ط سابعة عام ١٩٨٥.

٦١ - فلسفة لتنمية جديدة تأليف (فرانسوا بيرو) تقديم علال سيناصر. بيروت - المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط أولى عام ١٩٨٣.

٦٢ - في النقد الذاتي تأليف د. خالص جلبي. بيروت - مؤسسة الرسالة ط ثانية عام ١٤٠٥.

٦٣ - القراءة أولاً تأليف محمد عدنان سالم. دمشق - دار الفكر ط أولى عام ١٤١٤.

٦٤ - قضايا التجديد تأليف د. حسن الترابي. الخرطوم - معهد البحوث والدراسات الاجتماعية ط أولى عام ١٤١١.

٦٥ - قضايا التنمية في الوطن العربي تأليف. د. إبراهيم بدران وزملائه. عمان - دار الفكر ط أولى عام ١٩٨٩.

٦٦ - قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر تأليف د. زغلول النجار. قطر - سلسلة كتاب الأمة ط أولى عام ١٤٠٩.

٦٧ - القيادة والتغيير تأليف بشير شكيب الجايري جدة - دار حافظ ط أولى عام ١٤١٤.

٦٨ - اللغة والتفسير والتواصل تأليف. د. مصطفى ناصف. قطر - سلسلة عالم المعرفة - العدد: ١٩٣ عام ١٤١٥.

٦٩ - المأزق العربي بقلم مجموعة من الكتاب. تحرير لطفي الخولي. القاهرة - مركز الأهرام للترجمة والنشر. ط أولى ١٩٨٦.

٧٠ - المجتمع الصناعي تأليف (ريمون آرون) ترجمة (فكتور باسيل). بيروت - باريس - منشورات عوينات ط ثلاثة عام ١٩٨٣.

٧١ - مختصر دراسة التاريخ تأليف (أرنولد توينيبي) ترجمة فؤاد شبلي القاهرة - ط أولى عام ١٩٦٠.

٧٢ - المدرك والغامض تأليف. د. مختار بدر القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٩٥.

٧٣ - المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري تأليف د. محسن عبد الحميد. قطر - سلسلة كتاب الأمة ط أولى عام ١٤٠٤.

٧٤ - مستقبلنا المشترك إعداد اللجنة العالمية للبيئة والتنمية ترجمة د. محمد عارف. الكويت - سلسلة عالم المعرفة ط أولى عام ١٤١٠.

٧٥ - المعجم الوسيط إعداد لجنة بإشراف مجمع اللغة العربية في القاهرة - دار الفكر.

٧٦ - المفاهيم الاستهلاكية في ضوء القرآن والسنة تأليف زيد الرمانى مكة المكرمة - سلسلة دعوة الحق - العدد ١٥٣ ط أولى عام ١٤١٥.

٧٧ - مقدمة ابن خلدون تحقيق المستشرق (كاتر مير) بيروت - مكتبة لبنان عام ١٣٩٠.

٧٨ - المواقف للشاطبي. بيروت - دار الكتب العلمية ط أولى عام ١٤١١.

٧٩ - نحو مشروع حضاري عربي وقائع ندوة الأهرام تحرير محمود مراد. القاهرة - وكالة الأهرام للنشر ط أولى عام ١٩٩٤.

٨٠ - نحو مفهوم أفضل للتنمية تأليف د. يوسف الحلباوي وعبد خرابشة. بيروت - مؤسسة الرسالة ط أولى عام ١٤٠٩.

٨١ - نصر بلا حرب تأليف (ريتشارد نيكسون) إعداد وتقديم محمد عبد الحليم أبو غزالة. القاهرة - مركز الأهرام للترجمة ط أولى عام ١٤٠٩.

٨٢ - نهاية التاريخ وخاتم البشر تأليف (فرانسيس فوكوياما) ترجمة حسين أحمد أمين. القاهرة - مركز الأهرام للترجمة والنشر ط أولى عام ١٤١٣.

٨٣ - النهاية في غريب الحديث لابن الأثير تحقيق د. محمود الطناحي. بيروت - دار إحياء التراث.

٨٤ - الوحدة الإسلامية - الإطار النظري وخطوات التطبيق أبحاث اللقاء السابع للندوة العالمية للشباب الإسلامي المنعقد في كوالالمبور ط أولى.

٨٥ - الوعي الذاتي تأليف د. برهان غليون بيروت - المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط ثانية عام ١٩٩٢.

٨٦ - البيان اليوم إصدار شركة الجمعية الدولية للمعلومات التربوية. طوكيو عام ١٩٩١.

- الدوريات:

- ١ - مجلة الفيصل - العدد ٢٣٥ مقال للمؤلف.
- ٢ - جريدة الأهرام - العدد الصادر في ١٢/١٠/١٩٩٥ مقال بقلم محمد سعيد أحمد.

فهرس الأفكار والمقولات العامة

الصفحة	الموضع
١٣	- إذا استمر تفاصق البطالة، فربما رُجِدَتْ أجيال، تعيش، وتموت دون أن تجد عملاً مناسباً
١٤	- حين يجلس المرء مدة طويلة من غير عمل، فإن ارتكاسات خطيرة، تصيب شخصيته باعتباره إنساناً
١٥	- إن مشكلة التنمية أنها تجعل الاقتصاد التابع مركز (ننابيات) للاقتصاد المتبوع! ...
١٦	- التخلف شأنه كشأن التقدم لا بد أن يعكس نفسه في صورة السلع التي تكون موضوعاً للتبادل
١٧	- إن من لا يتقدم لا يبقى في موقعه النسبي، وإنما ينطفئ قد نشأت حضارة جديدة شديدة الإغراء، تتجاوز فيها الحاجات المطلوبة الوسائل المتوفرة
١٨	- إن المشروع الحضاري في جوهره مجموعة من الإجابات على أسئلة التاريخ الكبرى وتحديات الواقع
١٩	- حين يكون المرء فوضوياً بين منظمين، وأمياً بين متفقين؛ فإنه يُعدُّ نفسه على نحو مدهش، ليكون مستغلاً أسوأ استغلال
٢٠	- إذا لم يكن لك روح عصر كانت لك كل شروره
٢١	- إن الإنسان لا يستطيع أن يتقدم في حالات الفقر المدقع نحن أمة تجمع بين عظمة المبادئ وقصور الوسائل؛ فنحن نعتمد على غيرنا في كل شيء حتى في المعدات التي نطبع بها المصايف، ونشيد بها العازف
٢٢	- إن قيم القناعة والحرية والافتتاح والمحوار والعدالة والتعاون هي التي تجعل ثقافة أكثر جاذبية من ثقافة أخرى
٢٣	- إن الغنى يشكل دائماً ثقافة نخبة، على حين تشكل الثقافات الشعبية في ضوء الفقر وال الحاجة
٢٤	- إن التفكير العبد هو الذي يعتمد في استنتاجاته على مقدمات ومداخل غير مألوفة لم يذكر لنا القرآن الكريم أن أمة أيدت بسبب قصور عمراني، وإنما ذكر لنا أن كل الأمم هلكت بسبب الحيدة عن المنهج الريانبي

- إن العقل قد يكشف عن فرص للربح والفوز، لكنه لا يحجز عن ارتكاب الفظائع، وهو دائمًا يستسلم حين تضعف الأخلاق	٣٣
- إن بإمكان العقل أن يعلمنا كيف نقتل، لكن المبادئ وحدها هي التي تحديد متى ينبغي أن يكون القتل	٣٣
- لا ولایة للأمة على نفسها في ظل ظروف متدهورة	٣٤
- إن قدرة الأمم على تنظيم وجودها المعنوي مرتبطة إلى حد بعيد بقدرتها على تنظيم وجودها المادي	٣٤
- إن قوة الأنكار لا تجدي كثيراً في الارتفاع بالأمة، ما لم تتمكن من إحداث تغيرات اجتماعية واقتصادية جيدة	٣٥
- المناخ الحار يفرض حدوداً على طموح الفرد، ويؤدي إلى انخفاض مستوى الحماسة لديه	٣٧
- إن انشغال الناس بما يقيم الأرد يخفض وجودهم الإنساني إلى مستوى المنتج - المستهلك	٣٧
- إن أكثر الإنجازات العظيمة التي حققتها البشرية في العلوم والفنون كان ثمرة تمعن الأقلية المبدعة بأوقات الفراغ واستغلالها	٣٨
- إن وعي الناس ليس ثابتاً، وإن سوء الأحوال يفقده حساسيته الخاصة للتفرق بين ما يتم الإقدام عليه بداعي الضرورة، وبين ما يتم الإقدام عليه بداعي شهرة خفية ..	٤٢
- إذا تم إشباع الحاجات الاقتصادية دون إعطاء؛ فإن ذلك يمنع التفكير من إبداع نظام اقتصادي ذي بعد ثقافي	٤٢
- ليس بإمكان مجتمع ما أن يتقدم دون أن يتقدم الفكر لديه	٤٧
- لا يمكن حل المشكلات المهمة بنفس مستوى التفكير الذي كنا عليه عندما أوجدناها	٤٧
- إن لحيوية الأفكار سلطاناً أعظم مما يظن الناس، لكن ذلك لا يظهر إلا في المدى البعيد	٤٨
- الوعي هو استخدام الخبرة استجابة للإرادة	٥٠
- إن كثرة المعلومات حول قضية ما قد تعوق التفكير، وتجعل استخدامه لنماذجه الخاصة صعباً	٥١
- إن العقل الإنساني لا يستطيع أن يعمل إلا وقف أنماط ونماذج محددة، فقد خلقه الباري - سبحانه - ليكون عقلاً عملياً في المقام الأول	٥٢
- الحق في بنية ثقافتنا مقدم على الجمال، لذا ينبغي أن تكون كل أشكال التجمل في إطار المباح	٥٣

- إن البداية الصحيحة لكل نهضة حضارية هي الرقي بمستوى العلاقة الداخلية بين العبد وربه ٥٤

- قد تجد قائداً عسكرياً لا يأبه لمواجهة جيش جرار، لكنه يقف حائراً أمام تغيير عادة سيئة عند أحد أبنائه ٥٤

- إن تمتّع الإنسان بالعنصر الروحي والإرادة الحرة هو السر الكامن وراء صعوبة التعامل معه ٥٤

- إن مهمتنا على مستوى الأفكار أن نجعل فكر الأقلية فكراً للأغلبية المشغولة بتحصيل لقمة العيش؛ وليس ذلك بالأمر البسيط ٥٥

- الرؤية الشاملة هي رؤية تركيبة متطرفة متحركة ٥٦

- كلما ابتعدت الصورة عن عيوننا رأينا مساحات أوسع وتفاصيل أقل ٥٧

- دقة الرأي نابعة من دقة العمليات المؤدية إليه ٥٨

- إن التمسك بالأصول وإن ظهر أنه غير موافٍ في الأمد القريب، فإنه طرق النجاة على المدى البعيد ٦٠

- إن نقد الأسس والأطر العامة شاق جداً، ولذا فإن الذين يمارسونه قلة قليلة ٦١

- ليس سوء الفهم حدثاً غريباً، وإن التفسير الموفق قد يكون نصراً فردياً في خضم مغريات كثيرة ٦٢

- الحقيقة المعقّدة تتطلب كفاءها من التعبير؛ والتبسيط في هذه الحالة لا يخلو من نوع من الخيانة لها ٦٣

- إن ما نسميه اليوم رأياً كان كثيراً من الناس يراه حقيقة، لا تقبل الجدل ٦٣

- إن أصحاب الكلس الذهني تحجّبهم قسوة المعطيات الحاضرة عن رؤية الإمكانيات الكامنة ٦٤

- إن الحاضر سيظل أقرب إلى التسبّب ما لم نضيّغ عليه بظموحات وأمال مستقبلية، تتطلّب استثماره ٦٥

- إن الإبداع ليس سوى التحرر من أسر النمطية وحبسات الطبيعة ومقولات التاريخ ٦٦

- الاستسلام للملوّفات مصدر عظيم للتكرار وخمود نار الفكر ٦٧

- المعرفة الجيدة هي المعرفة التي تتبع للعقل نوعاً جيداً من العمل ٦٧

- حين نتعامل مع أشياء ذات أوساط متدرجة، فإن وضع الموسى على المفصل يكون أمراً تقديرية اجتهادياً ٦٨

- إن الفلسفة تزيد قدرتنا في مجالات التحليل والتعليق، لكنها لا تمنع أبداً الدقة، ولا تسعننا باليقين ٧١

- أهمية تطبيق منهج أو أسلوب تناقض كلما كانت شروط تجسيده أكثر أو أشَّق .. ٧٢

- العقل البليد لا يفرق بين الشروط والواجبات الحضارية، ولا يدرك طبيعة العلاقة
٧٤ - بين الأسباب والمسبيات في المجالات الإنسانية
٧٤ - الخلط بين المطلق والنبي هو الأصل وإدراك المطلق أسهل من إدراك النبي
٧٥ - ليس من السهل على المرء أن يتخطى الشروط الخاصة الذاتية والموضوعية التي تحدد وعيه وطريقة تمثله للواقع
٧٦ - ليس هناك أي نظام للوقاية من أهواء الذات ومغريات الواقع
٨٣ - التفكير الجيد مهارة يصنعها التدريب
٨٨ - كثيراً ما ننظر إلى المشكلات بعيون قلوبنا، ومن ثم فإننا لا نقبل أي نوع من الجدل حولها
٨٩ - إتاحة الفرصة للنقد لا تزيد فيه - على خلاف ما يعتقد الناس - وإنما تخفف من حدة
٩٠ - ربما كان النقد شديد الإغراء؛ لأنه يمتحن المرء تفوقاً سريعاً على الناظراء، على حين أن التفكير البنياني يحتاج إلى وقت حتى تثبت مصاديقه
٩١ - في غالب الأحيان لا يغلق باب إلا ويفتح باب آخر، لكننا نشغل بالباب الذي أغلق عن الباب الذي فُتح
٩٢ - إن علينا أن نعترف أن الخط الفاصل بين الاندفاع الأحمق والتفكير الإيجابي المقائل - هو خط ضيق جداً
٩٣ - إن التفكير المبدع يحتاج إلى وقت وال杰لة هي عدوه الأول
٩٤ - إن الشروط الخارجية لأية ظاهرة تتطلب ثانية، ما لم تتمكن من زحزحة بعض الشروط الداخلية والحلول محلها
٩٥ - إن المخيلة الشعبية طالما ملأت الفراغات المعرفية من خلال التصورات والأحكام الثانوية والمبتسرة
٩٦ - المدخلات المعرفية الخاطئة تعني مخرجات خاطئة؛ والعقل «الحاسوب» لا يستطيع إضفاء تحسيبات كثيرة على المدخلات القاصرة
٩٧ - طلبنا للكمال المطلق فيما حولنا نابع من رؤيتنا المجزأة للأشياء
٩٨ - يستحيل الحصول على حلول كاملة في الواقع غير كامل
١٠٠ - إن التاريخ أداة من أدوات التربية، وإن عدم استيعابه على نحو صحيح قد يحوله إلى أداة تخريب
١٠١ - إن قعود المرء عن اكتساب أفكار جديدة، يجعله كلاماً على مجتمعه، يمتلك أسوأ ما لديه من نواقص
١٠٥ - إن ضحالة الفكر يجعل المرء عبياً، وإن كان قادراً على إطلاق مصروفات من الألفاظ المنمقة

- إن كثيراً من الكلام الذي يقال يصدق عليه قول القائل: تكلم كثيراً، ولم يقل شيئاً ١٠٥

- إن المنطق التقليدي له دقة الرياضيات، لكنه أعجز من أن يساعد في حل مشكلات ١٠٨
حضارياً معقدة

- إن الحلول العاجلة لمشكلة متأسسة لا تسهم في حلها، وإنما تسهم في طمسها ١١١

- الناس جمِيعاً يعيشون اليوم في عالم واحد، وإن كل تقدم تحرزه المناطق المتقدمة في العالم سوف يزيد من صعوبة الحياة في المناطق المختلفة ١١٥

- إن المخ البشري هو منحة الله العظمى للقراء الذين حُرمت أرضهم من الموارد ١١٦

- إن استيعاب الإسلام الحضاري يحتاج إلى درجة من التثقف والتعدد ١١٦

- إن ضحالة المعرفة تأبى إلا أن تتجلى في صورة سوء الفهم والبَرْئ بالمخالفين، والرضا عن النفس ١١٨

- إن الأصل لم يكن أصلاً إلا ليكون مثاراً يهتدى بها، وإلا ليكون مطلقاً تُسبَّب إليه الفروع ١٢٢

- إن النقد يبلور معرفة الثقافة بنفسها، وهو على كل حال لا يُؤذى إلا الحالات ١٢٣
المريضة

- ليس من النادر أن يدمُر الغلو مصادره وحماته؛ بل ذلك ستة الله في الذين خلوا من قبل ١٢٤

- إن التخلف يمد الناس بأجرة وهمية، ويضعف شهيتهم إلى التساؤل ١٢٥

- إن العيش في مجتمع يولد المعرفة، وإن معالجة مشكلات الحياة تحتاج أيضاً إلى المعرفة ١٢٩

- إذا ارتفعت درجة التخصص لدى إنسانٍ ما فهو يتعامل دائماً مع حقائق فرعية ... ١٣١

- إن تنوع مصادر المعرفة شرط لخصوصية الذهن، ولا بد أن يرافقه نوع من تأصيل فلسفية، وفهم لروح العلم ١٣٣

- إن خصائص الشيء تتعرض للتبدل عندما يوضع في تركيبة جديدة ١٣٤

- إن انتفاع المرأة بمبادئه يحتاج إلى نوع من الفاعلية الذهنية والشعرورية التي لا توفرها إلا درجة معينة من التحضر ١٣٦

- من غير الممكن أن تستولد مستقبلاً جيداً من واقع رديء ١٣٧

تقريب المعرفة وتيسيرها سهل الوحدة الثقافية في المجتمع ١٤٢

- إن المعرفة تجعل العيل للاستهلاك ضعيفاً، والجهل هو الذي يولد الفراغ ١٤٤

- حين ينظر الناس إلى العلم نظرة تجارية، فإنهم يبذلون الحد الأدنى من الجهد للحصول عليه ١٤٧

- إن الزغل في العلم لا يقتصر على طرح المعرفة الهشة، وإنما يتجاوزه إلى الإطناب في بحث القضايا الجزئية وشغل الناس بها ١٥٠

- كثيراً ما ننسى أن طاقة (الوعي) محدودة، وأن من السهل الانحراف بوعي الناس ١٥٠

- عن الاهتمام بجلائل الأمور إلى صفاتها ١٥٠

- إن النمو الروحي للإنسان - على عكس النمو العادي - غير مسؤول بتحدياته في ١٥٩

المجال أو الإيقاع ١٥٩

- إن أفعالنا وأقوالنا تُنطِّق بمعانٍ محددة، لكن يظل الأهم هو ما توحِّي به شخصية ١٥٩

الواحد منا ١٥٩

- إن أدبياتنا تعلمنا أن أفضل طريقة لمواجهة الخارج هو تدعيم الداخل وإصلاح ١٦٠

الذات ١٦٠

- إن الأمم المتصرّة على أعدائها هي أمم حققت نصراً داخلياً أولاً ١٦٠

- لن يكون الهدف كبيراً إلا إذا كان يسمو على المصالح والغايات الدنيوية ١٦٢

- إن المهم دائمًا هو التفوق على الذات، وشعور المرأة أن يومه خير من أمسه ١٦٣

- إن اليأس خطأ منهجي، لا يقع فيه المسلم الحق، وإن تنمية الذات كـ «السياسة» ١٦٣

هي دائمًا فن الممكن ١٦٣

- إن ضعف الشعور بالمسؤولية لا يخلف وراءه سوى الشعور بالتفاهة والفراغ ١٦٤

- إن بزوع الشخصية لا يتم إلا من خلال الشعور بالمسؤولية ١٦٤

- ليست المشكلة في وجود التحديات، وإنما في طريقة الإحساس بها ١٦٥

- إذا أرادت المرأة أن يعيش وفق مبادئه، وأراد أن يتحقق إلى جانب ذلك مصالحه إلى ١٦٨

الحد الأقصى فإنه بذلك يحاول الجمع بين تقسيطين ١٦٨

- أثبتت المبادئ أنها قادرة على الانتصار المرة تلو المرة؛ وإن الذي يخسر مبادئه ١٦٨

يخسر ذاته ١٦٨

- إن المبدأ أشبه شيء بالنظارة إذا وضعنها على أعيننا، فإن كل شيء يتلاؤن بها، ١٦٨

ويرى من خلالها ١٦٨

- التمحور حول مبدأ هو الذي يمنع الحياة معنى، ويجعلها تختلف عن حياة البهائم ١٦٩

الذليلة ١٦٩

- اتساع الفجوة بين الإنجازات والطموحات مصدر شقاء، واحتقار للذات ١٧١

- إن المرأة يتزعزع الإعجاب عندما يجتمع فيه ما تفرق في غيره ١٧٣

- إن الرؤية تتشوه حين تعزل ذواتنا وأوضاعنا عن السياق الاجتماعي والتاريخي ١٧٣

- إهمال الأشياء التافهة قد يؤدي إلى جعلها مهمة وملحة ١٧٤

- علينا أن نفترض أننا لم نصل إلى الهاوية، وأن الأسوأ ربما يكون في الطريق ١٧٥

- ليكن شعارنا دائمًا: باشر ما هو ممكن الآن ١٧٦

- لترافق ردود أفعالنا، فإنها خلاصة لتراثتنا وعلمتنا واستيعابنا ١٧٦

- إن النجاح الديني الذي لا ينسجم مع النجاح الأخرى ليس بنجاح، وإنما هو
بروز شكلٍ مؤقتٍ؛ والعاقبة لللتقوى ١٧٩

- إن الذي يجري وراء إشباع رغباته كشارب ماء البحر؛ كلما شرب ازداد ظماً ١٨٣

- إن بعض كتابنا أراد أن يحرك همة المسلم من خلال أدبيات غريبة، كتلك التي
يتعلّمها موظفو العلاقات العامة ومندوبي المبيعات! ١٨٧

- إن الفرص الكبيرة قد لا تأتي للأمم والأفراد إلا مرة واحدة في الحياة ١٨٨

- إن الطريقة التي نقضي بها أوقاتنا هي نتيجة مؤكدة للطريقة التي ننظر بها إلى أوقاتنا ١٨٨

- علينا قبل أن نحسن علاقاتنا مع الآخرين أن نحسن أنفسنا أولاً ١٩٠

- على كل واحد منا أن يرفع شعاراً: «البداية من عندي» وسيأتي بعد ذلك خير كثير ١٩١

- كثيراً ما تفسد العلاقات بين الآخوة بسبب اقتحام الشخصيات والخلطة الزائدة ١٩٣

- إن شدة الاختلاط بالناس، تستهلك الشخصية، وتستنفذ الطاقة الفكرية والنفسية للمرء ١٩٣

- إن اكتشاف الميزات لدى الناس يحتاج إلى نوع من القراءة والإبداع وقبل ذلك
الاهتمام ١٩٥

- لا شيء يكرّس العبودية مثل الفضاءات التي نمنحها إليها، ونجعلها مصدرًا لتجذبها
وتنفسها ١٩٥

- يعلمنا القرآن الكريم أن المشاعر ثمرات، وليس حتىّات علينا أن نخضع لها ١٩٦

- إن بإمكان الثقة أن تستخرج أفضل ما في نفسية البشر من نوازع الخير ١٩٨

- إن أهم مصدر للسعادة والنهاء انسجام واقع المرء مع معتقداته ٢٠٤

- إن القاعدة الروحية الأخلاقية هي التي تحمل الانكاسات التي تصاب بها الأمة في
الميادين المختلفة ٢٠٤

- إن الذين نكن لهم عظيم الاختلاف ليسوا أولئك المعروفين بالدهاء أو العلم أو
امتلاك المال؛ وإنما أولئك الذين انتصروا على التحدّيات داخل نفوسهم، وأولئك
الذين يضخّمون بالعاجل في سبيل الأجل ٢٠٥

- كل الحضارات المندثرة تركت تنظيماتها ووسائل ضبطها خلفها شاهدةً على نفسها
بالعقل ٢٠٦

- إن التقدّم الحاسم على الصعيد الأخلاقي ربما كان بحاجة إلى تقدّم سياسي
واقتصادي ٢٠٨

- في كثير من بلدان العالم الإسلامي صار امتلاك مسكن اليوم عبارة عن نصر في
معركة شرسة! ٢١٠

- ما الشعور بالواجب إلا ثمرة للشعور بشرف الانتهاء إلى الأمة، وبالرغبة في
(التماهي) معها ٢١٠

- إن المعالجة لأي جانب إنساني في الحياة هي دائمًا معالجة معقدة ٢١٢

- إن تجسد المبادئ الأخلاقية في السلوك يخضع لعوامل خارجة عن جوهر تلك المبادئ، ويعيدة عن مباديها ٢١٢

- الإلقاء الحضاري يحتاج إلى فعالية روحية خاصة ٢١٥

- لو لم يكن لعدم الرضا عن الواقع سوى التنبية على سوء استخدام الإمكhanات المتاحة لكان كافياً ٢١٩

- الإنسان لم يتقدم عبر تاريخه الطويل إلا من خلال الأزمات ٢١٩

- نحن بحاجة إلى حماية أنفسنا من أنفسنا ٢٢١

- إن الفائدة الأساسية التي تستعود علينا من وراء حماية الطبيعة ليست المحافظة على وسط يصلح للاستمرار، وإنما هي تطوير الصفات الإنسانية التي تحتاجها في حماية الإنسان من ظلم الإنسان ٢٢١

- إن الحرمن على التماطل الشديد ربما كان مصدرًا للتخلل الذاتي ٢٢٤

- إن المجتمع الذي يضغط على أفراده من غير تربية صالحة - مجتمع ظاهره خير من باطنه؛ وهو مجتمع كثير العادات قليل العبادات ٢٢٥

- إن الجمال هو الحيوة التي لها إمكان دخول المجالات كلها ٢٢٧

- إن الحرمن على أن يكون الشيء جميلاً يعني قبل ذلك أن يكون تاماً ٢٢٨

- إن المعاصي لا يمكن إلا أن تكون شكلاً من أشكال القبح؛ لأنها تعبر صريح عن العجز والغوضى ٢٢٩

- حين تلتقي حبال الفساقات الاقتصادية حول الأعناق سيلمس الغرب فداحة الخطأ الذي ارتكبه بتقل مصدر الازمات الأخلاقية من الوحي إلى العقل! ٢٣٢

- إن إدراك حاجات الروح يحتاج إلى شيء من السمو والشفافية والوعي ٢٣٥

- الحياة الاجتماعية كلها عبارة عن استجابات حية للمحاجات الإنسانية ٢٤١

- يتميز علم الاجتماع عن علوم كثيرة أخرى بأنه العلم الذي يبحث عن نفسه ٢٤٢

- إن قيمة الحقيقة في علم الاجتماع تتبع من قدرتها وقوتها تأثيرها في تحريك الواقع الاجتماعي الساكن؛ وذلك لا يكون إلا إذا توفرت لها ملامنة زمانية ومكانية ٢٤٤

- من الممكن لمجتمع مدبر أن يتبع أفكاراً تدميرية، تزيد في مأساته ومشكلاته ٢٤٥

- إن الراهب والأنطوانى والمعنزعلى، ومن يخشى من إقامة علاقات مع الناس هم بمعنى من المعانى أدنى من مستوى إنسان ٢٤٥

- إن المجتمع الذي لا يقوم بالحد الأدنى من حاجات أفراده، مجتمع مريض ٢٤٥

- إن علينا أن نتساءل عن كيفية ترجمة المكافآت الاقتصادية التي حصلت عليها بعض الشرائح إلى مكافآت اجتماعية وأخلاقية ٢٤٦

- إن عدم تطابق مصالح الفرد مع مصالح مجتمعه، يشكل جوهر الابتلاء في الحياة الاجتماعية	٢٤٨
- يستحق حشد من الناس اسم (مجتمع) على قدر ما فيه من المشتغلين بالشأن العام	٢٤٨
- الاستقامة شرط لشيع الخير، وجود الفائض الاجتماعي	٢٤٨
- طبيعة التركيب العقلي للسود الأعظم من الناس - يجعلهم يدركون الحلول الأحادية للمشكلات دون الحلول المركبة	٢٥٠
- عند انتشار الظلم تُختطف كل الحراجز، ولا يبقى شيء مقدس	٢٥١
- التوازن الاجتماعي مرهون بنشاط حركة التبادل الشعبي	٢٥٢
- إذا لم تتمتع النخبة بالحد الأدنى من الرجلة، فإن طريقها إلى المتاجرة بمصلحة الأمة تصبح معيبة	٢٥٤
- إن شعار التحلل والنمل المرفوع دائماً - لا قيمة لحياتي عند تعرض سلامة الجماعة للخطر، وهذا هو شعار الشهيد!	٢٥٥
- الأسر المحظمة تُبْطِّل الهمة، وتُفسد الخلق	٢٥٧
- إن تداعيات الواقع وإيحاءاته ومتطلباته، هي مصدر تجديد الوعي	٢٦٠
- ثمار الأفكار الإصلاحية ستظل محدودة ما لم تجد الفكرة المجال الذي يجعلها تبلغ متتها، ويسعها على المحك النهائي	٢٦١
- يجب أن تتطوّر أية علمة إنقاذه للمجتمع، على تأكيد صفة غالبة أو تكريبتها إن لم تكن موجودة؛ ولا تكون الصفة الغالية لدينا شيئاً سوى الالتزام	٢٦٣
- للقيمة جسم وروح، وإن روحها كامنة في حيوتها وقدرتها على الحثّ والكتف ..	٢٦٤
- الانضباط والدقة فيصل ما بين التمدن والتترحش	٢٦٥
- السعادة تتبع من الداخل؛ أما الشعور بالرضا فإن مصدره المقارنة مع الآخرين ...	٢٦٧
- إن بعض المسلمين يستخدم نعم الله - تعالى - لاستفزاز إخوانه؛ ويبدو أن تبلد الإحساس - كالحمامة - داء لا دواء له	٢٦٨
- حدود الممنوعات والمباحات في المجتمع المتختلف مطموسة؛ فلا يدرى الفرد حدود القول أو التصرف الذي سيجر عليه الويلات!	٢٧٠
- إن القرة هي التي تملأ الفجوة بين الناس والحق؛ وكلما كان الابتعاد عن الحق أكبر كانت الحاجة إلى استخدام القرة أعظم	٢٧٢
- على مدار التاريخ كانت الجماعات والمذاهب المنحرفة أميل إلى العزلة والانغلاق وأبعد عن المفاتحة والحوار	٢٧٣
- إن جوهر المشاركة يتمثل في الجيلولة دون تكليس السلطة، وهذا ما لم يحدث في أكثر البلدان الإسلامية التي تدعى (الديمقراطية)	٢٧٤

- لا مشاركة للناس في تنمية مجتمعاتهم ما لم يسمعوا في قراراتها الكبرى ٢٧٤

- ليست المدينة سوى البحث الدائم عن حلول للمشكلات العمرانية والاجتماعية المختلفة ٢٧٥

- إن كفأة أية وسيلة مستمرة - على نحو جوهري - من الأسلوب الذي سيتم استخدامها فيه ٢٧٥

- إحياء الوقف الإسلامي وتطوير وظائفه مهمة لا تتحمل التأخير ٢٨١

- إن المال هو محور الحياة المعاصرة؛ وإنك إذا أردت تزهيد الناس فيه فعليك من أجل ذلك توفير المزيد منه!! ٢٨٥

- التنمية الفكرية الصحيحة هي التي تساعد على إيجاد وضع اجتماعي وأخلاقي واقتصادي، يجعل الناس أقرب إلى الالتزام ٢٨٩

- قليل أولئك الذي يتساملون: لماذا تملك أفضل نظرية تنمية، ونعيش في أسوأ واقع مادي؟! ٢٩١

- إن عهود الانحطاط التي مرت بها الأمة، حبست آفاق النظرية التنموية عند حدود ممارسة السلف ٢٩٢

- إن مهمة المحكمات النهائية أن تخلصنا من مجمع الأفكار الثانوية والجانبية والآنية ٢٩٢

- كان الغرب مستعداً لدفع ثمن النمو في هيئة تغير هيكل الحياة الغربية كلها، كما كان مستعداً للانقطاع بأي تفسير جديد للأنشطة الحياتية، يتطلب النمو السريع ٢٩٤

- المذهبية فلسفية تجيب على: لماذا نعيش، وكيف نعيش؟ ٢٩٤

- يجب أن نعرف أن الزمن ليس مفتوحاً لنا، كي نحل مشكلاتنا في الوقت الذي يروق لنا ٢٩٦

- كثير من المشكلات له خاصية التفاعل والاتجاه نحو التضخم إلى أن يخرج عن السيطرة ٢٩٦

- إن الناس سوف يستوعبون آثار القرارات الكبرى إذا استثروا فيها، وإذا شعروا أنها تصب في المصلحة العامة ٢٩٧

- بسبب الفقر الثقافي والإعلانات التجارية المكثفة صار كثير من الناس يلهث خلف السلع الاستهلاكية، ويبيكي عليها، كما يبكي الوليد في طلب الرضاعة! ٢٩٨

- فلستنا في التنمية تقوم على: «استغاثة عن الشيء خير من استغاثتك به» ٢٩٨

- إن تحسين حال الفقراء ليس مسألة اجتماعية، وإنما هو مسألة بدأ قبل كل شيء ٢٩٩

- إن دولة الإسلام أول دولة في التاريخ تخوض حرباً شاملة من أجل الفقراء! ٢٩٩

- لا يمكن للفرد أن يشكل ظاهرة ممدودة، ما دام الإسلام قد وضع تدابير للخلاص منه ٢٩٩

- إن المحك النهائي لنجاح خطط التنمية هو تخفيض تكاليف المعيشة اللاحقة بكرامة الإنسان ٣٠٠

- إن أفضل خدمة تقدم للقراء هي استشارتهم في تحديد احتياجاتهم الأساسية
٣٠٠

- إن آية مكتبات سياسية أو اقتصادية لا ينفع بها السواد الأعظم من الناس، هي مكتبات مؤقتة، وغير نهائية
٣٠٠

- سوف نستطيع أن نعمل الكثير حين يصبح هم الفقراء همّاً عاماً للمجتمع الإسلامي
٣٠١

- لو لا الندرة ما كان هناك علم اقتصاد، ولا كانت هناك حاجة إلى خطط تنمية ..
٣٠١

- إن الناس سيتوسعون في الاستهلاك عند أول شعور بالثراء، وهذا بطبيعته سيؤدي إلى ندرة السلع
٣٠٢

- لا ينبغي أن يُظن أنه يمكن التعامل مع الإنسان، كما يتم مع الآلة، فيمكن بضغطه زر تحويل الناس إلى خلق جديد ملتزم ونشيط
٣٠٢

- إن التقدم العلمي الهائل قلل من أهمية كل ما هو فطري وطبيعي على صعيد المawahب، وعلى صعيد المواد
٣٠٣

- إن الإنسان الذي يثبت في كل يوم تقدم عقله وعلمه، يثبت أيضاً ضعف إرادته واستسلامه لشهواته
٣٠٤

- إن طول مدة السماحات بين الأسباب التدميرية للبيئة وبين ظهور النتائج أدى إلى ترهل شعورنا تجاه السلوك البشري الخاطئ
٣٠٤

- إن أمريكا تشكل أكبر عبء على البيئة في العالم، وليس الدول الصناعية الغربية عنها بعيد
٣٠٦

- لن يستطيع العالم الاستمرار في السحب من المحيط الحيوي دون أن يتنهى به الأمر إلى فناء التوازن البيئي إلى غير رجعة!
٣٠٦

- أشق الأعمال المطلوبة للحفاظ على البيئة تلك التي تتطلب تغيير الإنسان، ومواجهته لنفسه
٣٠٦

- إن علينا أن نكون على يقين أن أيام الرخاء، والعيش السهل قد انتهت، وعلينا أن نتعامل مع ذلك بجدية تامة
٣٠٨

- تعني السيادة نوعاً من التحكم النسبي للجماعة بمصيرها، وقدراً من الحرية في علاقاتها
٣٠٨

- أكثر صور التبعية شيئاًًا تلك التي تنشأ بسبب القصور الذاتي والوهن الداخلي ...
٣٠٩

- إن الحرية هي القدرة على الاختيار، ولا اختيار عند عدم وجود بدائل
٣٠٩

- إن التبعية بنت الضعف، ولن يولد الاستقلال إلا من رحم القوة
٣١٠

- قصة البشرية هي قصة المعاناة في توفير الحاجات الضرورية من أجل البقاء على قيد الحياة
٣١٢

- يلقي الإسلام في روح المسلم أن عليه قبل أن يطلب مساعدة الآخرين أن يساعد نفسه	٣١٣
- إن تنمية الاعتماد على الذات تقوم على مقوله: «جودة الثوب من مناسبته للابسه، وليس من نفاسة قماشه»	٣١٣
- إن اعتماد أمة الإسلام في حفظ أنها الخاص على سلاح أعدانها سبب جرحًا غائراً في نفس المسلم	٣١٨
- لن يتم اعتماد التقنية المناسبة ما لم نعط الأولوية للإحساس بالكرامة ونشر العدالة على الإحسان بالمتنة والرفاهية والمظهرية	٣٢٥
- إن عادات الاستهلاك السيئ تنتشر كما ينتشر الوباء الفتاك، على حين أن العلم والخبرة والحكمة تحتاج إلى تعلم بطيء	٣٢٧
- الخلل الكبير الذي يحتاج حياة المسلمين سببه الرئيس أخذهم بعض الكتاب، وأعراضهم عن بعضه الآخر	٣٣٠
- إن التقدم الاقتصادي كثيراً ما يتوقف على إحراز نوع من التقدم السياسي والاتساع الاجتماعي	٣٣٣
- كانت الزراعة في يوم من الأيام كل شيء؛ وقد صار الاشتغال الزائد بها مؤشرًا على التخلف	٣٣٥
- إن الناس يزيدون، لكن الأرض لا تزيد، ومن ثم فإن تأمين الغذاء من الآن فصاعدًا سيعتمد على التقدم العلمي	٣٣٦
- صار مركز حب الأشياء اليوم العقل لا القلب!	٣٣٧
- الاقتصاد هو ما تبقى من السياسة اليوم	٣٤١
- المحك النهائي للتعاون والتناصر اليوم هو محك اقتصادي قبل كل شيء	٣٤١
- قد بات من المؤكد اليوم أن الدول الصغرى لا تستطيع أن تهيمن على شؤونها الخاصة، حيث هامش المتأورة أمامها محدود دائمًا	٣٤٢
- الحسابات الفنية لا تعطى أهمية كبرى في مجال المبادئ، وإنما يجري التحايل عليها، وغض النظر عنها	٣٤٣
- هناك إمكانات هائلة للتعاون بين المسلمين، بشرط أن ننظر إلى القضية على أنها قضية مبدأ ومصير في آن واحد	٣٤٤
- إن أسرار التقنية عند مستوياتها العليا لا تباع ولا تشرى، وعلى كل دولة أن تخوض غمار التجربة بنفسها	٣٤٥

٣ - فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٦	مقدمة
٧	الفصل الأول في التنمية المتكاملة
٩	أهمية التنمية المتكاملة
١٠	أسباب الاهتمام بالتنمية المتكاملة
١١	١ - ارتفاع نسبة الزيادة السكانية
١٢	٢ - وجود مشكلات تتعلق بمصادر الغذاء والمياه
١٣	٣ - بطالة مرتفعة نسبياً
١٤	٤ - التبعية الثقافية والاقتصادية
١٥	٥ - الهوة المتعددة بيننا وبين الغرب
١٧	٦ - افتتان الوعي المسلم بفنون التقدم الصناعي
١٩	٧ - ارتفاع تكاليف الحد الأدنى من العيش الكريم
٢١	٨ - حاجتنا إلى المال من أجل نشر الدعوة
٢٢	لا بديل عن التكامل في التنمية
٢٤	١ - ما بين التنمية الشاملة والتنمية المتكاملة
٢٧	٢ - إذا أغنينا الحياة المعمتورية خفّ الطلب على المال
٣٠	٣ - التفاوت الكبير في الدخل يلحق أضراراً بالحياة العامة
٣١	٤ - ضرورة تدعيم الذاتي عند ضعف الموضوعي
٣٣	٥ - يستسلم العقل حين تضعف الأخلاق
٣٤	٦ - لا ولادة للأمة على نفسها في ظروف متدهورة
٣٥	٧ - انعكاسات الظروف المعيشية القاسية أسوأ مما نعتقد
٤٠	٨ - الوساطة بين المبدأ والواقع
٤٢	٩ - يتمدد النسق الثقافي عند ضمور الأساق الأخرى
٤٥	الفصل الثاني في التنمية الفكرية
٤٧	حول العقل والفكر والثقافة

٥٢	مبادئ في التفكير القويم
٥٢	١ - المقل الإسلامي معياري التكوين
٥٤	٢ - تغير الحالة الراهنة يحتاج إلى وقت طويل
٥٥	٣ - التقدم الشامل يحتاج إلى رؤية شاملة
٥٨	٤ - دقة الرأي نابعة من دقة العمليات المؤدية إليه
٥٩	٥ - الانشداد إلى الأصول يحمينا من الانحراف
٦١	٦ - الاستمرار في النقد شرط للبقاء في الطريق الصحيح
٦٢	٧ - سوء الفهم ليس حادثاً غريباً
٦٣	٨ - تفكير السابقين أقرب إلى البساطة والقطعية
٦٤	٩ - المستحيل درجات عديدة
٦٥	١٠ - التفكير بالمستقبل قضية مصريرة
٦٥	١١ - الفكاك من النمطية شرط للتجديد
٦٧	١٢ - المرونة الفكرية شرط كفاءة التفكير في زمان معقد
٧٤	١٣ - سيظل الزمام الموضوعية أمراً نسبياً
٧٨	تقنيات في تنمية التفكير
٧٨	١ - تنمية الإبداع
٨٣	٢ - التفكير الجيد مهارة يصونها التدريب
٨٧	٣ - تحسين التفكير عن طريق القبعات الست
٩٣	انحرافات عن التفكير المنهجي
٩٤	١ - الانتقال من موضوع إلى آخر لأدنى علاقة تربط بينهما
٩٥	٢ - المعرفة القاصرة تعطل الإمكانيات الذهنية الجيدة
٩٦	٣ - النظرة التجزئية
١٠٠	٤ - ليس الإنسان ضئيلاً لكنه كسل إلى حد مقيت
١٠٣	٥ - المهارة اللغوية ليست ميزة في كل الأحوال
١٠٥	٦ - المنطق التقليدي قليل الجدوى في حل المشكلات المعاصرة
١٠٩	٧ - انقسام الصفة أعقق التقدم الفكري
١١٠	٨ - الطريقة التي ترى بها المشكلة هي المشكلة
١١٣	الفصل الثالث في التنمية المعرفية
١١٥	تنمية المعرفة ضرورة حيوية
١٢٠	آية معرفة تبني؟
١٢١	١ - معرفة مشدودة إلى الأصول

١٢٢	٢ - معرفة منصفة ومتوازنة
١٢٤	٣ - معرفة تجريبية
١٢٦	٤ - معرفة متتجدة
١٢٧	٥ - معرفة لا يختلط فيها الظن باليقين
١٢٩	٦ - معرفة موسوعية عبر التخصص
١٣٥	٧ - معرفة مستقبلية
١٣٩	كيف تبني المعرفة ؟
١٣٩	١ - تأسيس علم الجهل
١٤٠	٢ - جهود جماعية لتوفير الكتاب
١٤٢	٣ - الجامعات المفترحة والدارارات (التلفازية)
١٤٢	٤ - تقريب المعرفة سبيلاً للوحدة الثقافية
١٤٦	عقبات في طريق تنمية المعرفة
١٤٦	١ - خمود جذوة الشوق إلى المعرفة
١٤٩	٢ - غلائية ما ينشر وما يقرأ مشكلة أخرى
١٥١	٣ - التخلف يعطيك أجوبة، ويحررك من التساؤل
١٥٣	٤ - سحب الثقة من العلم
١٥٥	الفصل الرابع في تنمية الشخصية
١٥٧	الشخصية وأهمية تنميتها
١٦١	شروط أساسية لتنمية الشخصية
١٦١	١ - وجود هدف أعلى
١٦٢	٢ - وجود قناعة بضرورة التغيير
١٦٣	٣ - قبول الذات
١٦٤	٤ - الشعور بالمسؤولية
١٦٤	٥ - الإدارة الصلبة
١٦٥	٦ - شيء من التحدي
١٦٧	مبادئ وأدليات في تنمية الشخصية
١٦٨	- تنمية الشخصية على الصعيد الخاص
١٦٨	١ - لا بدile عن التمحور حول مبدأ
١٦٩	٢ - ركز اهتمامك في دائرة تأثيرك
١٧١	٣ - الفجوة الكبيرة بين الطموح والإنجاز مصدر شقاء
١٧٢	٤ - حافظ على الصورة الكلية مهما يكون العمل الذي تقوم به مهماً

١٧٣	٥ - اقطع على نفسك عهوداً صغيرة، وحاول الالتزام بها
١٧٤	٦ - إهمال النافع يحوله إلى شيء مهم
١٧٥	٧ - أعمل ما هو ممكن الآن، ولا تنتظر تحسن الظروف
١٧٦	٨ - العمل نعمة وليس مجموعة مشاق
١٧٩	٩ - لنحاول مراجعة معايير التجاج
١٨٠	١٠ - احرص على كتابة بيان المهام الشخصية
١٨٢	١١ - ليس الترفية أمراً ثانوياً
١٨٣	١٢ - لتنتوذ تأجيل الرغبات
١٨٣	١٣ - لا تكون شخصاً عادياً
١٨٥	١٤ - التدين مصدر هناء
١٨٦	١٥ - كن فعالاً
١٩٠	- تنمية الشخصية على صعيد العلاقات مع الآخرين
١٩٠	١ - علينا أن نحسن أنفسنا أولاً
١٩١	٢ - النضج والتكافؤ أساس العلاقات الاعتمادية
١٩٢	٣ - أرسل إشارات غير لفظية لآخوانك
١٩٢	٤ - لا بد من أخذ تركيز بيننا وبينه مسافة قصيرة
١٩٣	٥ - شيء من العزلة ضروري لتجديد الشخصية
١٩٤	٦ - كل منا بحاجة إلى الاعتراف والتقدير
١٩٥	٧ - كن على حذر إذا أقمت علاقة مع من يحمل نفسية العبد
١٩٦	٨ - ليست المشاعر حتميات يجب أن تخضع لها
١٩٦	٩ - أقل نفسك للعمل ضمن فريق
١٩٧	١٠ - لا تعامل الناس على أساس الماضي
١٩٨	١١ - أعقل الناس أعدتهم للناس
٢٠١	الفصل الخامس في التنمية الأخلاقية
٢٠٣	أهمية التنمية الروحية والخلقية
٢٠٨	حال الأخلاق اليوم
٢٠٨	- تحول الإطار المرجعي لدى الغرب من الوحي إلى العقل
٢٠٩	- إهمال الأديبيات العلمانية للشأن الخلقي
٢١٠	- ضعف الإحسان بالواجب
٢١٢	ما العمل؟
٢١٤	١ - الأخلاق الفاضلة تنهش ما لم توظف

٢١٥	٢ - الإلقاء الحضاري يحتاج إلى فعالية روحية خاصة
٢١٧	٣ - اللاقعية شرط لتحسين الأخلاق
٢١٩	٤ - نحو أخلاق تستهدف الأزمة
٢٢٠	٥ - علينا أن نبني خطوطاً أخلاقية للمحولة دون الاحتراق الداخلي
٢٢٤	٦ - يجب إتاحة الفرصة لتدعم الواقع الداخلي
٢٢٧	٧ - نحو أخلاق جميلة
٢٢٩	٨ - لا حدود لفضل الإرادة الخيرة
٢٣٠	٩ - أخلاقية الشعور بالواجب
٢٣٥	١٠ - انتصار الروح
٢٣٩	الفصل السادس في التنمية الاجتماعية
٢٤١	١ - مدخل إلى التنمية الاجتماعية
٢٤٢	١ - جوهر المجتمع
٢٤٢	٢ - وظيفة العقيدة في المجتمع
٢٤٣	٣ - علم الاجتماع والسير في طريق الاتكتمال
٢٤٤	٤ - مهمة الفكر في بناء المجتمع
٢٤٥	٥ - حاجة الفرد إلى العيش في مجتمع
٢٤٥	٦ - دعم العلاقات الاجتماعية هدف رئيس للتنمية الاجتماعية
٢٤٨	مبادئ وشروط في تنمية المجتمع
٢٤٨	١ - الاستقامة شرط لوجود الفائض الاجتماعي
٢٤٩	٢ - يستمد العامل الإصلاحي قوته من الظروف المحيطة به
٢٥١	٣ - عند انتشار الظلم لا يبقى شيء مقدس
٢٥٢	٤ - التوازن الاجتماعي رهن بالتبادل
٢٥٣	٥ - تحط النخبة حين تتخلى عن واجباتها تجاه المجتمع
٢٥٥	٦ - لتعلم من عالم (الحشرات) شيئاً من التضحيه
٢٥٦	٧ - وضوح أهداف المجتمع شرط لحفظه
٢٥٧	٨ - الأسر المحطممة تفسد الخلق
٢٥٨	٩ - حاجة المجتمع إلى الإجماع حيوية
٢٥٩	١٠ - ليس انخفاض الكفاءة الاجتماعية داء لا دواء له
٢٦٢	سمات المجتمع الإسلامي المنشود
٢٦٢	١ - الالتزام بالمنهج الرباني
٢٦٤	٢ - العقيدة والمفاهيم والعواطف تشكل أرضية المجتمع الإسلامي

٣ - الانضباط والدقة فيصل ما بين التمدن والتلوّح	٢٦٥
٤ - مجتمع التراحم والإحساس المشترك	٢٦٧
٥ - مجتمع الحماية والكافية	٢٦٨
٦ - مجتمع حدود المباح والممنوع فيه واضحة	٢٦٩
٧ - مجتمع يحل مشكلاته عن طريق التفاهم	٢٧١
٨ - مجتمع يشارك في بناء الجميع	٢٧٢
أساليب ووسائل في تنمية المجتمع	٢٧٥
١ - مسح القيادات المحلية لمشاكل مجتمعهم	٢٧٥
٢ - تغير نظرة الناس للعمل اليدوي	٢٧٦
٣ - الاتجاه نحو (اللامركزية)	٢٧٨
٤ - توفير أطر محلية لتنمية الحياة الاجتماعية	٢٧٨
٥ - إشاعة روح التعاون الشعبي	٢٧٩
٦ - إحياء الوقف الإسلامي	٢٨٠
الفصل السابع في التنمية الاقتصادية	٢٨٣
وطة	٢٨٥
الظروف الاقتصادية العالمية الحاضرة	٢٨٦
تعريف التنمية الاقتصادية	٢٨٨
أسس ومحركات في التنمية الاقتصادية	٢٩١
١ - معالم المذهبية الإسلامية في تنمية الاقتصاد	٢٩٣
٢ - التنمية قرارات كبرى	٢٩٦
٣ - تنمية التفوق أم تنمية البقاء	٢٩٧
٤ - تنمية من أجل الأشد بؤساً	٢٩٨
٥ - الندرة أكبر تحدي في وجه التنمية	٣٠١
٦ - التنمية التي تتجاهل البيئة ليست بتنمية	٣٠٣
تدابير لحماية البيئة	٣٠٦
٧ - التحرر من التبعية هدف التنمية الجيدة	٣٠٨
طرق وخبرات في التنمية الاقتصادية	٣١٢
١ - الاعتماد على الذات	٣١٣
٢ - التصنيع عصب التنمية الحديثة	٣١٨
ما التقنية التي تناسبنا؟	٣١٩
سمات التقنية المناسبة	٣٢٠

٣٢٥	٣ - الحد من الهدر والاستهلاك
٣٢٧	تدابير للحد من الاستهلاك
٣٣٠	٤ - الادخار من أجل الاستثمار
٣٣٥	٥ - الزراعة ومستقبل المستضعفين
٣٤١	٦ - مكان للصغار في عصر الكبار
٣٤٣	إمكانات للتعاون بين المسلمين
٣٤٧	خاتمة
٣٤٩	الفهرس
٣٥١	١ - جريدة المراجع
٣٥٧	٢ - فهرس الأنكار
٣٦٩	٣ - فهرس الموضوعات

آثار المؤلف

- ١ - الأصوات واللهجات في قراءة الكسائي (دكتراه)
- ٢ - أصول توجيه القراءات ومذاهب النحويين فيها
- ٣ - القواعد والإشارات إلى أصول القراءات (تحقيق)
- ٤ - رد الانتقاد على الشافعي في اللغة (تحقيق)
- ٥ - أثر القراءات السبع في تطور التفكير اللغوي
- ٦ - المهدوي ومنهجه في كتابه الموضع
- ٧ - الصفة من القواعد الإعرابية
- ٨ - ابن عباس مؤسس علوم العربية
- ٩ - فضول في التفكير الموضوعي
- ١٠ - نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي
- ١١ - من أجل انطلاقة حضارية شاملة
- ١٢ - مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي
- ١٣ - في إشراقة آية

مخطوط
مخطوط
دمشق - دار القلم (نقد)
بريدة - دار البخاري
دمشق - دار القلم (نقد)
دمشق - دار القلم
دمشق - دار القلم
جدة - مكتبة السوادي (نقد)
دمشق - دار القلم (طبعة ثانية)
دمشق - دار القلم
دمشق - دار القلم
دمشق - دار القلم
أبها - دار هجر